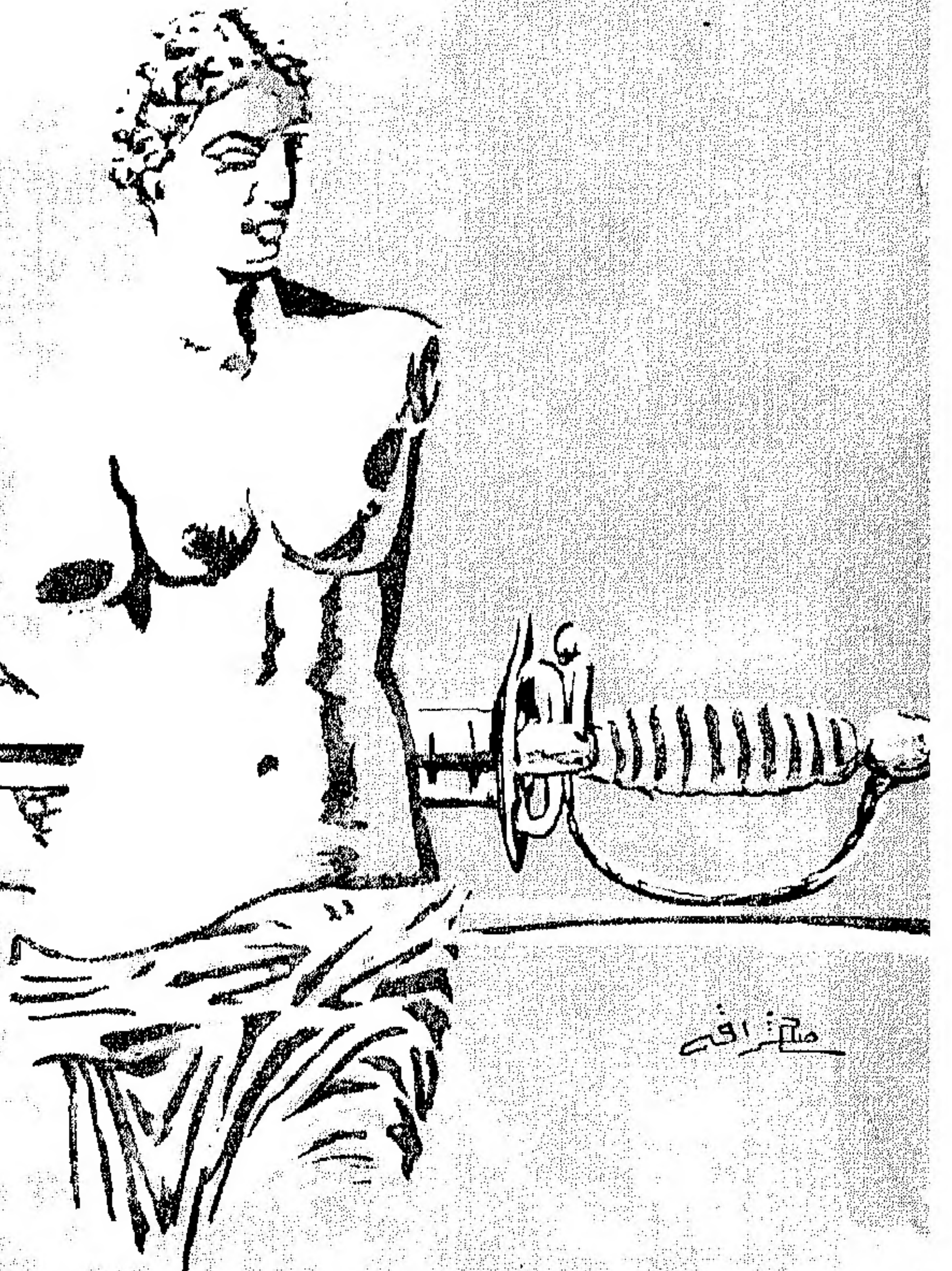


تاريخ العالم الغربي

تأليف : ل . ج . شيني

ترجمة : مجد الدين حفني ناصف

مراجعة : علي أدهم



اهداءات ٢٠٠٣

الأستاذ/ يسري محمد فرج

الإسكندرية

الألف كتاب ٥٤٦

تاريخ العالم الغربى

باشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٥٤٦

تاريخ العالم الغربي

تأليف
ل. ج. شيني

ترجمة
مجد الدين حفني ناصف

مراجعة
علي أدهم

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

هذه ترجمة كتاب : .

A History of the Western World .

تأليف

L. J . Cheney.

مقدمة

ورد فى إحدى القصص الشرقية القديمة أن ملكاً شاباً تملكته ، فجأة ، الرغبة الملحة فى استقصاء أخبار الماضى . فأرسل فى طلب علمائه وأمرهم أن يكتبوا تاريخ الماضى جميعاً . وبعد سنوات عدة تذكر أمره وأرسل فى طلب العلماء وسألهم عن مدى تقدمهم فى العمل . فأخبروه ـ مسرورين ـ بأنهم قد أنجزوه ، منذ فترة وجيزة ، فى ستين مجلداً . فشكرهم على كدهم وأشار إلى لمته الشيباء ورجاهم أن يضغطوه فى ثلاث مجلدات ؛ وفى هذا سلخوا عشر سنوات أخرى . ولم يكن لدى الملك وقت ولا قوة تعينانه على قراءتها فأمرهم بأن يضغطوها جميعاً فى مجلد واحد . فأكبوا على هذا العمل فى جهد لا يصدق وأتوا بالكتاب ، فى الوقت الملائم ، إلى الحضرة الملكية . ولكن الملك عندئذ كان قد أمسى شيخاً واهناً وكاد بصره يعشى . فقال لكبير العلماء : « قل لى — أنت يا من قضيت عمرك طراً فى هذا العمل المضنى — لخص لى فى جملة واحدة كل ما وعيت من أخبار الماضى » . فكان جواب الشيخ للملك الشيخ : « عشت سرمداً أيها الملك ، أسألك الرحمة ، فليس عمل هذا فى مقدورى » . غير أن الملك أصر . فقال العالم وقد قوست ظهره السنون : « تعلمت أن أجيالا كثيرة من الناس ولدوا وكدوا وأحبوا وتألموا وماتوا » . وهنا غضب الملك ، وكان محقاً فى ذلك ، إذ كان فى وسعه أن يقول ذلك دون عناء . وأسلم العالم إلى الجلاد العام ثم رثى لقصر حياة الإنسان وطول التاريخ .

وكلنا ، فى شبابنا ، فى مركز يشبه مركز هذا الملك . ولكن من حسن حظنا أن مئآت من العلماء قد كدوا طوال القرون لنتعلم ونسعد . وبذا يتسنى لنا ، ونحن ما نزال فى شبابنا ، أن نشبع منا حب الاستطلاع .

وإنما فى شبابنا يجب أن نعرف كيف «يتسق» الماضى جميعاً وأن نعرفه على أنه قصة واحدة طويلة تفضى إلى الحياة الخاصة لكل منا .

وهكذا الكتاب حكاية عن أناس وأزمنة وأمكنة ، حكاية ما أتاه الناس ومتى وأين . ومن الجائز بطبيعة الحال (بعد كد مُضْنٍ) كتابته فى ستين مجلداً ، إذ أنه لا يعدو أن يكون قطعة من حكاية كاملة . ولو فرضنا إمكان قول كلّ ما يمكن قوله فإن الجزء الأكبر الذى لا نعرفه ولن نعرفه سيظل مع ذلك مجهولا .

وإذا شاءت الصدفة أن تكون أميراً (وهذا أمر بعيد الاحتمال) فقد تجد سجلا ما لأسلافك يوصلك إلى بعض مَن تقدّم منهم . ولكن إذا شاءت الصدفة أن تكون شخصية عادية فلن تجد مثل ذلك السجل . ومع هذا فإن أسلافك قد عاشوا كلّ الأزمنة الماضية .

وإذا قدّرت خمسة وعشرين عاماً لكلّ جيل فإن سلسلة طويلة من أسلافك تقودك إلى الإمبراطورية الرومانية . ولقد حوّر هؤلاء الأسلاف ، على صورة ما لغتهم من الأنجلوساكسونية أو الرومانية السلتية(١) أو الدنماركية إلى اللغة الإنجليزية التى تتكلمها اليوم . وهم غيروا عاداتهم ودينهم وأساليب معيشتهم كما غيروا لغتهم . ولقد أسهمتْ أسرتك فى صنع الحاضر من الماضى كما تسهم أنت الآن فى تشكيل المستقبل بما تصنعه فى الحاضر .

ولننتقل الآن إلى حكايتنا التى لا تحوى بطلا واحداً وحسب بل تخصّ بالأبطال ، حكايتك التى لا أول لها بسبب ضياع السجلات ، والتى لا آخر لها لأننا ما نزال جزءاً منها ، وهى تخص كلّ الرجل والنساء والبنين والبنات .

---

(١) Celtie نسبة الى السلتيين سكان غرب أوربا الأقدمين .

محتويات الكتاب

وراء رأس الرجاء الصالح — جزائر الغروب وإمبراطوريات عجيبة — توسع المعمورة — طرق الملاحة .

(٤) إعادة كشف العلوم القديمة :

ثلاث مدنيات — بدء التنقيب — عصر النهضة — الطباعة — الأرض والسماء .

(٥) ممالك الغرب العظمى ودنيا أمريكا الجديدة :

الأمارات والدول — مذاهب كنسية متعددة بدلا عن مذهب واحد — Bluff King Hal — أناجيل للحراثين — مائة السنة الأسبانية — مارى ملكة الاسكتلنديين — الهولانديون — رواد البحر الإنجليز ودريك — أسطول الأرمادا الأسبانى — إنجلترا فى عهد إليزابيث — قرن جديد — المقارنة : بريطانيا — المقارنة : فرنسا — الاتجاه صوب الغرب — السلطان أو القيصر — بريطانيا تعادى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر من ١٦٨٩ إلى ١٧٤٨ — حرب السنوات السبع — الإنسان والكون — الثورة الأمريكية — ثروة الأمم .

(٦) الثورة الفرنسية :

الثورة — نابليون والبحرية البريطانية — نابليون وأسبانيا وروسيا .

(٧) كثير من الاختراعات والعلوم الجديدة :

عالم اليوم — ثلاث مغامرات — مغامرة السياسة : الممالك والجمهوريون — السياسة : الحرية — السياسة : أم البرلمانات — الاختراع : المهندسون — الاختراع : الطرق والقنوات — الاختراع : الفحم والحديد وقوة البخار — الاختراع : المكسب والخسارة — السياسة : عام ١٨٤٨ فى أوربا —

السياسة : إيطاليا وألمانيا — السياسة : روسيا والثورة — التوسع — التوسع : قصة الإمبراطورية والسلم البريطانى — التوسع : المستعمرات البريطانية المستقلة — التوسع : الولايات الأمريكية المتحدة — التوسع : الهند — التوسع : الشرق الأقصى — التوسع : إفريقيا — الأمم فى جهادها (أوفى قيودها أو أصفادها) من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ — انهيار إمبراطوريات — إحدى وعشرون سنة بين حربين من ١٩١٨ إلى ١٩٣٩ — الأمم فى جهادها من ١٨٣٩ إلى ١٩٤٥ — اختراعات لا آخر لها وأناس كرمال البحر — انتقال الحاضر إلى المستقبل .

(٨) ختـــام :

أنباء العالم — أنباء من لا مكان — المـاضى الحى .

مصورات جغرافية

تمهيد

تاريخ أربعين قرناً

إليك بياناً واضحاً جلياً عن تاريخ أربعين قرناً إنه سجل – لمغامرات واختراعات وتوسعات إقليمية – يأخذ بالألباب .

وإن ل . ج . وِشنى ليُشارف جميعَ ميادين المدنية الغربية : فى السياسة والفن وأساليب الحكم والعلوم والفلسفة والدين وهو يتقصّى مسببات الحروب ونتائجها ويحلل طبائع الأمم والرجال الذين شكلوا المدنية الغربية والبواعث التى حفزتهم إلى ذلك ، أولئك الذين نقلوا تلك المدنية إلى قارّات أخرى وإلى جزرٍ نائية فى البحار .

على أن هذا السرد الأخاذ البهيج . الحقيقى مع ذلك ، يظهرنا على تفاصيل دقيقة ، لمشاهد الماضى وأصواته التى قرّبتْها إلينا عدسات العلم والبحث الحديثة .

الباب الأول

حول البحر الكبير أو شعوب العصور الخالية

قبل الميلاد وبعد الميلاد :

تبدأ قصة مدينتنا فى البقاع التى تحيط بـ « البحر الكبير » . ونحن نطلق عليه اسم « البحر الأبيض المتوسط » ومعناه : البحر الذى يتوسط الدنيا ، إذ هكذا لاح فى وقت ما للرجال والنساء الذين عاشوا حوله . ولقد كانوا يخضعون جميعاً لسلطان حاكم موحد هو القيصر الرومانى أو الإمبراطور الذى فتحت كتائب جنده أمصارهم والذى كان يجبى خراجهم .

كانت تلك هى الإمبراطورية العظيمة الذائعة الصيت التى فيها عاش عيسى وحواريوه والتى كان بولس الرسول أحد مواطنيها . وقد امتدت شرقاً إلى نهر الفرات وغرباً إلى المحيط الأطلنطى وشمالاً إلى نهر الراين والدانوب وجنوباً إلى الصحراء الكبرى .

ولقد كان التاجر فى تلك الأيام ، فى حل من أن يقطع الطريق كلها من بابل إلى يورك ، تحت سلطان حاكم واحد ، متنقلا من (خانٍ) إلى خان ومن مدينةٍ إلى مدينـة على الطرق العامة المستقيمة المديدة الممهدة التى شقها مهندسوا الرومان . ولربما كان الحارس ، الذى أطل من مرقبه فوق الرمال على الصحراء الكبرى ، من مواليد قرية من قرى الدانوب ، وربما كان الرجل الذى خفر معسكراً على الفرات ربيب أسبانيا ، وقد احترف يهود من فلسطين التجارة فى أرض الراين ، كما أن تجاراً من بلاد الإغريق قد أقاموا متاجرهم إلى جوار نهر التاين .

ولا عجب إذا كان الرومان قد أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم « ماري نوسترام » أي « بحرنا » . ذلك أن سفنهم كانت تمخر مياهه الهادئة وعليها البضائع ، التي أغنت حياة المئآت من مدنهم ، كالنحاس الأحمر من أسبانيا وزيت الزيتون والحبوب من شمال إفريقيا والعاج والبردى والغلال من مصر والخمور والخزف من اليونان والجلود والأخشاب من فرنسا والرقيق من كل مكان .

ولقد وردت فى إنجيل لوقا العبارة الآتية(١) « وفى تلك الأيام صدر أمر أوغسطس قيصر بأن يُكتتَب(٢) كلُ المسكونة. وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سورية فذهب الجميع ليكتتبوا ، كل واحد إلى مدينته » .

ويستطرد لوقا فيقص كيف أن (يوسف النجار) ومريم جاءا إلى بيت لحم فى اليهودية بناء على هذا الأمر (العالى) وكيف ولد يسوع المسيح فى بيت لحم بزريبة (خان) .

وفى زريبة ذلك الخان فى ذاك اليوم يبدأ تأريخنا .

تبدأ تواريخنا وتجرى فى اتجاهين: عكسى وطردى . فالعكسى أو ق.م. (أى قبل ميلاد المسيح) يتراجع إلى الماضى المظلم الغامض حتى بدء الخليقة . والطردى أو م. (أى ميلادية ، يعنى سنة كذا من الميلاد) تمتد إلى يومنا هذا.

ولقد حكم أوغسطس قيصر ـ أول أباطرة الرومان ـ من سنة ٢٨ ق م إلى ١٤م . وهذا مالم يعرفه هو لأنه كان يؤرخ لأعوامه من سنة ٧٥٣ ق.م. التى شيدت فيها روما . وبعملية حسابية بسيطة يتضح أن أوغسطس كان يؤرخ لأولى سنى حكمه بـ ٧٢٦ ولآخر سنة فى حكمه بـ ٧٦٧ . وبعملية

(١) الإصحاح الثانى
(٢) يكتتب هنا معناها : يدفع ضريبة

حسابية بسيطة أخرى تكون سنة ١٩٥٨ م. — فى تأريخنا هى، حسب طريقة تأريخه هو : سنة ٢٧١١ من تشييد مدينة روما .

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية بداية قصتنا عن أوربا الغربية ، كما كانت أيضاً نهاية لقصة تزيد كثيراً فى الطول — على عديد من قدامى الشعوب — كالمصريين والبابليين والآشوريين والفرس والقرطاجنيين واليونانيين والفترة التى خلت ، منذ عهد أوغسطس قيصر وولادة المسيح إلى اليوم ، ليست سوى عشرين قرناً ! وفى وسعنا بالمقابلة ، أن نتلمس فى غسق ماقبل الميلاد وظلمته الموغلين — تاريخ مالا يقل عن أربعين قرناً من الأجيال المتمدنة ، ونعنى بهم أولئك الذين وسعهم أن يستخدموا المعادن ويشيدوا المبانى ويسكنوا المدن ويخلفوا وراءهم سجل حياتهم على صورة ما .

وسنعود فى السياق إلى الرومانيين الذين التقت فى إمبراطوريتهم نواحى المعرفة والفن التى نشأت مع المدنيات الخالية. غير أن هدفنا المباشر هو تلك المدنيات وما يعرف بأنه الأربعون قرناً من التاريخ التى حوته . وسوف نعرض لعلماء العاديات (الآثار القديمة) الذين كشفوا فى مهارة - بحفائرهم بين خرائب المدن العتيقة — عن كثير من نواحى التاريخ القديم المهمل .

قبل استعمال الحديد

ترجع أقدم سجلات الناس إلى آلاف . ؤلفة من السنين إلا أنها سجلات غير مكتوبة . وإنا لنجد الأسلحة والأدوات الحجرية مبعثرة فى أنحاء العالم كافة . ونجد البلط البدائية والمكاشط والمثاقب وسنان السهام التى صنعها الإنسان قبل أن يتوصل إلى صهر النحاس الأحمر والصفيح والحديد بعد فصلها عن الصخور وإلى صنع أدوات منها . ونجد شقفاً من الخزف ومن عظام الإنسان والحيوان أما ما استخدمه الأولون — إلى هذا — من الأخشاب والألياف والقش والبوص والجلود والقصب فقد أصابه البلى

والعفاء كما أتى على ملابسهم المصنوعة من الصوف المغزول . وتجد « قشاشة مطابخهم » من عظام الحيوان والأصداف والرماد الباقية إلى جوار مغاورهم وأكواخهم المقامة من الطين وحفرهم السكنية التى احتفروها فى الأرض . ومن أولئك المجهولين الأولين ، من قناصى الحيوان وصيادى السمك ، الفنانون المهرة . ففى الكهوف العميقة بجبال البرانس نقوش على الجدران رائعة تمثل القنص صنعها — بورى المشاعل — أناس من تلك العصور الحجرية السحيقة البائدة .

ولقد تعلمنا الكثير وخمنّا الكثير عن حياتهم مما نعرفه عن الهنود الحمر وعن زنوج إفريقا وسكان أستراليا الأصليين والماورى بزيلندة الجديدة (وهم سكانها الأصائل) وكانوا جميعا ما يزالون يعيشون فى العصر الحجرى عندما جاءهم البيض أول ماجاءوا . ولدينا ، عنهم ، كتب كثيرة ألّفها رحالة ومبشرون دينيون عاشوا بينهم وتعلموا لغاتهم وكتبوها .

وقد توسع فى القيام بهذا النشاط ، حقاً ، العلماء المسيحيون التابعون لجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية .

ولم يكن رجال العصر الحجرى ونساؤه يتصفون بالغباء أو عدم الإتقان بل على العكس، رأينا كثيراً منهم يتعلمون أشياء جديدة غريبة فى سرعة بالغة . وقد استطاع هنود أمريكا الحمر فى أقصر وقت أن يركبوا ويسوسوا الخيل التى أتى بها البيض إلى الدنيا الجديدة . وقد أصبح بعض زنوج الزولو — الذين كان آباؤهم من محاربى العصر الحجرى — دكاترة فى الطب والقانون والعلوم، وأعطى الملاحون الأنجليز — الذين هبطوا زيلندة الجديدة فى السنوات الباكرة من القرن الماضى ليقطعوا شجر الكاورى(١)

---

(١) الكاورى شجر من الفصيلة الصنوبرية .

كى يصنعوا منه ساريات الشراع والقوائم — أعطى هؤلاء الملاحون الإنجليز بلطهم الحديدية إلى الماورى لقاء الطازج من الطعام . ثم رأوا الماورى يشتغلون ويستخدمون ، فى ارتياح تام ، تلك البلط الحديدية بدلاً من بلطهم العتيقة المصنوعة من الحجر الأخضر(١) وإن كثيراً من صناعات العصر الحجرى لتمتاز بجمال الصقل .

تصور نفسك فى مكان امرئ العصر الحجرى ! لا ملابس لائقة ولا أدوات حديدية ولا بيوت بالمعنى المألوف ولاطرق ولا كتب ولا مصابيح بالمعنى المفهوم ولاشىء من وسائل الراحة : لا شىء غير كوخ أو حفرة فى الأرض أو كهف وبعض الأعواد والحجارة والعظام والجلود والصلصال . لامعلومات حقة وإنما فيض من الخوف والفزع من الأرواح الشريرة . لقد بدأ الإنسان بلا شىء وكان عليه أن يكشف كل شىء ثم يلقن بنيه كل ما يعرف . وإننا — عندما نفكر فى كل ما كشفه الإنسان فى العصر الحجرى — لينبغى لنا أن نسلم بأنهم كانوا بارعين وواسعى الحيلة إلى أبعد الحدود . ومهما يكن فإن بعضهم كانوا أسلافنا !

لقد استبانوا فوائد أنواع النبات والحيوان والمعدن وبدءوا حرفة الزراعة وألفوا بعض الحيوان والطير ، وصنعوا أوانى الفخار البدائية واخترعوا السلالة والنسج والضفر والعقد (الحبك) وتسقيف المساكن بالقش أو الغاب ، وصنعوا فحم الخشب (الفحم البلدى) ، كما صنعوا السفن الأولى ؛ وجدلوا الألياف حبالاً ولبسوا الجلد المدبوغ وخاطوا جلود الحيوان بعضها إلى بعض بإبر من العظام ، واحتفروا المناجم بحثاً عن الحجر الصوانى وعرفوا كيف يصنعون منه الأدوات بالدق والشحذ . ولا مشاحة فى أن بعض مصنوعاتهم كانت دقيقة بشكل مذهل ، ومن ذلك

---

(١) الحجر الأخضر من الصخور النارية .

البوميرانج(١) الذى يستعمله سكان أستراليا السود ، وقارب الأسكيمو الجلدى الخفيف الذى يتسع لحمل عدد كبير من الركاب والذى يقوى على الإبحار فى المحيط الهائج ، وكالقوارب ذوات الأجنحة الخارجية التى كان يستخدمها سكان جزائر بحر الجنوب . وإن المهارة الفائقة لتبدو لنا بوجه أخص فى الحائط الحجرى الجبار والطرق العظيمة التى شيدها الأنكاس فى بيرو من دون استعمال الأدوات الحديدية

ونحن فى حل من الجزم بأنه كان من بين هؤلاء ، أناس برعوا فى قص أقاصيص عن الصيد أو الحرب ، أناس رووا حكايات قديمة عن زعماء أقوياء ومحاربين شجعان وعن أرواح الأشجار والأنهار وعن الأصوات التى كانت تعوى بين الرياح .

ولقد تعلمت القبائل التى كانت تصغى إلى أولئك القصاصين ، كيف ترقص وتبتهج بالغناء والترتيل على أنغام موسيقية غريبة عن آذاننا ولكنها غنية بالإيقاع ، إنها أصوات طبل من الجلد وقصب من الغاب وألواح مصلة .

ولقد وضعوا — هم أنفسهم — نهاية العصر الحجرى وذلك بعد أن تقدموا الخطوات الأولى — والأكثر صعوبة بناء على ذلك — صوب المدنية . لقد كشفوا عن المعادن .

أولئك البارعون من الذين سكنوا الغاب وانتجعوا الأنهار ، فى فجر التاريخ ، هم الرواد الشجعان المجهولون لكل مالدينا من معرفة وقوة .

---

(١) البوميرانج قطعة معقوفة من الخشب إذا رميت رسمت دائرة فى الهواء وارتدت الى حيث رميت يتخذها سكان أستراليا الأصلاء اداة لصيد الطير .

العصر البرونزى

« المدنية » كلمة مشتقة من « المدينة » . والمدنية حياة الناس فى المدن والبلدان . ولكى يعيش الناس فى المدن ينبغى إن يكون لهم قواعد أوقوانين تنظمهم وشخص ما يحكمهم ، شخص يطمئن إلى أنهم يتضامنون ويساعد بعضهم البعض أو شخص يحفزهم على التضامن فى العمل . ينبغى لهم أن يتبادلوا السلع أو يشاركوا فى التجارة إذ لا يسعهم أن يعيشوا فى صعيد واحد من دون تجارة ، وهذا مالا يقدر عليه غير الفلاحين الذين يعيشون مع ذلك عيشة الكفاف . وعلى هذا فالمدنية لا تعنى فقط المعيشة فى المدن ولكنها تعنى كذلك : التجارة والقوانين والحكومة .

ولقد بدأ الناس ينشئون المدن فى الألف الرابع من أعوام ما قبل الميلاد ، وهذا تعبير موجز لقولنا : بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م . وبدءوا كذلك يسجلون أحداثهم كتابةً ، بطريقة غير طريقتنا .

وفى الوقت نفسه حول سنة ٣٠٠٠ ق. م — عرفوا كيف يصنعون البرونز وذلك بصهر النحاس الأحمر ومزجه بقليل من الصفيح المصهور ليزيده صلابة ، كما عرفوا كيف يستنبطون الذهب والفضة من باطن الأرض ويشكلونهما حلًى براقاً . لقد كان البرونز مادتهم الأساسية لصنع الأدوات والأسلحة ولكن الكثيرين استمروا — زمناً طويلا بعد ذلك بطبيعة الحال — يستخدمون أدوات وأسلحة من الحجر . وكانت الأدوات البرونزية الجديدة بين أيدى الصناع المهرة ، يعول عليها أكثر مما يعول على سابقاتها كما كانت أطول منها عمراً وسهلة الشحذ بل قابلة لأن تعاد صنعاً ، هذا عن أن العمل يتم بها فى وقت يقصر كثيراً ويؤدى على وجه أدق . وعلينا أن نتذكر أن البرونز أقل صلابة من الحديد وهذا يوضح السبب

فى أن السيوف البرونزية كانت أقصر وأغلظ من السيوف الحديدية. ولقد كان من دواعى الارتباك حقاً أن تلتوى فى غضون المعركة .

وحول ذلك الوقت نفسه اخترع العجلة عبقرى مجهول ، وساعد هذا على رفع الأثقال بها فى جهد يقل كثيراً عن رفعه بالمركبات الجليدية العتيقة. ثم بدأ استخدام المركبات ذوات العجلتين أو الأربع . وعندما دعت الحاجة إلى دروب معبدة أنشئت الطرق العامة البدائية الأولى . ولم تلبث العجلة أن استخدمت فى مرافق أخرى . فلقد استخدمها صانع الفخار فى تشكيل صلصاله وذلك برمى كومة منه على قرص يدور بينما يمسه هو بيديه فى اتجاه مضاد . وكذلك استخدم النجار العجلة فى صنع المخرطة غير المصقولة : أداة تستقر فى عجلة . وبإدارة تلك العجلة تدور الأداة . وكل ما على النجار عمله بعد ذلك هو أن يسند قطعة الخشب إلى الأداة فتشقها أو تقصها وتشذبها ، فأما المرء الذى كشف الشىء الأول أو اخترعه والمرء الذى كشف الشىء الثانى فسوف يظل شخصاهما ، بلا مراء ، خافيين أبد الآبدين.

والخلاصة أن العصر البرونزى بدأ فى آخر الألف الرابع من أعوام ما قبل الميلاد ، واستمر قرابة ثمانية عشر قرناً حتى كشف شخص ما طريقة استنباط الحديد من خامه وصنع السيوف الحديدية الطويلة التى هى أطول بكثير من السيوف البرونزية .

وكل هذه التواريخ تخمينات تقريبية («تقديرات» هى الكلمة المحترمة التى يستعملها العلماء) إذ أن معلوماتنا عن تلك الأحداث السحيقة وصلت إلينا بعد البحث فى أطلال الدنيا القديمة المشتتة فى مصر والشرق الأوسط .

ومع العصر البرونزى تدخل التاريخ شخصية هامة جداً وهى شخصية الحداد ، طارق المعدن المتقد والصانع الماهر الذى يشتغل بالنار والمصهر .

وهو — من بداية أمره — امرؤ غامض . لحرفته تظل فى طى الكتمان سراً يعتز به ويغار عليه ، سراً يكاد يدخل فى دائرة السحر . إنه يتيح للناس القوة بسيوفه الرقيقة ودروعه الصلبة . إنه يدق معدنه ويصيره إلى أشكال عديدة . إنه يحذى الخيل وقد يحذى كذلك الثيران التى يلزم لكل منها ثمانى حدوات ويوازيه فى المهارة الفنية زملاءه الذين يحترفون صياغة الذهب والفضة .

ولقد وجدوا فى إحدى المدائن الإغريقية القديمة زهرة من الذهب ترتكز على ساق من الفضة .

وكان أعظم تجار المعادن فينيقيو صور وصيدا (من مدن سوريا الآن) وإنا لنقرأ فى الكتاب المقدس كيف استخدم سليمان — ملك اليهود — حيرام ، وهو صانع برونز ماهر من مدينة صور ، ليحلى معبد بيت المقدس بحلىً برونزية : عمد ضخمة تزينها السلاسل الفنية ، زنبق ورمان وطاسات وطسوت وسباع وعجل مركبات ، سكت كلها من برونز .

ولقد وجد فى حفائر بفرنسا ، منذ وقت غير طويل ، زهرية كبيرة من البرونز يزينها تمثال لمركبة تجرها خيل يسوقها راكب . ويقدر كاشفوها أنها صنعت حول سنة ٢٥٠٠ ق . م .

وكان الإغريق يستعملون البرونز فى تزيين قصورهم : وفى أقدم قصيدة من شعرهم — وموضوعها جولات يوليسيز — وصف شائق لقصر ملك اسمه ألسيوناس . وكان لهذا القصر حوائط مغطاة بلوحات من البرونز تعلوها تربيعات زرقاء مطلية بالميناء وأبواب كاملة التذهيب ومعلقة بسواكف(١) مفضضة مثبتة على عتبات برونزية ! وهذا الوصف كأنه من قصص الجن .

---

(١) الساكف أعلى الباب المقابل للخشبة التى يوطأ عليها .

وإلى ذلك فقد وجدنا فى خرائب قصر إغريقى آخر ، بقايا برونزية من هذا النوع . وما من شك فى أنها — وقت جدتها وجلائها — كانت تعكس ومضات نيران الموقد الذى اعتاد الملك ورفاقه ، بعد العودة من الصيد ، أن يحيطوا به ليستمتعوا بالولائم وليصيخوا لأغانى العازفين على القيثار من أمثال هومر العازف الأعمى الذى نظم تلك الملحمة عن يوليسيز كما نظم ملحمة أخرى طويلة عن حصار ملوك الإغريق لطروادة الذى دام عشر سنوات

ويجمل ما فات:أولاً : العصر الحجرى الذى يرجع إلى عهد لا يعرف أحد مبتدأه . ثم العصر البرونزى الذى بدأ فى مكان ما حول ٣٠٠٠ ق . م . أما متى عاش هومر فلا علم لأحد به على وجه التحقيق . إلا أن حصار طروادة الذى تغنى به حدث حول ١٢٠٠ ق . م .

ولقد كان هذا الحصار أسطورة غير واضحة المعالم فى نظر الإغريق وقت بداية مسجلاتهم المكتوبة حول سنة ٨٠٠ ق . م . وعاش الملك سليمان وحكم اليهود حول سنة ٩٥٠ ق . م . وقد وسع الناس أن يكتبوا فى أيامه ، وقبلها بقرون ، بطبيعة الحال . غير أن مسجلات العصور الخالية — باستثناء الكتاب المقدس وكتابات الإغريق (التى باد معظمها) لم تعرف إلا منذ خمسين سنة .

وتلك السجلات المكتوبة : لفائف من البردى وجدت فى المقابر الملكية المصرية ، ولوحات من الصلصال وجدت فى حفائر مدن ما بين النهرين (العراق) . ومن هذه وتلك تعلمنا كثيراً عن شعوب وإمبراطوريات عتيقة .

علم العاديات (الآثار القديمة)

تعلم أسلافنا تاريخهم من الكتاب المقدس ومن كتابات هيرودوت المؤرخ الإغريقى القديم . ولم يعرفوا أى شىء مما تقدم على قصص العهد

القديم من أمثال قصص إبراهيم ويوسف وموسى ويشوع (١) وشمشون ، ولا أى شىء أقدم من أساطير الإغريق كحكايات جيسون وأرجونوتس وتسيوس والمينوثور(٢) وحصار طروادة .

ولقد كانت مصر فى نظر قدماء الإغريق أرض العجائب (كأبى الهول والأهرام) وأرض الآلهة الغامضين (كإيزيس وأوزيريس) . ولم يعرف الإغريق القدامى شيئاً عن تاريخها الطويل الذى امتد قروناً قبل أن يفد أسلافهم الأشداء متدافعين صوب الجنوب عبر الجبال إلى شواطىء بلاد اليونان الدافئة وإلى جزرها . وقد تحدثت أساطيرهم عن الحروب والآلهة وأبطال الملوك على نحو ما كان هومر يتغنى به فى أشعاره . وكان كل مادون هذا ظلاماً . فهم لم يعرفوا شيئاً عن قصر كريت البديع المندثر ، وكذلك لم نعلم نحن عنه شيئاً حتى سنة ١٩٠٠ . وهم لم يقفوا ، من أمجاد منطقتى بابل وسومر الشرقية ، إلا النزر اليسير . وعندما دلف رماحو الإسكندر الأكبر عبر وادى الفرات فى سنة ٣٣٠ ق.م. مروا بجبال منطقة بابل العالية التى تضم مدائن مخربة دفنتها الرمال التى ظلت تهب عليها قروناً عديدة .

وتبدد الجهل الطويل عندما أبحر نابليون إلى مصر فى سنة ١٧٩٩ وغزاها . فلقد استصحب طائفة من أهل العلم والبحث ليدرسوا خرائب آثارها . وكانت إحدى نتائج ذلك أن فرنسياً اسمه شامبوليون بدأ ، فى سنة ١٨٢٢ ، يفك رموز الهيروغليفية التى كان يكتبها الكهان . وهكذا وجد مفتاح اللغة المصرية القديمة .

ولقى العلماء تشجيعاً ليدرسوا خرائب أخرى أثرية فى الشرق الأوسط .

---

(١) يشوع صاحب سفر التوراة .

(٢) المينوثور حيوان خرافى برأس ثور وجسم بشر .

ففى ١٨٤٥ بدأ هنرى رولنسون يحل رموز الكتابات التى حفرت فى صخور آشور بأشكال تشبه الأوتاد . واستكشف ليبارد فى سنة ١٨٤٦ خرائب نينوى الهائلة الحجم . وكان فتى ألمانى اسمه شليمان يعتقد صحة قصة طروادة فجمع ثروة كبيرة من الأعمال الاقتصادية وصرفها على خرائب طروادة فى سنة ١٨٧٠ . فلم يعثر على خرائب مدينة واحدة فحسب بل عثر على خرائب سبع مدائن يتراكب بعضها فوق البعض ! وفى آخر القرن التاسع عشر استكشف سير آرثر إفانس مدينة مفقودة وذلك عندما بدأ يحفر فى كنوسوس بكريت . وقد عثر على قصر ملكى . ولقد كانت كريت — فى مدى أجيال طويلة — مهداً لمدنية زاهرة ، ومع هذا نسيها العالم طراً كل النسيان . وقد ظلت الآلاف من لوحاتها غير مقروءة حتى الآن . أكان ذلك هو القصر الذى ذهب إليه زيوس ليذبح المينوثور ؟ أم كان حقاً أن أشيل ربط جسد هكتور فى عجلة مركبته وجرّره حول حوائط طروادة ؟ قد لا تظفر أسئلة كهذين بجواب ، غير أن استكشافاتنا تجزم بأن وراء الأساطير القديمة بعض الحقائق . ولقد أشار قدامى الإغريق إلى إحدى المدائن على أنها « ميسينيا الذهبية » . وأغلب الظن أن شليمان — عندما حفر هنالك عثر على كنوز عظيمة من الذهب ، وقد وجد فى مقابرها ، منذ فترة جد قصيرة ، مزيد من الذهب الكثير . وقد كشفت ، منذ فترة قصيرة كذلك ، مجموعة من اللوحات التى تحمل مدونات وذلك فى بيلوس (بلاد اليونان) وهى موطن نسطور ، أحد أمراء أجاممنون ، فيما يظن . وفوق ما تقدم فأن إنجليزياً — هو المرحوم ميخائيل فنتريس — عرف كيف يقرأ هذه المدونات .

ويجرى الحفر — فى مثابرة — فى أماكن عديدة . فالأمريكيون مشغولون به فى أثينا ، والفرنسيون فى سوريا ، والأتراك فى آسيا الصغرى ، والمصريون يتابعون كشف مافى خرائبهم ومقابرهم . وقد كشف سير ليونارد

وولى كشوفاً مثيرة فى مدينه أور بالعراق . وقد كشفت ، منذ فترة قصيرة ، كشوف لا تقل عنها استثارة فى مدينـة إريش التى تجاورها . وما من شك فى أن استكشاف الماضى المدفون يتتابع فى كل بقعة ، غير أن النشاط الأكبر يجرى فى البقاع التى تقع حول شرق البحر الأبيض المتوسط .

وإنا لنعرف الآن تاريخ إمبراطوريات وشعوب عظيمة فى بقاع الشرق الأوسط كافة . فلديها آلاف من لوحات الصلصال المحروق تحمل مسجلات بلغات أهل بابل وآشور والأقطار المجاورة . ولدينا مقادير كبيرة من البردى تحمل مسجلات عن فراعنة مصر الأقدمين . وقد كشفت الحفائر أيضاً عن مدنيات بتمامها كمدنيات السومريين والحيثيين والكريتيين . ونحن نطلق على من يشرفون على الحفر عبارة « علماء العاديات » ومعناها : الرجال الذين يدرسون الآثار العتيقة . ويبلغ مدى القصة التى كشفوا عنها أربعة آلاف من السنين ، ويمدنا كل موسم من مواسم الحفائر بمعلومات جديدة . غير أننا لا نخلص إلى ذلك النوع السهل المتدفق من القصص الذى يشبه التاريخ العادى . فهنالك ثغرات ومجادلات كثيرة فى شأن التواريخ وشتى أنواع الأسئلة التى يوجهها الناس دون طائل . وستبقى الحال كذلك إلى أن يتصادف العثور على كشف يجيبنا عن تلك الأسئلة . على أن حذق علماء الآثار وصبرهم لمما يذهل حقاً . فهم يغربلون كل قدر من التراب يرفعه الجاروف ، وهم يقيسون كل بوصة تحت السطح ، وهم يلجأون إلى استعمال الفرش المصنوعة من شعر الإبل ليزيلوا التراب عن الأشياء المدفونة حتى لا يصيبها تلف . ولا مشاحة فى أن القدر الأكبر من الآثار ما يزال مطموراً فى باطن الأرض وأنه سيكشف عنه فى حينه .

أين بدأت المدنية :

بدأت المدنيات الباكرة على ضفاف الأنهار الكبرى فى البلاد الدافئة حيث الأرض قوية عنيفة يغمرها فى الغالب طمى النهر ويغطيها بطبقة

تكسبها أكبر الخصوبة . وتلك الأنهار هى : النيل فى مصر ، والدجلة والفرات فى العراق ، والأنداس فى الهند(١) .

على أن مدينتى موهنجودارو وهارابا ـ الواقعتين فى وادى الأنداس ـ لم تعرفا وتستكشفا إلا منذ فترة قصيرة وما يزال الشىء الكثير عن الشعوب التى بنتهما وعاشت فيهما تفتقر إلى معرفة. ومع ذلك فقد كنا نعرف أنهما كانتا تتعاملان مع تجار أودية الأنهار الكبرى فى العراق ، وذلك لأنا وجدنا فى خرائبهم أشياء لم يكن ليستطيع صنعها غير أهل أودية الدجلة والفرات .

ومصر تشبه حية طويلة ملتوية ذات رأس جبار . إنها أرض طولها ٦٠٠ ميل وعرضها ١٥ تنتهى لدى البحر بدلتا بالغة الكبر، وعرضها ١٠٠ ميل ، كونتها مصبات النيل العديدة وهذه البلاد النهرية المستطيلة يفيض عليها ، فى كل عام ، ذوب ثلوج جبال أثيوبيا بعمق يبلغ عشرين قدماً فى بعض الأحيان . وأرضها خصيبة إلى حد أنه يمكن جنى ثلاثة محاصيل متعاقبة فى العام الواحد . فلا عجب إذن إذا كانت مصر قد أصبحت بلاداً عزيزة الجانب تغص بالسكان ، وإنها لتشبه جزيرة خضراء وسط بحر من رمل الصحراء المتقد .

وبالمثل يتدفق ، فى كل عام ، فيض من مياه ثلوج أرمينيا على الدجلة والفرات ويهبط بفتات التربة ويبسطها على وجه الوادى ثم يدفعها ، فى شكل دلتا كبيرة ، إلى الخليج الفارسى . وهنا أيضاً ، كما فى مصر ، تعلم الناس كيف يتعاونون فى العمل وكيف يحجزون مياه الفيضان ويتحكمون فيها بحفر قنوات وأخاديد وبتشييد سدود لتصريف المياه . وقد وضعوا لرقع الأرض حدوداً وقاسوها . وقد كانت محاصيلهم تبلغ فى بعض الأحيان ثمانين مثلا من مقدار التقاوى المبذورة .

ولقد أتاحت وفرة الطعام فى مصر والعراق لأهلهما فراغاً يمكنهم من

(١) انظر شكل رقم — ١ — (الشرق القديم : خريطة تبين أودية الأنهار ، فى المساحة التى تقع بين البحار والجبال والصحارى).

مدارسة الأشياء الأرضية والأجرام السماوية فرصدوا نظام الفصول الأربعة وهيئات النجوم المتبدلة . وتعلموا كيف يدونون المسجلات ويدخرون معلوماتهم لينقلوها إلى بنيهم . والناس لم يتحولوا يوماً عن تقصى الأمور بذلك النوع من حب الاستطلاع الذى ما فتىء يدفعنا إلى تفقد الأركان والأبواب المفتوحة وإلى تعرف كيف تجرى الأمور ثم نحسب ما سوف يحدث إذا فعلنا كذا أو كيت . وهذا بداية دراسة العلوم كما قد يكون الفحص عن قطعة من الخشب أو العظم أو الصلصال بداية الفن .

والمعرفة تنمو مع الحذق كما قد ينمو الحذق مع المعرفة . ولقد كانت للناس ، أبداً ، أيد ماهرة — أصابع تفكر . وكان بعضهم يصنع الأوانى الفخارية خيراً مما يصنعه الآخرون ، فأصبحوا خزافين لا عمل لهم فى غير الفخار ، وعلا شأن هذه الصناعة . وكان هذا شأن صناعات الخشب والقرميد والجلد وسائر الحرف . وبزيادة عدد الحرف زادت التجارة . وحذق أناس ضبط مياه فيضانات النيل ، وكانوا من بين ولاة الأراضين . وكان أقوى الناس حكامهم . غير أن أصحاب التفوق فى القوة أولئك ، كانوا يعتمدون على آراء أصحاب التفوق فى الحذق . فكان الملوك والقواد يظفرون بالفخار ولكن الحكماء والكهان كانوا هم المشيرين الذين يوجهونهم .

وكان المتقدمون الأولون يتساءلون كيف صنعت الدنيا وكيف خلقوا هم . لقد عجبوا للرعد والبرق وللأمراض الخطيرة المفاجئة التى تقضى عليهم وللمذنبات التى تلتهب فى السماء وللظلمة التى تدهم فى الظهيرة كلما كسفت الشمس . لقد أخذوا يعتقدون فى « قوى غير مرئية » : فى آلهة للحبوب والحصاد والنور والأنهار . وحاولوا أن يصوروا أولئك بالطريقة الوحيدة التى يحسنونها وهى الأصنام . وحاولوا أن يدخلوا عليها السرور بالطريقة الوحيدة التى عرفوها وهى أن يقدموا لهم خير ما لديهم كالحنطة والحيوان بل الإنسان . وعبدت الشمس على أنها إله فهى التى تهيىء للأرض إمدادنا

بالحصاد وإن كانت تصيب الناس نهاراً بضربات قيظ لا ترحم . وفى كل مكان ، على وجه التقريب ، كان الموتى يدفنون ومعهم الطعام والأثاث يستخدمونه فى العالم الآخر . وكان العظماء كالملوك والنبلاء — كما قد نتوقع — تجهز لهم مقابر فاخرة تغص بالأثاث وعظائم الكنوز لحياتهم الأخرى . وإنا لنجد الأولين من الملوك والكهان فى السجلات التى نستخرجها ، وبتفحص أثاث مقابرهم نعرف مبلغ حذق الصناع الذين عاشوا فى تلك الأزمان السحيقة .

وفى مصر كانوا يستعملون الكتابة المصورة التى نسميها « الهيروغليفية » وهذه كلمة يونانية معناها « كتابة الكهان » . وكانوا يكتبون على صحف من البردى ويلصقون أطرافها بعضها بالبعض ويبرمونها ويودعونها قراطيس ملفوفة . وقد حفظ رمل بلادهم الجاف وجوها الصحو كسفاً من كومات من هذه السجلات البردية ، حفظها من الانحلال التام . ونحن نستخرجها من خرائب المدائن القديمة ، وفى بعض الأحيان من قشاشات الأكوام العتيقة لبعض المدائن .

وكان أهل العراق يكتبون على صلصال ناعم بالخط الآشورى الذى تشبه حروفه الأوتاد . وقد سميت كذلك لأن كل سمة كانت تثبت بضغط طرف عصى مثلث الشكل . والمجموعات المختلفة من الأوتاد تكون الحروف المختلفة . وهذه الكتابة لا يصيبها العطب لأنها معمقة على لوحات الصلصال ، ولقد كشفت آلاف من اللوحات وتيسرت قراءتها . وإذا استخف اليوم امرؤ ، دون إعمال رويته ، بأولئك النساء والرجال الذين تاهوا فى زمان النسيان بعد أن طال عليه الأمد بتعاقب الدهور السحيقة عليه فليعلم بأننا — إذا كنا نقسم أيامنا إلى ساعات تحوى كل ساعة منها ستين دقيقة فى كل منها ستون ثانية — فإنما نتبع ما سنه قدامى فلكيي البابليين .

وتلك وشيجة متينة تربطنا ببابل . وإذا حدثتنا أنفسنا يوماً بالاستعلاء على أولئك الأقوام الغريبة فلنذكر أنفسنا أيضا أن العلماء وجدوا، على هذه اللوحات الصلصالية المحروقة الفذة ، نماذج من الجذر التربيعى بل من اللوغارتمات ، وهذه أمور قد تحير شباب اليوم لدى تعلمهم الرياضيات .

مصر الفرعونية

حكم مصر طوال ثلاثة آلاف من السنين — أسر من الفراعنة . و « فرعون » كلمة معناها « البيت العظيم » كان الحاكم يلقب بها لأن اسمه الخاص كان يقدس إلى درجة يمنع معها تداوله على ألسنة الآدميين . ومن دواعى الأسف أن الكتاب المقدس لايذكر اسم الفرعون الذى استخدم يوسف أو الذى جعل اليهود يبنون ويكدون من أجله ، وذلك لأن المؤرخين ما يزالون فى ريبة من الأمر . إنهم يعرفون أسماء الفراعنة ، أما تاريخا يوسف وموسى فيخمنونهما تخمينا .

وحول سنة ٣٥٠٠ ق . م . انضمت مصر العليا (الوادى) ومصر السفلى (الدلتا) تحت حكم موحد لفرعون اسمه مينا.وحول سنة ٣٠٠٠ق.م. بدأ الفراعنة يشيدون أهراماً ضخمةمن كتل من الحجر الكلسى (أوالجيرى) ليتخذوها مقابر لهم . ويشغل الهرم الأكبر — للفرعون خفرع — مساحة تناهز الاثنى عشر فداناً ويرتفع إلى ٨٠٠ قدم ، وهو جبل من صنع الإنسان كدسه عمل جسيم ، وروعى فيه مع هذا أن يكون دقيق المقاييس . وعلى مقربة منه قُدَّ ، فى الصخر ، أبو الهول على شكل أسد مهول رابض يحمل رأس خفرع . وقد شيد الفراعنة الأولون ، فى ذاك العهد الباكر ، صفاً طويلا من أهرامٍ أصغر حجماً .

ومن حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. بدأ سلطان الفراعنة فى الضعف وسطوة الأمراء فى الازدياد بحيث أصبح كل منهم يحكم منطقته وفق مرامه . ومن

ذاك الوقت أخذ الفراعنة والكبراء من موظفى قصورهم ومن كهانهم ومواليهم (أى أشرافهم) يدفنون ، فى أبهة ، فى مقابر قدت فى الصخور القائمة على جنبى الوادى . ومعرفتنا الغزيرة بمصر الفرعونية مصدرها تلك المقابر : من النقوش الملونة الحية التى تكسو جدران حجرات الدفن ومن لفائف البردى التى أخفيت هناك . ونحن نعرف مهارة الصناع فى صنع الزجاج وفى قطع الأحجار الكريمة وفى تطعيم العاج وتلبيسه وفى صياغة الذهب والفضة والفخار . ونجد أجساد الموتى المحنطة (الموميات) ملفوفة فى تيل مغزول يعدل الحرير فى رقته . ونرى نمط السفن التى كانوا يستقلونها فى النيل أو يبحرون عليها فى البحر الأحمر أو فى البحر الكبير إلى الشاطىء السورى لينقلوا خشب أشجار الأرز الذى يستخدمونه فى بيوتهم وأثاثهم . ونقرأ فى لفائفهم معلوماتهم فى الجراحة والعلوم الرياضية . ونقرأ عن تدابيرهم المحكمة للتحكم فى مياه فيضان النهر وعن تشريعاتهم وضرائبهم . ونقرأ عن معتقداتهم عن الآلهة الذين يعبدونهم : عن رع الإله الشمس وعن أوزيريس الذى يموت فى كل عام (كحبوب الحصاد) والذى يولد من جديد فى كل عام (كالتقاوى التى تؤخذ من الحبوب) ونعلم كيف وصلوا إلى الاعتقاد بأن أوزيريس سيحاكم أرواح الناس بعد وفاتهم ويزنُ حسناتهم وسيئاتهم .

وبينما يتاح لنا فى يسرٍ أن نحيى صورة رفاهية عيشتهم ومسراتها التى كانوا يمارسونها فى مساكن بهيجة وحدائق مشرقة تظلها سماء زرقاء صافية يجب ألا تغيب عن أذهاننا الجماهير التى لم تخلد ذكراها والتى وسعها ، مع ذلك ، أن تتيح العيش الهنىء للفراعنة السُّواة . لقد كانت حشود من الأهلين تسكن قرى تغص بالأكواخ المقامة من الحجر والطين وكان السواد الأعظم ، من الفلاحين الفقراء الذين كان يهيىء كدهم ، فى كل عام ، الحصاد الوافر ما أكب الحكماء والمشرفون على عمل التقويم والتنبؤ بالفيضانات وقياس الحقول وتخطيط مجارى الماء .

ثم عكر هذا السلام الطويل غزو آسيوى غريب الأطوار قامت به قبائل تسمى بالهكسوس أو الملوك الرعاة . وهذا الأمر يكتنفه شيء من الغموض وإن عُلم أنه حدث حول سنة ١٨٠٠ ق م. ويبدو أن الغزاة جلبوا معهم الخيل . ولا علم لنا بوقائع الجهاد الذى بدأ بعد ذلك ، غير أنه بعد طرد الغزاة ظهر صف من الفراعنة البواسل يحكمون من طيبة إلى إعالى الوادى . وكان لدى أولئك ، الخيل والمركبات الحربية ، وقد اقتادوا الجحافل عبر حدود مصر. وأحد هؤلاء : تحتمس الثالث الذى غزا سوريا وترك فيها الحاميات المصريه . فكانت لمصر إمبراطورية . وقد شيدوا معابد فسيحة وقصوراً فى طيبة وفى مشارفها .

وقد أقيمت فى معبد الكرنك عمد مفرطة فى الضخامة نقشت عليها جميعاً صورٌ وكتابات، وفى وادى المقابر الذى يقوم على مقربةٍ من حواشى الصحراء قبور لأولئك الفراعنة المتأخرين وكبرائهم الذين لحدوا فى سناء الذهب والسدر (الأرز) والعاج ، غير أن معظم تلك القبــــور عرفهُ وجرده عن كنوزه ، من زمن بعيد ، لصوص مجهولون .

ومن بين أولئك الفراعنة الأباطرة خُلد ذكر إخناتون لأنه حاول أن يبدل دين مصر من عبادة قدامى الآلهة ، وهم الشمس وأمون وأوزيريس ، إلى عبادة إلهٍ واحد للجميع ، إلهٍ يحرس كل الخلائق بعنايته . وثمة ترنيمة تمجيدٍ لهذا الآله تشبه ماورد فى المزمور ١٠٤(١) الذى نصه « ما أعظم أعمالك يارب، كلها بحكمةٍ صنعتْ » . ولكن لم يكد إخناتون يُتوفى (وقد توفى شاباً) حتى استرد قدامى الآلهة سيطرتهم على عقول الناس . وخليفته توت عنخ آمون مشهور فى الوقت الحاضر لا بمقتضى ما صنع ولكن لأن مقبرته بقيت دون أن يعكر صفوها اللصوص . وعندما استكشفها

(١) عدد ٢٤

وفتحها مستر هو وارد كارتر فى سنة ١٩٢٢ ألفى الناس سناء قبر الفرعون ورواءه على جمالهما تماماً عندما خُتم بعد الدفن .

وظل من تلوا من الفراعنة يقودون الجحافل مصعّدين فى سوريا . ولكنهم لقوا هنالك المركبات والفرسان الذين حشدتهم قوة جديدة ، قوة الحيثيين .

وظل الفراعنة وملوك الحيثيين ، فترة ، يتناوبون السيادة على أصقاع الشرق الأوسط .

الإمبراطوريات البائدة ، فى الشرق القديم :

لم يكن اسم يوريا الحيثى — قائد حرس الملك داوود — ليعنينا فى كثير أو قليل حتى بدأ علماء العاديات يكشفون خرائب المدن الحيثية فى آسيا الصغرى . وكان الحيثيون شعباً ذا بأس وسعه أن يقاتل مصر وبابل . ونحن نعرف — من لوحات الصلصال التى وجدت فى خرائب الحيثيين — أنهم كانوا يحلون القانون والعدالة أكبر محل من الاعتبار ، كما أنهم يتصفون بالعدل والرحمة . وكانوا ، إلى ذلك ، يبتهجون بقص الحكايات من أجل الفن ذاته ، أو كما نقول نحن بـ « الأدب » . وإن اهتمامنا بهم ليزداد فلقد بدأنا نظن أن الإغريق — الذين ندين لهم بمدنيتنا لهم ، مدينون لهم بدورهم ، بالشىء الكثير . وهم ـ كالإغريق ـ هنود أوربيون .

وتدفعنا عبارة « هنود أوربيون » إلى الاستفهام : من أين وفد ، فى البداية ، أسلاف الناس كافة ؟

وليس هناك جواب يقينى . ولكن فى وسعنا أن نقتفى أسلاف الشعوب والقبائل مصعدين إلى العصور الموغلة فى القدم ثم نحاول أن نردّهم

إلى مكان يبدأون منه . ومن هذه الأماكن : الجزيرة العربية فمنها جاءت الشعوب « الكثيرة » — كالبابليين واليهود والأموريين والفينيقيين والإراميين — الذين كانوا يتكلمون لغةً سامية الطراز . وهؤلاء لم يفدوا دفعة واحدة بل على دفعات تفصل بينها فترات طويلة من الزمان . ويبدو كأن قبائل البوادى وأشباه البوادى تتكاثر حتى تضيق بهم الأرض ويقصر عن كفايتهم الطعام . فإذا برز من بينهم زعيم شديد المراس أغاروا على أرض جيرانهم .

ومن أماكن البداية الأخرى الأراضى الخضراء فى أقاصى آسيا شمالى بحر قزوين وشرقية . ومن هنا جاء أسلافنا نحن من هنا جاء كل الأقوام التى تتكلم لغات هندية أوربية . وذهب بعضهم إلى الهند . وانثنى آخرون إلى بلاد الفرس . وهبط آخرون — الحيثيون والميتانيون — أكثر أصقاع آسيا قرباً . وقصد غيرهم — وهم من يسمون بالفيرجيين والإغريق — إلى آسيا الصغرى واليونان . ورحل آخرون ـ وهم الغال ـ إلى آسيا الصغرى وشمال إيطاليا واستقروا آخر الأمر فى فرنسا (التى كانت تسمى يوماً بلاد الغال) . وتوجه من يسمونهم بالجرمان إلى أوربا الوسطى . ثم اتجه مَن يطلقون عليهم اسم السلاف ، إلى السهل الأوربى الكبير . ويتضح من هذه القائمة نفسها كيف كان رحيلهم : رويداً صوب الغرب فى مدى آلاف من السنين . تحركت الا وليات من الأسر والعشائر والقبائل جنوباً صوب أكثر الأصقاع دفئاً وفى اتجاه البحر الأبيض المتوسط . وظهر الحيثيون فى أقرب مناطق الشرق الأوسط عام ٢٠٠٠ ق‌م . ودخل الغال إيطاليا بعد ذلك بأكثر من ألف سنة . والناس ، عندما يتحركون جملةً ، يتحركون على مهل .

وموضوع حكايتنا ، فى الوقت الحاضر ، مقصورٌ على الشرق الأوسط : توجد — بين الجزيرة العربية والأراضى الخضراء بآسيا فى عهودها البالغة

القدم وراء بحر قزوين — توجد منطقة تحوى مجموعةً من السلاسل الجبلية ينساب منها نهرا الدجلة والفرات هابطين سهولَ العراق إلى الخليج الفارسى. وهذا الصقع الذى يضمّ الجبالَ الخضراء وأهدابَ الصحارى والسهلَ الباسم كان كله مسرحاً لامتزاج تطاحن هاتين المجموعتين من الشعوب وهما السامية والهندية الأوربية. لقد كانت تعْمُرُ بالمدائن والناس، والمعابد والتجارة، والصناع والكهان، وبجماهير من الفلاحين الكادحين والرعاة، وبالغزاة وجحافلهم الزاحفة وبالمحاصرات الحربية وجلبتها وبحشودٍ من الأسرى والعبيد. وكان ذلك منذ نيف وألفين من السنين! أما الآنَ فهى مقبرةٌ لإمبراطورياتٍ بائدة، كالجبّانة، تحوى نصباً تذكارية صامته واستحكامات ضخمة كلٌّ منها طائفة من الخرائب المتداعية لأحدى المدائن. وكلما تهدمت أو هدمت البيوتُ القديمة والأسوار التى أقيمت من الحجر أو من لبنات الطين كانت أماكنها تمهد وتقام عليها بيوت جديدة، وبهذا تزايد الارتفاعُ. فأذا حدث التدمير النهائىّ وأصبحت المدينةُ فلاةً موحشة تعاقبت عليها الرياح والأمطار وحولتها إلى رابية عالية تصون مخلفاتِها المنسية من الآثار البالغة القدم كالأوانى الفخارية والخرز والمصنوعات العاجية والحلى الذهبية والفضية وغيرها من المصوغات ومن اللوحات المكتوبة والحجارة المحفورة، وما يزال الكشف عنها يجرى إلى اليوم.

ولدينا معلومات عن مدائن فى سهلِ الجزء الأسفل من الدجلة والفرات يرجع تاريخها إلى ماقبل سنة ٣٠٠٠ ق. م.، مدائن استخدم أهلوها الأدوات النحاسية وحرثوا حقولهم بمحاريث تجرها الثيران كما استخدموا مركبات ذوات عجلاتٍ بدائية. وكانوا يكتبون حروفاً تشبه الأوتاد أوكتابات آشورية على لوحات من الفخار. ولقد شقوا قنوات، كقنوات مصر، جلبت مياه الفيضانات إلى داخل أراضيهم. وكان لكل مدينة إلهها المختص بها وملكها الذى شغل فى الوقت نفسه وظيفة كاهن الإله. ولقد بنى

المعبدُ — الذى ارتفع عالياً فوق المدينة — من قوالب من الطين مربعة جسيمة مع ميلِ جوانبُ جدرانه قليلاً نحو الداخل وذلك من جزئهـــا الأعلى الذى يرتكز عليه المكانُ المقدس المخصص للإله .

وفى الخارج كانت ترتفع مجموعات من الدرَج ، من الأرض حتى القمة. وقد احتاج بناء تلك المعابد — كما احتاجت أهرامُ مصر — إلى تخطيط دقيق وإلى إستخدام آلاف من الرجال ، ربما كانوا من العبيد .

ويتسنى لنا أن نرى — من الخطوط التى صورت الرمّـاحة العابسين ، المنقوشة على الأحجار — أن مدائن السهل السومرية تلك ، كان يوقد نيران الحروب بعضها ضد البعض ، عندما ينطلق الملوك ليحاربوا ، فى ربيع السنة . وربما كانت الحدودُ سبب النزاع المتكرر . وتسجل اللوحاتُ أسماء ملوكهم الغريبة . ولنا أن نستنبط الكثيرَ عما كانوا يعتقدون وعما كانوا يعرفون . وقد أميط اللثـــام فى إحدى حفائر مدينة (أور) — موطن إبراهيم — عن سمات لطوفان ربما يكون قد أغرق السهلَ جميعاً ، كما كشف عن مقبرة أميرة ضُحِّى — لدى دفنها الباهظ النفقات - ببلاط بأسره من الأتباع والحراس ووصيفات الشرف ، ليصحبوا مولاتهم إلى العالم الآخر . ولقد كان الأثاثُ والمصنوعات المعدنية الثمينة ، التى ووريت فى ذاك القبر المذهل ، من أنواع لا يُعلى عليها رسماً وصنعة . ومن الأمور التى تسترعى النظر فى تلك المدنيات الباكرة أن الصناع ما يكادون يفقهون كيف يشتغلون على الخشب أو النحاس أو الذهب أو الحجر حتى يبلغوا مِن فورهم مستوى ممتازاً من البراعة . وهكذا نرى أن المدنيات تصنعها الأيدى .

ولسنا ندرى مِن أين أتى أولئك السومريون . والذى نعلمه علم اليقين أن رجلاً مِن ذوى النفوذ اسمـه سارجون ، وهو من زعماء الساميين ، قادر مـاحيه ذوى اللحىَ — حول سنة ٢٥٠٠ ق.م. — جنوباً ، إلى السهل

ونصب نفسه سيداً على جميع الأراضي الواقعة شرقاً وغرباً بين جبال فارس والبحر الأبيض المتوسط، وقد صاحبت الشهرة اسمه قروناً. وتصور الأكوامُ الضخمة من اللوحات التي كتبت في زمانه، دنيا كان فيها الناس يمسكون دفاتر حسابات مضبوطة، والعلماء يدْرسون الرياضيات، والصبية يمارسون الرياضة البدنية. وإنّا لنقرأ الرقى والتعاويذ التي كانت تتخذ لإرضاء الآلهة أو لتخويف الكثير من الشياطين والأرواح الشريرة وطردها. وهنالك حكايات عن أبطال قدامى وعن خلق الدنيا.

وحول سنة ٢٠٠٠ ق.م. دخلت سلالةٌ جديدة من الساميين نسميها الآموريين وأصبحت سيدةَ الوادي وحكمت من بابل. ولدينا مسجلاتٌ عن أكبر ملوكهم، واسمه حامورابي. ولدينا رسائلُ التي فيها كان يرسل الأوامر إلى ضباطه وولاته، وكلها كُتبت على الفخار وأودعت أغلفةً من الفخار. ولدينا كذلك حجرٌ نقش عليه الدُّستورُ الكبيرُ لشرائعه، التي يذكرنا الكثيرُ منها بشرائع اليهود، مثل تلك التي تنص على أخذ «العين بالعين والسن بالسن». وتنبئنا هذه الشرائع كذلك بأسس المعاملات في بيع العروض والبيوت وشرائها وبالمتبع في دفع أجور الصناع وفي اقتراض المال وتأدية الديون. فكانت تلك إذن إمبراطورية غنية عزيزة فيها الكثير من المدائن والمعابد والكهان والمسجلين ومن خُدام الملك والأشراف والعمال والفلاحين والتجار، يسري عليهم جميعاً قانونٌ واحد ويخضعون لسلطان ملك واحد. لقد كانت إمبراطوريةً مترامية الأطراف. وكانت تعتمد في مواصلاتها على الحمير، تماماً كما كان شأن بقاعٍ عديدة من الشرق الأدنى إلى ما قبل العصر الحديث. ولنا أن نسميها مدنية الحمير كما يكون لنا أن نسميها مدنية الفخار. فلقد كانت البيوت ولوحات الكتابة من الطين والفخار. بل لقد كانت رِزمُ بضائع التجار تُمهرَ بصرّارات من الفخار مختومة كلها، على ما ينبغي من الضبط، بخاتم صاحب البضاعة.

وحول ١٨٠٠ ق. م. دب فى إمبراطورية بابل الضَّعفُ والانحلال وتعرّضت لغزوات من الشمال والجنوب. ودخل الحيثيون أراضى آسيا الصغرى وشمال سوريا حيث بدءوا يؤسسون دولةً عظيمة، وأقامت أمة هندية أوربية أخرى تستخدم الأفراس، اسمها الميتانى، مُلكها على الفرات. وجلب أولئك الناسُ الحصانَ إلى الشرق القديم حيث عُرف، أول ما عرف، على أنه «حمار آسيا». ولم يستطل كثيراً ملك الميتانى وإن يكن قد استطال مدة كفت لعقد محالفة مع مصر ولإسقاط إمبراطورية بابل. وعلينا أن نتذكر دواماً أن ظهور شعب جديد لم يكن ليعنى فناء الأهلين السابقين. نعم كانت هناك مصادمات مستمرة ولكن الأمر كان ينتهى غالباً بحدوث امتزاج تدريجى.

ومن الجنوب تجمعت شعوبٌ تسمى الآراميون مصعدةً من الأطراف الصحراويه للجزيرة العربية وأسست ممالك فى مدن عديدة أشهرها دمشق. ونحن نقرأ عن تلك المملكة فى التوراة التى تصورها حليفةً لمملكة اليهود الشماليه. ولقد نشر أولئك الآراميون لغتهم، فى الشرق الأدنى كافة، نشراً بلغ من القوة أن اليهود ظلوا يستعملونها فى زمن عيسى عليه السلام. وأسست شعوبٌ سامية أخرى مدائن تجارية كبيرة فى صور وصيدا على الشاطىء السورى، ونحن نعرفهم باسم الفينيقيين وهم البحارة والتجار الذين كانت سفائنهم تحمل سلعهم إلى أسبانيا وربما إلى بريطانيا. وأكثر من عُرف من الشعوب السامية اليهود. وموعد دخولهم الأرض المقدسة لم يعرف بعدُ على وجه التحقيق، فالكتاب المقدس والحفائر لم تتفق على تاريخ. وقد لا نبعد كثيراً إذا حسبنا أنه ١٥٠٠ ق. م. فلقد عاش الملك داوود حول سنة ١٠٠٠ ق. م. وفى عهده كانت قوة الحيثيين قد اضمحلت، غير أن قوة بابل لم تتعرض له بأذى.

واضمحلت إمبراطورية بابل، واختفى ذكر الميتانى من السجلات.

وظل الحيثيون والمصريون يصطرعون حتى توقفوا وبعد ذلك قهر الحيثيين الفريجيون وهمُ من سلالة هنديه أوربية دخلت آسيا الصغرى . وكان هؤلاء الوافدون الجدد جزءاً من شعوب كثيرة نزحت إلى الأصقاع الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . وحول سنة ١٤٠٠ ق. م. عكر صفوَ المنطقة كلها رجال مسلحون تحت إمرة زعماء ، وكان الحرب والدمار . وأبحر بعضهم بإزاء شاطىء مصر وقد سجل فرعونها : «لقد تعكر صفوُ الجزُر ولم يتصدّ أحدٌ لمقاومتهم» . وكان الوافدون الجدد من الشمال وقد طلعوا بالهلاك على أولئك الذين وجدوهم أحياء حول شرق البحر الأبيض المتوسط.

غير أن قوة جديدة كانت تنهض فى بابل وهى قوه ملوك آشور . ولقد كانوا هناك دائماً . وبعد اضحملال كثير من الدول الكبيرة عقدت لهم الزعامة وخلقوا إمبراطورية آشور الحربية .

قوة كريت البحرية وقوة آشور البرية :

والشعوب التى عكرت صفو الجزر وطردت حاميات فراعنة مصر هى أسلاف الإغريق . وأغلب الظن أنهم بدءوا يتحركون منذ حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . عبر آسيا وإلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان . ولقد أخلدت هذه الشعوب إلى البحر ودّمرت مدنيةً ظللنا نجهلها تماماً إلى ماقبل ستين عاماً ! وتلك هى مدنية مينون الكريتية .

ولقد كان مينوس ملك كريت أول من سادوا البحر . هكذا قالت الأسطورة الإغريقية . ونحن لم يتسنَّ لنا فهمها حتى كشف السير آرثر إيفانس — فى سنة ١٩٠٠ — خبايا أكمة كنوسّوس فى كريت ووجد أطلال قصر ، بهاؤه يفوق المعقول . وكانت مئآت اللوحات التى يحويها تحمل كتابات غير معروفة ولكن كان واضحاً أن مدنية مينوس هذه قامت قبل قرون عديدة . ولقد أبرزت نقوش الحوائط ـ التى نقشت فى مقدرة فنية عظيمة ـ

نساء يرتدين أرفالاً ذوات أهداب ، ورجالا يلبسون مناطق على الخصرين وأحذية عالية ! وهناك صور بالغة الوضوح لاصطياد الثيران والزخارف البهية تتخذ من الأزهار . وهندسة البناء قوية التأثير جميلتُه : أبهاء فسيحة ، وطرائق للسلالم نخمة ، وتية حقيقي من الحجرات لخزن المؤن . ولقد لفت هذا الاستكشافُ أنظارَنا إلى معاقل ميسينيا و تيرينز الهائلة على برّ بلاد اليونان الأصلى الذى وجد فيه شليمان كنوزاً من المصنوعات الذهبية والفخارية الجميلة التى أتضح الآن أنها من طراز مينوس .

هنا قامت إمبراطورية نسيت كل النسيان . ولقد طابقت أسطورة مينوس الإغريقية . ولكن بقى أمامنا لغز .

لقد كانت ميسينيا معقلَ المدنية الشهير لأجاممنون الذى قاد الملوك الإغريقيين ضدّ طروادة . وهذه هى الحكاية التى رواها (هومر) ولكن ليس فى مقدورنا أن نطابق الأزمنة بعضها على البعض : ويبدو أن شخصاً ما عاش فى ميسينيا وحكم قبل أجاممنون . ولقد صدق قدماء الإغريق الذين قالوا إنه كان هناك رجال عظماء قبل أجاممنون . ولغزنا هو : مَن كان هؤلاء؟ ربما نستطيع — يوماً - أن نعرف ذلك من كتابات اللوحات — الموجودة فى كريت وميسينيا ، التى بدأنا فى قراءتها .

ويبدو أن الصورة — بصفة عامة — كما يلى . غزا كنسوس - فى كريت، حول سنة ١٤٠٠ ق . م . — أعداء مجهولون وانتهت سيطرةُ ساداتها على جزر البحر . وهجر القصر والتهمتْه النيران . ومن آثار الحريق نستطيع معرفة اتجاه الريح إذ ذاك . وحول تلك الحقبة طارد الفرعون رمسيس بعض « الملاحين » المغامرين المتهورين وردّهم عن شاطئه . وألقاب أولئك الرجال مألوفة لنا : السردينيون والصقليون والفلسطينيون . ويقال إن أولئك الآخيرين — الذين نراهم جنوداً يلبسون خوذات واسعة يُزينها الريش —

وفدوا من كريت . وهبطوا الشاطىءَ السورى وبنوا خمس مدائن ، لساداتهم سادات الفلسطينيين الذين حاربَهم شاؤول وصادقهم داوود . ولقبوا البلاد جميعاً بلقبهم : فلسطين أو أراضى الفلسطينيين .

ومدى استمرار هذه الاضطرابات لاعلم لنابه ولكنه ، على أية حال ، امتد زماناً كـفىَ لمحو كلّ ذكـر لكريت من أذهان الناس ، وأجمل ثلمة فى تسلسل المدنية . وكانت تلك هى العصور المظلمة التى اختفت فيها السجلات . ولم يزد الإغريق التاريخيون — الذين صنع أسلافهم تلك الأشياء — وهم « الآخييون الشقر » والدوريون الذين نهبوا المدن وحرقوها — على أن حكوا حكاية طروادة . وليتنا نعلم حقيقة ما حدث وسببَ نسيان كل شئ عن ذلك .

وعلى هذا صار فلسطينيو القصة اليهودية القديمة إلى قوم يجانسون الإغريق . والتقت أساطير أذكى شعبين فى التاريخ القديم — وهما اليهود والإغريق — فى تلك الحقب المبهمة .

والتقت القصة اليهودية التاريخية مع قصة الإمبراطورية الآشورية .

وفى أعالى نهر الدجلة على حافة منطقة التل الحجرى تقع مدينة آشور التى ألِف أهلها — وهم من الساميين — أنفسهم ،قروناً ، يعيشون على الحدود الدائمة المقاتلة لشعوب كبيرة : البابليين والميتانى والإراميين والحيثيين . ولقد تعلموا الشىء الكثير من كل أولئك وأصبحوا — ككثير من الشعوب التى تقع على الحدود — يحذقون الحرب . وقويت شوكتهم بعدما أخذ البابليون فى الضعف بوقت قصير غير أن نهوضهم كان بطيئاً أول الأمر . ولقد وجدناهم يتاجرون فى أنحاء الشرق وقد بدوا أمة صغيرة من الزراع والتجار وإن تكن ذات حيوية . ثم تحت إمرة سلسلة من الملوك المحاربين القساة المقتدرين — اكتسحوا أمامهم الجميع : غزوا بابل وهبطوا مصر منتصرين .

فلقد قاد سارجون — الذى تسمى باسم الفاتح الذى سبق عهده بقرون — وتيجلاث وپايلزر وإسرحدون ومينا خريب ، قاد هؤلاء إلى كل مكان جيوشهم المرعبة : نبّالتهم وفرسانهم ومركباتهم الحربية وكباشهم الضخمة (وهى آلات حربية لكسر الأسوار) التى بها دمروا أسوار المدن ولم يكتفوا بالغارات السنوية التى شنها الأباطرة الأولون ، فقهروا البلاد التى استولوا عليها ودمروها وبثوا فيها الضباط والحاميات . وأنشأوا إمبراطورية منظمة وتوسلوا لذلك بالغزو العنيف . ولقد وصفهم نبيّ يهوديّ بقوله :

« وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث » .

وقد عاش أولئك الملوك الآشوريون القساة فى القرنين الثامن والسابع ق . م . وكانوا — كجميع أمثالهم من الحكام الأقوياء — جدّ معنيين بالأنشاء والتعمير . وفى الحقّ أنهم عاشوا فى نعيم وارف الظلال . وقد اتخذوا نينوَى عاصمة لملكهم ، ونينوى مدينه تبهر العين بقصورها ومعابدها اللامعه بقرميدها الملون ، المزينة بتماثيلها العملاقة . ولقد نقش فنانون مجهولون على الجدران مناظر صيد بهيجة . وكانت الحدائق ، تغص بألوان شتى من النبات النادر الذى ينمو فى كل البقاع التى يحكمونها ، وترتوى بمياه قناة تمر فوق قناطر طولها ثلاثون ميلا .

ولقد كابدت الإمبراطورية الآشورية من تغير الحاكمين فى سنه ٦١٢ ق . م . وذلك عندما أغتصب الحكم الكلدانيون وهم شعب ساميّ آخر من الجنوب . ويتصف أولئك الكلدانيون بالذكاء والرحمة . وإنا لندين لحكامهم بكثير من معلوماتنا الباكرة عن النجوم . ولقد أعاد بناء بابل ، بختنصر أعظم مَن حكم الإمبراطورية من الكلدانيين . وهو الذى استولى على بيت المقدس سنه ٥٩٧ وأسر اليهود ونقلهم إلى جوار مياه بابل .

وما إن انقضى على ذلك ستون عاماً حتى تسلم مقاليد الحكم شعب آخر، وكانوا — فى تلك المرة — الهنود الأوربيين، وهم من نسميهم بالفرس.

وإنا لندخل — مع الإمبراطورية الفارسية — تلك الحقبة التاريخية المدونة أخبارها فى كتب القدماء من الإغريق والرومان. إنها الحقبة التاريخية التى عرفها أسلافنا قبل أن يبدأ علماء العاديات فى التنقيب عن الماضى السحيق. إنها قصة الإمبراطوريات الكبرى الثلاث وهى الفارسية واليونانية والرومانية التى تعاقبت بهذا الترتيب. ونهاية القصة أن الرومانيين استولوا على كل تلك البقاع التى حكمها، أول الأمر، الآشوريون ثم الفرس ثم الأغريق. وبذلك جمعوا كل شعوب البحر الكبير تحت حكم واحد فى الشرق والغرب وأدى العالم أجمع الخراج لقيصر. فنحن إذن أبناء الإمبراطورية الرومانية.

ولقد زال البابليون والحيثيون والميتانى والكريتيون والآشوريون بصفتهم شعوباً متفرقة. ولا مرية أن سلالاتهم موجودة معنا اليوم ولكن أمجادهم وأعمالهم دخلت فى زوايا النسيان أو حورت إلى أساطير.

وثمة شعبان آخران لعبا أدواراً هامة فى الحكاية التى درسها أسلافنا، وهما اليهود والقرطاجنيون. فاليهود لم يؤسسوا إمبراطورية مادية إلا أنهم ذوو حيوية. ولقد احتفظوا بتاريخهم فى كتابهم المقدس: العهد القديم.

أما القرطاجنيون فقد غزاهم الرومان. ولم تصل إلى أيدينا كتابات قرطاجنية. وقرطاجنة الآن فلاةٌ بلقع على الشاطىء الإفريقى للبحر الكبير، ولا يعلم أحد مَن هم سلالة مواطنيها الأباة. والفرس واليهود والإغريق والرومان ما يزالون اليوم موجودين. غير أنه من المستحيل أن يكونوا على حالهم لم يتغيروا بعد كل هذه الأجيال وبعد كل تلك القرون المضطربة.

الفـــرس :

فى سنة ٥٣٨ استولى كيروس (أو قورش) الفارسى على عرش الملوك الكلدانيين وعلى إمبراطوريتهم.

ولقد كان زعيماً نبيلاً وحاكماً حكيماً رحيماً . وهو لم يستعبد الجماهير يَسُوسُهُم بالسوط أو يخرب آبار الماء كما سبق أن فعل الملوك الآشوريون المتعطشون للدماء . وكيروس هذا هو الذى أعاد إلى بيت المقدس الأوانى الفضية والذهبية التى كان بختنصر قد استولى عليها على أنها غنائم حربية . وهو الذى رخص لليهود — الذين كانوا يحيون حياة الأسرى — بأن يعودوا إلى فلسطين كى يعيدوا بناء معبد إلههم فى بيت المقدس وقد أمتدت فتوحه غرباً حتى المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى ، غير أن أهلها كانوا يعدونه جباراً صديقاً فاتحاً صارماً .

وقاد ابنه قمبيز جيشاً عبر شمالى البقاع الصحراوية الواقعة خلف جبال لبنان وهبط ساحل ســـورية وفلسطين الخصيب ثم اخترق صحراء سينا الجنوبية ودخل مصر وقد فتحها للفرس .

وكان الملك القوى الذى حكم بعده هو دارا الأول الذى حكم من ٥٢٢ إلى ٤٨٦ . وفى حكمه امتدت الإمبراطورية الفارسية من الهند إلى حدود الحبشة (إثيوبيا) فى إفريقيا ، وشمالاً إلى شاطىء البحر الأسود . وإن نظرة للخريطة فاحصة لهى أفضل من قراءة صفحات فى تصوير هذه الإمبراطورية التى كونت كتلة ضخمة والتى كانت يوماً مهد حضارات قديمة ثم أمست الآن وقد تناثرت فيها الأطلال .

ولقد لقب دارا الأول — بحق — « ملك الملوك » . فلقد حكم « مائة وعشرين إقليماً » ، حسبما ورد فى الكتاب المقدس . وحوت إمبراطوريته حشداً من شعوب تتكلم لغات عديدة . وكانت سفنه — التى يعمل فيها ملاحون من الهنـــود — تقوم من البحر الأحمر إلى الهند . أما سفنه التى يعمل فيها ملاحون . من صور وصيدا فكانت تبحر إلى غرب البحر الأبيض المتوسط . ولقد تكوّن جيشه من فرق من كل أجناس البشر، بعضها نصف

متوحش يتخذ صنوفاً خيالية شتى من الأسلحة والملابس والعمرات(١) ، وعلى رأسها « الخالدون » وكانوا عشرة آلاف من شباب أعرق أسر الفرس تحت إمرة الملك ذاته .

وكان الفارسيون شعباً وسيماً قوياً وباسلاً مقداماً منصفاً كثير التفاخر بأسلافه . ولقد عبد رعاياهم كل مايعبد فى الأرض من آلهة وأوثان وشياطين، وزاد اعتقادهم فى السحر. أما هم أنفسهم فقد عبدوا إله النور والحق والخلق وأسموه أهورامزدا . ولم يكن هذا الإله ليكف لحظة عن محاربة إله الشر والأفك والتدمير المسمى أهريمان . وكان حقاً على كل المؤمنين أن يساعدوا أهورامزدا فى حربه السرمدية ، وذلك بأن يحيوا حياة خيّرة ويقسطوا فى كل أعمالهم وينطقوا بالصدق . وهذه الشريعة هى التى حدتهم إلى إحسان معاملة اليهود الذين دانوا كذلك بإله عادل .

ولقد توسل دارا وخلفاؤه ، فى حكم إمبراطوريتهم بإنشاء الدروب والطرق العامة الممهدة الطويلة التى تمتد مسافات عظيمة للوصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . فلقد امتدت طريق ملكية ، ١٦٧٠ ميلا ، من سوسة إلى مدينة إيفيسوس ، وامتدت طريق أخرى إلى داخل الأراضى المصرية . وإلى كل ذلك أنشئت طريق عبر جبال الشرق المقفرة واستطالت حتى دخلت وادى نهر الأندوس بالهند . وعلى طول تلك الطرق ركب خيالةُ البريد الملكى ورسل الملك وقوافل التجارة وحاشية الملك نفسها كلما ارتحلت من مدينة إلى مدينة .

ولقد اتخذ ملوك فارس مدائن وقصوراً ملكية عديدة ، وفيها عاشوا فى أبهة وفخامة عظيمتين . ولقد كان القصر الملكى يزود بعمد الرخام وخشب

(١) العمرة (بفتح العين) كل شىء يجعل على الرأس من تاج وعمامة وغيرها .

السدر (الأرز) ويحلّى بحلى من الذهب والعاج والأبنوس والفضة والحجارة الكريمة كالعقيق الأحمر واللازورد(١) تصنع كلها وتثبت فى مواضعها على يد صناع مهرة يستقدمون من بلاد قاصية ودانية : من مصر ، ومن المدائن الإغريقية ، ومن صور والجبال الشرقيه . وكانت الحوائط تغطى بصور ، مطليه بالميناء ، لثيران ومباع لها أجنحة ، على النمط البابلى . ولقد زودت تلك القصور بكثير من الطنافس والأستار النادرة . ويصف كتاب « إستير » كيف كان الملك يولم بقصره فى ساحة حديقته حيث كانت توجد « أستار بيضاء وخضراء وزرقاء معلقة بحبال من كتان دقيق أرجوانى إلى حلقات من فضّة وأعمدة من رخام وأسرة من ذهب وفضّة على طوار (ممشى مرتفع) من المرمر الوردى والأزرق والأبيض والأسود » .

وكانت أقاليم الإمبراطورية تسمى «المرزبانيات» لأن كلاً منها يحكمه المرزبان ، الذى يصح أن نسميه نائب الملك . وكان هؤلاء ينوبون عن الملك فى جباية الخراج وضمان العدالة وتعبئة الجيوش . وهم لم يلجأوا إلى إزعاج الشعوب ما أدوا الخراج وما احتفظوا بولائهم . وهم لم يكرهوهم على عبادة هذا الإله أو ذاك . ولقد حرص دارا وخلفاؤه على مراقبة المرزبانات ليعرفوا هل هم يقومون بواجبهم على الوجه الأكمل .

وإذن فالإمبراطورية كانت شيئاً جديداً فى التاريخ ، شيئاً قوبل بالترحيب لأنه حلّ محلّ الإمبراطوريات السابقة التى كانت تلجأ إلى القهر والرعب وعبادة الآلهة المتعطشة لسفك الدماء . ومن أجل ما يُذكّرنا بالفرس ، العبارة التى تصف تنشئة فتيانهم : « الفروسية والرمى بالقوس وقول الصدق » .

---

(١) اللازورد معدن مشهور يتولد بجبال أرمنية وفارس ، وأجوده الصافى الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة ، يتخذ للحلى ، وله منافع فى الطب .

الإغريق :

من كان الإغريق ؟ تشترك الأساطير غير الواضحة وعلم العاديات فى رسم صورةٍ لشعوبٍ انحدرت جنوباً وأحدثت شغباً وبلاء لجميع الشعوب التى عاشت حول البحر الإيجى (الإغريق القديم) . وقد انمحى كلّ ما يذكّرنا بالمدنية المينوية إلى حدٍّ أن أحداً لم يعد يتذكّر مَن هم الذين حكموا ميسينيا الذهبية وهى الحصن المنيع الذى يعلو السهلَ « أرچفى » (أى الإغريق) .

ولقد أنشد الشاعر الإغريقى (هومر) ملحمةً حماسية عظيمة عن حادثةٍ فى حصار طروادة الذى قام به ، طوال عشر سنوات ، أمراء إغريقيون متحالفون بزعامة أميرٍ من ميسينيا اسمه أجا ممنون كما أنشد ملحمة أخرى عن عودةِ الأمراء الإغريقيين إلى الوطن وعن رحلات واحدٍ منهم اسمه أوديسيوس . وقد وقعت تلك الحوادث « بعد » تدمير كريت و« قبْـل » البدء فى تدوين التاريخ الإغريقى . إنها تسبح « فى الهواء » كما يقولون وإننا لنعجز عن إيجاد الدليل الذى يرفعها إلى صف الحوادث التاريخية المعروفة. إنها تماثل حكايات الملك آرثر وفرسانه التى تحدّثنا عن أشياء وقعت « بعد» سقوط روما ولكن « قبْـل » بداية التاريخ الإنجليزى المدوّن .

وعلى هذا يكون قصارى ما لدينا عن مجىء الإغريق هو مايلى : فى مكان ما حول سنة ١٨٠٠ ق. م. بدأ أسلافهم يرتّحلون جنوباً عبر ممرات الجبالِ إلى البلقان وإلى بلاد اليونان حيث ملكتْ سلالاتهم الشواطىء وجزر البحر . وقد عرفهم الإغريق الذين جاءوا بعد ذلك باسم « الآخيين الشقر » والأيونيين والدوريين . وارتحل الهنود الأوربيون بعد هذا إلى ما وراء ذلك من ناحية الغرب وهبطوا إيطاليا وبلاد الغال . ثم ارتحل بعد هذا كله حشدٌ كبير إلى الأراضى الألمانية . ولنا أن نتصوّر كلَّ هذى الشعوب وقد تبعثرت فى أصقاع مترامية ابتغاء مراع جديدة ومساكن جديدة ، العـام

تلو العام . وبما أننا نحن أنفسنا نعدّ ضمن سلالاتهم التى لا حصر لهـا فإن من الشائق معرفة ما خمّنه العلماءُ فى صدد منوال حياتهم فى العصور البائدة قبل أن يبدأوا رحلاتهم ، قل حول سنة ٣٠٠٠ ق. م.

كانوا يغزلون وينسجون ويلبسون أحزمةً على خصورهم وأرديةً فضفاضة ويربون الأبقار والخنازير والأوز . وكانت عندهم أنيار(١) ومحاريث ومركبات لها عجلات . وقد صنعوا الخبز الفطير (أى غير المخمرّ) وكانوا يسكرون بعسل النحل بعد تخميره ، ويسكنون أكواخاً من الغصون لها فتحات أو نوافذ . ولقد برعوا فى ركوب الخيل . ثم إن تلك العشائر التى أدركت الأمور بأحاسيسها إدراكاً مبهماً والتى رحلت فى تجمعاتٍ بطيئة صوب دنيا البحر الأبيض المتوسط مستصحبة مركبات وقطعاناً من الماشية ساقتها معها من المراعى الآسيوية — تلك العشائر ألفت الحصان البرّى وجاءت به إلى الدنيا القديمة المتمدنة . إنه ، بلا ريبٍ ، من مشخصات ماضينا الهامة إذ أن مجيئه غيرّ صورة الحياة . ومن سهولة قياده وقوّته جاء فارس آشور وبلاد الفرس واليونان وروما . ولقد ظلّ الخيّالُ المسلّح « أى الفارس » يسيطر على الناس حتى اخترعت المدفعية . وفى وسعنا أن نرى التأثيرات التى طبعها على عقول الناس مجىءُ الخيالة فى كلمات النبىّ العبرى ناحوم الذى يقول « صوت السوط وصوت رعشة البقر وخيل تخبّ ومركبات تقفز » .

وكان ناحوم يتحدّث عن الآشوريين . على أن الخيل والمركبات الحربية لها دورها فى حكايات (هومر) عن الإغريق وأهل طروادة .

ومن نظرتنا الأولى إلى إغريق الحقب المدوّن تاريخُها ندرك أنهم

---

(١) أنيار جمع نير (بكسر النون) وهو الخشبة المعترضة بعنق الثور أو الثورين لجر المحراث .

عاشوا فى مدنٍ مستقلةٍ كلٌ منها عن الأخريات . وكانت كلٌّ مدينة مع ما يحيط بها من مزارع تكوّن دولةً منفصلة تسمى (پوليس) . وفى بعض الأحيان كانت إحدى المدائن ترسل زمرةً من مواطنيها لتنشىءَ فى مكانٍ آخر ابنةً للمدينة . وتتمتع هذه الابنة باستقلالها التام وإن ربطتها وإياها — بطبيعة الحال — صلات القربى وإنّا لنجد ، فى القرنين الثامن والسابع ق.م. ، آثار المدائن الإغريقية فى أنحاء بلاد اليونان كافة : فى الجزُر وعلى شواطىء آسيا الصغرى والبحر الأسود وفى صقلية وعلى الساحل الإيطالى وعلى سواحل إفريقيا بل على السواحل الفرنسية ، فى مرسيليا مثلا . ومع أنّ كلاً منها تتمتع باستقلالها التام فإن مواطنيها جميعاً كانوا يعدون أنفسهم شعباً واحداً وينظرون إلى غير الإغريق كافةً على أنهم « برابرة » ويحسبون كلامَهم لغطاً لا معنى له . فلقد كانوا يقسمون الدنيا إلى إغريق وبرابرة .

وهم لم يتعلّموا قطْ أن يعيشوا فى ولايات كبيرة على شاكلة إمبراطوريات آسيا القديمة أو الأمم الحديثة . ومع هذا فإن شعباً ما لم يهتمّ بالتعمق فى (السياسة) اهتمامهم بها . و (السياسة) كلمة معناها — كما يحتمل أن تكون قد خمّنْتَ — « شئون (الپوليس) أى المدينة » . ولقد تباينت أساليب حكمهم أنفسهم . فكانوا تارة يحكمهم ملكٌ ، كما فى إسبرطة . وطوراً ينصّب رجلٌ قوىٌّ نفسه حاكماً بأمره يتصرّف وفق هواه ، ولقد ظهر — فى بعض الأحيان — من هذا الطراز ، الحاكمُ الصالح . وحيناً يحكم الأشرافُ ، وكان هذا يسمى بـ (الارستقراطية) . وأحياناً يشترك فى الحكم المواطنون جميعاً . وكان هذا، عندئذ ، أيسر منه الآن إذ أن المدن كانت من الصغر بحيث تتسع لمن بلغوا سن الرشد قاطبة فيجتمعون لمناقشة شئونهم ، كما حدث فى أثينا . وقد رأى أحكم الإغريقُ — أرسططاليس — أن كلّ نوعٍ من أنواع الحكم يمكن أن يكون صالحاً أو أن يكون فاسداً ،

تبعاً لأساليب معاملة الناس بعضهم بعضاً . ومن الجائز أن أحداً لم يفكر قط فى جلاء ولم يعبر قط عن رأيه فى السياسة فى دقة ، بقدر ما فعل أرستطاليس وأفلاطون .

ولقد كان فى وسع كل مدينة أن تجعل تاريخ إنشائها مبتدءاً لحساب أعوامها . غير أن الإغريق جميعاً أرّخوا أعوامهم من بداية إقامة الألعاب الأولمبية التى كانت تعقد مرة فى كل أربع سنوات والتى اشترك فيها متبارون من أقصى البلاد وأدناها . لقد كانوا شعب الهواء الطليق ، يعيشون ويجادلون فى ساحة السوق ، فى تدقيق واهتمام . أما اجتماعاتهم الرياضية والدينية فقد عقدوها فى ساحات الألعاب الأولمبية والمسارح المكشوفة . وكانت المسارح تُبْنَى من صفوف مدرجة من المقاعد الحجرية المستطيلة على شكل أنصاف دوائر كبيرة تقام على المنحدرات أو سفوح الجبال وفوق تلك المقاعد يتسنّى لآلاف المتفرجين أن يشاهدوا ويسمعوا الممثلين والكهان يؤدون أدوارهم فى أسفل . وما كانت مسرحياتهم محضَ لهو بل تمثيليات دينية ، تمثيليات تتحدّث عن قدامى أبطال الزمان الغابر ومصاير الناس وتأثير الآلهة . وكانت قصصهم تستمد من الأساطير الإغريقية القديمة ، وأعيادُهم الكبيرة تلازمها الألعاب الرياضية فى أماكن شهيرة : كدلفى وكورنث وأولمبيا ، ومواكبُ المشاعل — بقيادة الكهان — تنادى معلنةً عما سيحدث بما فيه مسابقات الجرى ورمى الأقراص ورشق الرماح والقفز وسباق الخيل والمركبات . وكان الفائزون يتسلمون أكاليل من أغصان الزيتون أو الغار ويظفرون بالشرف لمدنهم ، وإذا ساعدهم الحظ تغنى ببسالتهم شاعرٌ عظيم مثل بندر .

وكذلك كان الإغريق — بسبب عيشهم فى مدنٍ ساحلية — ملاحين

قديرين وتجاراً ناجحين وكانوا أيضاً جنوداً أشداء، وقد استأجرت مصر وبلاد فارس كثيراً من شبابهم فى خدمتهما العسكرية .

وأدهش ُما لدى الإغريق براعة ُ معماريهم المذهلة وخزّافيهم ومثاليهم وما يزال البارثينون — وهو معبد الآلهة أثينا الذى يقف فى الدرء ، شامخاً فوق أثينا — يُعد واحداً من أجمل مايحويه العالم ُمن مَبَـان . وهو اليومَ لا يعدو كونه حجارةً رمادية مخضبةً بخطاب ضاربٍ إلى حمرةٍ حائلة . أما فى أيامه الأولى الزاهرة فكان يومض بالألوان تزينه أروعُ التماثيل والنقوش البرونزية . والخزف الإغريقى متقن إلى درجةٍ تحسبه معها من صنع الطبيعة لا من صنع الإنسان . ويرتفع إلى مثل تلك الروعة : الشعر الإغريقى وحكمة ُ الفلسفة اليونانية . فتمثيليات إيسخولوس ويوربيديس وسوفوكليس ما تزال تقرأ على أنها من أروع ما كتب إطلاقاً . وفلاسفة ُ الإغريق ما يزالون محل دراسةٍ من أجل حكمهم . قال العالم الرومانى شيشرون : « الاغريق أساتذتنا فى كل فروع المعرفة » . وهذا القول الذى صدر فى القرن الأول قبل الميلاد مايزال يصدُق إلى اليوم . نعم إن علومنا لم تُـتَـحْ لهم ولـكنها قائمة على تقديراتهم فى صدد الـكرة الأرضية . وكل من يتعلم الإغريقية يعرف أن الإغريق امتازوا بأمرٍ عظيم وهو أن لغتهم كانت فى حد ذاتها شيئاً فائق الجمال والصفاء .

ونحن نحكم على أى شعب بمقتضى أحسن ما لديه . وأحسن ما لدى الإغريق لا يعلو عليه شىء حتى الآن . غير أن علينا أن نتذكر أن الإغريق كانوا وافرى العدد وأن الـكثيرين منهم أتصفوا بالغدر والخداع و — بوجه أخص — بالميل إلى المخاصمة . ولـكنهم ربما كانوا أغزر ألمعيةً من أى شعب عرفه العالم على الإطلاق وهذا هو سبب اهتمامنا بالسؤال : من كان الإغريق ؟

مجد المدن الإغريقية وانحلالها :

فى سنة ٤٩٠ ق.م. أشعلت المدنُ الإغريقية بآسيا الصغرى ، على الملك الفارسى دارا ، ثورة ساعدهم فيها جنودٌ أثينيون . فأرسل دارا جيشاً بغية الاستيلاء على أثينا . ولكن عندما نزل هذا الجيش من سفائنه الكبيرة إلى وادى ماراثون هزمه الرّماحةُ الأثينيون — بقيادة ملتيادى — هزيمةً حاسمة.

وبعد عشر سنوات جمع ملكٌ فارسىٌ جديد — إكسركسيس — من كلّ أملاكه جيشاً حاشداً وزحف به عبر الهلّسپونت إلى داخل أوربا ، فوق جسرٍ من القوارب . ثم اتجه شمالاً إلى تراقيا وهبط بعدئذ إلى أثينا . وأرسل ، فى الوقت نفسه ، أسطولاً من ألف ومائتى سفينةٍ كبيرة . إلى الشاطىء الإغريقى . واضطر الأثينيون إلى أن يهجروا مدينتهم التى حرقها العدوّ فوراً . غير أن جيشاً من إسبرطة وقف على أهبة الاستعداد لشدّ أزرهم على أنه — منذ حرب دارا قبل ذلك بعشر سنوات — أنشأ الوزير الأثينى ثيميستوكليس عمارة بحرية بالغة القوة . وقد جاء دور هذه العمارة البحرية الآن . فلقد رقب إكسركسيس وحاشيته من فوق الصخور التى تعلو خليج سلاميز — رقبوا سفائن أثينا تدمر أسطوله فى معركة عاتية استمرّت طوال اليوم . وهذا ما حدا كسرى إلى العودة إلى بلاد الفرس تاركاً وراءه جيشاً قوياً ليقضى الشتاء فى بلاد اليونان ثم يستأنف الحرب فى الربيع . غير أنه فى السنة التالية دحر القائد الإسبرطى — پوزانياس — هذا الجيش فى بلاتايا .

وهكذا استطاع أسطول أثينا فى سلاميز وجيش إسبرطه فى بلاتايا أن ينقذوا بلاد اليونان من أن تصبح جزءاً من إمبراطورية الملك العظيم . فلقد أخفق فى قهر اليونانيين إكسركسيس ملكُ الملوك الذى امتدت إمبراطوريته بين الهند ومصر والذى بلغت جنودُه عدداً لا يحصى كأنها رمال ساحل

البحر . وهناك حكاية من حكايات الحرب ينبغي ذكرها مراراً وتكراراً وهي حكاية ليونيداس ملك إسبرطة وفرقته التي كان قوامها ثلاثمائة من الرجال الغيورين .

كان على جيش إكسركسيس العرمرم ، في زحفه الطويل المدى على جنوب بلاد اليونان ، أن يجتاز الجبال عبر ممر ترموبيليا أي الينابيع الساخنة . وكان ذلك الممر في حوذة ليونيداس ورماحته يعاضدهم ألف محارب من تسبا .

وكانت الأرض الواقعة شمالي ترموبيليا تعج بجحافل الفرس المشكلة من كل محاربي آسيا والشرق : هنود يرتدون القطن ونبالة من بكتريا وعرب في أردية فضفاضة وزنوج إفريقيين في جلود النمور وجحافل من شعوب أخرى تلبس كل أنواع الثياب الغريبة وتحمل كل أنواع السلاح من الرماح المنتهية بقرون إلى الهراوات الغليظة ذوات الأزرار الحديدية . وقد حوى هذا الجيش خيالة يحاربون بالمزاريق والأقواس . وقد توسط الجميع مشاة ميديا المعروفون يلبسون معاطف وسراويل من الجلد وطواقي من اللباد ويحملون حراباً ودروعاً من الغصون المضفورة . وحف بشخص الملك العشرة الآلاف من الخالدين وهم حرس خاص منتخب من أشراف الفرس .

وجلس إكسركسيس في حلل أرجوانية(١) على كرسي من الذهب وشهد رجاله يهجمون ، واستطاع ليونيداس وجنوده الإسبرطيون ، ومعهم جنود تسبا ، أن يحافظوا ، في يسر ، على المضيق وأن يقنصوا المديين في ذاك الممر — البالغ عرضه ٥٠ قدماً — بحرابهم الإغريقية الثقيلة الطويلة ، وعندئذ هجم الخالدون ، وانتهى اليوم دون أن يتسنى لهم الاستيلاء على الممر ، وتكرر الأمر في اليوم الثاني .

---

(١) الأرجواني رمز السلطان والرفعة .

وتبرع إغريقى من تلك الأنحاء فأرشد الفرس إلى طريق سرية فوق الجبال منها يمكنهم أن يفاجئوا ليونيداس من الخلف .

وتبع الفرس دليلهم فى صف مفرد هابطين الدرب الوعر عبر غابات سوداء سواد القار (الزفت) سائرين فى جهات تنتثر فيها الصخور وعلى طول مجارى المياة ، درب لا تيسع لأ كثر من ماعز واحدة . وسمع الإسبرطيون ، ليلا ، دبيب أقدامهم المستمرة المبهمة على ورق الشجر المتساقط وعجبوا للصوت . وعند الفجركان جيش من جيوش العد وقد بلغ إلى خلف المضيق .

وصمد ليونيداس ورجالة ثم تحركوا إلى حيث أخذ المضيق يتسع ويتسع ، وانتظروا استئناف الحملات . وأمعنوا فى المحاربة وقتلوا فئات كثيرة من البربر بينهم إخوات إكسركسيس . فلما تكسرت رماحهم عمدوا إلى سيوفهم ، ولما لم تسعف تلك حاربوا بأيديهم . ولمت الشرذمة الأخيرة شعثها واستجمعت قواها فى نهاية أضيق مكان ، وهناك سقطوا قتلى جميعاً . وإذ ذاك كان الخالدون فى طريقهم إلى أثينا . ولكن ليونيداس ورجاله رعوا عهدتم الذى قطعوه . وقد نبعت هذه البسالة الخالصة من تنشئة الإغريق على الطاعة والوطنية الدافقة من أجل مدينتهم ، وطنية لم تنشأ عليها الإمبراطوريات الآسيوية العظيمة .

وبعد أن انتصرت أثينا فى سلاميز وغيرها أضحت ، بزعامة بركليز ، مركز إشعاع عظمة اليونانيين . فقد أعادت مدنها تشييد بيوتهم ومعابدهم التى زانتها تماثيل فيدياس ، وكتب إيشخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس للملهى العام تمثيليات ماتزال تقرأ وتمثل حتى الآن ، ولقن أفلاطون تلاميذه الفلسفة فى غيضة أسموها الأكاديمى (أى مجمع العلماء) . وكان من تلاميذه : أرسطو الذى اشتهر شهرة أستاذه . ولقد اغتر الأثينيون ، فوق

هذا كله ، بدرايتهم كيف يعيشون أطيب عيش يعيشه الأحرار . ومن أنفس الخطب على مر الزمان تلك التى ألقاها بركليز عندما تكلم عن أولئك الذين ماتوا فى حرب الفرس . قال : « إن مدينتنا مفتوحة للجميع . ونحن أبداً لا نطرد أجنبياً أو نصده عن رؤية أى شىء أو عن تعلمه . ونحن نحب كل ما هو جميل ولكن أذواقنا مع ذلك بسيطة ، ونستخدم الغنى لا للظهور بل وفق حاجتنا . والفقر ليس عاراً ، أما العار الحق فهو أن تكون فقيراً ولا تصنع شيئاً لمساعدة نفسك ، وإنا لنعد كل امرىء لا تعنيه مدينتنا شخصاً لا يرجى منه ، ونفكر قبل أن نعمل ثم نعمل فعلا . وإنى لأريدكم على أن تركزوا أبصاركم ، اليوم بعد اليوم ، على قوة أثينا حتى يفعمكم حبها وحتى يدفعكم صدى ذلك إلى الإيمان بأن قوتها إنما صنعها رجال عرفوا واجبهم وملكوا الشجاعة للقيام به » .

ولكن وأسفاه ! لأن الأثينيين الذين انتزعوا الزعامة من الفرس لم يلبثوا أن أكرهوا المدن الإغريقية التى تقل عن مدينتهم شأناً على أداء الضرائب إلى خزانتهم بل إنهم حاربوها . وبعدئذ قامت فى سنة ٤٣١ حرب بين أثينا وحلفائها وبين إسبرطه وحلفائها ، حرب دامت نحو سبعة وعشرين عاماً وجلبت الشقاء على الآلاف : ولقد كانت حرب البولوبونيز (وهذا اسم طويل ولكنه يستأهل أن نتذكره) فى واقع الأمر حرباً أهلية ذلك لأن الإغريق كانوا شعباً واحداً وتعاملوا على أنهم كذلك وإن لم يتعلموا قط أن يتعاونوا طويلا .

وفى أثناء حرب البولوبونيز احترف آلاف من الإغريق صناعة الحرب ونزحوا عن مدنهم ليحاربوا للمصريين أو للفرس أو للقرطاجنين وأصبحوا مرتزقة يؤجرون رماحهم وسيوفهم لقاء جعل . ولقد جاء فى كتاب من الكتب القديمة أن زينوفون الأثينى خلف لنا حكاية بديعة الصياغة عن تقهقر العشرة الآلاف إغريقى من بابل عبر جبال أرمينيا الموحشة إلى سواحل

البحر الأسود . وانضم أولئك العشرة الآلاف إلى جيش أمير فارسى اسمه كيروس . فلما قتل ألفوا أنفسهم مهجورين بلا أصدقاء فى بلاد غريبة . وأفلتوا بالطريقة الوحيدة التى وسعتهم ، وكانوا من أركاديا وأثينا وطيبة ومن مدن كثيرة غير هذى . ذلك أنهم ثابروا على السير شهوراً ، مكدودين مرهقين عبر مضايق الجبال والنجود الباردة الكئيبة وقد عضهم الجوع والقر وتعثروا فى العواصف الثلجية تحارب مؤخرتهم القبائل المناجزة ، حتى ظفروا آخر الأمر بالوصول إلى أوطانهم .

ولم يتح للمدن الإغريقية قائد عبقرى ولكنهم لم يعوزهم قط رجال يبتغون المغامرة خارجها . على أن الإغريقيين لم يلبثوا أن وجدوا القائد فى شخص الأمير المقدونى : الإسكندر (١) .

الإسكندر :

كان المقدونيون شعباً جلياً خشناً مجانساً لإغريق المدن . ولقد حول ملكهم فيليب إلى أمة من جنود حسنى التدريب وسلكهم فيالق من الرماحة منظمة على شكل مثلث طويل الضلعين . فلما مات — بعد أن نصب نفسه سيداً على كل الأصقاع الشمالية باليونان — خلفه على العرش ابنه الإسكندر وكان فيليب قد أعجب بمدينة الأثينيين وجعل من فيلسوفهم الكبير، أرسطو، مؤدباً لولده . أما سؤال : هل كان لهذا تأثير فى توجيه الإسكندر ليسى أعجوبة الدنيا ، فليس فى وسع امرىء أن يجيب عن هذا السؤال .

وكان عمر الإسكندر عشرين سنة عندما تبوأ العرش .

---

(١) أنظر شكل — ٢ — (امبراطورية الإسكندر الإغريقية ؛ امبراطورية الفرس ثم اليونان ومقدونيا وتراقيا) .

ولقد استطاع — بجيش أبيه تحت إمرة قواده البارعين — أن يعبر الهلسبنط ليدخل آسيا ويعجل فتح آسيا الصغرى والشام ومصر . ثم دخل بقاع ما بين النهرين ودحر دارا الثانى ملك الفرس فى جوجيميلا بالقرب من نينوى . ولم يكن الفرس أكفاء للقاء الإغريق ، المدججين بالأسلحة الثقيلة المتراصين فى فيالقهم ولا فرســــان الإغريق الذين تقدموا من الجناحين مكتسحين . ولقد أغار أكسركيس على أوربا — قبل ذلك المقدونى بقرن واحد — ولكن كان نصيبه الاخفاق . أما الآن فإن الاغريق — بقيادة ملكهم الشاب الرياضى الوسيم — فقد ظفروا بالشرق كله .

وبقى ما صنعه بعدئذ لا يضارعه شىء على مر التاريخ . ولقد قاد جيشه شرقاً عبر هضاب فارس ودخل الافغانستان والتركستان ، وقضى الشتاء بين قبائل الافغانستان الجبلية المتوحشة . وفى الربيع اجتاح الهند . وقد انحدر فى الممرات الطويلة الكثيرة الالتواء بجبال الهملايا ودخل البنجاب التى استسلم أميرها . وعاد بعد أن زحف زحفاً شاقاً عبر قفار بلوخستان اللافحة وقد خلف وراءه شهرة وذكرى لشخص « إسكندر » لم تخمل على مر الاجيال ذلك أن الاسكندر لم يكن قائداً عبقرياً وفاتحاً فحسب ولكنه عرف أيضاً كيف ينظم الرجال والشئون وأبدى حكمة بعيدة النظر . ولم يظهر قط محارب مثله أو جيش كجيشه . غير أنه لم يوجد قط كذلك شعب كالإغريق . أما مسألة ماذا كان يصنعه الإسكندر أكثر من ذلك لو أن حياته استطالت إلى المدى المألوف فلا يقدر إلا تخميناً . ولكن شعبه فجع فيه إذ مات بالحمى فى بابل ، سنة ٣٢٣ ق . م .

لقد تسنى له — بعد حرب وجهد لم ينقطعا طوال عشر سنين — أن يغير العالم . لقد صنع إمبراطورية امتدت من الاندوس إلى النيل والبحر الادرياتى ، ولم جميع الناس تحت سلطانه ليعجبوا بالإغريق ويتمثلوا بهم . وبعد وفاته قسم قواده إمبراطوريته وأضحوا ملوكاً وشيدوا ممالك فسيلوقس أخذ سوريا

والعراق ، وبطليموس أخذ مصر ، ووأنتيجونوس تملك مقدونيا . ولئن كان الإسكندر قد أسس مدناً — ونخص بالذكر الإسكندرية فى مصر — فإن قواده ، بالمثل — أسسوا مدناً إغريقية فى أنحاء الشرق كافة . ولقد امتلأت ممالكاتهم بالجنود الإغريق والتجار الإغريق والعلماء الإغريق . وفى كل مكان اتخذ الناس العادات الإغريقية وتعلموا التحدث بالإغريقية لتكون لغتهم المشتركة . وفى كل المدن الشرقية حلت هندسة البناء الاغريقية والثياب الاغريقية وألعاب المصارعة الإغريقية ومعرفة الإغريق وطبهم وعلمهم وفلسفاتهم وعاداتهم ، حلت كل هذه محل نظائرها مما كان متبعاً . وحتى بعض اليهود — وهم أكثر الشعوب عناداً — اتخذوا الأساليب الإغريقية وشاركوا فى الالعاب الاغريقية بل ذهبوا إلى ترجمة كتبهم المقدسة إلى الإغريقية وقد قصدوا بذلك أن لا ينسى اليهود الذين لا يعرفون من اللغات غير الإغريقية ديانة أسلافهم . وعلى هذا بقى كل شىء على ما كان عليه حتى جاءت الكتائب الرومانية بل إنه بقى حتى اجتاحت تلك الكتائب الشرق . وعندما كتب أصحاب عيسى تاريخه كتبوه بالإغريقية ، وظل النصف الشرقى من مدنيتنا إغريقياً عشرة قرون .

ولا عجب إذن أن التلاميذ الإنجليز درجوا على دراسة آثار الإغريق الأدبية وما زالوا يفعلون .

جوابو البحار ومدن غرب البحر الأبيض المتوسط :

فى القرن الثامن قبل الميلاد — وقتما كان ملوك آشور يقودون فرسانهم ومركباتهم الحربية ويدكون حصون مدن الشرق بالمنجنيق — تشكلت مدينة على ضفتى التيبر فى إيطاليا . وكانت تلك ، روما .

وتقول الأساطير إن روما تأسست فى سنة ٧٥٣ ق . م .. والأولى أن نقول إنه فى منتصف القرن الثامن عشر كانت هنالك مدينة تجارية صغيرة

على التيبر لها جسر على النهر : جسر ذو أهمية كبيرة جداً إلى حد أن لقب بانى الجسور (الحبر) بقى إلى الأبد بعدئذ ، موضع تجلة عند الرومان . ونحن حتى اليوم نلقب بابا روما بحبر الأحبار . وكانت تلك المجموعة ، من الأكواخ والمساكن ملاذاً وسوقاً (أو « ساحة ») للفلاحين المتكلمين باللاتينية الذين تيسر لهم هناك أن يقايضوا الحبوب والحيوانات بالأسلحة والأدوات البرونزية والحديدية التى أعوزتهم .

كان هذا بداية روما ، ولدينا الكثير من مسجلات الآشوريين والشرق فى القرن الثامن ولكن ليس لدينا إلا القليل من مسجلات غرب البحر الأبيض المتوسط الذى فيه يفرغ تيبر روما مياهه . ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن القبائل التى عاشت فى الأصقاع الغربية ولا نعرف إلا النذر اليسير عن جوابى البحار الوافدين من الشرق ومن المدن التى أسسوها لتجارتهم .

لقد وجد هناك ، أول الأمر ، الفينيقيون وهم ملاحوا صور وصيدا الأغنياء المغامرون الذين حفظوا سرهم وكتموا عن الأجانب معلوماتهم عن البحار . وكانوا أهم الرواد الذين أبحروا غرباً للتجارة والكسب . فكانوا فى بلادهم ، على الساحل السورى — يصرفون تجارة آسيا ومصر . وقد اشتهر صناعهم بحذق الصناعات المعدنية ، وفى الخارج أنشأوا مدينة اسموها قرطاجنة (أى البلدة الجديدة) على الساحل الإفريقى المواجه لجزيرة صقلية . وبنوا كذلك ، على سواحل صقلية وأسبانيا ، مدناً إحداها وراء البحر الأبيض المتوسط على مصب نهر الوادى الكبير اسمها قادس . ومن المحتمل أن أهالى أسبانيا استغلوا مناجم النحاس الأحمر والصفيح . ومن المحتمل أيضاً أنهم اعتادوا الإبحار فى الأطلنطى إلى جزائر سكيلى وإلى كورنوول كما اعتادوا أرسال سفن تنحدر إلى ساحل إفريقيا الغربى . ولقد احتفظوا لأنفسهم بكل ما استكشفوه وظل غرب البحر الأبيض بحرهم سنوات طويلة .

جداً . أما من عسى أن تحدثه نفسه من ربانى السفن الإغريقية بالإقلاع إلى هناك فإنما كان يفعل ذلك وهو يعرض نفسه للخطر .

وكان ينافسهم إغريق البحر الأصلى ومجموعة جزائر البحار الإغريقية . فلقد أسس الإغريق مدائن فى جنوب إيطاليا وفى صقلية وعلى شاطىء فرنسا الجنوبى كسرقوسة ومرسيليا .

وكانت سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط الممتدة ، دنيا جديدة لأولئك الملاحين . وقد تاجر الفينيقون والأهالى طلباً للمعادن والجلود ، مقايضين عليها بالأقمشة المنسوجة والخزف وأدوات الزينة وقد اعتادوا — كلما أقلعوا وجدفوا سائرين على مرأى من اليابسة متنقلين بين معالمها — أن يلقوا مراسيهم بالبلاد التى أنشأوها حيث تنتظرهم البضائع وحيث يتفاوضون مع أهل داخلية البلاد الذين يقلون مدنية .

ولقد كان هناك شعب ذو مدنية درج هو أيضاً على جوب البحار ومبادلة السلع إلا أن هذا الشعب قد عاش فى الأراضى المغربية ، فى الأقليم المتعثر الواقع بين جبال الأبينين الإيطالية والبحر شمالى روما وكان هذا الشعب هو شعب الأتروريين (الاترشك) . عاشوا فى مدن أو نحو ذلك وحكمهم سادة أو ملوك ، تماماً كفلسطينيي العهد القديم . ولقد ترك أولئك أثاراً تذكارية لهم، إذ كانوا يدفنون موتاهم فى حجرات قدت فى الصخر ويضعون لهم أثاثاً وأمتعة يستعملونها فى الحياة الأخرى . وقد نقشوا كتابات بالحروف الإغريقية غير أننا لا نستطيع قراءة الكلمات لأن اللغة غريبة علينا . ولقد تفوقوا فى الصناعات اليدوية الدقيقة والمصنوعات المعدنية والخزفية ، ومصنوعاتهم البرونزية والذهبية تسر الناظرين ، وخزفهم يدانى خزف الإغريق وإن قل عنه جمالا . وهم عرفوا كيف يبنون العقود(١) ولم يعرفها

---

(١) العقد — بفتح العين — ما عقد من البناء (أعلاه مقوس) .

الإغريق . ولقد استحدثوا الخيل والمركبات الحربية وتركوا صوراً لحفلات الصيد والأعياد ويبدو أنهم ولعوا بالموسيقى . ولا يعلم أحد من أين جاءوا أول الأمر ، ويحتمل أن يكونوا قد وفدوا من الشمال والشرق. وبما أنهم كانوا جيران القبائل اللاتينية الأشداء وبما أن يكونوا ملوكهم حكموهم فى روما أكثر من مائتى عام فقد دخل حياة الرومان الكثير من حذقهم وعاداتهم : إنهم أعطوا الرومان أبواقهم الحربية الطويلة وأرديتهم الأرجوانية وحزيمتهم(١) التى اتخذوها رمزاً يحمل أمام حكام الرومان . وكثير من الأسر الرومانية انحدر من هذا الجنس الغريب . وقد ألف بعض كتاب الرومان عنهم كتباً ضاعت لسوء الحظ .

وعلى هذا يمكن أن يعد الأتروريون بين مؤسسى أوربا .

وتنبئنا قصص روما القديمة كيف نمت المدينة وكيف طرد الشعب ملوكهم الأتروريين (أسرة تركوين) فى وقت ما حول سنة ٥٠٠ ق. م .. وتنبئنا بعد ذلك كيف استولى الغال على المدينة فى سنة ٣٩٠ . ففى ذلك الوقت أخذ نور التاريخ يزداد سطوعاً ولذا بدأنا الآن نستمتع بقصة أكثر تدفقاً . كان الغال — وهم أمة همجية — يزحفون عبر أوربا من الشرق . وكان بعضهم — قبل هذا بفترة طويلة — قد أغار واستقر فى آسيا الصغرى فى المنطقة التى سميت فيما بعد ، جالاتيا وحول سنة ٤٠٠ بلغوا شمال إيطاليا. وفى سنة ٣٩٠ هبط مقاتلوهم مضايق جبال الألب ودخلوا إيطاليا حيث هاجموا المدن الأترورية ثم استولوا على روما كلها ، كلها فيما عدا الحصن . وتقول الحكاية القديمة إن الأوز المقدس المحتجز فى المعبد قلق عندما سمع العدو يقترب خلسة وهكذا استيقظ الرومان وردوا الهاجمين . غير أن الرومان أكرهوا على دفع فدية باهظة ليستردوا مدينتهم قبل أن يرضى

(١) الحزيمة — بفتحة فكسرة — قضبان محزومة على فأس وهى شعار رومانى .

الغال بالانسحاب إلى سهول نهر البو الخصيبة ، فى شمال إيطاليا . وفى ذاك الوقت كان أقرباؤهم يرتحلون إلى أقصى الغرب فى الموضع الذى يسمى الآن فرنسا والذى سمى بلاد الغال بناء على ذلك .

وحول هذا الوقت كان الرومان بسبيل العمل على ذيوع صيت مدينتهم. فلقد تعلموا الكثير من الإغريق والأتروريين : فبنوا السفن ومارسوا التجارة بحراً وتداولوا النقود واقتبسوا الحروف الهجائية الإغريقية وحوّروها تحويراً بارعاً يناسب لغتهم ، وانتقل هذا مع الوقت إلى شعوب الغرب قاطبة وعلى ذلك فهذا الكتاب الذى تقرؤه الآن (الكلام هنا على النسخة الإنجليزية) مطبوع بالحروف اللاتينية أو الرومانية .

اشتبك الرومان مع جيرانهم فى حروب عديدة . ويبدو فى قصصهم القديمة أنهم يماثلون كل المماثلة أسلافنا الأنجلو سكسون — فهم مزارعون ومحاربون : رجال كانوا يفلحون مزارعهم ويذهبون لملاقاة عدوهم فى الهيجاء ، كانوا شعباً باسلا دؤوباً قوياً يعرف معنى الواجب حق المعرفة .

والمعجز حقاً عند الرومان : أسلوبهم فى حكم أنفسهم .

ولقد حكم روما ـ بعد طرد أسرة تركوين ـ سناتو(١) أو مجلس أعيان و « رجلان » يطلق عليهما اسم القنصلين . وكان هذان القنصلان يعملان معاً كما قد يعمل ملكان : يقيمان العدل ويسنان القوانين بموافقة السناتو ، مع تساويهما فى السلطان وكان لكل منهما — فى واقع الأمر — أن ينقض أى أمر يصدره زميله . وفى الحروب درجا على أن يقودا الجيش بالتناوب يوماً بعد يوم . وهذا يبدو الآن أكثر غرابة مما بدا فى تلك الأيام التى فيها كانوا يجالدون بعضهم البعض بالأيدى فى مواقع قد لا تدوم غير يوم واحد. وبطبيعة الحال يمسى الأمر أكثر يسراً كلما كان القنصلان متحابين . ولكن المهم هو ما يلى : كان القنصلان يستبدل بهما غيرهما بطريق الانتخاب

(١) السناتو مجلس الشيوخ

فى كل عام . وعلى هذا المنوال فكر الرومان فى تجنيب مدينتهم أبداً أن يتسلط عليها حاكم بأمره . وأشبه الناس عندنا بالقنصل : محافظ المدينة .

وكان مجلس الأعيان هو صاحب السلطان الرئيسى. والعضو يظل عضواً مدى الحياة . ولقد ضم السناتو كل من شغل وظيفة قنصل . ولم يسبق فى تاريخ العالم أن هيئة برعت فى الحكم أكثر من السناتو فى أوجه . وحسبك ما قاله كاتب تاريخ المكابيين اليهودى فى الكتاب المقدس . إنه يتبئنا بما كان يراه — فى السناتو — رجال ألموا كل الألمام بأحوال الملوك والعظماء من وزرائهم .

قال عن أعضاء السناتو : « وفى هذه جميعاً لم يكللوا أحداً منهم إكليلا أو يلبسوه أرجواناً ليتعظم . وصنعوا لأنفسهم ديواناً . وكل يوم كانوا يستشيرون ثلاثمائة وعشرين مؤتمرين دائماً لأجل الجماعة لكى يصلحوا ذواتهم » .

وهذه تحية جليلة .

كيف بسط الرومان نفوذهم على العالم:

فى سنة ٣٩٠ ق . م . عندما استولى الغال على روما ونهبوها اشتبك الرومان، سنوات عديدة، مع جيرانهم: السمنيين والأمبريين والأترورين. وقد نظموا مواطنيهم فيالق برئاسة نقيب لكل مائة جندى وهؤلاء الجنود المواطنون — يقودهم القنصلان فى كل عام — حكموا إيطاليا الوسطى كلها . وتتجلى وطنية الرومان الراسخة الخالصة فى حكايتهم عن سنسناتوس الذى استدعوه من المزرعة لقيادتهم عندما حصرتهم الحرب ، وبعد أن قادهم فعلا إلى النصر عاد إلى مزرعته . وفى مرة أخرى ، عندما كان الرومان يحاربون المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا ، خف الملك الإغريقى بيروس — من بر اليونان الأصلى — لنجدة أقربائه . وحاول بيروس أن يرشو القائد الرومانى كاسيوس فابريسيوس . ولكن هذا الرجل الأخير ، الذى

لم يكن غير فلاح فقير مثل سنسناتوس ، أبى أن يرتشى . غير أنه ، عندما عرض أحد عبيد بيروس أن يدس السم لسيده إذا أجره فابريسيوس على ذلك ، كتب هذا الأخير من فوره إلى بيروس يطلعه على المكيدة . وتبين هاتان الحكايتان — ومثيلاتهما كثيرات — السبب فى أن الرومان ظفروا باحترام الناس وثقتهم : وكان أكبر ما يقدره الرومان : « الفضيلة » ، وأعنى بها كل المناقب التى تخلق الرجل الطيب والمواطن الصالح وهى : الشجاعة ، والشعور بالواجب ، والشرف ، والوفاء ، وحب الوطن والأقربين. ولهذا نجدنا اليوم ما نزال ندرس القانون الرومانى ونجد القوانين الحالية فى كثير من البلاد أساسها القانون الرومانى .

وبينما كان الرومان يبسطون سلطانهم فى كل مكان بإيطاليا كان الإسكندر الأكبر يبسط سلطان الإغريق فى كل مكان بالشرق . وكان الملك بيروس من بين أولئك الذين تقاسموا إمبراطوريته الإغريقية بعد وفاته : وكثيراً ما تساءل الناس عما كان عساه يحدث لو أن حياة الإسكندر امتدت حتى يلتقى بالرومان فى ميدان القتال . غير أن الحرب التى شبت ابتغاء السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط كان الخصم فيها عدواً يختلف اختلافاً كبيراً عن روما ، كان هذا الخصم قرطاجنة التى استولى أمراؤها التجار على صقلية وسردينيا ومناطق من أسپانيا. وكما تخاصم الفرس والإغريق خصاماً مريراً للسيادة على الشرق تخاصم الرومانيون والقرطاجنيون خصاماً مريراً للسيادة على الغرب .

كان التجار القرطاجنيون جد أثرياء ، وكانوا يتكلمون لغة كالعبرية غير أن كل مسجلاتهم قد اندثرت . وجدير بالذكر أن كل مانعرفه عنهم ، على وجه التقريب ، مصدره مسجلات أعدى أعدائهم وهم الرومان . ولقد كانت مدينتهم العظيمة قرطاجنة المركز التجارى للقوافل الطويلة الوافدة من الريف الإفريقى ولزمر التجار الآتية من البحر عبر قناة ضيقة تصب

فى مرفأ قرطاجنة الصناعى الكبير داخل أسوار المدينة . وعلى المرسى الكبير كانت تفرغ شحنات الفضة الأسبانية والخمور وأقمشة الشرق وتوابله وسبائك القصدير الواردة من الجزائر التى تلى مضايق جبل طارق . ولقد حكم القرطاجنيون خليطاً من الجماهير : من مصريين وغال وإغريق وليبيين وأسبان وسردينيين ونوميديين متفاوتى السمرة . وكان إله قرطاجنة(١) ، «بعل» الذى ورد ذكره فى الكتاب المقدس . وفى أوقات الشدة والخطر كانوا يحرقون الآدميين أحياء حتى الأطفال الابكار وذلك لكى يحملوا بعمل على أن يحبوهم النصر . وكان جيشهم ، فيما عدا فرقة مختارة من شباب الإشراف ، جيش مرتزقة مشكلا من شعوب عديدة : من الإغريق والغال ومشاة السردينيين ومن الخيالة الليبيين الماكرين الخفاف الحركة . وقد عرف القرطاجنيون المسالك البحرية خيراً مما عرفها الرومان : وكانوا مرشدين وبحارة ممتازين ولكنهم كانوا من الثراء بحيث يستطيعون أن يؤجروا شعوباً أخرى ليحاربوا لهم على اليابسة .

كانت صقلية منذ البداية — كحال بلچيكا — ميداناً تلتقى فيه الأمم المتنافسة وتشعل حروبها التوسعية . فلقد غزا بلجيكا الألمان والفرنسيون والأسبان والبريطانيون ، كما غزا صقلية : الإغريق والقرطاجنيون والرومان. وعندما طرد من صقلية الملك الإغريقى بيروس صاح قائلا : « ما أبهج البلد الذى أنا تارك لروما وقرطاجنة ! » ولقد آلت تلك الأرض البهجة إلى روما . ذلك أن الرومان شيدوا لأنفسهم عمارة بحرية قوية ، وتعلموا من النكبات كيف يحاربون فى البحر ، وهزموا القرطاجنيين وأجلوهم عن الجزيرة . وعندئذ أمست روما سيدة إيطاليا وصقلية جميعاً كما استولت جيوشها على سردينيا . وأصبحت إذ ذاك الدولة البحرية المظفرة فى الغرب .

(١) بعل إله السوريين والأشوريين القدماء .

وأخذ القرطاجنيون يحلمون بأخذ الثأر ، وكان ذلك واجبهم إذ اعتزموا أن يحافظوا على تجارتهم وهى قوام حياتهم . وهكذا كان الوضع فى سنة ٢٢٠ ق . م .

وبعد ما انقضى على ذلك ثلاثة وخمسون عاماً كتب مؤرخ إغريقى ألمعى اسمه بوليبيوس ، وكان ضيفاً كريماً ببيت أحد نبلاء روما — كتب يقول « هل يوجد امرؤ خامل الفكر أو جاهل إلى حد أنه لا يرغب فى معرفة كيف استولت مدنية روما على العالم أجمع فى مدى ثلاثة وخمسين عاماً ؟ » . ثم أجاب عن السؤال الذى سأله بتاريخ طويل مشرق .

وإليك مجمل ما حدث من القواد المشهورين ومن التبديلات المذهلة فى الأوضاع والمصاير .

من القرطاجنيين الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى الأخذ بالثأر شاب اسمه هانيبال ، وقد عقد النية على محاولة تدمير روما . فجيش جيشاً غزا به أسبانيا وسار مخترقاً الغال وعبر نهر الرون ناقلا فيلة الحرب على أطواف(١) صنعها بحيث تبدو كأنها جزر ، وتسلق جبال الألب وهو يقدح صخور الممرات ويفلقها بالنار والسوائل المذيبة ، وانحدر إلى السهول الإيطالية بجنوده المرتزقة وفيلته ، ودمر ثلاثة جيوش رومانية ، وأثار شعوب إيطاليا على روما . وبدلا عن مهاجمة روما نفسها نهب الريف ، وقد أقلق ذلك الرومان فاختاروا — على عادتهم — رجلا واحداً ليكون « حاكماً مطلقاً » ، أو السيد الأعلى ، فى ذاك الوقت وقت الخطر والمحنة . ولقد ذاع صيتُ ذلك الرجل — فابيوس — بالتفادى من الحرب وبالحرص على جعل هانيبال دائم الترقب والوبكة ، وذلك بالغارات المستمرة والتوعد بالانقضاض . غير أن القنصلين اللذين أعقبا فابيوس ، دحرهم هانيبال دحراً تاما فى (كانى) حيث داس فرسانُ ليبيا بسنابك خيلهم ثمانية فيالق .

(١) الطوف أخشاب مشدودة يعبر بها الماء طفواً .

وكانت روما ما تزال تحتفظ بسفائنها . فاضطلع سيبيو الإفريقي بقيادة الجيش الروماني في أسبانيا فأخضع تلك البلاد ونقل الحرب إلى أبواب العدو بغزوة إفريقا وإكراه قرطاجنة على عقد الصلح . وقد ظل هانيبال في إيطاليا ستة عشر عاماً كانت مديدة مضنية بالنسبة إلى شعب روما . وعاد الآن لينقذ قرطاجنة ولكن سيبيو هزمه هزيمة ساحقة في زاما بإفريقيا في ، سنة ٢٠٢ ، فأمست قرطاجنة إيالة تخضع لروما وتذعن لمشيئها .

وقد أثار هانيبال الإغريق ليحاربوا روما . ولكن فيالقها التي شدت عزمها ممارسة الحروب انتصرت على زُمر المقدونيين . قهرت جيوش ملك سوريا وآسيا الصغرى الإغريق واستولت على مصر بدون قتال . وكل هذا ذكره بوليبيوس في كتابة . أما سبب انتصار روما فكان — في نظره — إتحاد الرومانيين ووطنيتهم ، وفضيلة قوادهم ، والأسلوب الحكيم الذي كان السناتو يسوسهم به . ولقد كان الإغريق — كسابق عهدهم في كل حين — أرجح الناس عقولا ، غير أنهم كانوا دائمي النزاع فيما بينهم ، ولم تحاربهم روما قدْر ما حارب بعضهم البعض .

وهكذا بسطت روما نفوذها على العالم . ولكن حياتها — إذ أتت ذاك — تحولت إلى شيء يباين الأساليب القديمة البسيطة . حلت الآن محل المساكن والمزارع المتواضعة القديمة — البيوتُ المترفة والكرْمات (الفيلات) الفخمة . والآن عمد الرومانيون — الذين لم يكونوا قط فنانين ولا صناعاً مهرة — إلى إستخدام الإغريق والآسيويين في بناء ورسم وصنع أشياء جميلة . وقد جلب الجنود الرومانيون من الشرق مركبات نقل ضخمة محملة بالتماثيل والرسوم . وحولت روما إلى يدها كلَّ تجارة العالم ، وتقاطرت الألوف من الأجانب إلى عاصمة الدنيا . وأسوأ من هذا أن الحروب الطويلة أمدت روما بحشود لا حصر لها من العبيد والرجال المحطمين وأسرى الحرب ، رجال وُلدوا أحراراً ولكنهم وقعوا في الأسر وسيموا كالسائمة وبيعوا

كالبهائم فى سوق العبيد الكبير بديلوس . ولقد ملأ أولئك الرجال البائسون بيوت الأعيـــان وعملوا أفواجاً فى مزارعهم وفى المناجم والمحاجر . واستُبْـدلت بمزارع الأسرة الصغيرة مزارعُ مترامية الأطراف يعمل فيها إمرة مراقبين فى منتهى الفظاظة . ولقد كان الشغل الشاق المضنى ، طوال عبيد تحت فترات التاريخ القديم ، يقوم به العبيد الذين يعملون فى الحفر وجر السفن والتنظيف وفى كل أنواع الكدْح اليدوى . ولقد كانت لعنة العبودية فظيعة إلى حد حدا بستين ألفاً من العبيد إلى إضرام نار الثورة فى جميع أنحاء صقلية وجنوب وإيطاليا . ولقد جرد جيشٌ رومانى سلخ أعواماً ليخمدها بحرب من أفظع الحروب التى شهدها العالم أجمع . ومن أبعدها عن الرحمة .

قيصر :

لا شك فى أن الحروب الطويلة بدلت أسلوب معيشة الرومان . فلقد غصت روما نفسها الآن بحشود من السوقة(١) ، من العبيد والهاربين وذوى الحرف والمعتطلين والأفاقين من كل فج . وقد أخذ التجارُ الاغنياء والمرابون والأعيان يثرون ثراء فاحشاً من التجارة التى ترتبت على غزو أسبانيا وإفريقا وبلاد اليونان . أما الريفيون والمواطنون عتيقو الطراز ، ذوو الخلال الرومانية القديمة وأساليب الحياة البسيطة ، فقد بقى منهم البعض ولكنهم شعروا — بلا ريب — بأنهم إنما يعيشون فى دنيا غير دنياهم . وقد أجهل ملك أفريقى بارعٌ غنى ، كان له فى روما أصدقاء من بين أعضاء مجلس

---

(١) السوقة الرعية من الناس للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

أنظر شكل — ٣ — (الإمبراطورية الرومانية فى أوسع مدى لها)

الأعيان ، أجمل وصف الحال بقوله : إنه بالمال فى روما كان يستطاع شراءُ أى شىء حتى العدل والشرف .

ولم يكن حكمُ إمبراطورية كهذى فى مقدور مجالس الأعيان والقناصل الرومانيين ، وهل يمكنك أن تتصور مثلا أن محافظ لندن وأعضاء مجلسها الاستشارى يستطيعون حكم أوربا لاشك فى أنهم سيحاولون ذلك ويبذلون فيه ما يسعهم من جهد ولكن أغلب الظن أن كفايتهم فى ذلك لن تتعدى كفاية ضباط المدينة . ثم إن الإمبراطورية الرومانية لم تكن مستعدة لأن يحكمها مجلسُ أعيانٍ فى روما أو فى أى مكان ، لأن السواد الأعظم من الناس فى أنحاء المعمورة اعتادوا على أن يحكمهم ملوك .

والغريب بل المضحك فى أمر روما هو هذا :

إنها المدينة الوحيدة التى لم يكن مواطنوها ليطيقوا الملوك ، ولكنها مع ذلك غزت العالم الذى لم تفهم جموعه إلا أن يحكمهم ملوك أحلتهم منها محل الآلهة ، كما كان شأن فراعنة مصر القديمة أو عواهل الشرق ، البابليين والآشوريين والكلدانيين والفرس والروم (أى الإغريق) .

وقد حدثت فى مجلس الأعيان مخاصماتٌ بين من رغبوا فى معاونة الطبقة الفقيرة من المواطنين الأحرار ومن رغبوا عن إجراء أى تغيير . وأصبح الرجال الذين قادوا الكتائب هم أصحاب السيطرة العليا لأن جيش المواطنين الرومانى القصير الخدمة القديم قد ألغى وحل محله جيشٌ من جنود نظاميين يؤدون خدمة عسكرية طويلة ، جنود اتخذوا معسكراتهم منازل لهم واختصوا قوادهم بكل ما لديهم من ولاء . وقد أصبح القواد ذوو المهارة الفائقة أو الشعبية هم أقوى رجال الإمبراطورية . وأول هؤلاء : ماريوس ، وكان جندياً نظامياً خشناً أنقذ إيطاليا من غزوة الغال . تزعم ماريوس الطبقة الفقيرة من المواطنين ضد الطبقة الغنية ، غير أنه لم يؤت الحكمة فى

السياسة ، فقهره سُلا ّ وكان أرستقراطياً ، ونداً له فى القيادة ، يتزعم أعضاء مجلس السناتو . وحكم سُولا بيد حديدية ونصب نفسه حاكماً بأمره(١) .

ولما انتهى من إعادة تشكيل أسلوب الحكم وسن القوانين — على الوجه الأكمل فى نظره — اعتزل الحكم وتقاعد فى بيته ، وكان هذا المنوال متبعا فى روما .

اعتزل سُلا بعد أن أصبح ، بكتائبه ، سيداً لسيدة العالم . وظهر فى الصورة الآن : قنصلان كالمعتاد ، وأعضاء لمجلس السناتو يعدون بالمئات ، وعالم ينبغى له أن يحكم .

فاقتسم السلطان ثلاثةُ رجال فى « حكومة الثلاثة (٢) » هم: پومپى وهو واحد من قواد سُلا الممتازين ، وكراسوس عضو مجلس السناتو وصاحب ملايين عديدة ، ويوليوس قيصر وهو من أسرة شهيرة تقلب فى مناصب شتى فى حكومة روما ، وكان عالماً وخطيباً .

ولقد ألقيت إلى يوليوس قيصر مقاليد القيادة فى إقليم الغال على جانبى الألب . وكان المأمول أن يتسلم قيادة جيش لدى صدور الأمر بذلك . غير أن كراسوس ، صاحب الملايين ، أوفد على غرة ليقود الكتائب ضد البارثيين فى بلاد الفرس وهناك لقى مصرعه . وكان « الضبط والربط » فى الجيوش يعد جزءاً من الخلال الرومانية ولكن ما رأته روما الآن ، لم تره قط من قبل : ذلك أن قيصر — الذى بلغ الأربعين قبل أن تعقد له القيادة المستقلة الأولى — قاد كتائبه وغزا « كل » بلاد الغال ووصل رأساً إلى الراين . وقد أبدى من الحذق والبصيرة الحربية وثبات العزم ما هو جدير بالإسكندر الأكبر الذى صاغ (قيصر) نفسه على غراره أى أنه اتخذ الإسكندر مثله الأعلى . وقد وجد قيصر الوقت لتجريد حملات فى قلب بريتانيا ، وما تزال قصته عن حروبه فى بلاد الغال تقرأ فى كل يوم بمدارسنا . إنها سفر جدير بالاعتبار . فلقد كان قيصر جديراً بالاعتبار .

(١) دكتاتور

(٢) الائتلاف الثلاثى أو الحكومة الائتلافية الأولى .

ولقد وثقت مقدرته وجاذبيته الروابط بينه وبين ضباطه وأفراد كتائبه . والرجل الوحيد الذى يشبهه على مر التاريخ ، هو نابليون .

وبعد أن غزا بلاد الغال زحف إلى روما مع أن قانوناً قديماً نص على أن الفرق العسكرية لا يرخص لها أن تقترب من روما بعد النهر الصغير المسمى روبيكون الذى كان عبوره يعدّ تحدياً لمجلس سناتو روما وشعبها . عبَره قيصر ، وعندما عارضه پومپى فى ذلك باسم مجلس السناتو طرده من إيطاليا .

واجتاز إسپانيا كى يأسر فيها بعض جنود پومپى ، ثم اقتحم بلاد اليونان حيث قهر پومپى فى فارسالوس . ثم لاحقه فى مصر حيث أمضى فترة ليطمئن إلى ولائها له . وبعد ذلك طهر آسيا الصغرى وإفريقيا من معارضيه كافة . وبذلك يكون قد حارب فى سنوات قليلة — حول العالم : بلاد الغال وإيطاليا وأسبانيا وبلاد اليونان ومصر وآسيا وإفريقيا ، وحالفه النصر فى كل مكان . وبطبيعة الحال كان كل جندى ممن حاربوا تحت إمرته يخلص له بقلبه وروحه .

ومرة أخرى كان يوليوس قيصر أحد أولئك القلائل النادرين الذين يشابهون نابليون من حيث البراعة فى السلم والحرب . وما إن عاد إلى روما نادى بنفسه حاكماً بأمره مدى الحياة . وهنا تملك أعضاء مجلس السناتو الانزعاج والحسد والسخط . ومع ذلك أمعن قيصر فى تنفيذ مناهجه ومشروعاته الضخمة : إصلاح التقويم وإعادة بناء روما وإنشاء الطرق ووضع حد للرشوة والغش فى الحكومة ، وخطط لغزو ألمانيا إلى ما وراء الراين الذى كان هو قد قوض أحد جسوره فى أثناء حملاته على بلاد الغال ، كما خطط للانطلاق إلى بلاد الفرس لينتقم لكراسوس ، وأصبح قيصر سيد العالم .

وفى منتصف مارس من سنة ٤٤ ق . م . تآمرت طائفة من أعضاء مجلس السناتو — بزعامة كاسيوس وبروتاس — وطعنوه بخنجر وأردوه قتيلا ، لأنهم لم يطيقوا أن يروا روما ترزح تحت سلطان حاكم بأمره .

وما هو إلا القليل حتى اقتُص لقيصر ، إذ أن أحد قواده (أنطونيوس) وابن أخته (أوغسطس) هزما وقتلا من تآمروا عليه ، فى فيليبى بمقدونيا. ولقد كان يستطيع هذان اقتسام سيادة العالم فيما بينهما . غير أن أنطونيوس وقع فى حب كليوباترا ملكة مصر وبدد وقته . فهزم أوغسطس أسطول أنطونيوس ومصر فى أكتيوم . وكان يوليوس قيصر قد هم بجعل أوغسطس خليفته . فاتخذ أوغسطس الآن لقب قيصر : العاهل أوغسطس قيصر ، إمبراطور العالم الرومانى ، وأول حاكم من هذا النوع فى مدى قرون عديدة جداً .

ولقب عاهل معناه « صاحب الأمر » . وكان الأباطرة هم الحاكمون وقد اتخذوا جميعهم ، لقب « أوغسطس» ولقب « قيصر » ، ولم يتخذوا قط لقب « ركس» أى ملك .ولكنهم اتخذوا لقباً موحداً مألوفاً لنا جداً وهو « برنسپس » ومعناه « الأول » أى المواطن الأول . ونحن نعرف هذا اللقب فى صيغة أكثر رومانسية وهى پرنس (أمير) .

أهالى « مدينة غير دنيئة »

ترك يوليوس قيصر على العالم سِمَته كما لم يفعل أحد من قبل . ولقد اتخذ عشراتٌ وعشرات من الأباطِرة الرومان ، الذين خلفوه ، اسمه — قيصر — لقباً ، وأصبح كل منهم « قيصراً » أى حاكم الناس الأعظم . واستعارت شعوب أخرى لقبه : لحوره الفرس إلى « شاه » والروس إلى « تزار » والألمان إلى « كايزر » .

ولقد كان يوليوس رجلاً ذائع الصيت حقاً . ولكن شهرته وذكراه يزدادان إلى حد كبير — إلى أنه رومانى ، إذ أن الرومان كانوا جديرين بالاعتبار ، فلقد جمعوا الدنيا بين أيديهم . وإن الإمبراطورية لتبدو فى التاريخ وكأنها الزمان والمكان اللذان فيهما انصبت كل المدنيات السابقة ومنهما نبعت كل مدنياتنا اللاحقة .

ولقد جاء قبل قيصر ، رومان عظماء ، وجاء بعده كذلك رومان عظماء كان كثيرون منهم من أبناء أسپانيا وبلاد الغال وشمال إفريقيا وسوريا وأراضى الدانوب . وإن القديس بولس ، عندما وصف نفسه بأنه « من أهل مدينة غير دنيئة » استعمل عبارة ازدهت بها الآلاف من البشر فى كل مكان من عالم البحر الأبيض المتوسط . وقد صنع الرومان شيئاً لم يلحقهم فيه أحد قط ، ذلك أنهم جعلوا كل من دانوا لهم يفخرون بأنهم رومان ، وكان هذا سحراً اختصوا به .

ولقد قبسنا معرفتنا وحكمتنا من اليونان . وكذلك فعل الرومان الذين كانوا ينظرون إلى المدارس الإغريقية كما قد ننظر نحن إلى الجامعة ، والذين درجوا على أن يرسلوا أبناءهم ليتلقوا العلم فى أثينا . ولقد كان الرومان محنكين فى فن الحكم وفى صياغة القوانين . والألفاظ التى نستعيرها من الإغريق ألفاظ اصطلاحية مثل : قضية علميـــة ودراما(١) وموسيقى ورياضيات ومنطق وفلسفة . ومفرداتنا التى تتصل بفن الحكم تغلب فيها اللاتينية مثل : مدينة ومدنى (أى غير عسكرى) ومجمع أو مجلس شورى وشركة تجارية وجمعية أو محفل ومحكمة أو دار قضاء وسجن ووزير وأمير وعدالة ورئيس وعضو مجلس شيوخ ، ولقد ظلت القوانين فى أوربا

---

(١) الدراما مسرحية أو مأساة ، شعرية كانت أو نثرية .

أجيالا عديدة تكتب باللاتينية كما أن فقهاءنا القانونيين استعملوا ومايزالون يستعملون عشرات من العبارات اللاتينية ؛ وأكبر نظامين للتشريع فى العالم المتمدن ، أحدهما إنجليزى والثانى رومانى ، وهذا الأخير هو اليوم أساس القوانين فى بلاد كثيرة . ولقد كانت هبة روما للعالم هى الهبة التى لم يعثر عليها الإغريق قط ، وهى هبة فن الحكم وصياغة القوانين وإقامة العدل وكل ما من شأنه أن يربط الناس بعضهم ببعض ويؤدى إلى « السلام » و« النظام » (وهاتان كلمتان لاتينيتان أخريان) . وكاد عهد الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى أن يكون عهد السلام العالمى فى كل الأقطار . ولقد كتب أحد الأساقفة المسيحيين يقول : «يعم السلام العالم ، والفضل فى ذلك للرومان » . وقال كاتب آخر : « لا وجود للحروب ولا لقطاع الطرق أو اللصوص ولا للقرصان » .

ولقد آمنت صفوة الرومان بشىء أسموه « الجمهورية » . وخير ما نستطيعه من ترجمة لهذه الكلمة هى « حكومة الكافة » أو حسب التعبير الدارج : « المصلحة المشتركة » . وهم ما ينفكون يذكرون على مر الأيام معنى الفضيلة الرومانية أى كل الصفات الطيبة التى تتكامل لتكون المواطن الصالح ، مثل: الشجاعة والصدق والاحترام وشرف الأسرة والولاء . وكانت صفوة الرومانيين واسعة الإدراك تقدر الخير فى ترك الشعوب ، التى تخضعها روما ، تمارس تقاليدها وتحكم نفسها بنفسها ، وبغير ذلك لم يكن ليتسنى لهم أن يظفروا بولاء مثل هذا العدد من تلك الشعوب العديدة .

وعند ما خاف القديس بولس حسد اليهود واستغاث بعدالة قيصر فى روما فهو إنما صنع ذلك لأن كل الناس كانت تؤمن بأن العدالة الرومانية تمنح دون خوف أو فضل .

ويخبرنا القديس بولس أنه تعرض للهلاك أربع مرات ، وتقدم لنا كتابات الحواريين وصفاً رائعاً للمرة الأخيرة . ولقد كانت هنالك عقبات

قليلة تعوق التنقل فى الإمبراطورية ، فلاجواز سفر ولا تأشيرات للدخول . ويخبرنا شاهد قبر صانع عاش فى فريجيا بأنه قام باثنتين وسبعين رحلة إلى إيطاليا . وكانت هنالك سجلات عديدة من هذا النوع .

ولقد طهر الرومان بحرهم (الذى كانوا يسمونه : بحرنا) من القرصان وجعلوه حُر المسالك .. ولكن بعد سقوط روما حول سنة ٤٠٠ ميلادية كثرت جماعات القرصان وازدادت سطوتهم ، حتى القرن الثامن عشر .

وتنبئنا حكاية شائقة بأن القرصان قبضوا على يوليوس قيصر شاباً ، وأبقوه فى الأسر حتى دفع ذووه فدية لإطلاق سراحه . وفيها أنه وهو يلعب النرد(١) مع القرصان ، قال لهم إنه سوف يعود إليهم حتماً ويشنقهم جميعاً . ولا بد من أنهم تلهوا بذلك وقتئذ . وما هو إلا القليل حتى عاد فعلاً وشنق منهم كل من وقع فى قبضته . ورفرف سلام روما على أرجاء البحر . أما عن ذهاب السفن ومجيئها المستمرين عبر المانش إلى بريطانيا ومنها ، فليست لدينا من المسجلات سوى دمار منارة دوفر الكبرى ونقش (أو نقشين) كالذى يحدثنا عن ضابط اسمه أوفيديوس بانتيرا الذى شغل منصباً كمنصب أمير البحر فى البحار الضيقة . واسمه لا يبدو الآن فى كتبنا التاريخية ، إلا أنه هو وأمثاله كان لهم شأن فى صون المدنية باسم روما .

وتنبئنا كتابات الحواريين كيف رحل القديس بطرس عبر مدائن آسيا وبلاد اليونان . ويروى لنا مؤرخو الرومان كيف جالت الكتائب بأحذيتها ذوات المسامير الغليظة فى نعالها — بين أقاليم الإمبراطورية . وكان الرومان مهندسين ممتازين يعرفون قيمة الطرق الحسنة الاعداد ولذا أنشأوا منها الكثير فى كل مكان .

ولهذا السبب مهدوا طرقاً عامة ممهدة بين أخاديد المصارف كما أنشأوا جسوراً مقنطرة فوق الأنهار ومجارى المياه ، ودقوا أعمدة فى الأراضى

---

(١) النرد زهر (الطاولة) وغيرها من الألعاب .

الغمقة لدعم الطرق المرتفعة ومن أدق ما أقاموه جسر خشبي عبر الدانوب العظيم يحمله عشرون عموداً من الحجر . ولقد أنشأوا على طول طرقهم محطات — يتسنى فيها استبدال الجياد — وحانات للراحة وتناول المأكولات والمشروبات المنعشة . وقد بقيت تلك الطرق العامة الممهدة ، قروناً ، تثير إعجاب أهل الريف — فى القرون الوسطى — الذين كانوا يتخيلونها فى بعض الأحيان من عمل المردة أو الشياطين . وما يزال الكثير منها مستعملاً حتى اليوم ، بينما البعض وأجزاء من البعض قد دفنت تحت التراب المتراكم . وفى إنجلترا كانت تنتهى كلها إلى لندينيوم أوجستا تماما كما هو شأن الطرق والسكك الحديدية الآن . وفى أوربا — فى عهد الإمبراطورية — كانت كل الطرق تؤدى إلى روما حيث توجد نصبة الأميال الذهبية التى منها يبدأ ترقيم جميع المسافات.

ولئن كانت الطرق جميعها تلتقى فى روما بوصفها مركزاً فإنها تربط فى الخارج مئات من المدائن التى تكونت منها إمبراطورية المدن المترامية . توصل هذه الطرق إلى أسواق شهيرة كأزمير وأنطاكية وطرسوس أو إلى مرسيليا وكولونيا ولندن كما توصل إلى الحواضر الريفية مثل كابرناوم فى جليلى أو كايرونت فى منماوث التى يستطاع حتى اليوم رؤية أسوارها تقف مرتفعة من الحقول وبين هذه المدائن بعضها البعض تدفقت تجارة لا تنقطع من كثير من الشعوب والأقاليم على طول شبكة الطرق المترامية . وكان الناس يصنعون فى المدن الإغريقية أثواباً تيلية من الكتان الذى ينمو فى الحقول السورية . وكانوا يرسلون الأوانى الزجاجية الفاخرة من صور وصيدا إلى كل أنحاء الإمبراطورية . ولقد عمل الخزافون فى بلاد الغال على تزويد الغرب بالطاس والأقداح . وكان خشب أرز جبال لبنان العالية ينقل إلى روما ومصر . وقد عثرنا على سجلات : فى الراين عن صناع السيوف ، وفى شمال إيطاليا عن صناع الدروع . وقد استخرج الغواصون

الفرنسيون من تحت أمواج مرسيليا ، مع حطام إحدى السفن القديمة ، دناناً لا حصر لها من النبيذ الإغريقي كما استخرجوا من البحار الضحلة المقابلة لقرطاجنة القديمة عمداً وتماثيل من الرخام حملتها سفينة تجارية وغرقت بها فى تلك البحار قبل ألف سنة. وكان رصاص دربيشاير وصفيح كورنوول يصدران إلى القارة ، كما كان قدر كبير من الجلود والأصواف والحبوب يعد من بلاد الغال وبريتانيا وشمال إفريقيا للتجارة إلى ما وراء البحار ، ورزم من البردى توسق من الإسكندرية .

وثمة تجارة أكثر إبداعاً وقدماً تدفقت من الأراضى الغامضة الواقعة وراء مشرق الشمس فكانت أنواع الحرير تصل إلى الأسواق السورية من الصين بعد مسيرة شهور عديدة معفرة مضنية عبر الجبال الباردة الكئيبة والصحراء المنهكة للقوى . وكانت التوابل من بلاد العرب واليواقيت والعقاقير من سيلان وجزائر الهند الشرقية تصل إلى موانى البحر الأحمر . وقد احتفظ الرومان بمحطة تجارية على سواحل الهند نفسها ، كما عرف وكلاؤهم إيرلندة فى أقصى المغرب ، وجلبوا الكهرمان من سواحل البلطيق فى الشمال .

وهذه الحركة جميعاً كانت تملأ الطرق المترامية طوال الربيع والصيف والخريف . وكل تلك الأنواع من الناس — من كل شعب — كانت تقيم فى المدن وبخاصة فى روما والعواصم الكبرى بالأقاليم . وقد نحل بعض تجار الخمور من الإيطاليين أسماء إغريقية لكى يتجروا فى الخمور الإغريقية . وأقام السوريون واليهود بيوتات تجارية فى أسبانيا وبلاد الغال ، وانتشر أصحاب الحوانيت الإغريقيون فى كل مكان. وكانت لغة التخاطب المشتركة هى اللاتينية ، والغالب أنها كانت نوعاً منها أقرب إلى التكسر ينطق به — فى أكثر الأحيان — بلهجات غريبة . وفى الشرق كانت الإغريقية هى لغة التخاطب . وكثيراً ما اتخذ غير الرومان أسماء رومانية كما فعل شاؤول

الطرسوسى عندما أسمى نفسه باولو . وهذا هو الشأن فى الدنيا الحديثة ، إذ تجد الزنوج يعطون أو يتخذون لأنفسهم أسماء إنجليزية أو فرنسية . واختلاط الشعوب واضح كل الوضوح فى سجلات الأباطرة أنفسهم . على أن أغلبهم لم يكونوا حتى من إيطاليا بل مواطنين من أسبانيا أو إفريقيا أو الليريا ، وأحدهم عربى .

ولقد بادت سجلات الإمبراطورية البردية التى لا تقع تحت حصر ، وكذلك باد أغلب الكتب العلمية ، وأصبحت معلوماتنا تعتمد على معاول علماء العاديات .

ومن حسن حظنا أن لدينا الكثير من النقوش ، ومعظمها حجارة من قبور جنود الحاميات التى وكلت إليها حماية الحدود الإمبراطورية : من الفرات إلى التاين ومن الصحراء إلى الدانوب ، وما يزال العلماء يتوفرون على شىء من البيانات المسلسلة عن الجيوش الرومانية وذلك بالتأليف — فى تمهل وعناء — بين بعضها البعض ، وإنها لمهمة خلابة . فقد يظهر حجر لجندى بريطانى فى سوريا وقد يظهر حجر لجندى سورى بجوار السور الرومانى فى نورذمبرلاند .

ولقد ضم كل فيلق فى تلك الأيام نحواً من ستة آلاف رجل ، وكان هنالك نحو ثلاثين فيلقاً . وكان هنالك ، فوق هـــذا ، فرق صغرى أو وحدات اسمها الملحقة أى السريات الاحتياطية ، بعضهامن الخيالةو بعضها من رماة السهام أو رماة القـــلاع ، والبعض من البربر الذين ألحقوا بالعسكرية الرومانية . وربما بلغ المجموع ، على أكبر تقدير ، ربع مليون جندى تحت السلاح ، وهذا القدر ليس بالغ الكثرة بالنسبة لحراسة العالم .

ولقد عمل الجنود النظاميون لقاء أجر ودانوا لقوادهم بولاء كبير إلى حد أنهم كانو يحيونهم كما قد يحيون الأباطرة ، فإذا فعلوا هذا ، وكثيراً

مافعلوه فى القرن الثالث ، اقتتلت الفرق فيما بينها . وكلما أفلح قائد وأصبح إمبراطوراً ، كافأ جنده بعطايا أو نقود . وقدحدث مرةأن قائداً هولانديا اسمه كاروسيوس أقام فى بريطانيا « إمبراطورية » مستقلة ، وهناك حكم وصك النقود باسمه ؛ حتى هبطت عليها من بلاد الغال جيوش قوية وردت الجزيرة إلى الإمبراطور الآخر المقيم بالقيادة .

وكان لكل فيلق شعاره الخاص وأعلامه المقدسة . ويقال إن تنين ويلز الأحمر كان شعاراً لفيلق وتُـوورث طوال أجيال عديدة . ولقد عسكرت بعض الفيالق فى أماكن لم تغيرها قروناً وقروناً مثل الفيلق الثانى أوغسطا (أو « الفيلق الملكى ») الذى عسكر فى كارليون على نهر الأسْك . وكارليون معناها — ببساطة — مدينة الفيلق . وكان الأباطرة فى بعض الأحيان يوطنون قُدامى العسكر فى مستعمرات الجنود المحنكين ويحولونهم إلى زراع وكان لتلك المستعمرات أكبر النفع فى المناطق الخطرة القريبة من الحدود . ولقد عسكر فى روما نفسها الحرس الإمبراطورى ، وكان يتألف من رجال مختارين . وفى الأيام الأخيرة للإمبراطورية درجت الفيالق على أن تعسكر — فى العادة — على مسافة ما من الحدود . أما على طول الحدود — كالسور فى بريطانيا وخط الاستحكامات على الراين والدانوب — فقد عسكرت فصائل من الاحتياطى . فإذا ضُيق على تلك استطاعت الفيالق أن تخف إلى الحرب .

وكان العمود الفقرى لتلك الفيالق هم النقباء ، أو ضباط المائة جندى كما كان يسميهم المترجمون الإنجليز القدامى . ولم يكونوا جميعاً متساوين فى الدرجة ، إذ أنهم يتدرجون فى كل فيلق من أقلهم حداثة إلى أكبرهم قِدماً ، ولكنهم على كل حال كانوا يهيمنون على الجيش . وربما وصل عددهم — فى أى وقت — إلى الألفين . وقد يكون خير وصف لهم أنهم رؤساء فرق . ولقد كانوا — بوصفهم ضباط القائد الأعلى ، وهو

الإمبراطور — يمثلون صولة ومهابة روما الإمبراطورية سيدة العالم . ولقد خلدتهم الأناجيل أكبر التخليد . وكان نقيباً ذلك الذى قال لعيسى : « أنا أيضاً إنسان مرتب تحت سلطان ، لى جند تحت يدى ، وأقول لهذا اذهب فيذهب ولآخر ائت فيأتى » .

الديانات القديمة واليهود :

عبدالناس آلهة كثيرة مثل جوبيتروأبوللو(١)عند الرومان ،وأوزيريس وإيزيس عند المصريين ، والإلهة الأم الكبيرة عشتروت عند السوريان . وكان لجميع أولئك أضرحتهم وهيا كلهم وكهانهم . وكذلك كان شأن ملوخ إله القرطاجنيين الرهيب الذى كانت الأمهات تضحين بأطفالهن قربانا له . وكان لكل نهر و جدول وممر فى غابة ربه المحلى،ولكل مدينة إلهها الخاص بها أو إلهتها ، ولقد عبد أهل أثينا (آثينة)إلهة الحكمة التى كانت تعد حامية تلك المدينة ، وعبدوا مع ذلك أرباباً أخر ، وغالوا فى التثبت من صنعهم ما يجدر بهم صنعه بإقامة محراب للإله « الخفى » . وعبد الناس طواعية واختياراً — فى واقع الأمر — آلهة غيرهم من الأقوام وآلهة المناطق التى يتصادف وجودهم فيها عندئذ . ولم تجد سوقة المدن ضيراً من آلهة غرباء ، إلا أنهم كانوا ينفرون ممن لا يمارسون العبادة كما يفعلون هم. وإلى هذا كله أحل الرومان أباطرتهم ، من حيث التجلة محل الآلهة وحرقوا البخور تلقاء أضرحتهم ، وكانت تقام فى الأماكن العامة ، كما كان من الخيانة ترك ذلك .

ولم يكن أحكم الإغريق والرومان ينظرون إلى أى إله فى كثير من الجد ، إذ أن العبـــادة فى نظرهم لم تزد على كونها عادة عتيقة عديمة الضرر تتبعها العامة والفلاحون . ولقد عمد البعض من الفلاسفة الملقبين بالكلبيين(٢) إلى التندر بحكايات الآلهة ، وعمد بعض آخر ، ويسمونهم

(١) عند الرومان كان جوبيتر إله الألهة ، وأبوللو إله الجمال والرجولة والشعر والموسيق.
(٢) الكلبين : الساخرين بالعالم مثل ديوجين .

بالرواقيين(١) إلى الزراية بالآلهة والاستخفاف بهم وإلى القول بأن الناس ينبغى لهم ألا يلقوا بالاً إلى ما عساهم يصيبون من توفيق أو نحس وأن يعيشوا لأداء واجبهم ليس إلا بصرف النظر عن السرور أو الألم . ومع كل فقد آمن البعض الآخر من الفلاسفة ، الذى كان يطلق عليهم اسم الأبيقوريين(٢) ، بأن الناس يجب أن تكون قصاراهم التمتع بما فى الحياة من متع مع عدم التفكير فى المستقبل ،

ولقد كان الناس فى كل مكان فى حاجةٍ إلى الأمل والإلهام ، وكانت الحياة البشرية صراعاً عنيفاً مع المرض والنحس والشر ، وكان فى الفقر مافيه من سوء . ثم إن كل فقير أو كل أسير قد يصبح عبداً ، وقد وجد العبدُ فى كل مكان . وكما قد يتطلع الجنود — فى يأسهم وسط ميدان القتال — تطلع الناس إلى قائد ، إلى مخلص وإلى صيحةٍ تلمّ شعثهم وتجمع قواهم . على أن شعباً واحداً وقف بمعزل عن غيره من الشعوب وظلّ متماسكاً مكافحاً فى ظل دين قوىّ روحىّ . وكان أولئك هم اليهود .

وقد أرشدهم أنبياء كثيرون إلى الله الواحد الحق ، إله لم تصنعه يدُ بشر ولا يحدّه مكان ، إله روحانىّ يعلم السرّ وأخفى ، إله من الأزلية إلى الأبدية ، أرشدوهم إلى (يهوه)(٣) أى إله العدل والحق الذى قضى على رجاله المصطفَين بأن يحموا شريعته ، شريعة الرحمة والحق . ويَسعنا أن ندرك على أية صورة عرفوا الله إذا قرأنا منظوماتهم المسماة بالمزامير . لقد كان (يهوه) قبل كلّ شىء ، إلهاً لم يرخّص لهم تكريمَ أىّ إله غيره أو عبادته . وقد شقّ على اليهود الإذعانُ لهـــذا التوجيه الصارم عندما أحاطت بهم شعوبٌ أخرى درجت على أن تغنىّ وترقص وتهنأ حول أصنام آلهتها

(١) الرواقيون المروجون لفلسفة زينون القائلة بكبح العواطف وعدم المبالاة بعدم المؤثرات الجسدية كاللذة والألم .

(٢) الأبقيوريون ، القائلون بأن السعادة تأتى براحة البال عن طريق العيشة الفاضلة .

(٣) كلمة عبرانية معناها الله ، وكذلك كلمة « دوناي » .

المرحة. ولم تكن هذه الأصنام إلا صوراً تمثل تلك الآلهة وهذا مايسهل التفكير فيها (أى الآلهة)، إذ من العسير عليك أن تفكر فى شىء لا يسعك تصوُّره . إلا أن الأنبياء العظماء الذين أرسلوا إلى اليهود قالوا إن الله روح غير مرئية تقدر على كلّ شىء .

وهكذا كان اليهود مكافحين متحدين . ولم يكن لهم من بين المعابد غير هيكل بيت المقدس . ولقد أقام الملك سليمان معبده الأول ، وقد خربه البابليون . وأقام الملك هيرود المعبد الذى عرفه عيسى . على أن اليهود عاشوا على جوانب الطريق العامة الكبيرة ، للتجارة والحرب ، تلك التى تقع بين آسيا ومصر وسط الإمبراطوريات البالغة السلطان . ولقد كانوا شعباً صغيراً استعبده البابليون وغزاهم الإغريق وغزاهم الرومان مرة أخرى فى عهد بومبى، فتفرقوا خارج حدودهم فى كل مناحى الإمبراطورية الرومانية . وكانَ لهم فى كل مدينة كبيرة —من الإسكندرية إلى مرسيليا— دائرة كنسية أو حى خاصّ بهم . أما اليهود فى مصر فقد استوطنوها دهراً طويلا فنسوا لغتهم وأصبح لزاماً أن يُترجَم لهم العهد القديم من لغتهم الأصلية — العبرية — إلى الإغريقية .

وأياً كان المكان الذى رحلوا إليه واستوطنوه — سواء أكان الإسكندرية— أو روما أو أثينا— فأنهم ظلوا أفراد شعبٍ منعزلٍ يلتقون ليصلوا ويقرأوا أسفارَهم فى كنائسهم ويديمون التفكير فى معبدهم المقدس ببيت المقدس . ولقد حجّوه وتبرّعوا لخزائنه بأموال طائلة إلى حدّ أن الذهب المختزن هناك كان يكفى لأن يفتدى به ملك من الملوك . ولقد كدّوا فى العمل وأثروا بسبب ولاء أفراد أسرهم بعضهم لبعض ونواميس سلوكهم الصارمة . وهم قاموا بدور هام فى تجارة العالم القديم .

وكان اليهود ، أيضاً ، يتوقعون ، فى شغف بالغ ، نزول مخلّص أو مسيح يخلصهم من أعدائهم .

المسيحية :

وبشر المسيح يهود الجليل بإنجيل المحبة فى وقت شملت فيه الإمبراطورية الرومانية كل الرقعة المعروفة من الدنيا وانتشر فيه اليهود انتشاراً واسعاً فى المدائن الكبرى جميعها . وإذا كانت الفرصة قد سنحت لدين أن ينتشر فى العالم أجمع ، فى ظروف ملائمة ، فهو الدين الذى جاء به عيسى .

كان عيسى وأتباعه يتكلمون اللغة القديمة ، لسوريا وفلسطين ، التى نسميها الآرامية . غير أن كتب اليهود المقدسة كتبت بالعبرية وكان فى استطاعة كل أحبار اليهود قراءتها .

أما اللغة المشتركة بين كل بقاع البحر الأبيض المتوسطة الشرقية فكانت الإفريقية .

ومن المفيد معرفة اسم اللغة التى كان ينطق بها عيسى كلما تحدث إلى قواد الرومانيين المـائة . ولا مرية لدينا فى أن هذا الخليط من اللغات يبدو غريباً بعض الشىء غير أن السهل اليسير ، حتى عند غير المتعلمين ، أن يتكلم الناس لغتين أو ثلاثاً إذا عاشوا بين شعوب مختلفة . وذلك أمر شائع جداً على حدود أوربا الشرقية اليوم .

وكانت الإغريقية هى اللغة التى يتكلمها التجار والعلماء . فلا عجب إذن فى أن المدونات — التى تتحدث عن حياة عيسى وتابعيه الأولين — وصلت إلينا بالإغريقية ، إغريقية « العهد الجديد » . ونحن نعلم أن الأسفار المختلفة تم جمعها فى وقت مبكر جداً وأنها كثيراً ما كانت يحتفظ بها فى شكل كتاب وليس فى قراطيس البردى الملفوفة المألوفة . ومن بين تلك : ذاك الكتاب العظيم المسمى « أعمال الرسل » ، وهو الكتاب الوحيد لدينا الذى يقدم لنا صورة مفصّلة للحياة فى القرن الأول .

جرت محاكمة عيسى أمام حاكمٍ رومانىّ هو بنتيوس بيلاطس، بتهمة خيانة الإمبراطورية ولم يكن بيلاطس على يقينٍ من صحة التهمة . غير أنه ، إنقاذاً لنفسه من متاعب اليهود ، أصدر أمراً بإعدامه .

على أن عيسى لم يعلّم الناس أن يزدروا الدنيا ولا أن يتمتعوا بالدنيا ولا أن يسخروا من الدنيا ولكنّ عليهم أن يُحبّوها . وأوجب عليهم أن يحبوا بعضهم بعضاً ويساعدوا بعضهم بعضاً . وقد علم عيسى الناس أن الحب أقوى شيءٍ فى الحياة ، وتجاهل كلّ فروق المركز والتعليم ، واختلط بكل أنواع الناس ، ووعظ كلّ أنواع الناس : الغنى منهم والفقير واليهودىّ منهم والوثنىّ والإغريقىّ منهم والبربرىّ غير أننا ما ينبغى لنا أن ننسى أنه كان رسولا إلى بنى إسرائيل بصفة خاصة .

وقد أسمى تابعوه أنفسهم بالأخوان . وكانوا يسمّون أول الأمر بـ « المسيحيين » فى أنطاكية وهى مدينة إغريقية كبيرة جميلة على نهر أورونتيس ، بها كثيرٌ من الأساطين (أى الأعمدة) الرخامية ومن غيضات الشجر ، اشتهر أهلها بإطلاق الكنايات التهكمية .

وقد نُقل الإنجيل فى سرعة إلى كلّ البقاع وفى إحدى الأساطير ان القدّيس توما أخذه إلى الهند . وسمعته قبائلُ الصحراء العربية . وبه وعظ القديسُ فيليب الأحباش . غير أن أكبر أعمال التبشير قام به القديس بولس .

وكان بولس مواطناً رومانياً أصيلاً من طرسوس فى آسيا الصغرى وتمرّس بصناعة الخيام ، وقد اشتهرت (طرسوس) بصناعة قماش وبر الماعز وفى تلك المدينة تعلم تعليما نظامياً بجامعتها وتلقى بعض العلوم الإغريقية

القديمة . وكان ورعاً خيّراً شاباً يدرس على كبار أحبار بيت المقدس وكان حقاً ما قيل عنه ، كما قيل عن مؤلف كتاب المزامير القديم من أن كل متعته تركزت فى شريعة (يهوه) . غير أنه انقلب مسيحياً بسبب رؤيا مذهلة رأى فيها عيسى فى الطريق إلى دمشق ، وهى المدينة التى تتلاقى فيها جميعُ طرق الصحراء . وقام برحلاتٍ تبشيرية ثلاث فى كلّ المناطق الغنية الآهلة بالسكان من آسيا الصغرى وبلاد اليونان . ولقد بشرّ بتعاليم المسيح فى الكنائس اليهودية وفى السوق وحوّل كثيرين إلى المسيحية وسبّب شغباً كثيراً ، وقبض عليه وحُبس وجُلد بل لقد سِيق إلى مقاتلة الوحوش فى ساحة المجالدات .

وقد نقل إلينا التواترُ أنه كان قصير القامة أصلع يخاله الرائى رجلا قليل الأهمية . وهو لم يكن ليرهب أى شىء . وأخيراً ، بعد شغبٍ فى بيت المقدس قبض عليه الرومان لينقذوه من غضب الدهماء . وقد طلب أن يحاكم أمام قيصر روما بوصفه مواطناً رومانياً . وعلى هذا أحيط بحراسةٍ قوية ونُقل فى سفينة تجارية إلى روما . وقد تمكن ، بحكمته ورباطة جأشه ، من إنقاذ حياة حرسه وحياة زملائه الركاب عندما تحطمت السفينة فى مالطة . وعاش فى روما بضع سنوات . وتقول إحدى الأساطير إن بولس ضُرب عنقه فى أثناء اضطهاد المسيحيين بأمر من الإمبراطور نيرون فى الوقت الذى صُلب فيه القديس بطرس .

وقد وجَد علماءُ العاديات فى المدائن المخربة بآسيا الصغرى — وهى الأرض الخصبة التى أصبحت فلاة موحشة — آثارَ الرعيل الأول من المسيحيين : وجدوا شواهد أضرحة عليها نقوشٌ قصيرة حزينة . وقد أطلقت جماعاتٌ من المسيحيين على نفسها اسم : جمعيات الدفن ، أو كما قد نقول : شركات التأمين ، وذلك اتقاءً للتعقّب . وكانوا يلتقون سراً .

واضطُهِدت هذه الجماعاتُ عندما أبت أن تحرق البخور عند ضريح الإمبراطور . وقد كرهتهم الدهماء وأذاعت عنهم الشائعات الكاذبة . أما فى روما نفسها فقد درجَ المسيحيون على أن يتعبّدو على أن يدفنوا فقيديهم الأعزّاء فى مسالك وحجرات ، يقدّر طولها بالأميال ، قُدّت فى الصخر تحت الأرباض (أى الضواحى) . ونحن نسمّى هذه الأماكن « قباء الرموس » . وفى هذه القباء حافظت أجيالٌ كاملة من المؤمنين بالمسيحية على حياة دينها . وما تزال جدرانها تحمل النقوش المسيحية الباكرة ، وما تزال مقابرهم تحوى المخلّفات الأثرية للرعيل الأول من من الشهداء الذين أعدموا فى أثناء الاضطهاد .

وكانت قدامى آلهة المدينة والحقل فى سبيلها إلى الزوال . وتقول أسطورةٌ غير ذائعة بأن كلّ الكائنات الحية ، التى كانت فى البرية عند ولادة عيسى ، علمتْ بالخبر المؤسف وهو وفاة إلهِهم (پان)(١) إلهِ البرية ذى الأظلاف المشابهة لأظلاف الماعز . وقد ضمّن هنا ، چون ملتن وهو أكثر شعرائنا موسيقيةً ، فى قصيدته التى نظمها عن ميلاد المسيح والتى يقول فيها : « لقد سمعتْ الجبال البعيدة الموحشة وسمع الشاطىء المدوّى صوت بكاءٍ ونُواحٍ حدّ » . ولا ريب فى أن هذه الحكاية الخيالية القديمة تُنْبئنا بذيوع الإنجيل ذيوعاً مذهلاً . فلقد سرى مسْرَى النار فى الهشيم إلى حدّ أن نفراً من أسرة قيصر آمنوا به . وفى وسْعنا أن نتصور الإنتاج العظيم الذى ملأ قلوب فقراء العبيد عندما سمعوا البشائر السارة بالأخوة والمحبّة .

غير أن اليهود لقوا مأساتهم النهائية .

---

(١) (پان) إله الماشية والقطعان والرعاة عند الرومان .

سقوط بيت المقدس :

ظهرَ بين يهود أرض الميعاد غيورون أو وطنيون كثيرون أزمعوا على الخلاص من نير العبودية الرومانية . وهؤلاء لم يُطيقوا — وهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار — أن يدفعوا المكوس لقيصرٍ وثنيّ . وظلوا ينتظرون مسيحاً يقودهم إلى الانتصار على الرومان . وأمّل بعضُهم أن يصبح عيسى ، ذلك المسيح المنتظر . غير أنهم تحيّروا واغتاظوا عندما قال لهم إن مملكته ليست فى هذه الدنيا ، لأنهم أرادوا الحرب .

وفى سنة ٧٠ م . أشعلوا نار الثورة فى كل مكانٍ بأرض الميعاد . ونظراً لشعورهم المرير أضرموها نضالاً قاسياً انتهى بدمار بيت المقدس والمعبد . وقد أنفذ القائد الرومانى تيتوس كتائبه فأحاطت بالمدينة التى حكم عليها القدر وأرسل عُدده الجبارة التى اعتِدت للحرب لترشق أسوارها وأبراجها بالحجارة . فهلك جوعاً بعض اليهود المحاصرين فى الداخل وأخذ البعض يتقهقر وهو يرد الهجمات المفاجئة أو يحاول أن ينجو بتسلُّق الأسوار ليلاً فلا يجد غير مصير واحد وهو الأسر والصلب . ولقد حاول تيتوس فعلاً أن يستبقى المعبد . إلا أن الغيورين لم يشاءوا أن يستسلموا حتى لهذا الغرض وحتى بعد أن تبين لهم أن قضيتهم خاسرة لا محالة . وحاربوا إلى النهاية وكانت النتيجة تدمير المعبد وقدس أقداسه . وسيق آلاف من أسرى اليهود التاعسين ليباعوا عبيداً أو ليوزعوا على المدائن الإغريقية التى ساقتهم بدورها إلى مجالدة الوحوش فى ساحات المجالدة تسليةً للجماهير . هذا بينما ضرب جنود الفيلق العاشر خيامهم تحت ظل الأسوار المحطمة ، على تل صهيون حيث عاش داوود وسليمان وصلّيا لإلهما وحيث بقى المعبد حطاماً إلى الآن .

وظل اليهود يعيشون جماعات صغيرة فى مدائن أخرى . واحتفظ

الأحبار بكتب الشريعة وكتب الأنبياء . واحتفظوا حتى اليوم كذلك بأساليب الحياة الدينية القديمة رغم أن قروناً من المشقة والاضطهاد مرت بهم . وإنك لتجد فى الكنائس اليهودية بلندن وباريس ونيويورك وغيرها أن أناساً من سلالات قوم عيسى ما يزالون يجتمعون فى أيام السبت (وهو يومهم الدينى المخصص للراحة) وما يزالون يقيمون مراسم الصيام وأعياد العهد القديم وغالبيتهم ما تزال مبعثرة فى شتى أنحاء العالم .

الكنيسة فى الإمبراطورية الرومانية :

درج عيسى وحواريوه على أن يجتمعوا فى بيوت خاصة كالبيت الموجود فى بتانى الذى كانت تعيش فيه مارى ومارتا وكالغرفة العليا فى بيت المقدس . وكانوا يهوداً متدينين ولم تكن بهم حاجة إلى ما نسميه « كنيس » . وكانت الاجتماعات المسيحية الباكرة تعقد فى بيوت الإخوان وهم أولئك الذين اتبعوا سبيل المسيح . وعلى هذا كانت أولى الكنائس المسيحية هى « كنيسة البيت » . وكانت القداسات الأولـيات تشبه إلى حد ما تلك التى تقام فى أقاليم البرارى بكندا حيث يركب المرسلون للتبشير من مزرعة إلى مزرعة .

وبما أن المسيحيين كانوا مكروهين لدى الجماهير أو لدى الأباطرة فلم يكن من دواعى أمنهم أن يجتمعوا فى مبان معينة . وعندما بنيت الكنائس الأولى لوحظ عند بنائها أن تكون مشابهة تمام المشابهة للقاعات العامة الرومانية أو « البازيلكات » . والبازيلكا حجرة مفردة كبيرة يستدير أحد أطرافها وهو ذاك الذى اعتاد القضاة الرومان أن يعقدوا فيه مجلس القضاء ، وبه كان يقام المحراب المسيحى . وإذا اتسعت الحجرة اتساعاً كبيراً رُفع السقف على صفين من الأعمدة . وهذا هو بالضبط ما نراه اليوم فى الكنائس الأبروشية .

وظل خطر الاضطهاد يتسعّر تارة ويخمد أخرى طوال ثلاثمائة سنة .

وثمة لون معين من الاضطهاد يجَر فيه ، أحياناً ، عشرات وعشرات من المسيحيين إلى القضاة الرومان ويغصبون على أن يحرقوا البخور للإمبراطور أو يجازون بالموت . وقد اضطهدهم نيرون ودوميشيان فى القرن الاول واضطهدهم دقلديانوس فى القرن الثالث كما اضطهدهم الإمبراطور الرواقى(١) ماركس أوريلياس فى القرن الثانى . ولم توجد فترات ضمن فيها المسيحيون لأنفسهم الأمن التام .

« يسخر منهم و يسجنون و يرجمون بالحجارة و يعذبون و يفلقون شطرين بالمنشار و ينحرون بالسيف »

ولقد كانت عبارات الترنيمة صادقة . ولا يسع أحداً أن يحصر عدد الذين ماتوا فى سبيل إيمانهم . وعلى سبيل المثال : من بين أساقفة روما ، الثلاثين لم يستشهد أقل من تسعة وعشرين . وربما كان شح سجلاتنا عن الكنائس الأولى يرد إلى أن السواد الأعظم من الشهداء كانوا من عامة الشعب المتضعين . وثمة سبب آخر هوأن المسيحيين أنفسهم كثيراً ما كانوا يبيدون سجلات الكنائس المكتوبة ليقى بعضهم البعض ، فإذا دخل الموظفون المأمورون كنيسة ليقبضـــوا على أعضائها خف شخص ما إلى حرق كشوف اسماء جماعة المصلين . وعلى أية حال فإن سجلات الإمبراطورية الرومانية — التى لا تدخل تحت حصر — قد بادت جميعها . واكتنفت معلوماتنا عن القرون الخمسة الأولى ثغرات فاجعة ، ولم يعرف تاريخ نمو المسيحية وانتصارها إلا من مِزَق ورقع متناثرة . غير أن هذا التاريخ هو أساس دنيانا الحديثة .

وإنا لنعرف ، على سبيل اليقين ، أن المسيحيين — رغم الاضطهاد — ما كانوا ينفكون يجتذبون الناس جميعاً إلى الدخول فى دينهم . ولقد صدق هذا تماماً على بلاد لا تبدو ، فى نظرنا ، مسيحية ، وهى الأيالات الرومانية فى شمال إفريقيا .

(١) الرواقية فلسفة زينون .

فلقد كان عالم مسيحى ومشرع من شمال إفريقيا اسمه ترتوليان — وكان إبناً لأحد قواد المائة — هو الذى أزرى بالوثنيين ، إذ كتب يقول : « إن تماثيل آلهتكم إن هى إلا أوكار للفيران والصقور والعناكب . إنكم تبيعون آلهة بيوتكم المقتناة بل ترهنونها لقاء بعض المال . ونحن الرجال والنساء المسيحيين ، أبناء الأمس القريب ، ومع ذلك فقد ضاقت بنا مدائنكم ومعاقلكم ومعسكراتكم وقصوركم ومحافلكم ومجلس أعيانكم ومحاكمكم ، ولم يخلُ منا غير معابدكم . وإذا حدث يوماً أن حزمنا أمتعتنا ورحلنا إلى بلد من البلاد القاصية فإن عزلة دنياكم ووحشتها سوف تفزعانكم » .

وذهب القديس بطرس إلى روما . وبشر القديس بولس فى المدائن الإغريقية . وفى المدائن نما الإخاء المسيحى وازدهر . على أن كلمتى « وثنى » و« جاهل » معناهما « القرويون » أولئك الذين يجهلون الديانة المسيحية .

فلقد كانت المدن الكبيرة من الدنيا القديمة هى التى توجد فيها — أولا بأول — أكبر جمعيات المصلين ، وانتهى الأمر بأن أصبح شيوخ الكنيسة المسيحيون أو « الأساقفة » المقيمون فى تلك المدن هم قواد الكنيسة المسيحية . ومن الأمور التى تعلمها المسيحيون من اليهود : فائدة الوحدة ، ولذا بقوا متواصلين . ومنها كذلك . ترتيل الترانيم وتسابيح الحمد عند إقامة الصلاة . وكان للموسيقى دور رئيسى فى الحياة المسيحية .

ولقد سبق لنا الكلام عن مدينة أنطاكية الجميلة التى يظن أن أسقفها أغنثيوس لم يكن غير الطفل الذى رفعه عيسى وباركه ... ودمر الرومان فى سنة ٧٠ م. المدينة المقدسة بيت المقدس . وهناك أنشأ الرومان مدينة أخرى فوق الأطلال ، وظل المكان دائماً كعبة الحجاج من اليهود والمسيحيين على السواء . وهناك : الإسكندرية — بالأقليم المصرى — وهى مدينة ذات مبان بيضاء متألقة درج العلماء الإغريق على أن يلتقوا فيها للدراسة فى المكتبات وفى الجامعة . وقد ذاع صيت كنائس الإسكندرية .

ومن بين اليهود الغابرين أناس أصبحوا نساكاً (١) ورجالاً أقداساً يعيشون عيشة منعزلة قاسية فى جهات صحراوية يقضون أيامهم ولياليهم فى الصلاة والصيام والتأمل . وكذلك فعل كثير من النصارى. فلقد خرج من الإسكندرية إلى الصحراء المصرية أسراب من النساك المسيحيين ليقضوا حياتهم بين مقابر قدامى الفراعنة المخربة . ولقد عاش أولئك الرجال والنساء من صنع حصائر وسلال من الحلفاء. وكانوا يعذبون أنفسهم تعذيباً بالغ القسوة بالجلد وكثرة الصيام وهم يحسبون أن إيذاء أجسادهم ينقذ أرواحهم ، ويجتهدون فى التفوق فى الألم بعضهم على البعض — تماماً كما يفعل الرياضيون بغية التفوق فى مباريات السباحة . وكان أشهرهم : القديس أنطون الذى توفى فى سنة ٣٥٦ م .

وما وافت تلك السنة حتى كان اضطهاد المسيحيين قد انتهى . وقصة هذا الحدث تذرع الإمبراطورية الرومانية من أقصاها إلى أقصاها فى حياة رجل ذائع الصيت ، وهى : فى القرن الرابع مات ، فى يورك ، قائد رومانى، وحمل ابنه قسطنطين على تروس جنوده ونودى به إمبراطوراً .

ولقد تعهد لهم قسطنطين بالنصر وهبط بهم من بريطانيا عبر المانش إلى الغال ثم إلى إيطاليا حيث قهر منافسيه ودخل روما ظافراً وكان جندياً مبرزاً

وتقول أسطورة قديمة إنه — قبل نصره الأكبر — رأى فى سماء العشية صليباً يتوهج بعبارة لاتينية معناها : « بهذه الشارة تنتصر » (أى إذا اتخذت هذا دليلك فستكون لك الغلبة) وأنه منذ تلك اللحظة دفع صانعى أسلحته فى صنع صُلبان تُرشق فى أعلام الفيالق ، وقد انتصرت هذه الفيالق فى اليوم التالى .

تلك هى الأسطورة . والواقع أنه أنجز أمرين شهيرين غيرا تاريخ العالم .

لقد جعل الإمبراطورية نصرانية بإعلانه أن المسيحية هى دين الدولة ومنذ تلك اللحظة قام أساقفة الكنيسة بدور قيادى فى حكم العالم الروحانى .

(١) الناسك المنقطع للعبادة .

وصار قسطنطين وخلفاؤه رؤساء للكنيسة فى مستعمراتهم المستقلة .

ثم أنشأ مدينة جد قشيبة « روما جديدة » على ضفتى البوسفور حيث تلتقى أوربا بآسيا . وكان هذا موقعاً مدهشاً فى إقليم جميل ذى مرفأ ممتاز سهل التحصين والحماية . وأطلق على المدينة اسم القسطنطينية أى مدينة قسطنطين . ولكى يزينها جلب لها من روما تماثيل ونصباً تذكارية تسجل النصر . وهاجرت إليها أفواج كثيرة من الأسر الرومانية .

وبذلك أصبحت هناك حاضرتان كبيرتان . وعمد الأباطرة الرومان ، الذين خلفوا قسطنطين وأقاموا فى المدينة الجديدة التى بناها ، إلى متابعة جلالتها بأنشاء القصور والكنائس . وكانت أعظم الكنائس قاطبة كنيسة الحكمة المقدســـة ، ذات القباب العديدة المزخرفة بالثمين من المرمر وماء الذهب والصور المرسومة بالفسيفساء .

وكانت القسطنطينية حاضرة الشرق المسيحية تماماً كما كانت روما عاصمة الغرب المسيحية . وهيمن أساقفة القسطنطينية وبطارقتها على كنائس الشرق تماماً كما انتهى أساقفة روما إلى الهيمنة على كنائس الغرب .

وكانت لغة أهل الشرق الإغريقية . وإنا لنسمى النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية — أحياناً — بالإمبراطورية الإغريقية ، كما نسمى أباطرة الشرق بالأباطرة الإغريق . غير أنهم وشعوبهم دأبوا على حسبان أنفسهم رومانيين ، وفاخروا بذلك .

ولقد حل نظامان عظيمان للرهبان محل نساك مصر الذين عذبوا أنفسهم فسن القديس باسيلى نظاماً للرهبان الإغريق الذين ما تزال أديرتهم المنقطعة قائمة على قمم شواطىء الجزر القاصــــية . وقد وجدت فيها ، فى العصور الحديثة ، نسخ خطية قديمة من الأسفار المقدسة لا تقدر بثمن ، مثال ذلك : دستور سيناتيكوس الكبير المحفوظ فى المتحف البريطانى . ولقد عاش

هؤلاء النساك بمعزل عن العالم مقسمين وقتهم بين الصلاة والصوم ، على طريقة كليات الرهبان .

وفى الغرب سن القديس بندكت وهو مواطن من نورسيا بإيطاليا ، عاش من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٥٤٣ — سن لائحة لحياة الرهبنة سميت باسمه (بنيدكين) . وأعدت — فيما بعد ذلك — كل أنواع التعديلات لجماعات النساك الغربيين المختلفة ، وإن بقيت لائحة القديس بندكت أساساً لنظام عيشهم . وتنهاهم تلك اللائحة عن أن يعيشوا للعزلة والنسك ولا شئ غير ذلك كما تأمرهم أن يعيشوا بوصفهم أعضاء فى مجتمع متعاون ، تحت نظام صارم ، خاضع لرئيس دير . وقد فرض عليهم الطاعة ، والبقاء منفردين ، والتنازل عن كل ما يملكون للدير ؛ وكان لباسهم مجرد أعطفة غير مصقولة الغزل ، وطعامهم بسيطاً ، ومثواهم خشناً ؛ وكانوا يصلون صلوات موصولة حتى إنهم ليصحون فى جوف الليل ليؤموا مصلاهم ويقيموا دورة لا تنى عن الصلاة والحمد نهاراً وليلا . والأمر الذى يجعل نظام القديس بندكت مغايراً كل المغايرة للنظام الشرقى هو أنه يأمر الرهبان بأن يعملوا لصالح الدير : يأمرهم بأن يعنوا بالحدائق أو يزاولوا التجارة ، ويربوا الغنم ، أو ينقلوا المخطوطات . وبهذا أصبحت الأديرة خلايا نشاط بها مصليات جميلة ، وضيعات وكومات معتنى بها ، ومجتمعات لها دور ريفية مستكملة ، وقاعات وزرائب ، وبرك للصيد ، وخانات « جمع خان » للمسافرين ، وتكايا للفقراء والمعوزين . ولا معدى لرئيس أى دير مضبوط الإدارة عن أن يكون رجل أعمال وأباً روحياً لرعيته . والحياة فى دير كهذا يمكن إجمالها إجمالا صحيحاً بالقول البندكتى اللاتينى المأثور الذى معناه « العمل عبادة . »

وقد علم القديس بندكت القديس جريجورى الاكبر الذى أصبح بابا روما والذى كان واحداً من أعظم رجال عصره ، وإنما حدث هذا بعد الاضطرابات والتخريب التى رزئت بها الاقاليم الغربية . ولقد عمل القديس بندكت والقديس جريجورى بين أطلال الدنيا القديمة .

الباب الثاني

نهاية الإمبراطورية الرومانية
وضياع العلوم القديمة

الإغارة على الغرب

فى عهد القديس بندكت كانت الدنيا الرومانية القديمة فى الغرب ، فى سبيلها إلى الزوال . وكانت كل الأقاليم تغص بجماعات من برابر الغابات الشمالية .

وإذا وقفت اليوم على برج سالزبرج فى بلاد الراين — ذلك البرج الذى كان يوماً مرقباً رومانياً — وإذا نظرت متجهاً إلى الشمال ، كما كان ينظر الحراس الرومانيون ، رأيت الإقليم الذى جاء منه الغزاة . وبمجيئهم ذهب سلام العالم ... فى مكانه قدم القديس بندكت سلام الدير — وهو الملاذ والحمى — وعمد إلى عيشة الصلاة والعمل المنظمة خير تنظيم .

كان الغزاة — طوال عهد مديد — أعداء الرومان . وكان بعض شبابهم قد تجند فى الفيالق أو فى فرق الحدود العسكرية ، بل إنهم عملوا — فى بعض الأحيان — تحت إمرة رؤساء قبائلهم . وكانوا على علم تام بأساليب الحرب الرومانية . وكان أغلب الفيالق الرومانية — فى واقع الأمر — يجنّد من البربر ، يعملون لقاء أجر ويخلصون لقوادهم .

وفى القرن الرابع ، من أوله إلى آخره ، تعددت الغارات والغزوات عبر الراين والدانوب . وقد اعتاد الإمبراطور جوليان — وهو إغريقى وعالم وجندى كفء — على أن يقضى فصول الشتاء فى باريس حيث يقرأ

أعمال فلاسفة الإغريق ، وعلى أن يمضى فصول الصيف فى الزحف والحرب على رأس فيالقة ضد القبائل الألمانية فى بلاد الراين . غير أنه جاء وقت فقدت فيه الجيوش الرومانية قدرتها على حماية الحدود .

وسجلاتنا قليلة . غير أن حدثاً واحداً ظل مذكوراً بوصفه كارثة مفزعة : فى منتصف شتاء سنة ٤٠٦ عبر قوم من الألمان — القوط والآلان والواندال(١) والبورجانديين — عبروا الراين المتجمد عندما ينز وتدفقوا فى الغال . ولقد عرف أولئك الناس الكثير عن أساليب الحياة الرومانية ورغبوا فى استيطان الإمبراطورية والتمتع بثروتها وأسس القوط مملكة فى جنوب فرنسا وفى أسبانيا حيث حكم ملوكهم طوال قرنين . واجتاز الواندال بلاد الغال وأسبانيا وعبروا إلى شمال إفريقيا حيث أقاموا مملكة . وغزا غوط آخرون شمال إيطاليا ونهبوه . وغزا شعب شرس من فرسان المغول — وهم الهُون — إيطاليا ثم فرنسا (وهى بلاد الغال) تحت إمرة مليكهم أتيللا . وهؤلاء المحاربون البشعون ، قهرهم جيش موحد من الغوط والرومان .

وفى صدد جميع جولات الشعوب تلك ، علينا أن نتذكر على الدوام أن الخصومة لم تكن مجرد نزاع بين الرومان والبربر . فنحن نعرف أن كثيراً من جنود البربر تجندوا فى الجيوش الرومانية وحاربوا فى بسالة لإنقاذ الإمبراطورية من المغيرين وماتوا وهم يحاربون فى شجاعة . ومن أعظم حماة روما ستليخو وهو واندالى أصبح قائداً عاماً . إلا أن الفيالق تلاشت . أما كيف وأين انقضت ، فهذا مالا علم لنا به .

وتحرك الفرنجة الشقر — وهم أغلظ الألمان جميعا وأشهرهم — تحركوا جنوباً من دلتا الراين إلى شمال بلاد الغال (التى أصبحت « بلاد الفرنجة »

---

(١) من قبيلة الوندال التوتونية المشهورة بتخريب الآثار والكلمة تستعمل بمعنى المخرب

أى فرنسا) . وعاش فرنجة شرقيون آخرون فى بلاد الراين نفسها وما وراءها . وطالما ود هؤلاء الفرنجة ، الرومانيين. وتجند الكثير منهم فى الجيوش الرومانية .

وبهذه الغزوات تغير العالم الرومانى الغربى تغييراً كلياً . ومع ذلك فقد ظلت جموع كبيرة من المواطنين الرومان فى المدائن المسورة تعيش وفقاً للقوانين الرومانية القديمة غير أنهم أخذوا يدفعون المكوس إلى سادتهم الجدد من البربر . وقد رؤى فى بعض الجهات ، ملاك رومان يعيشون من ضيعاتهم الريفية . وثمة شيء واحد لا نستطيع حقا تخمينه هو (عدد) الغزاة على أننا نستطيع ، على أية حال، التثبت من قوتهم ومن الشقاء والخسران للذين جلبوهما . ولكن علينا أن نتذكر أمرين (ا) كان الرومان والبربر متعارفين كل التعارف (ب) وأنهما انحدرا من جنسين متشابهين أو من (أرومة) واحدة وأنهما كان فى وسعهما أن يتزاوجا فيما بينهما وهذا ما حدث فعلا، تماماً فى مثل اليسر الذى به يستطيع الإنجليز والألمان والفرنسيون أن يتزاوجوا فيما بينهم . ولقد اختفى آخر أباطرة الرومان وهو صبى اسمه روميولاس أغسطولاس . ومهما يكن من أمر فإنه لم يبق أثر لأية حكومة رومانية . ذلك أن القوط والفرنجة والبورجانديين والواندال حكموا أقاليمهم . والصورة العامة مشوشة فالريف يغص بالعبيد الهاربين والأرقاء الثائرين من دون أن تكون هناك شرازم تأتمر بأمر رؤسائها أى قطاع الطرق إنها صورة بلاد فيها يحرص كل رئيس قبيلة على أن يكون قوياً حراً ، وذلك بقوة من لدنه من إخوان السلاح . وفى المدائن الواقعة خلف الأسوار كان الناس أحياناً أكثر أمناً . أما فى مدائن (القارة) فقد بقى قبس من عيشة التمدن .

وفى سنة ٤١٠ — عندما استولى على روما نفسها جيش الملك القوطى ألاريك — أحس الناس بأن أفدح السوء قد حل بهم . وجال جنود البربر وهم يندهشون (وينهبون) فى المدينة السرمدية التى كانت يوماً سيدة العالم المتمدن جميعه من الفرات إلى التاين . وبعد حلول هـــذه الكارثة

كتب أسقف عالم من شمال إفريقيا،اسمه القديس أوغسطين ، كتابه المشهور « مدينة الله » الذى قال فيه إنه وإن كانت روما — أكبر مدن العالم — قد سقطت فإن روما ، مدينة الله ، قد بقيت وظلت خالدة لا سبيل إلى قهرها لأنها إنما بنيت فى قلوب الرجال والنساء المسيحين كافةً « ليس لنا سكن مقيم هنا (على الأرض) فإننا ننتظر سكننا العتيد (فى السماء) .

وكان لهذه الأحداث رد فعل مفزع على بريطانيا آخر الأقاليم الغربية فى الإمبراطورية .

ولقد عبر حرسُ الجزيرة الرومانى المانش ونزل فى بلاد دالغال ليصون الإمبراطورية ولم يعد قط . ويبدو أن « جيش بريطانيا » كان قوة محاربة ذات كفاية ، وبرحيله صارت بريطانيا حقاً إقليماً مفقوداً . ولئن كان سجل الأحداث فى القارة شحيحاً أو غير متصل فإنه ، فى هذه الجزيرة ، لا وجود له بتةً ! ولدينا علامات تشير إلى هجرة البريطانيين إلى بلاد اسمها أرموريكا التى أصبحت — نتيجة لذلك — (بريطانيا) ، وهذا يوضح اليوم السبب فى أن أهل ويلز والبريطانيون (أى الإنجليز) يفهم كل منهم لغة البلد الآخر ، وأهل ويلز هم -- بطبيعة الحال — من سلالة البريطانيين الذين صاروا رومانيين ولغتهم تضم قدراً وفيراً من الكلمات الرومانية (أى اللاتينية) . ولقد اسماهم — « الولش » أى أهل ويلز — غزاة الجزيرة البحرين الذين كانوا يسمون الأجانب : « الولش » .

وهؤلاء الغزاة كانوا من الإنجليز أو السكسون ، فأصبحت هذه الجزيرة أو أكبر جزء فيها : بلاد الإنجلز أو بلاد الإنجليز . على أن مجيئهم ليست له مسجلات واضحة . ولقد طردت طرداً خاسراً مجموعة واحدة على الأقل . والظاهر أن مجموعات أخرى ، حملتها سفن عديدة أنزلت إلى البر . واستوطن البحارة — تحت إمرة رؤسائهم — على الشاطئين الشرقى

والجنوبى . أما ما حدث لـ «نوتية الدجلة» ، التابعين للأساطيل الرومانية ، الذين أقيموا على مقربة من التاين ، وأما النوتية التابعين لحرس المانش فلا نعلم عنهم شيئاً على الإطلاق . وقصارى ما نعلمه أن الملوك ورؤساء القبائل الإيرلنديين كانوا إذ ذاك يغيرون على الشاطىء الغربى وأن الأمراء البريطانيين كانوا يتنازعون فيما بينهم .

ويبدو مع ذلك أنه ثبت إلى درجة كبيرة بأن الغزاة لقوا هنالك مقاومة أشد من تلك التى لقوها فى القارة ، إذ أن الإنجلز والسكسون لم يبلغوا نهر السفرن إلا بعد مضى قرن على نزولهم الأخير إلى البر،وقطع مائة وخمسين ميلاً فى مائة سنة يعدّ غزواً بطيئاً وقد يكون السبب : قلة عدد الغزاة ، وهذا مالا علم لنابه . وفى مكان ما من ميادين الحروب التى شنت عليهم ترد حكاية الملك آرثر و«موقعة كبيرة أشعلت فى مكان اسمه تل بيدون الذى نجهل الآن موقعه .

ومهما يكن من أمر فإن بريطانيا الرومانية تحولت إلى خرائب ولم يبق لها ذكر إلا فى بلاد الويلز .

وبعد أن مضت مائة وخمسون سنة ، لم تكد حوادثها تسجل خلالها ظهرت « انجلترا » بلداً وثنياً يضم ممالك صغيرة : كِنت وساسكس وأنجليا الشرقية وميرشيا ونورذمبريا ووسكس. وكان أهل ويلز مسيحيين ولكنهم لم يحاولوا أن يحملوا الإنجليز على اعتناق ديانتهم .

وهكذا تفتتت وحدة الإمبراطورية الرومانيـــة فى الغرب خلال القرنين الخامس والسادس وهناك سبعة أجيال من الناس غابت عنا أخبارهم اللهم إلا قطع وأجزاء من الوثائق المكتوبة .

وكانت تلك هى الفترة التى فيها انتهت الفيالق ، بما فيها قواد المائة

والرايات ، المتشامخة المزدهية ، إلى مصير مجهول . أجل ، كان هذا مصير كثير منها كالفيلق الثانى لأوغسطس — الذى سمعنا به ، آخر مرة ، فى رتشبورا بـ ... كنت بعد أن بقى خمسمائة سنة . كانت هى الفترة التى فيها بليت أو احترقت سجلات روما العظيمة التى لا تقع تحت حصر ومسجلات البردى على ورق هش مصنوع من قصب الغاب (البوص) ، كانت هى الفترة التى فيها هدم الجنود البربر أسوار القلعة بمقاليع الحصار التى دربهم الرومان على استعمالها ، كانت هى الفترة التى فيها لبس القائد الحربى الأكسية العسكرية والدروع الرومانية وجعل أركان حرب أحد قواد الرومان يمثلون فى حضرته والتى فيها هبطت جماعات كثيرة من الأنجلز والسكسون شواطئنا واستوطنوها وأطلقوا على قراها الأسماء التى نعرفها بها اليوم ، كانت هى الفترة التى فيها دفن رئيس قبيلة مجهول تحت استحكام ترابى ضخم فى جنوب انجلترا عرفه الريفيون فيما بعد بـ « قبر زعيم المغيرين » ، كانت هى الفترة التى فيها توقفت عن العمل إدارة البريد وغيرها من المرافق العامة ، والتى فيها هجرت الحمامات والمكتبات والمسارح وخربت مجالس الشورى والأنبار ؛ لقد كانت فترة عنف وموت يفاجىء وضيعات تحرق وحقول تهجر . كانت الصحاف والأقداح الفضية يهشمها مالكوها بعضها البعض ويصهرونها أو يدفنونها ليصونوها ليعثر عليها بعد أجيال.

لقد كانت فترة لم تتلف فيها السجلات القديمة فحسب بل هلكت كلها أو القدر الأعظم منها . وإنا لنقرأ ، فى القليل الذى بقى منها ، عن الغارات والحروب والمجاعات وعن الأوبئة الشرقية التى عمت كأنها رسول جاء ليُهلك العالم .

لقد ظلت منازل الحصون مشرقة ، والحمامات العامة عديدة ، ومجموعات الأبراج سامقة ، وضوضاء الناس صاخبة ، وكان هناك كثير من الخمارات يملؤه أنواع السرور والناس ، إلى أن قلبها القدر الجبار رأساً على

عقب : تخرّت الأسوار العريقة المترامية ، وحلّت أيام الوباء والضر ، وحصد الموت شجاعة الناس ، وأصبحت حصونهم أماكن خاوية ، وتحولت المدنية إلى خرائب .

كانت هـذه هى الصورة التى لاحت لعازف قيثار إنجليزى غنى بعدئذ وهو يرنو إلى خرائب المدينـة الرومانية المسماة « باث » على أن الناس لم يزوروا المدن التى منى أهلها بالطاعون إلا بعد انقضاء فترة طويلة : نبت العشب وارتفع فى الكرمات وعلى الطرقات ، ورزحت الجسور فى مياه فيضانات الشتاء ، وغصت أخاديد القنوات والمصارف ، وتعطنت السفن فى المرافىء أو غرقت ، وترك الخزافون ، وتخربت المصانع ، وكثرت الفلوات بين مزارع الحنطة . وكان على الرجال والنساء أن يقيموا كل شىء من جديد بالعمل الشاق المضنى بالفلاحة البسيطة .

هذا هو ما حدث فى بريطانيا وفرنسا وبلاد الراين وأسبانيا وإيطاليا . وكان أعظم البوار فى بريطانيا وأقله فى إيطاليا .

البربر والأساقفة :

بين سنتى ٤٠٠ و ٦٠٠ ميلادية أغار البربر على البقاع الرومانية الغربية . كان فى شمال إيطاليا وأسبانيا وجنوب فرنسا أقوام من القوط ، وفى إفريقيا أقوام من الوندال ، وفى شمال فرنسا فرنجة ، وفى شرقها بورجانديون . وفى بريطانيا أخذت العصابات المحاربة من الإنجلز والسكسون تستعمر رويداً رويداً وتتحرك صوب الحرب وذلك بعد أن قاومها البريطانيون مقاومة ضارية .

وفى سنىّ الشغب والتلف تلك ، ثبت شىء واحد لا يتزعزع : وهو كنيسة المسيح يتزعمها أساقفتها .

وكان للأساقفة سلطان عظيم فى الشرق والغرب حتى قبل الاضطرابات. فلقد حكم القديس باسيل منطقته فى آسيا الصغرى كأنه نبيل رومانى كبير وتحدى القديس جون كريزوستوم، الإمبراطور، وأمر القديس أمبروز ـ وقد أقام فى ميلان — تيودوسيوس، خاتم كبار أباطرة الغرب أمره بأن يركع ليكفر عن الانتقام الجائر الذى ذبح فيه بعض الثوار بأمره. ولئن كان فى مقدور جندى عظيم وإمبراطور أن يصنع هذا فمن اليسير أن نتبين أى صيت يحيط بأسقف فى نظر رئيس قبيلة بربرى. إنه أشاع الفزع والرعب فى صدور أشد الغزاة شكيمة وذلك لأنه أحد قساوسة دين ذائع الانتشار يتسربل بكسوته الكهنوتية الرسمية، « وسحر » الكنيسة المسيحية سحر قوى.

كانت الدنيا القديمة مدنية بنيت فى المدن. وكان لكل مدينة أسقف خاص بها تمده معرفته وحكمته فى العلوم والفنون والقانون اللاتينى والسجلات بأسباب القوة. وكان الرجال الذين أصبحوا أساقفة — بطبيعة الحال — على شاكلة أولئك الذين تزعموا الناس فى الدنيا الوثنية القديمة، كانوا رجالاً ذوى شخصية ومقدرة يحذقون سياسة غيرهم من الناس وحكمهم وكانوا فوق ذلك زعماء المسيحية الناظرين إلى كنيستهم على أنها مركز حياتهم وباعثهم الأصلى، شأنهم فى ذلك شأن اليهود الذين كانت ديانتهم أساس المسيحية.

لقد كانت الكنيسة أو الإيمان شيئاً قد يموتون فى سبيله طواعية كما قد يموت الوطنيون الغيورون فى سبيل أوطانهم. ولم يسبق قط لرومانى أو إغريقى الموت فى سبيل جوبيتر(١) أو أبو للو(٢). ثم إن الغزاة الكفار كانوا يخشون آلهة غيرهم من الأقوام، أما المسيحيون فلم يخشوا شيئاً.

---

(١) جوبيتر: إله الآلهة عند قدماء الرومان.

(٢) أبو للو إله الجمال والرجولة والشعر والموسيقى.

وعلى هذا فإن الغرب لم يكن مجرد مرقعة(١) من ملوك البربر ، إذ تخلف شيء من النظام الرومانى القديم ، وكان هذا الشيء هو الكنيسة . وكان اسم المنطقة التى يحكمها الأسقف ، أى « الأسقفية » أو الأبروشية ، هو الاسم نفسه الذى كان يطلق على تلك المنطقة عينها أيام الحكم الرومانى الوثنى . وكانت هنالك حقيقة بالغة الأهمية وهى أن الأساقفة جميعاً ظلوا يتصلون بعضهم بالبعض ، وهكذا تمكنوا من الإبقاء على ذكرى المدنية القديمة وتقاليدها .

على أن شهرة باباوات روما وقوتهم تردّان إلى أنهم حكام لتلك المدينة السرمدية التى حكم مواطنوها العالم دهراً . وعندما اجتاح إيطاليا فى سنة ٤٥٢ فرسان الهون(٢) ذوو العيون المائلة والوجوه الذميمة والسيقان المعوجة كان البابا ليو هو الذى أغرى ملكهم آتيلا بسحبهم .

وعلى هذا أمسى مصير الغرب ، فى ذينك القرنين المظلمين — من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٦٠٠ — بين أيدى رؤساء القبائل الغزاة والأساقفة المسيحيين. ويجب أن لا نحسب الغزاة متوحشين بل يجب أن نعدّهم محاربين يكتسون الزرد ويحذقون فنون الحرب . وقد يمكننا أن نحسن الظن بهم قليلاً إذا تذكرنا أن الجيوش الرومانية العظيمة كانت هى نفسها « تغلب عليها البربرية » وأن الوافدين الجدد — من مواطنى جنود الفيالق الرومانية — سلكوا سلوكهم ولبسوا لبسهم وحاربوا على غرارهم .

وقد اعتنق القوط — وهم الرعيل الأول من الألمان الذى استوطن الإمبراطورية — اعتنقوا المسيحية قبل سنة ٤٠٠ عندما كانوا ما يزالون فى البلقان. وكان ألريك — الذى استولى على روما — يعتنق المسيحية بطريقة

---

(١) المرقعة : (بتشديد القاف) ما يؤلف من أجزاء ورقع .

(٢) الهون شعب أسيوى همجى اجتاح أوربا فى القرن الرابع حوالى سنة ٤٥٠

قد تكون هى السبب فى أن الرومان لم يرتاحوا إليه . وربما إقتصرت مسيحيته على القدر الذى يجعله يخاف إله المسيحيين ويخشى السحر المسيحى. ولسوء الحظ كان الإغريقى ، الذى بشر القوط بالإنجيل ، مسيحياً من « الهراطقة(١) » ، كان من القائلين بأن عيسى لم يكن رجلاً قدسياً . وفى وسعنا أن ندرك الفزع الذى ينظر به الرومان إلى القوط الذين عدوّهم أسوأ من الوثنيين ، تماماً بقدر ما يُعد الثوار أسوأ من الأعداء العاديين . وهذا النوع الهرطقى من المسيحية كان يلقنه أسقف اسمه أريوس ، وانتشر فى وقت ما انتشاراً كافياً حتى نسخه الأسقف أثناسيوس(٢) ، وتجد مذهبه الأثناسى فى كتاب الصلوات الإنجليزى المستعمل الآن .

وكان القوط مسيحيين « آريوسيين » . وقد أمسى الجنس الآخر القوى من البربر — وهم الفرنجة — مسيحيين وفقاً للمذهب الاثناسيوسى ، وأولئك يصح أن نسميهم بـ « الكاثوليك » .

على أن الفرنجة . الذين استولوا على أراضى الرومان الزراعية ومدنهم الواقعة شمالى فرنسا ، كانوا — من بين الغزاة جميعاً — أكثر الغازين ضراوة . ولقد تزوج أول زعمائهم — كلوفيس — من أميرة بورجاندية مسيحية ظلت تتوسل إليه بشتى الوسائل حتى ردّته مسيحياً . وقد تلقى التعميد(٣) ومعه ألفان من المحاربين المختارين ، فى كنيسة ريمز أمام جميع أساقفة مدنه . ووقف فى أرديته البيضاء أمام القديس ريمى — أسقف ريمز — الذى لقنه ، فى إيجاز وجلاء ، كيف يسلك سلوك المسيحيين: «أعبدوا ما كنتم تحرقون ، واحرقوا ما كنتم تعبدون » . حدث هذا فى ٤٩٦ م. وقرر كلوفيس القوط الأريوسيين الموجودين فى جنوب فرنسا . وما هو إلا القليل حتى استقبل

---

(١) الهراطقة الضالين المارقين ذوى البدع فى الدين .

(٢) أثناسيوس : صاحب قانون (الأمانة) المذكور فى كتاب الصلوات للكنيسة الإنجليزية

(٣) التعميد أو التغطيس من تقاليد التنصير عند المسيحيين .

رسلاً من قبل إمبراطور القسطنطينية الذى أنعم عليه بلقب: قنصل رومانى، ولبس الأردية الأرجوانية المخصصة لذاك المنصب. وفى عهده وعهد خلفائه صارت بلاد الغال أرض الفرنجة أى فرنسا .

وفى أسبانيا عاش الرومان والقوط جنبـــاً إلى جنب يحكمهم ملوك من الغوط .

وفى إيطاليا حكم ملك قوطى — اسمه تيودوريك — القوط الأريوسين والكاثوليك الرومانيين ، وقد أحسن الحكم . وكان من كبار وزرائه كثير من الباحثين الرومانيين العلماء . وقد بذل غاية جهده ليحافظ على أساليب الحياة الرومانية القديمة طوال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٩٣ إلى سنة ٥٢٦، غير أن إيطاليا تعرضت لأرزاء فاجعة فى أثناء «الحروب القوطية» التى بدأت بعد موته والتى نجمت عن محاولات إمبراطور النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية إسترداد إيطاليا من القوط .

الإمبراطور جستينيان :

بينما كانت الأقطار الغربية تُغتصب أو تدمر صمد نصف الإمبراطورية الرومانية الشرقى صموداً راسخاً . وأنشأ الأباطرة — الذين كانوا يحكمون من معقلهم بالقسطنطينية — أنشأوا جيشاً كامل العدة والتدريب يحوى فرقاً ثقيلة التسليح من الخيالة المتسربلين بالزرد ، وعديداً من النبّالة أو رماة السهام وغيرهم من الرجال المسلحين بالأسلحة الخفيفة . وقد تدربوا على أن يغيروا من أساليب الحرب تبعاً لما كان يظهره أعداؤهم المختلفون من فنون الحركات الحربية . وهكذا نجت مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى والأصقاع والجزر الإغريقية ، من الدمار الذى حل بالغرب .

وكان الأباطرة يلبسون النعال الذهبية وأردية القياصرة الأرجوانية الفاخرة ، كما كانوا يحافظون على قوانين الرومان القديمة . وكان طلاب العلم

فى مدارس القسطنطينية والإسكندرية يتباحثون فى الفلسفة والعلوم الإغريقية. وفى ملاعب الخيل بالقسطنطينية درجت الجموع الصاخبة المستثارة على أنه تترقب ركبانيَّيها(١) المحبوبين وهم يقودون فرقهم إلى النصر . وقد غصت المدينة بالدهماء والمتبطلين والشحاذين والعبيد وأرباب الحرف من شعوب عديدة ، وكثرت المشاغبات بين الفرق المتنافسة — وبخاصة بين « الخضر » و« الزرق » — فى مباريات السباق بملاعب الخيل . ولكن الإمبراطورية كانت غنية . وقد مخرت فى البحر قوادسها(٢) وسفنها التجارية وعليها البضائع. أما عبر اليابسة فإن تجارة الشرق كانت تجىء مع كل شروق شمس . وكانت تلك هى الفترة التى فيها هرّب بعض المغامرين الجسورين دودة القز من الصين السحيقة وبدأ — تبعاً لذلك — إنشاء حقول الحرير فى الإمبراطورية. لقد كانت إمبراطورية مسيحية تسهر على سلامة أقدس الأماكن التى تهم الكنائس المسيحية وهى الأماكن التى مشى فيها عيسى والتى رحل إليها حواريوه . وقد حكم الأساقفة أملاكاً شاسعة ، وكانوا رجال قوة وسلطان بشروا فى جميع مدائن الشرق الأدنى القديمة .

وقد حافظت الإمبراطورية الشرقية ، أو إمبراطورية « بيزنطة » ، على جيشها المنظم الموفق وذلك طوال قرنَـى الظلام والشغب فى الغرب (من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ م) . وكان أكبر أباطرتها : جستينيان الذى حكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ . وهو الذى أرسل جيوشاً تغزو الغرب من جديد .

فأخذت إفريقا فى تقدم خاطف ودمرت امبراطورية الواندال التى كانت هناك . وكذلك استعادت تلك الجيوش إيطاليا . على أن ذلك لم يتم إلا بعد حرب ضروس مع القوط دامت عشرين عاماً . وقد منيت إيطاليا

---

(١) الركبانيون : المحاربون فى عجلات حربية .

(٢) القادس : الزورق الحربى الكبير .

بخسائر مفزعة من جراء الحرب ، منيت بالقحط والوباء . وإن المؤرخ القديم الذى يؤرخ لهذه الحرب القوطية الطويلة ليرسم صورة بشعة للمزارع التى تخربت وللفلاحين الذين ماتوا جوعاً .

إلا أن أخص ما اشتهر به جستينيان لم تكن حروبه بل أعماله فى سبيل البناء وسن القوانين ، فلقد اصطفى خيرة المشرعين ليجمعوا كل قوانين روما ويبوِّبوها فى مجلد أو مجموعة صارت أساساً لكثير من دساتير القوانين المعمول بها إلى الآن . وما يزال يتعين على الطلبة فى جامعاتنا أن يدرسوا القانون الرومانى ، وهذه حقيقة تذكرنا بأننا متصلون اتصالاً وثيقاً بتلك العصور السحيقة . ومن آثار جستينيان الأخرى الباقية : كنيسة أياصوفيا البديعة — أو الحكمة المقدسة — التى ما تنفك ترفع قبابها العديدة فوق القسطنطينية ، وقد شيد الإمبراطور كثيراً من الكنائس والحصون .

ولقد احتفظ خلفاؤه بأجزاء من إيطاليا : البندقية وروما ونابولى والجنوب وصقلية . وكانت وفاة جستينيان فى سنة ٥٦٥ . وبعد وفاته بخمس سنوات غزت السهول الشمالية الإيطالية أمةٌ جرمانية هى (أهل لومبارديا) الذين جاءوا من وراء الألب والذين سارع دوقاتهم إلى المناداة بأنفسهم سادة على ميلانو ومدائن أخرى . ونحن ما زلنا نسمى السهل الشمالى ، بـ (لومبارديا) وإن يكن اللبارديون ولسانهم الجرمانى قد ذابوا منذ زمان طويل — مع القوط والرومانيين — فى شعب إيطاليا .

وسلخت إيطاليا ١٣٠٠ سنة لم تسترجع فيها اتحادها !

رأينا أن الفرنجة المسيحيين حكموا بلاد الغال وأخذوا يصيّرونها إلى أرض الفرنجة أو فرنسا وأن القوط المسيحيين حكموا أسبانيا . وكانت فى بريطانيا وحدها ممالك وثنية . وفى الحق أن أهل ويلز كانوا مسيحيين

وأن الإيرلنديين تنصروا نتيجة لتبشير القديس پاتريك وهو بريطانى رومانى ، وأن القساوسة والناس كثيراً ما تنقلوا ذهاباً وإياباً بين إيرلندة وكورنوول ويلز وبريطانيا . غير أن الناس — فى كينت وسسّكس وإسّكس ونورذمبريا فى غرب إنجلترا وفى بلادها الداخلية — كانوا مايزالون يعبدون وودن وثور وهما من قدامى آلهة الشمال الوثنية .

تلك صورة ما كانت عليه الحال فى نهاية القرن السادس. وكانت تلك حال الإمبراطورية الرومانية المتفتتة التى انتهت عندما ظهر على المسرح رجلان غيرت أعمالهما كل شىء وهما جريجورى الكبير فى روما ورجل عربى اسمه محمد .

الباب الثالث

رايات الصليب أو مملكة وحصن وكنيسة

المسيحية : البابا جريجورى الكبير :

كان البابا جريجورى الكبير — الذى رأس كنيسة القديس بطرس بروما فى سنة ٥٩٠ — تلميذاً للقديس بندكت الذى أسس نظام الرهبان فى الغرب . وقد كرس أولئك الناس حياتهم — كما رأينا — للعبادة والعمل . ولم يلبث مسعاهم أن آتى أكله فى الأديرة المعتنى بها ، وذلك بنسخ الكتب المسيحية وبتلقين الإنجيل . وكان من الخير فى تلك الحقب الوعرة وجود دُورٍ تكون حقا موائل للنور والعرفان والإيمان المسيحى الحق .

وقد أسهم جريجورى الكبير — بوصفه رئيس أساقفة الغرب — فى إعادة بناء مدنية مسيحية جديدة

كان حاكماً لروما وعرف كيف يسوس الرجال بحكمة وحزم . وألف كتباً عن الدين وأرسل رسائل إلى رهبانه ورؤساء أديرته يرشدهم فيها إلى طريقة إدارة الكنائس والأديرة . وإذا كنا اليوم نسمى أحد أنواع الموسيقى الكنسية بـ « الجريجورية » فلأنه كان ذلك النوع نفسه الذى أمر بعزفه . وهو — إلى هذا — أوفد مرسلين يعلمون الايمان ويردون الناس إلى المسيحية . ولهذا السبب — وبفضل حكمته ومقدرته — أصبح زعيم مسيحى الغرب قاطبة . ولهذا السبب أمست كنائس البلاد البربرية المختلفة جماعة مسيحية متآخية يتبادل أساقفتها ورؤساء أديرتها الرسائل والزيارات وأضحى الغرب « نصرانية » أى ملة كبيرة من المسيحيين (أو مملكة

من ممالك الله على الأرض) . وعلى الرغم من هذا أسمَى جريجورى نفسه « خادم خدّام الله » وهذا لقب بديع .

وذلك يوضح السبب فى أن الراهب أوجستين ، مع أربعين آخرين ، عبروا المانش فى سنة ٥٩٧ وهبطوا إلى البر على مقربة من ساندوتش فى كينت الوثنية . وهناك جلس الملك على عرشٍ فى الهواء الطليق ليستقبلهم فأتوا إليه حاملين صليباً من الفضة ولوحاً نُقشت عليه صورةُ المسيح وقد ساروا ينشدون أوراداً لاتينية . وأصغى الملك واعتنق المسيحية . وتلقى التعميد (أو التغطيس) مع كل رجالاته البارزين . وقد وهب أوجستين كنيسةً قديمة فى البلدة الرومانية القديمة : كانتربيرى . وكان فى كينت — فى حقبة من الحقب — مسيحيون يتعبدون فى بيوتهم ، وهذا ما دلتْنا عليه حديثاً الحفائرُ فى بيتٍ رومانى بـ . . . لو لينجستون . والآن أصبح بربرُ كينت الجددُ مسيحيين وأصبحت كانتربيرى — وهى ما تزال بلدةً صغيرة جداً — مقرّ رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية أو سدّته البابوية .

ويذكرنا ماتلا ذلك فى إنجلترا بكلمات الإنجيل : « فترى الأمم برّك وكلُّ الملوك مجدك » .

وكان فى تلك الجزرُ ملوك وأمراء كثيرون . سمعوا الإنجيل فى مدَى قرنٍ من الزمان ، وقد تلقى أكثرُهم التعميد ، . وكان أمراء ويلز مسيحيين على طول الزمان منذ الأيام الأولى لروما . غير أنهم وشعبهم لم يبذلوا جهداً ما لينصروا جيرانهم الإنجليز الذين طردوهم من خير بقاع الجزيرة .

وقد حدثت ، فى أثناء التحول ، حوادث مثيرة . منها أن الناس ، فى لندن طردوا الرهبان الرومانيين الأوائل الذين اجترءوا على الخروج إلى أولد كينت رود (طريق كينت القديمة) وفى يوركشير قاد كبير قساوسة الإله الوثنى (ودن) قاد بنفسه حشداً من الوثنيين ليحطموا ويحرقوا معبد (ودن) ، وذلك بعد أن سمع راهب يولينوس يقص قصة الإنجيل .

وفى الوقت الذى فيه أوفد المبشرون من روما نشطت الكنيسة الأيرلندية القديمة فى أعمال التبشير . وكان الأيرلنديون قد سمعوا الإنجيل، فى القرن الخامس ، من القديس باتريك، وهو رومانى مسيحى كانوا أسروه فى إحدى غارات الرقيق على بريطانيا ، وبنيت كنيسة إيرلندية على جزيرة أيونا الواقعة على مسافة من الشاطىء الأسكتلندى، وفى الوقت الذى دخل فيه أوجستين (كينت) جاء القديس أيدان ، من أيونا إلى نورذمبريا ليبشر بين أهلها . وأقام أيدان ديره على جزيرة لينديسفارن الواقعة على مسافة من شاطىء نورذمبريا .

وقد حدثت فعلا منازعات بين القساوسة الأيرلندين والقساوسة الرومان فى صدد بعض شئون دينهم ، غير أن المنازعات فضت من دون أن تترك أثراً فى النفوس ، وتحركت الجزيرة كلها نحو الأسرة المسيحية الكبيرة التى أسهمت فى تكوينها جهود جريجورى الكبير . وقد أرسل أحد البابوات اللاحقين راهباً يونانياً عالماً وهو تيودور أحد مواطنى طرسوس (وهى مدينة القديس بولس القديمة) ، أرسله ليكون رئيس أساقفة كانتربرى ، وقد نجم عن ذلك ازدياد المعرفة بتعاليم الكنائس الإنجليزية . ولم تلبث بعض الأديرة — مثل جارو ، و ، يورك فى الشمال ومثل مالمسبورى وكانتربيرى فى الجنوب — أن تحولت إلى بيوت للمعرفة والثقافة المسيحيتين ، وقد عمل معاً الرهبان والباحثون من اليونانيين والإنجليز والإيرلنديين ووثقوا جميعاً صلتهم بروما . وعلى هذا عادت الصلة ثانية بين أقاليم بريطانيا الضالة وبين المدنية المسيحية الآخذة فى الانتشار فى غرب أوربا . وثمة فارق غريب واحد — دام قروناً — هو : فى فرنسا وإيطاليا كان الأساقفة يوجدون فى كل مدينة ، أما فى إنجلترا فكان كل أسقف يهمين على كنائس مملكة أو قسم من مملكة ، وعلى هذا أمسى الأساقفة الإنجليز ، على قلتهم ، أغنياء أقوياء .

تلك كانت الأيام الذهبية للكنائس الإنجليزية والأيرلندية ، وكانت مبانيها عمائر خشبية بسيطة ، ولكن أعمالها اليدوية فى الكتابة وصناعة الكتب والتطريز اشتهرت فى أوربا كلها، وإلى هذا أرسلت إيرلندا وإنجلترا مُرَسيلها وارتحل قديسون إيرلنديون — مثل كولومبانوس وجول — إلى أوربا وأسسوا أديرة مثل فولدا بألمانيا . وبشر قديسون من الإنجليز — مثل بونيفاس — بين السكسون الأشراس فى ألمانيا واستشهد الكثيرون منهم هناك . وتلك إحدى القصص الكبرى فى تاريخنا . وقد روى لنا كثيراً عما بها راهب وهو « بيد » (من بلدة چارو) الذى قضى فى ديرها كل حياته منذ دخله غلاماً فى جوقة المرتلين إلى أن مات أميناً للمكتبة . وقد ألف (بيد) كتباً كثيرة أهمها « تاريخ الكنيسة الإنجليزية » المكتوب بلغة لاتينية جيدة ، وترجمته اليوم فى متناولنا جميعاً .

ومات (بيد) فى سنة ٧٣٥ بعد نزول أوجستين إلى البر بمائة وثمانية وثلاثين عاماً . وكان ممكناً أن يلتقى أبوه رجالاً رأوا أوجستين وأن يكلمهم . وفى تلك الفترة القصيرة تمت إعادة إنجلترا إلى المسيحية . ولكن حدث فى شرق أوربا وجنوبها — فى تلك الفترة نفسها — شىء آخر مثير .

رجل من الصحراء :

درج الرعاة « الأعراب » على نهب الأقوام التى تفضلها حظاً والتى تعيش على مقربة منهم . وكانت الحياة على المراعى الصحراوية القليلة الغذاء ، عسيرة . ولذا كان من دواعى رضائهم — وبخاصة فى فترات الجدب — أن ينهبوا الناس الذين يفضلونهم حظاً ، أى أولئك الذين يعيشون فى أرض خصبة أو فى المدائن . وكانت المدائن والأراضى الخصبة — فى عهود الإمبراطوريات الإغريقية والرومانية — تحرسها جيوش الإمبراطور وظلت الغارات العربية — طوال قرون عديدة — مجرد أمور مقصورة على التخوم .

وجاء محمد — وهو عربى ولد فى مكة فى سنة ٥٧٠ — وبشر بدين جديد . علم الناس أن يصلوا لإله واحد هو الله ، وأن يعيشوا عيشة رشيدة يحوطها التحفظ . وحرم عليهم الخمر والموسيقى الماجنة . وعلمهم أن يساعدوا المعوزين والمظلومين وأن يطيعوا زعماءهم وأولى الأمر منهم . وحرم عليهم عبادة الأصنام وصنع تماثيل أو صور لأى مخلوق حى . وما يزال الفن المعمار العربى — إلى يومنا هذا — خلواً من التماثيل والصور ، غير أنه تزينه خطوط ذوات ألوان نسميها « أرابسك » أى النسق العربى فى النقش والزخرفة . وعلمهم أن الذين يؤمنون بالله حق الأيمان جميعُهم إخوان سواسية وأن من لا يدخلون فى دين الله يدفعون الجزية لبيت مال المسلمين .

وقد آمن العرب المسلمون بالتوراة وأسموا أبناءهم أسماء مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف وسليمان ، ونظروا إلى سليمان على أنه حكيم مقتدر ، وإلى عيسى — لا على أنه ابن الله بل — على أنه نبى . فهم يقولون بوجود إله حق واحد هو الله الرحمن الرحيم العظيم الحكيم ، ونبى حق كبير هو محمد رسول الله ، وبأن محمد يعرف ما يُرضى الله الذى نظم فى عليائه كل شىء فى السماء والأرض . وقد سُجلت التعاليم التى نزلت على محمد فى كتاب مقدس هو القرآن .

كان العرب يحذقون ركوب الخيل والجمال وكانوا يتصفون بقوة البنية وخفة الحركة والشجاعة وعلو الهمة . ولقد شكلوا فرقاً عسكرية تمتاز بالقوة والأقدام . ثم إن دينهم الجديد — وهو دين بسيط واضح — قد وحد القبائل وتطور إلى دين فتوح ، مذهبه مجاهدة الكفار بالأحدب والرمح والحسام . وكان زعماء العرب ، ممن تعاقبوا بعد محمد ، كانوا يوصفون بأنهم الخلفاء وأمراء المؤمنين وكانوا قادة جيش من الفاتحين . وهؤلاء السمر أبناء إسماعيل — يقودهم أمراؤهم ذوو العمائم البيضاء — نقلوا الحرب إلى الأراضى المسيحية ، وكان قتالهم فى سبيل الله . وكان جميلا الانتقال من

الصحراء اللافحة إلى المراعى الخضر والغياض . وكان الفاتحون قدريين يؤمنون بمذهب القضاء والقدر وهو أن كل ما هوآت ترسمه مشيئة الله ثم لايتبدل. وقد شد أزرهم فى الحرب دافع أفضل هو أعتقادهم بأنهم — إذا ماتوا مجاهدين فى الحرب — ضمنوا جنة الله بغير حساب .

وقد حدث أن إمبراطوراً إغريقياً ضعيفاً أحمق دفع الفرس إلى اجتياح فلسطين ومصر فسهل الفتح العربى بسبب قلة الحرس والجنود الإغريق . وقد تصدى للعرب الإمبراطور هرقل محاولاً أن يمحو أثر الأذى الذى صنعه سلفه الأحمق إلا أن العرب ردوا هرقل على أعقابه واستولوا على دمشق عاصمة الصحراء العظيمة (التى عمد فيها القديس بولس) ، كما استولوا على أنطاكية المدينة الجميلة ، الغنية بمجموعات الأعمدة وبالحدائق ، (التى فيها لقب أتباع المسيح بالمسيحيين ، أول مرة) . واستولى العرب أيضاً على بيت المقدس التى كانت مدينة « مقدسة » لديهم ولدى المسيحيين ، وفتحوا مصر أرض الفراعنة العتيقة التى اشتهرت بعلمها وبأديرتها . واستولوا على الإسكندرية ، المدينة اللامعة برخامها الأبيض .

واتجه العرب صوب الشرق وقطعوا مسافات شاسعه وحطموا قوة خصوم اليونان وروما الأقدمين وهم الفرس . ونشروا دينهم إلى ما وراء شاطىء إفريقا الشرقى ، وسبحت سفائنهم مع الرياح الموسمية إلى الهند .

ذكرنا عن الشرق ما فيه الكفاية . أما عن الغرب فقد تم فتح كل شمال إفريقا (وكان يحوى كثيراً من المدن والقرى المسيحية) . وقاد أمراء المؤمنين جحافلهم غرباً فى اتجاه مغرب الشمس ولم يتوقفوا إلا بعد أن خاضت سنابك مطاياهم أمواج الأطلانطى السحيق . وانخرط الأهلون من المغاربة فى جيش الفاتحين ليصبحوا من عساكر الموحدين . وعمرت المساجد بدلاً عن الكنائس واضمحل ماشيدته روما من معابد وكرمات ومدرجات . وكان النصر ميسراً .

(حدث كل هذا قبل وفاة الراهب الإنجليزى (بيد) فى دير الجيب
بـ جارو) .

الهلال فى أولى مدافعاته :

عبرت الجيوش الإسلامية ، من العرب والمغاربة ، من مراكش إلى أسبانيا واكتسحت شبه الجزيرة ودفعت المسيحيين أمامها إلى الجبال الشمالية. ثم أخذت تغير — العام تلو العام — على أراضى فرنسا الداخلية .

ويجب أن نتذكر أن المنطقة التى كانت يوماً إمبراطورية موحدة فى العهود الرومانية والتى شملت الشرق والغرب ، أمست الآن يحكمها كثير من الملوك والأمراء ، كل منهم له رفاقه المحاربون وكل منهم حاكم مسيحى ، إلا أن كلا منهم يتصرف منفرداً كما يحلو له . وقد استولى المسلمون على نصف الرقعة المسيحية ، وفى هذا النصف خير ما أحبوا وقدسوا من البلاد العتيقة. بل إن حصن القسطنطينية نفسه كان مهدداً . وكانت تحيط بالحدود الجنوبية للبقاع المسيحية ولايات إسلامية شاسعة باسلة . وبدأ البحر الأبيض المتوسط يغص بسفائنهم ، ولم يكن من المستطاع صدهم إلا بأعجوبة .

وكانت جحافل الخيالة العرب تتقدم فى فرنسا العام تلو العام ، الصيف تلو الصيف . ثم حدثت الأعجوبة . التقى فرنجة فرنسا الشقر وكانوا مسيحيين وشجعاناً ، يقودهم الأمير سارل مارتل (أى المطرقة) — التقوا بحشد من العرب والمغاربة فى (تور) فى سنة ٧٣٢ وهزموهم ، واستخلص الفرنجة فرنسا من أيدى العرب وبذلك استخلصوا الغرب .

وبقى على أسبانيا والبرتغال أن تتخلصا بعدُ منهم . أما البلاد الأخرى التى فتحها المسلمون فقد لبثت تحت رايتهم الخضراء ألفاً ومائتين من السنين.

شارلمان :

إن شهرة شارل مارتل قد فاقتها شهرة حفيده شارل الأكبر أو شارلمان .

فلقد وسع رقعة ممتلكات الفرنجة إلى درجة امتد معها سلطانه من جبال البرانس إلى نهر الألب في ألمانيا ومن الأطلنطى إلى نهر الدانوب وإلى نهر التيبر فى إيطاليا . وبعبارة أخرى حكم إمبراطورية شملت فرنسا وبلچيكا وهولاندا وغرب ألمانيا وشمال إيطاليا . ولقد قضى أغلب فصول الصيف فى محاربة مغاربة أسبانيا ، والسكسون فى ألمانيا ، والدانمركيين على تخوم بلادهم ، والسلاف على التخوم الشرقية لألمانيا . وقد اتسع له الوقت مع ذلك فعمل على تشجيع العلوم والفنون وهندسة البناء . وشيد كثيدرائية جميلة فى آخن — حاضرة ملكه — وأستجلب لها أعمدة من المرمر من روما ورافينا فى إيطاليا . وكان يتكلم اللغات بدرجة كافية ولكنه لم يحسن الكتابة كل الأحسان . ولقد أحب القداسات الكنسية والموسيقى الكنسية والمساجلات الدينية والتحدث بحكايات قومه وإعادة تلك الحكايات . وكان يدعو إلى بلاطه العلماء الأجانب ، وقد اشتهر منهم بصفة خاصة إنجليزى اسمه ألكوين (من يورك) الذى أصلح التعاليم والمراسم الكنسية فى أراضى الفرنجة وجعل من بلاط شارلمان مدرسة جديدة للعلم فى الغرب . وكان ألكوين من زمرة العلماء الموفقين المشهورين والقديسين ، أولئك الذين كان من بينهم الراهب (بيد) الذى كتب « تاريخ الكنيسة الإنجليزية » .

وأجمل لحظة فى حياة شارلمان كانت فى الوقت نفسه أعظم ماوقع فى تاريخ الغرب فى مدى قرون طويلة . إذ أنه فى يوم عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ فى كنيسة القديس بطرس بروما، توجه البابا « إمبراطوراً » . ومنذ ذلك اليوم وجدت فى أوربا إمبراطوريتان : إحداهما فى القسطنطينية وثانيتهما فى روما .

وكان خلفاء شارلمان يلقبون بـ « الأباطرة الرومان المقدسين » . غير أن ذلك لم يكن شأنهم جميعاً ، ذلك أن إمبراطوريته — بعد أن أنقضى بضع سنين على وفاته فى عام ٨١٤ — أنقسمت ثلاثة أقسام : غربى وأوسط وشرقى ، يتولى كلاً منها واحد من أسرته . ومن القسم الغربى — حيث أخذ

الناس يتكلمون لغة تشبه الفرنسية شبهاً غامضاً — تنحدر مملكة الفرنسيين وأمتهم . ومن القسم الأوسط — وكان أغنى الأقسام وأجملها — تنحدر بلاد الراين واللورين وبورجانديا وشمال إيطاليا أى كل الأصقاع والأقاليم التى ظل الألمان والفرنسيون يتحاربون من أجلها. ولم تدم هذه المملكة الوسطى دهراً طويلا جداً بل تفتت جزيئات وأجزاء : ولايات ومدن ودوقيات وما إلى ذلك . ومن القسم الشرقى —حيث كان الناس يتكلمون الألمانية — أنحدرت أصول ألمانيا . وبفعل مصادفات متتابعة أصبح لقب الإمبراطور الرومانى المقدس وقفاً على القسم الشرقى . وظل الأباطرة الرومان المقدسون — قروناً — أعظم الملوك أو الساده الأعلون فى مئآت الولايات والدوقيات الألمانية جميعاً . وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — مدة بقائها ،وقد بقيت فعلاً دفعة واحدة حتى سنة ١٨٠٦ — كانت فى واقع الأمر هى الرقعة التى تتكون منها الآن ألمانيا والنمسا مجتمعتين. وهكذا كانت الإمبراطورية التى كونها شارلمان منشأ أوربا الغربية أى منشأ فرنسا وألمانيا والأراضى المتنازع عليها الواقعة بينهما . وقد أدعت الإمبراطورية الرومانية المقدسة السيادة على شمال إيطاليا ولكن مقياس قوتها هو دائما : هل كان العديد من دوقات وأمراء الشعوب الألمانية والمدن الأيطالية ، موالين للإمبراطورية؟ والواقع أن الشعوب الألمانية والمدن الإيطالية لم تصبح أمماً متحدة مستقلة حتى جزء كبير من القرن التاسع عشر . وإن خرائط ألمانيا وإيطاليا لتبدو فى خلال ألف سنة — وهى الواقعة بين ٨٧٠ و ١٨٧٠ — كأحجيات المنشار الدوّار الكبير .

ولقد كان الفرنجة أنفسهم يتكلمون اللسان الألمانى . وكانوا الحكام وملاك الأرض . وقد ترك أولئك الذين استوطنوا منهم هذا الجانب من الراين فى الرقعة التى تسمى الآن « فرنسا » كما أسموها هم ، تركوا لغتهم القديمة واتخذوا لغة السكان الرومان الغالبين لساناً لهم . وهذا هو السبب

فى أن اللسان الفرنسى الحديث هو نفسه ما نسميه بـ « اللاتينى » وأصله لسان لاتينى كان يتكلمه الغال الذين تلقنوه بدورهم عن الرومان . وما يزال الناس فى بريتانيا الحديثة يتكلمون لغة سلتية(١) أو غاليـّة قديمة تشبه لغة الولز . على أن الفرنجة ، الذين عاشوا على ضفاف الراين وما وراءها ؛ ظلوا يتكلمون لغتهم الألمـانية .

وفى خلال حكم شارلمان هدد المسيحية خطر جديد همجى . كان شارلمان قد حارب الدانمركيين فى « الدانمرك » (أى : على ساحل الدانمركيين) . وبدأ الدانماركيون والنرويجيون عندئذ يغيرون على الشواطىء الغربيـــة ويعملون فيها القتل والنهب والحرق . واستولوا على بوردو فى سنة ٧٧٩ ، وعلى لينديسفارنه فى سنة ٧٩٣ ، وعلى أيونا حيث ذبحوا ثمانية وستين راهبا وسلبوا فى سنه ٨٠٦ ما كان بالمحراب من أوان ذهبية وفضية . ونحن نعرف هؤلاء الناس باسم « الفايكنجز » أى قراصنة شمال أوربا .

رجال من الشمال :

فى المدونة التاريخية الأنجلوسكسونية نستطيع أن نقرأ الاستهلال التالى : « ٧٨٧ م . فى تلك السنة اتخذ بيرتريك ملك وسكس اتخذ « إدبورجا » — ابنة أوفا ملك ميرسيا — زوجة له . وفى عهده جاءت ثلاث من سفن رجال الشمال ، من بلاد القرصان . فركب إليهم مأمور الأحكام وصمم على أن يسوقهم إلى مدينة الملك لأنه لم يعرف أى نوع من الرجال هم . غير أنه قتل هناك . وكانت تلك أولى سفائن الدانمرك التى جاءت إلى إنجلترا » .

وبعبارة أخرى قاد مأمور الأحكام الملكى رجاله ليقبضوا على الأجانب وقُتل وهو يحارب على الساحل .

(١) السلت نسبة إلى سكان أوربا الأقدمين .

وفي مدى ثلاثمائة عام تقريباً أغار محاربو الدانمراك والنرويج، وهم رجال « القرصان » أو الفايكنجز — على سواحل كل الأراضي المسيحية . وقد أعملوا التدمير والنهب ، أول الأمر — على أنهم بحارة السفن . ولكنهم فيما بعد ذلك، تحركوا بوصفهم جنود جيوش كبيرة يقودها قواد مشهورون ، وكانوا وثنيين يسعهم أن يكونوا في أقسى ماتكون الغلظة. ولكنهم أخلدوا مع ذلك ، إلى سن القوانين وتسوية خلافاتهم بالمفاوضه فيما بينهم . وكانوا يعدُّون البسالة ، الفضيلة التي لا يعلى عليها. وهم لم يتقيدوا بقيادة فرد واحد إذ أن كلاً منهم كان يتصرف تلقائياً عند الضرورة.

أما دياناتهم فيمكننا أن نقرأ عنها في أشعارهم القديمة . كان حصن أسجارد السماوي المنيع — الذي لا يستطاع بلوغه إلا بعبور جسر قوس قزح — موئل الآلهة : أودين وامرأته فريجا وولديه ثور وبولدر وكذلك لوكي روح الشر . وكان أودين ما ينفك يهيم ابتغاء الحكمة ، وثور بمطرقته الكبيرة — مجولنير — يصنع الرعد وما يفتأ يحارب مردة الشمال المتجمد ، وبولدر — إله النهار الوسيم — يحتمي بصفة خاصة برقية سحرية حباه بها أودين . غير أن لوكي الشرير تسبب في قتله بسهم من الدابوق(١) . إلا أن بولدر ردت عليه حياته بناء على طلب الآلهة. هذا بينما شُد لوكي بسلسلة إلى الصخور حتى يظهر « شفق الآلهة » ، ويتحول كل دنيا الإلهة والرجال إلى خرائب. وعبر « ساحات السماوات » ركب المطايا عذارى النار — وهن الفلكيريات(٢) لابسات الخوذ اللائي تخترن المذبوحين ، واللائي سُقن القرصان إلى فالهالا أي إلى قاعة المذبوحين التي فيها كان كل يوم يقضي في

(١) الدابوق أو الدبق غراء أخضر اللون ينشر على قضبان توضع في الأشجار فينخدع الطير بها ويجثم عليها فتلصق به ويصطاد .

(٢) الفلكيريات حوريات من أساطير الشمال .

الحرب استعداداً للمعركة الأخيرة الكبرى التى تحتم أن تقع عند انتهاء العالم . وكان هذا العالم والعالم الذى يليه — فيما يرى القراصنة الڤايكنج ساحتى كفاح لا يأمن فيهما و يسعد غير الأقوياء . وهكذا كان كل اعتزازهم منصباً على البسالة والقوة ليس غير . ومع هذا كان هناك شيء غير انصرافهم للحرب ، إذا نجد — فى أشعارهم القديمة نفسها — أقوالا مأثورة تنطوى على الحكمة والأدب :

— ينبغى للمرء أن يكون عاقلا ولكن لا إلى أبعد حدود العقل ، إذ أن قلب العاقل قلمَّا يبتهج.

— تموت الثروة ويموت الأقربون ويموت المرء نفسه آخر الأمر ، أما المجد والشهرة فلا يموتان أبداً .

ولقد كان أناس كأولئك لهم مثل هـذه المعتقدات يكونون تبايناً مروعاً مع الشعوب المسيحية التى حاولت عندئذ أن تعيد بناء المدنيـــة الأوربية .

ولقد جاء أولئك القرصان جنوباً فى ســفن طويلة مكشوفة ترتفع جدرانها عند المقدمة والمؤخرة يدفع كل منها فى الماء الهادىء مجاذيف يتراوح عددها بين الأربعة والعشرين والستين . وكانت تصنع من البلوط المصلصل أى من ألواح خشبية طويلة متراكبة . وكانت قليلة الغور إلى درجة يسهل معها دفعها إلى الساحل ، ويتوسط كلا منها سارية تحمل الشراع ، وكانت مصفحة الحواشى بستور خشبية . ولقد ظلت تلك من أنسب السفن للملاحة فى العالم الغربى حتى اخترعت السفن البخارية فى القرن التاسع عشر .

على أن القراصنة (الڤايكنج) ولدوا بحارة ، وقد أوصلتهم غاراتهم ورحلاتهم إلى القسطنطينية بل إلى أمريكا . واستقروا فى أيسلندة . ومن

هناك زار بعضهم شواطىء نيو إنجلند الأمريكية التى أسموها وابنلاند (أى أرض الصهباء) .

واستقروا فى روسيا وفرنسا وإسكتلندا وإيرلندا وإنجلترا . وفى هذه البلاد جميعاً تعيش سلالاتهم إلى اليوم .

ورحلوا براً ، عبر روسيا ، هابطين إلى البحر الأسود يجرّرون سفائنهم من نهر إلى نهر . وكانت لهم فى روسيا مستعمرات تجارية تقايض الفرو والدقيق والخشب بالذهب والحرير والسلاح المجلوب من القسطنطينية التى كانوا يسمونها السد المنيع أو المدينة العظمى .

وتوصلوا فى سنة ٩٠٧ إلى محاصرتها بألفى سفينة ، غير أنهم ارتدّوا عندما تقدم الإمبراطور قدراً كبيراً من المال . ضم الإمبراطور ، فيما بعد ، طائفة منهم إلى حملة الفؤوس من الحرس الإمبراطورى وذلك لحمايته وحراسة كنوزه .

وفى الغرب جلب القراصنة (الڤايكنج) على المدنية الأيرلندية والكنيسة الأيرلندية الدمار متوسلين بالقتل والنهب . وقد عاشت سلالاتهم — فى دبلن وليميريك وكسفورد و ووترفورد — بمعزل عن سائر السكان ، وقد عرفوا — حتى سنة ١١٠٠ — بالمشارقة أى الشعوب التى وفدت من الشرق : حتى أواخر القرن الحادى عشر . والسبب فى تسمية أقصى شمال اسكتلندة إلى اليوم بـ . . سذرلاند ، يرجع إلى أنه فى القرن التاسع كان اسمه « سذرن لاند » أى الأرض الجنوبية . وذلك من وجهة نظر القراصنة النورويجيين الذين أغاروا عليها واستوطنوها .

ولقد تجمع القراصنة (الڤايكنج) فى أساطيل كبيرة تحت إمرة بعض أمراء البحر الذائعى الصيت وأبحروا مصعّدين فى الأنهار الفرنسية والإنجليزية . ودمروا روان ونانت وأغاروا على هامبورج بأسطول قوامه

ستمائة سفينة . وداروا بحراً حول أسبانيا واستولوا على لشبونة وأشبيلية .

وكانت تلك حقبة تاعسة للنصرانية التى فقدت شمال إفريقيا وأسبانيا والشرق لمصلحة العرب . ثم أغارت أساطيل الوثنيين المخربين على طول الشواطئ الغربية .

ولا معدى هنا عن أن نسجل ، بوجه أخص ، أثراً من آثار القراصنة (الفايكنج) . فى ٩١٢ تجمعت بعض عصابات القرصان — الفايكنج بقيادة زعيم قدير اسمه رولو — وجاءوا إلى شمال فرنسا قبالة شاطئ سسكس واستقروا هنالك ، وأصبحوا مسيحيين وتلقوا التعميد . وعكفوا على التحادث باللسان الفرنسى وعلى اتباع المدنية الفرنسية . وكان هذا بداية بلاد أهل الشمال ، أو نورمانديا كما نسميها . أما ما تعنيه نورمانديا والنورمانديون بالنسبة لإنجلترا وغيرها فسيرد ذكره فيما بعد(١) .

ألفرد وسكس :

كان الأمر من أوله إلى آخره مفزعاً فقد جلب الشقاء والدمار إلى المدائن والضياع المسيحية ، وأنهى — فى إنجلترا — الأيام الذهبية للقديسين والعلماء الذين عرفهم (بيد) وأحبهم .

كانت الغارات أول الأمر مناوشات بسيطة كبعض المعارك على السواحل وكمشادات يعمد إليها بحارة نفر قليل من السفن ضد ضابط الأمن والمزارعين المحليين . ثم ظهرت بعد ذلك — حول سنة ٨٥٠ — أساطيل القراصنة (الفايكنج) يقودها زعماء جبابرة : سحبوا صنادلهم إلى البر وأقاموا معسكراً ونهبوا المنطقة واغتصبوا خيولاً وركبوا إلى داخل البلاد واستولوا

(١) انظر شكل رقم — ٥ — (متاعب أوروبا الغربية — القرن التاسع)

على لندن ونهبوها ، . ولم يمض ثلاثون عاماً حتى كان القرصان الدانمركيون قد احتلوا شرق أنجليا على نحو ما كتب المؤرخ الأنجليزى المكتئب الذى قال: « شتوا هناك » . وقد استولوا على يورك وأقاموا مملكة يورك . وحرقوا الأديرة الجميلة فى البطحاء ، كرويلاند — و — بيتربارا ، وقتلوا القديس إدموند ملك أنجليا الشرقية فى الحرب . واستولوا على كل بقاع أواسط إنجلترا وشماليها ،وأطلق على تلك المنطقة إسم (دين لو) «الشريعة الدانمركية» أى المنطقة التى فيها سرت على الجميع شريعةُ الدانمركيين .

ولم يبق حراً إلا وسكس ، مملكة السكسونيين الغربيين .

وفى منتصف شتاء سنة ٨٧٨ إغزوا وسكس راكبين فى سرعة فائقة إلى داخلية البلاد من جلوستر . وقد سقطت وسكس وهى غير متأهبة فى أسوأ فترة فى السنة ، فترة كان فيها فيض من الحصاد مختزناً لمن ينهب ، إلا أن الطرق كانت غزيرة الوحل. ولاذ الملك ألفرد بالغرب فى مستنقعات سمرست بـ . . . أتلنى ، وعندما حل الربيع تحرك أهل ديفون وأبادوا أسطولا من أساطيل القراصنة (الفايكنج) كان قد ظهر عند الشاطىء . ثم انطلق ألفرد وانضم إلى جيوش ولتشاير — و — دورسيت —و— هامبشاير واشتبك فى معركة مع جوثروم رئيس القراصـــنة فى إيثانديون حيث شق طريقه بعد ساعات من القتال بين حملة القؤوس من جنودهم، وساقهم إلى معسكرهم. وأكره جوثروم على قبول الصلح والتعميد والارتداد إلى شرق أنجليا .

وعندما غزا وسكس ، فيما بعد ، دانمركيون آخرون كان ألفرد ورجاله قد استعدوا ، وقهرهم هو وابنه الصنديد إدوارد ، ثم عاش هو وشعبه فى سلام طوال الأربعة الأعوام الأخيرة من حياته .

ولم تكن ثمرة انتصاراته كسباً لوسكس فحسب بل كانت كذلك كسباً للمسيحية جمعاء. وكان سر وسكس سره. ولقد أوتى وحده، من بين كل الملوك الأنجليز فى تلك الحقبة، قوة الزعامة التى بدونها تصبح الشجاعة عديمة الجدوى. وإن زعامته المسيحية الصادقة لترى فى سائر ماصنع لشعبه، لأنه لم يكن ملكاً محارباً فحسب بل كان أيضاً أباً لذاك الشعب.

يتبع الملك المسيح، ونحن نتبع الملك الذى نفح الله العلى فيه سراً.

وهذا يطابق قول ألفرد نفسه: «ليس فى وسع المرء أن يصنع أى خير، كائناً ما كان، مالم يُعنه الله».

ولقد قسم دخله الملكى بين صيانة جيشه، ومكافأة الصناع المهرة كالحدادين والبنائين والجوهريين، وبين رعاية الكنائس والأديرة بوصفها بيوتاً لله والعلم. وكان يرحب فى بلاطه بالعلماء والسياح الأجانب من أمثال أوثير النورماندى الذى ساح فى أقصى الشمال حتى البحر الأبيض. ولقد درس القانون وحمل أبناء الأشراف فى بلاده على أن يتعلموا بالأنجليزية واللاتينية، وقد ظل ذلك شيئاً تجهله إنجلترا حتى ظهرت الكتب المطبوعة بعد ذلك بستة قرون: وجمع طائفة من المخطوطات وأمر بنقلها وبترجمة بعضها وقد ترجم بعضها بنفسه كما أمر الرهبان أن يعدوا مدونة للحوادث. والمدونة الأنجلوسكسونية — التى ظلت تكتب عاماً بعد عام، فترة طويلة بعد وفاته — واحدة من أثمن مدخراتنا.

صمد ألفرد لجيوش القراصنة (الفايكنج) عندما تملك العجز سائر الشواطئ الغربية، وقضى عمره كله فى محاولات بطولية لينقذ المدنية المسيحية. وإن أسماء (أودا — و — إثيلنوث — و — ويليحموند — و — ويرنيرث) العجيبة لا تعنى اليوم كثيراً بالنسبة لنا. ولكنها مع ذلك كانت أسماء جماعة قليلة من رفقاء ألفرد الصالحين المؤمنين الذين — بدونهم —

لم يكن ليقدر على صنع ما صنع . إنها جماعة من الرجال الراسخين الحازمين الذين لن تنسى لنا أبداً معرفة صورهم وأشكالهم ، غير أن أعمالهم ما زالت باقية .

أنقذ ألفرد ، وسكس وأما ابنه إدوارد الكبير وحفيده آثلستان وابن حفيده إدجار — فى القرن التالى (العاشر) — فقد أعادوا فتح إنجلترا جميعها التى أضحت عندئذ مملكة واحدة ، وكانت تلك أول مرة حدث لها ذلك منذ تركها الرومان . وإذ ذاك كانت الطرق الرومانية المديدة على حال أفضل مما كانت عليه فى أيام نلسون — و — ولنجتون ، وعلينا أن نتصور أسلافنا الأنجلوسكسونيين وهم يستخدمونها فى الحرب والتجارة .

على أن موقعة كبيرة كان لها شأن عظيم . التقى الملك آثلستان بجماعات من الدانمركيين والبقط (١) والأسكتلنديين الذين تضافروا عليه وهزمهم بعد موقعة احتدمت من شروق الشمس إلى غروبها . حدث هذا فى «برونانبورة» وهذا اسم نجهله فى الوقت الحاضر يغلب على الظن أنه اسم «بيرنز» الواقعة على السور الرومانى بالقرب من مصب سولوى . ولقد كان الفنانون الإنجليز الذين يعزفون على القيثار يتغنون بتلك الموقعة ، «أغنية برونانبورة» :

لقد فلقوا السور السميك الحصين . حرقوا تروس خشب الزيزفون بنصال مطروقة . إن أبناء إدوارد — بسجية شعبهم النبيل الذى يهرع إلى القتال — قد حاربوا أعداءهم جميعاً من أجل أوطانهم ومدفئاتهم وبيوتهم . فسقط الأعداء . سقط المحاربون الأسكتلنديون وجوابو البحار سقطتهم المحتومة . واشتد السكسون الغربيون فى حملتهم طوال اليوم يطاردون ، فى ضراوة ، أعداءهم المقيتين زرافات زرافات .

(١) البقط أو البكت : قبيلة استوطنت بريطانيا قديماً .

وكما كان جوابو البحار الإغريق يتغنون بطروادة ، تغنّى الإنجليز الطروبون بالمواقع التي حاربها ملوكهم . لقد كانوا يغنون في البهو بعد الوليمة بينما أميرهم ورجاله يصغون إلى صنائع أسلافهم . وقد غاب عنا أغلب الأغنيات . وكان القديس دانستان قد جمع الكثير منها ليستمتع بها لشخصه ولكن تلك أيضاً قد ذهبت مع غبار الدهور .

مدنية عربية :

بعد ما استقر القراصنة (الڤايكنج) وأخلدوا إلى الزراعة والتجارة وبعد ما اعتنقوا المسيحية ، تضاءلت همجيتهم وأصبحوا شعب سلام كجيرانهم . وكان كانيوت واحداً من أعاظم قوادهم ، وهو الذى أمسى ملكا على النرويج وانجلترا . كان مسيحياً وأحسن الحكم واكتسب طاعة الإنجليز وولاءهم . وأخذ أولئك المغيرون من القرصان الذين استوطنوا نورمانديا يضعون أنفسهم فى مقدمة فرسان الغرب المسيحيين .

وكان تحول القراصنة (الڤايكنج) عن دينهم ميسوراً على خلاف شأن المسلمين . ولقد استمرت الحرب بين أولئك وبين المسلمين فى الشرق وفى أسبانيا . وتصدى جنود الإمبراطور الإغريقى المقيم فى القسطنطينية ونبلاء أسبانيا المسيحيون لحماية جناحى النصرانية . وتكررت التوقفات والمهادنات والمصالحات ، بل جرى فى بعض الأحيان تبادل التجارة والصداقة بين الطرفين ، ذلك أن خيار العرب كانوا متمدنين مهذبين . ودرج عديدٌ من المسلمين والمسيحيين على احترام بعضهم بعضاً وعلى أن يتعلم كل منهم من الآخرين ، وطالما صنع الخصوم ذلك ، غير أن الخصومة الدينية كانت تكمن دائماً وهى على استعداد للظهور فى حرب علنية .

وقد نجم عن فتوحات العرب المذهلة أن المدنية الإغريقية والرومانية فى الشرق قد دانت لهم وباتت بين أيديهم . ووجد من خيارهم علماء نجباء

وحكام حكماء لم يترددوا فى اتخاذ بعض علماء اليهود والنصارى مستشارين لهم . وكان أحد هؤلاء : هارون الرشيد الذى حكم بغداد والذى نعرفه على أنه خليفة ألف ليلة وليلة ، وكذلك كان منهم الخليفة عبد الرحمن (الناصر) الذى حكم فى الأندلس .

ولقد قامت — فى وادى النهر الكبير الجميل ، بأسبانيا المغربية — مدينة قرطبة عاصمة ملك عبد الرحمن وهى مدينة الأحلام التى تمتاز بالقصور المرمرية والمساجد المتألقة . وقد حوت حمامات عامة (تماما كما حوت المدن الرومانية) ومكتبات ومدارس . وكانت شوارعها تضاء ليلا وتبردها نافورات وقنوات يجرى فيها الماء ويسرى أريج حدائق الفاكهة والزهر ، وكان المغاربة يحذقون زراعتها وزراعة الحقول فزرعوا الكروم والأرز والقطن وقصب السكر وأدخلوا زراعة الزنجبيل والبلح والموز والتوت والمشمش .

كان العرب علماء ، إذ درسوا الكيمياء والطب ، ونقلوا كل الكتب التى عثروا عليها وترجموا الكثير منها عن الإغريقيه القديمة . ويقال إن مكتبة الخليفة حوت ستمائة ألف مجلد . وقد وضع العلماء العرب كتباً فى الملاحة والجغرافيا ، ودرسوا الرياضة . وآية ذلك أننا ما زلنا نطلق على قسم من العلوم الرياضية اسماً عربياً هو « الجبر » . وقد استعملوا الأرقام العربية (الهندية الأصل ؟) بدلا عن الأرقام الرومانية القديمة ، كما أنهم برعوا فى علم الفلك . ونحن ما نزال حتى اليوم نسمى النجوم بالأسماء التى أطلقها العرب عليها مثل . بيت الجوز (أصلة بيت الجوزاء) و — أكدبران (ويسمى أحياناً : نير الثور) . وتعاليم القرآن الشديدة التحفظ لا تقر الموسيقى الخليعة ، غير أن الخليفة والمغاربة كان يبتهجون بها وبالشعر ومنهم تعلم مسيحيو أسبانيا قرض القصص الشعرية وقصائد الحب وإنشادها تلك التى اقتبسها فيما بعد منشدو الغناء المتجولون فى جنوب فرنسا .

هذا أسلوب حياة وتعلم محبب إلى أقصى حد . حدث ذلك فى القرن العاشر وقتما كانت إنجلترا ميدان قتال للدانمركيين والسكسون ووقتما كانت مدارس أوكسفورد وباريس بعيدة الورود حتى على الأذهان . أما قرطبة فى عهد عبد الرحمن (الناصر) فقدوفد عليها علماء مسيحيون ليغتنموا الحكمة عند أقدام أساتذة مسلمين . وفى الحق أن القسطنطينية كانت هى المدينة المسيحية الوحيدة التى قد تقارن بقرطبة . بل إن روما القياصرة العظيمة نفسها كانت ما تزال مكاناً نصف مخرب تعشش الطيور فى أبنيته العتيقة المتفتتة .

ومع مور كتلك ورغم فترات السلام والألفة فإن المسلمين والمسيحيين لم يستطيعوا أن يتعايشوا زمناً طويلا من دون أن يصطرعوا . واشتعلت حرب الصليب والهلال ، الموسم تلو الموسم ، أجيالا ، على التخوم . والجبال الوسطى فى أسبانيا ما تزال تحمل اسم كستيل (قشتالة) ، ومعناها أرض « القصور » المحصنة أى المعـــاقل ، وذلك بسبب تلك الحرب الطويلة الأمد .

واحتجبت فى الأيالات الأسلامية — التى امتدت من أسبانيا عبر إفريقا الشمالية إلى سوريا وبلاد الفرس — احتجبت جماعات دينية مسيحية كان الخليفة يتركها وشأنها ما دامت تدفع الجزية ، وكانت المهادنة الحربية الطويلة المدى فى حيز الإمكان . ولكن من دواعى الأسف الشديد لدى المسيحيين أن الأماكن المقدسة التى قضى فيها المسيح حياته الدنيوية دخلت فى حكم العرب وإن رخصوا للحجاج المسيحيين زيارة بيت المقدس ، وكان أولئك الحجاج المسيحيون يعدون بالمئات .

النورمنديون والحروب الصليبية الكبرى :

فى خلال القرن العاشر وقتما أخذ ملوك وسكس يستردون المناطق

الداخليـة ونورذمبريا من الدانمركيين الوثنيين كان ملوك بواسل أخر ينقذون المسيحية من أعدائها الوثنيين فى البقاع الألمـانية . فلقد رد الملك السكسونى — هنرى صياد الطيور — الدانمركيين فى الشمال كما رد النبالة الهنجاريين أى (المجريين) المفترسين فى الشرق . وأباد حفيده أوتو الكبير جيشاً مجرياً كبيراً سنة ٩٥٥ . وقد شارك أولئك الرجال ، وسكس ، فى شرف إنقاذ أوربا المسيحية ، كما تحول الوثنيون المقهورون إلى المسيحية .

وربما تسنى لنا — من تلك العصور المعتمة المحفوفة بالمخاطر التى خيم عليها الرعب الهمجى والضيق والعذاب — أن نتتبع بداية بعض الدول الحديثة : وطن الملوك الألمان جنوداً فى التخوم أو «الحدود» لحماية ممالكهم . وكانت واحدة من مستعمرات الحدود وهى : (حدود الدانمركيين) أى الدانمرك وثانية — وهى الحد الشرقى منشأ النمسا ، وثالثة — وهى الحدود السلافية — البداية الباكرة لبروسيا .

وقد رأينا أن شارلمان — ملك الفرنجة — قد لقب بـ «الإمبراطور الرومانى المقدس» لأنه كان حامى حمى المسيحية وأنه لهذا كان ، على صورة ما ، خليفة الأباطرة الرومانيين . ثم إن أوتو الكبير لقب نفسه بمثل ذاك اللقب وتوج بروما — فى أبهة — إمبراطوراً رومانياً مقدساً ، فى سنة ٩٦٢ . ومنذ تلك السنة جرت العادة دائماً على ألا يحمل اللقب إلا أمير ألمانى . وكانت الأصقاع الألمانية ، بالاضافة إلى شمال إيطاليا ، هى التى تكونت منها الأملاك المستقلة التى أطلق عليها اسم : الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وظل هذا النظام قائما إلى سنة ١٨٠٦ فى عهد نابليون . وعلى هذا تكون الإمبراطورية المقدسة قد دامت نحواً من ٩٠٠ عام . وبذلك يكون ما حدث فى القرن العاشر قد ظل ذا بال قروناً طويلة بعد .

وفى القرن الحادى عشر تبدلت إنجلترا تبدلا كبيراً غيَّر مصاير الجزيرة

ومصاير العالم . وبدأ سليلو رجال الشمال مغامراتهم المفزعة . واعتنقت المسيحية تلك العصابات من الذين سبق لهم استيطان سواحل فرنسا (أرض الفرنجة) فى سنة ٩١٢ والتى أسمت المكان باسمها — نورمانديا — وحدثت المعجزة وأضحوا أقدر الحكام والجنود ، وفتحوا أكبر جزيرتين فى أوربا .

أما كيف عبر الدوق وليم النورمندى المضيقَ فى سنة ١٠٦٦ وكيف هزم الملك هارولد جودونسون فى معركة عن كثب من « شجرة التفاح الشيباء الرمادية » بالقرب من هيستنجز ، فهذه قصة كثيراً ما تتردد على الأسماع . ولم يقتصر وليم على فتح انجلترا بل عمد إلى توزيعها كلها على أمرائه (باروناته) بل وضع لها دليلا إحصائياً وصف فيه أرضها وثروتها تماماً كما قد يفعل امرؤ حاز ضيعة جديدة . وما يزال بين أيدينا ذلك الدليل الاحصائى المسمى « كتاب يوم الحساب » . وقد جعل وليم الفاتح هذا وخلفاؤه ، من إنجلترا ، حكومة ملكية هى أقوى مما عرفته أوربا كلها منذ الأيام العظيمة التى عاشتها الإمبراطورية الرومانية . وقد نجم عن هذا الفتح إن سكان إنجلترا ظلوا — مدة تُربِى على الثلاثمائة عام — يتكلمون لغتين « فالملك والحاشية والأمراء ورجال الكنيسة يتكلمون اللغة الفرنسية النورماندية ، وأرباب المهن والفلاحون يتكلمون الانجليزية . ومن ائتلاف هذين اللسانين تولدت لغة الكلام الحالية فى إنجلترا وفى الدنيوين الجديدتين أمريكا وأستراليا .

أما الجزم بأن غير هؤلاء من النورمنديين قد فتحوا صقلية فقلما يتردد على الألسن . تملكت حفنة من مغامرى النورمنديين — بزعامة روجر دى تفيل — كل جنوب إيطاليا وصقلية وجعلوا منهما مملكة نورمندية قوية (١٠٥٠ — ١٠٩٠) . وقد سكن جزيرة الخصومات القديمة تلك ، سلالات

شعوب عديدة : من القرطاجنيين والإغريق والرومان والعرب . وأمست صقلية — تحت حكم النورمنديين — بقعة من أكثر بقاع العالم الغربي تمدناً وتهذيباً وباتت ملتقى التجار ، وكان ذلك أجل مزاياها .

وفي هذا القرن الحادي عشر نفسه ارتفع شأن شعب آخر وقويت شوكته . فلقد جعل الأتراك السلجوقيون الوافدين من آسيا الوسطى أنفسهم سادة على بلاد الفرس ، واعتنقوا الدين الإسلامي وتزعموا المسلمين في الشرق. وما هو إلا القليل حتى بدءوا يهددون أملاك الإمبراطور الإغريقي المسيحي الموجود في القسطنطينية . وهم لم يوهبوا فن الحكم ولكنهم كانوا أشداء شجعاناً بارعين في فنون الحرب. وقد جاءوا تماماً وقتما كان المسلمون والمسيحيون في سبيل الاستقرار والسلام . ثم إنهم جاءوا وقتما كانت جموع من المسيحين الغربيين يحجون أرضهم المقدسة ليتعبدوا في أماكنهم المقدسة.

وقد أهاب الإمبراطور الإغريقي في القسطنطينية بمسيحي الغرب أن يخفوا إلى مظاهرته على الأتراك . واستصرخهم البابا أن يتطوعوا لينقذوا بيت المقدس ممن أسماهم هو بالكفار . فانطلق في الحال إلى بيت المقدس ، أول فوج من المتطوعين يقودهم فارس لقبه وولتر المفلس . وكان أكثرهم من الفقراء ، ولم يكونوا على أهبة الاستعداد . وفي سنة ١٠٩٥ هلك — بعد أن كابد العنت والضنك — من استطاع منهم أن يصلوا إلى آسيا الصغرى ، وكانوا بقية قليلةً العدد .

وفي السنة التالية التقت في القسطنطينية ، أربعة من جيوش الفرسان الآتية من الغرب بقيادة أمراء فرنسيين بينهم جود فروا دي بويون — و — ريمون دي تولوز — و — روبير دي نورمندي وكذلك نورمنديو آل هوتفيل الجموحون — و — بوهمون — و — تانكريد . عبر أولئك — تحت الرايات الصليبية ، وفي أبهة دروع الزرد — عبروا البوسفوز إلى آسيا الصغرى .

ومن ثم ساروا محاربين شرقاً وجنوباً . وهم يكابدون الجوع والعطش والمرض والجراح والموت . واستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة شهور . وبعد قرابة أربعة أعوام من بداية الحرب شق من بقى منهم طريقة عبر جسر خشبي أرخى من برج حصار عال فوق معاقل بيت المقدس. وبعد أن استولوا على المدينة أعملوا الذبح لا تأخذهم فيه رحمة ولم يستحيوا الشيوخ أو النساء . ثم عرضوا الملك على جودفروا فأبى قائلا : «لن ألبس تاجاً من الذهب حيث لبس مخلصنا تاجاً من الشوك» . ولقب نفسه بلقب «حامى اللحد المقدس» غير أن أخاه بودوان الذى خلفه توج ملكا . وهكذا تأتىَّ لهذه الحرب الصليبية الأولى والكبيرة أن تقيم مملكة مسيحية فى بيت المقدس وفى دوقيات وولايات مسيحية أخرى فى فلسطين. وماتزال أنقاض المعاقل الجسيمة التى بنوها قائمة ، فى عظمة شاحبة مقفرة ، على الشاطىء أو على التلال المتاخمة للصحراء القائظة . ولقد كانت أبهاؤها الخاوية التى فقدت سقوفها،كانت مقر الولائم والمثاقفات (أى المبارزات والمنازلات بالعصى أو السيوف) فى المناسبات التى فيها كان الأمراء يجيِّشون الجيوش من عامة الناس ويخرجون للقاء الأتراك المغيرين من الحدود الصحراوية . وقد فنى كثير من الصليبيين فى تلك المعارك التخومية المستوفية العتاد تحت أشعة الشمس الحارقة ، كما أن المرض أهلكهم . وكان عليهم أن يواصلوا الإمدادات والتعزيزات لكى يحتفظوا بقوتهم .

وكان أخص مصادر العون جماعتان صليبيتان شهيرتان من «الرهبان المحاربين» : الداوية أو فرسان معبد سليمان وفرسان القديس حنا ، ببيت المقدس ، الذين نذروا حياتهم للمسيح متوسلين إلى ذلك بمحاربة العرب . إلا أن الولايات الفلسطينية المسيحية أعوزها مجندون من الغرب .

وفى سنة ١١٤٧ أخفقت حرب صليبية أخرى بقيادة الملك الفرنسى لويس السابع والإمبراطور كونراد ، وذلك نظراً للنزاع بين قواد الحملة .

ووجد الأتراك جندياً محنكا وحاكما عبقرياً فى شخص صلاح الدين الذى أباد جيش فرسان المسيحيين فى معركة عند قرنى حطين. ونكب المسيحيون نكبة فادحة إلى حد أن صلاح الدين استعاد مدينة بيت المقدس ذاتها .

وقد جر هذا إلى حرب صليبية ثالثة وكانت مغامرة ملكية كبيرة بقيادة إمبراطور وملوك فرنسا وإنجلترا . وقاد الإمبراطور المسن فردريك بارباروسا ـ وهو فى السادسة والستين من عمره ـ أمراءه الألمان بطريق البر إلى القسطنطينية ، ولكنه غرق فى حادثة وقعت له فى نهر صغير فى آسيا الصغرى . وقام فيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ونورمنديا ، بطريق البحر . واستهدف ريتشارد الاستيلاء على عكا الواقعة على شاطىء فلسطين غير أن النزاع الذى فشا أحبط أى تقدم جديد .

أما الحرب الصليبية الرابعة فكانت فضيحة . استأجر قوادها فى سنة ١٢٠٤ سفائن من البندقية لكى تنقلهم إلى القسطنطينيه . ولم يكد الصليبيون يبلغون تلك المدينة حتى استولوا عليها فعلا وأحكموا السيطرة على أصقاعها واستقروا هنالك على أنهم حكام وأمراء فى الإمبراطورية اليونانية المسيحية . ويبين ذاك الهجوم ـ الذى شنه المسيحيون اللاتين على المسيحيين اليونانيين ـ يبين إلى أى حد قسم المسيحيةَ الخلاف بين الكنائس الرومانية واليونانية ومدى الحب القليل الذى ضاع بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب ، كما يبين إلى أى درك هبط التحمس للحرب(١) .

باءت الجيوش الصليبية بالخسران المبين وضاع هباءً كل مابذلته من عناء وجهد شديدين . ولم تعد إلى المسيحيين قط المناطق التى استخلصها المسلمون منهم فى القرن الثامن فهى ما تزال لهم حتى اليوم . غير أن شعوب الغرب انتفعت أيما انتفاع من التجارة التى انتعشت ، إذ أن الحرب والتجارة كانا يسيران جنباً إلى جنب . وكان أكثر المنتفعين تجار البندقية الذين رفرف

(١) انظر شكل رقم — ٦ — (الدول اللاتينية التى شاركت فى الحملة الصليبية) .

الغنى والترف والتوفيق على جمهوريتهم البحرية التى « زفّت إلى البحر » . فلقد كانت التوابل وأقمشة الشرق المنسوجة تمر بمستودعات البضائع فى البندقية التى هى المعبر إلى المسيحية الغربية . وكانت البندقية ـ فى مدى قرون ـ دولة عظيمة وذلك حتى قبل أن يتجه التفكير إلى مملكة إيطاليا .. وإن مواطن البندقية اليوم ليجد من الأسباب ما يجعله يفاخر بأنه كذلك أكثر مما يفاخر بأنه مواطن إيطالى . نعم إن جميع مدائن إيطاليا انتفعت من انتعاش التجارة مع الشرق الإسلامى غير أن أغرب نتائج صلة الشرق بالغرب ترى فى صقلية .

ففى هذه الجزيرة — التى هى ملتقى شعوب كثيرة — استقر إمبراطور رومانى مقدس وأقام بلاطه ، وكان هذا الإمبراطور فردريك الثانى وهو أحد أحفاد باربار وسا وابن أميرة نورماندية فى صقلية . ترك هذا الإمبراطور موطنه الألمانى الأصلى يحكمه أمراؤه وأساقفته واختار لنفسه عيشة بالغة الغرابة تحت شمس الجنوب . ولقد وجد لدى أهل عصره إذ ذاك من الأسباب القوية ما يحملهم على أن يلقبوه بـ « أعجوبة الدنيا » .

فقد احتفظ بحريم حسب العادة التركية القديمة . وكان يحف به حراس مسلمون . وقد أنشأ حديقة حيوان ، ودرج على أن يحمل أمتعته نجائب (أى هجن) . وكان هو نفسه عالماً خبيراً يتكلم ست لغات بينها العربية ، ويحشد فى بلاطه علماء الرياضة والفلك والطبيعة ، من المسيحيين واليهود والمسلمين . وهو الذى أسس جامعة نابولى . ولقد عرف من أحوال الطير أكثر مما عرفه أى رجل فى عصره وكثيرون ممن جاءوا بعد عصره . ودوّن كل ما يعرف فى كتاب لاتينى عن الباز (أى الصقر) وطالما تهكم على الدين المسيحى وخاصم البابا ولكنه مع ذلك حارب حرباً صليبية ! وهو إلى ذلك كله قد استولى على البقاع المقدسة وذلك بعقد معاهدة مع المسلمين الذين سمحوا له بأن يتوج فى بيت المقدس !

على أن نتيجة حرب فردريك الصليبية لم تدم طويلا . وقاد صهره — الذى تشبه بالقديسين ، وهو لويس التاسع ملك فرنسا — جيشاً إلى مصر وحاول أن يغزو فلسطين من هناك ، ولكن حملته أخفقت . وكذلك أخفقت حملة شنها فيما بعد على تونس فى شمال إفريقيا ، القديس لويس .

جرت هذه الحوادث فى القرن الثالث عشر ، وهو الذروة السامقة لما نسميه القرون الوسطى ، جرت فى السنوات التى وقعت بين نهاية الإمبراطورية الرومانية واستكشاف أمريكا . وقد ظل الناس يتحدثون عن الحروب الصليبية ويخططون لها طوال ثلاثة قرون أخرى فى حمية غير أنهم كانوا يفتقرون إلى زعماء . فلقد كان ملوك الغرب جد منهمكين فى محاربة بعضهم البعض كما كانت الحال بين ملوك فرنسا وإنجلترا . وكذلك كان النزاع بين الباباوات والأباطرة دائم الوقوع . ومع ذلك فإن حرب الصليب استمرت فعلا . ففى أسبانيا حارب المسيحيون بحجة استرداد أراضيهم من المغاربة . فلقد كانت السفن المسيحية دائمة الرعب من قرصان الأتراك والعرب . وكان أكثر الجنود ولاءً للصليب فرسان القديس يوحنا المقيمون فى بيت المقدس . وعندما طردوا من بر آسيا حصنوا جزيرة رودس . وعندما أكرهتهم قوة الترك البحرية ، الآخذة فى الإزدياد ، على الجلاء عن رودس ذهبوا إلى جزيرة مالطة وحصنوها . وأخذوا — بوصفهم فرسان مالطة — يثابرن على الإغارة على السفن التركية مع صمودهم لكل الغارات . وكانوا جماعة دينية متحدة من فرسان الدول جميعها وكونوا — على صورة ما — ساقة (أى مؤخرة) المسيحية فى تقهقرها من الشرق والجنوب .

شئون الحرب والعبادة : الحصن والكنيسة :

تطرقت بنا حكايتنا عن الحروب الصليبية إلى ذرى القرون الوسطى

وهى الأعوام الألف الواقعة بين سنتى ٥٠٠ و ١٥٠٠ م . . وإنما سميت كذلك لوقوعها بين مدنية البحر الأبيض المتوسط القديمة والدنيا الجديدة .

وقد ظلت أصقاع الإمبراطوريه الرومانية — طوال القرون الوسطى — مقسمة إلى ثلاثة أقسام : كانت هناك إمبراطورية البلقان الإغريقية الشرقية وبلاد اليونان وآسيا الصغرى ، يحكمها جميعاً الإمبراطور الإغريقى المسيحى المقيم فى القسطنطينية . وكانت هناك الأراضى الغربية وهى فرنسا وإيطاليا وبريطانيا واسكانديناوة وألمانيا وأجزاء من أسبانيا ، وكلها دول مسيحية كاثوليكية تنظر إلى بابا روما على أنه رئيس كنيستهم ، غير أنها جميعاً يحكمها نفر عديد من الملوك والأمراء والنبلاء والأساقفة . ثم كانت هناك أراضى الجنوب والشرق المفقودة : جزء من أسبانيا وشمال إفريقيا كله وفلسطين وسوريا والعراق ، يحكمها سلاطين مسلمون .

وهذا التقسيم الثلاثى يظل قائماً فى تاريخ أوربا من أوله إلى آخره .

ولم يسترد المسيحيون قط الأراضى المفقودة ، فيما عدا أسبانيا . وهذا هو ما نعنيه اليوم عندما نقول إن الحروب الصليبية أخفقت . وكان مرد إخفاقها إلى انهماك الملوك والأمراء الغربيين فى محاربة بعضهم البعض .

وطالما زحف القياصرة الألمان — أو « الأباطرة الرومان المقدسون» الذين حكموا جماعة وفيرة العدد من الأمراء والنبلاء الألمان — طالما زحف أولئك القياصرة على إيطاليا مطالبين بسيادتهم على المدائن الإيطالية الموجودة فى تلك المناطق . وطالما حاربت المدن الإيطالية والنبلاء الإيطاليون بعضهم البعض. لقد كانوا يحبون المعاركة ويحاربون ابتغاء الأرض أو الثأر . وكثيراً ما اشتبكت إنجلترا وفرنسا فى حرب . وأكثر ما وقع ذلك، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، هذا إلى درجة أن حملات إدوارد الثالث وابنه وحملات هنرى الخامس وإخوته يسميها المؤرخون « حرب

المائة عام » (وقد وقعت على وجه التقريب بين سنتى ١٣٥٠ و ١٤٥٠) .

وكانت تلك هى الحملات التى فيها قهر إدوارد الثالث جيشاً فرنسياً فى كريسى وقهر هنرى الخامس جيشاً آخر فى آچينكور . غير أن الجنود الإنجليز ظلوا سنوات طويلة ينهبون ويدمرون الريف الفرنسى ، فى جماعات من الرماحة والنبالة يقودهم رؤساء مستقلون أى غير تابعين لأحـــد . وانتشرت أمثال تلك الجماعات المستقلة فى إيطاليا بل فى أسبانيا مغتصبين كل ما أعجبهم أو مؤجرين أنفسهم للنبلاء والمدائن . وفى ذلك الوقت احتفظ ملوك الإنجليز ببلدة كاليه على أنها مركز حربى أمامى محصن عبر المضيق . وانتهت الحرب الطويلة . . . بقهر الجيوش الإنجليزية الملكية التى طردت من فرنسا . ويرجع أكبر الفضل فى ذلك إلى الإلهام المذهل الذى أوحت به إلى الفرنسيين عذراء أورليان ، چان دارك .

ومن بين الحروب الغربية كلها ، أخلفت حرب المائة عام تلك ، على أهل الريف التعساء الذين كابدوا أشدّ المكابدة من النهب والقحط ، هذا إلى درجة أن عصابات من الفلاحين ثاروا ثورة شعثاء فقمعوا فى أشد قسوة حتى على يد سادانهم . ذلك أن الحروب فى القرون الوسطى لم تكن حرب أمة على أمة ولكن حرب جيش إقطاعى على جيش إقطاعى .

والحكومة الإقطاعية كانت شيئاً فى غاية البساطة . كان الملك أو الأمير يخلع الأرضين على أمرائه وفرسانه مقابل حلفانهم يمين الولاء له وخدمتهم إياه فى الحرب — إذا استدعاهم — لمدة أربعين يوماً فى كل عام على نفقتهم . ويتوقف عدد المجندين الذين يستجلبونهم معهم على مقدار الأرض التى تكون فى حوزتهم . وعلى ذلك يتكون الجيش من رجال فرق مجندة عديدة ، كل فرقة تستظل براية سيدها . ومثل تلك الأنظمة يتوقف على الوفاء بالعهد ، وكان القسَم الإقطاعى يعد ارتباطاً مهيباً . وإذا حدث أن قيصراً ألمانياً خاصم البابا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا فأنه يستدعى تحت رايته

كل أمرائه ونبلائه الألمان الذين يركبون ويدخلون معسكره مع تابعيهم. وإذا أعلن ملك إنجليزى — مثل إدوارد الأول — الحرب على ويلز فإن أمراء المملكة من نورذمبرلند إلى ديفون يدخلون تشستر أو شروزبرى راكبين مع مجنديهم الإقطاعيين من الرماحة والرقباء (قواد العشرة) وحاملى التروس والنبالة، ينظمهم المشير العسكرى للملك شخصياً الذى يختار من كبار الأمراء. وإذا أعد إدوارد الثالث أو هنرى الخامس العدة لغزو فرنسا فإن الأمراء ورجالهم كانوا يحتشدون فى ساندوتش أو فى سوذا مبتون ليستقلوا السفن مستظلين راياتهم الكثيرة ليعبروا المسافة القصيرة فى البحر. وكان يحدث أحياناً أن أسقفاً — كأسقف ديرهام العظيم — يستدعى رجاله لمحاربة الغزاة الاسكتلنديين. كما كان يحدث أحياناً أن بلدة غنية، كلندن أو بريستول، تجند جماعة قوية من رماة الأقواس الطويلة فى خدمة الملك من بين صناعهم وتلاميذ صناعهم. على أن الأقواس الطويلة لم يكن يصلح لحملها غير أولى القوة والعضل المفتول والحذق وكانوا يؤجرون أجراً عالياً لقاء خدمتهم.

وهكذا أمسى الفرسان ورجالهم قوام الحروب. وكانت الدروع الحديدية أول الأمر — على نحو ما حدث فى الحرب الصليبية الأولى — تصنع من سلاسل من الزرد اللدْن (أى المرن) تلتصق بالجسم التصاقاً. ولبس الفرسان بعد ذلك دروعاً ثقيلة مصفحة أى بذلات يصنعها صناع السلاح — فى حذق — من صفائح معدنية لتسبك فى حذق على مفاصل الكتف والمرفق والركبة. ولم يحلّ القرن الخامس عشر حتى كان الفرسان يغلفون بالمعدن تغليفاً كاملاً من قمة الرأس إلى إصبع القدم. بل إن خيلهم نفسها كانت تلبس دروعاً. وكانت خيلهم هذه فى واقع أمرها أقرب إلى حيل الأقاليم منها إلى مطايا الفرسان فى العصر الحديث. وكان تقدم الفرسان الثقيلى التسلح عملاً خطيراً. ويمكن تمثيل التغيير بصورتين متباينتين: الأولى لفرسان الصليبيين فى دروعهم الزردية يتسلقون برج المعقل ليصعدوا

فى جدران بيت المقدس ، والثانية لفرسان القرن الخامس عشر فى حرب الورد الأهلية الإنجليزية ، غير ممتطين جياداً ، فى صدام المعركة ، مثقلين بدروعهم المصفحة ، متعثرين تعثراً غريباً عاجزاً يجعل منهم صيداً أسهل القنص.

وهذا الدرع الثقيل المربك — الذى جعل السرعة مستحيلة — أمسى معوقاً إلى درجة جعلته ، بعدئذ ، مقصوراً على الخوذة وقطعتين لحماية الظهر والصدر ، وأحياناً لحماية الفخذين . وكل تلك — خلا الأخيرة — ظلت تستخدم أجزاءاً من لباس الدراغون (وهى كتيبة خاصة من فرسان الجيش الإنجليزى والجنود الفرنسيين المدرعين فى ووترلو عام ١٨١٤) .

وساعد استخدام المدافع ، فى القرون الوسطى ، على جعل الدروع تفقد بعض قيمها . وأصبحت كلمة « المدفعية » معناها الأسلحة التى تقذف بعد أن كان معناها ، فى وقت من الاوقات ، القوس والنشاب. وكان معناها ، فى الدنيا القديمة ، : المنجنيقات التى تطوح أحجاراً جسيمة على أسوار المدن . وفى حرب المائة عام استعمل البارود لقذف أكر مستديرة من الحجر من مدافع صنعت من الزهر المسبوك ، أكر قد تصيب وقد تخطىء وقد ورد فى المسجلات ذكر الجونيس الملكية (وهى طلائع المدفعية الملكيه).ولنا أن نستوثق من أن الجونيس كانت تخيف بضوضائها ودخانها بقدر ماتخيف بماتحدثه من ضرر. وكانت أقوى آثارها الناطقه تحدث لدى محاصرة القلاع والمدائن ، إذ أن القذائف المدفعيه كانت تحدث بالاسوار ثغرات أو ثلمات . وكانت المدافع يعظم أثرها بوصفها مدفعية حصار بنسبة ماكانت تصيب من تحسين تدريجى .

وفى زمان الإمبراطورية الرومانيه كانت المدن تسوّر ، وعندئذ كانت المعاقل تبنى على طول التخوم . وفى القرون الوسطى كانت المعاقل تتكاثر فى كل مكان . وكانت أسوارها الجسيمة تبنى بحيث تصمد لمحاصرات طويلة ، كما كانت القلاع والأسوار ذوات الزوايا تشرف على المداخل والمشارف .

وبهذا يتسنى لرماة السهام والنبال أن يصيبوا مقتلاً من المغيرين . وكانت السلالم الحلزونية — التي يسهل الدفاع عنها أكثر مما يتيسر الهجوم منها — توصل إلى الطبقات العليا وإلى السطوح . وكان خندق الماء يجعل الهجوم المباشر بالغ الصعوبة . ومن وسائل الهجوم إذ ذاك قذف حزم من الأماليد(١) أو الاندفاع بها إلى أن يمتلىء الخندق . وتكون تلك عملية كريهة عندما تصوب النواظر الحادة، نشاباً يناهز المتر طولاً ، إليك من الكوات الطويلة الضيقة المفتوحة فى الأسوار السامقة . وكان الاستيلاء على المعاقل يقتضى وجود سلالم متنقلة وأبراج للحصار ومنجنيقات للقذف ومدافع . والمعاقل آمنة فى الأغلب مالم تباغت . وقد روعى احتواؤها على مخازن وإصطبلات ومعسكرات للحرس كما روعى احتواء المبنى الرئيسى على مطابخ ومخازن لحفظ الأطعمة ومستودعات للمعدات الحربية وغرف للنوم وبهو كبير وكنيسة صغيرة . وكذلك، فى مكان ما من الساحة ، يقوم مصنع للحدادة وفى مكان آخر يوجد بئر يحميه ، غالباً ، برج يرفع من فوقه . وكثيراً ما كانت تبنى الأبراج بحيث يتسنى لكل منها أن يحمى نفسه محلياً أياً كان مصير سائر الابراج . وهكذا يكون الاستيلاء على المعقل الواحد سلسلة من المحاصرات . وما يكاد الجسر المتحرك يرفع والعدو يظهر حتى تصبح الحياة فى المعقل خشنة حذرة . ولكن فى أيام السلام لاشك فى أن الحياة كانت مرضية إلى حد كاف . وفى المعقل رفاق عديدون ، إذ أن المعقل كان أكثر من مثوى محصن للأمراء أو للفرسان ، فلقد كان يأوى مجتمعاً كبيراً من الناس يحميهم ويطعمهم .

وقبل غزو النورمنديين لإنجلترا كانت المعاقل تقام من الخشب كما تبنى الخوازيق المحصنة فى إفريقيا وأمريكا. وفى الإمبراطورية الإغريقية توارث الناس خبرة التحصين بالحجر عن عهد روما . وعندما ذهب الصليبيون

(١) الأملود أو العسلوج شجر مرن الأغصان يشبه الصفصاف .

شرقاً تعلموا الكثير عن بناء المعاقل . وبنوا فى سوريا معاقل عظيمة كمعاقل أسكيلون وكراك دى شيفاليه على حافة الصحراء . وعندما عادوا ارتفعت معاقل مماثلة فى جميع أنحاء الغرب . وعلى طول الراين فوق رءوس الجبال ، وعلى مزارع الكروم ارتفعت حصون الأمراء الألمان القوية ، حصون الراينلاند التى تقدم خرائبها المزيدَ من المتعة للسياح . ولقد كانت الأراضى الأسبانية غاصة بالمعاقل التى شيدت خلال حرب التخوم ، غير المتناهية، ضد المغاربة . وعلى الحد الشرقى لألمانيا وعلى الحد بين ويلز وبريطانيا قامت معاقل التخوم للأمراء الذين درجوا على أن يعيشوا دائماً فى حذر من أعدائهم القدامى والذين كان رجالهم المحاربون يدربون فى مدرسة شاقة المنهج . وهذا هو السبب فى أن أمراء ويلز المهاجمين ونبلاء الحدود البروسية لعبوا دوراً ذا بال فى تاريخ بلادهم . ولقد غصت الحدود الشمالية لبريطانيا بالمعاقل مثل أولنويك — و — بيرويك — و — نورهام . على أن المعقل كان من مميزات الأصقاع الريفية فى القرون الوسطى وكثير من مدائن تلك الفترة . وكان للنـــدن قلعتها الشهيرة التى تحمل اسمها (لندن تاور) ولباريس باستيلتها .

وحكاية الحرب بين بعض الناس والبعض حكاية ينقبض لها الصدر . غير أنها ، مع الأسف ، حكاية الجنس البشرى . وهى ككل الحكايات الإنسانية لها قصص تتحدث عن الفضيلة والتضحية بالنفس كما تتحدث عن آلام لم تُرْوَ قصتها . حكاية القرون الوسطى تتركز فى معاقلها . ولم يكن أى ملك أو أى أمير ليستطيع ، بطبيعة الحال ، أن يكسب حرباً على الإطلاق بمجرد القعود فى معقله . أجل ، كان عليه أن ينطلق ويبحث عن عدوه ويشعل حربه فى العراء . غير أن من المعـــاقل كان الملوك والأمراء يحكمون ممالكهم .

فى القرون الوسطى كانت الكنائس — كالمعاقل — جزءاً من المنظر

الخلوى العام . فلقد وجدت فى كل قرية كنيسة . أما البلدان الكبيرة فكانت تحوى كنائس عدة . مثال ذلك نورويك ولندن اللتان تحويان كنيسة فى كل قسم من أقسامهما . فكانت أجراسها كلما دقت ، تحدث طنيناً من الأنغام على البيوت الصغيرة التى تأتلف تحت أبراجها . وكانت هنالك — إلى جانب الكنائس والأبروشيات — أديرة فى المدن وفى الريف ، بعضها بنى منذ عهد بالغ القدم كما هى حال : فولدا فى ألمانيا ، وكلونى فى فرنسا ، ومونت كاسينو فى إيطاليا . وقد أقيمت فى كل منها مصلاها وكنيستها التى تستطيع العامة أن تتعبد فيها . وهى تشبه المعاقل فى أنها استخدمت مراكز للعمل والتسويق . وكانت تنشأ حولها أحياناً بلدان صغيرة كما هو الشأن فى بورى سنت إدموند — و— بير تربورا . وكثير من الأسماء فى مدينة لندن تذكرنا بالكنائس والبيوت الدينية ، مثل ذلك : سنت جيمس ، سنت مارتين ، ذى تمبل (أى المعبد) ، أوستن فرايارز (أى الرهبان) ، وستمنستر وما إلى ذلك . وينطبق مثل هذا على مدن أخرى فيها استعارت الأبروشيات أسماءها من الكنائس . مثال ذلك : سنت أنطوان وسان جرمان فى باريس .

وتاريخ القرون الوسطى هو ، إلى حد كبير ، تاريخ الكنائس . فقد ذكرنا برجال من رجالات تلك المملكة الأخرى التى ينتمى إليها الناس وهى مملكة الله على الأرض .

فنى مملكتى إنجلترا وفرنسا العلمانيتين (الدنيويتين) وفى بلاد أخرى كان الحكام الدنيويون الذين يحكمون الناس هم أرباب الضيعة وأمراء الأقليم وأخيراً الملك : هارى او فيليب أو غيره من الشخصيات أياً كان اسمها . أما فى المملكة الروحانية فكان الناس يحكمهم قسيس الأبروشية والأسقف وأخيراً البابا المقيم فى روما .

واندمجت المملكتان كل منهما فى الأخرى ، لأن الأساقفة كانوا فى

الوقت نفسه سادة الأقاليم . وذلك لأنهم اقتنوا مزارع على غرار الفرسان والأمراء . ولقد كان بعض الاساقفة — أمثـال أساقفة كولونيا وماينز ودرهام — كان هؤلاء حقاً هم الحكام يحف بهم أبهة الأمراء وسلطانهم . وماهو إلا أمر يصدر عنهم حتى يهرع الناس إلى التجند وحتى تحتشد الجيوش. ولقد كانت بيوتهم قصوراً تغص بالاتباع وجماعات الخدم. وكان الاساقفة فى كل مكان هم مشيرى الملك ، نظراً لما امتازوا به من العلم والتجربة والمقدرة . وكان بعضهم من القديسين والبعض من العلماء الاعلام الذين يؤلفون الكتب باللاتينية فى الفلسفة والدين والقانون . وكان على كل منهم أن يدبر شئون ضيعات شاسعة تحوى كنوزاً وتضم الأشراف ووكلاء الخراج.

وكذلك كانت حال رؤساء الأديرة . وقد داوم الرهبان البيندكتيون على إتباع شرائع مؤسس ملتهم. ونقلت جماعات أخرى، معاصرة أوتالية ، شريعة هذه الملة مع كثير من التزمت . فكانوا يمارسون المزيد من الصيام أو التأمل أو الصلاة أو الصمت أو ساعات العزلة فى صوامعهم . ومن بين أولئك الرهبان اللاحقين بنى السسترشيون بيوتهم فى الفلوات . ولذا نجد خرائب أديرتهم فى شمال إنجلترا التى كانت إذ ذاك مشتتة السكان والتى حدتهم إلى أن يصبحوا مزارعين يربون الاغنام ويتجرون فى أصوافها . وخلف الرهبان الكارثوسيون — الذين اشتهروا بورعهم العميق — اسمهم فى بيت الرخص والبراءات اللندنى القريب من سميثفيلد . وذاك لفظ يشبه ، بعض الشبه ، اسم المكان الذى بدءوا منه : شارتريز (بفرنسا) .

وكان الرهبان يلزمون أديرتهم يتعبدون بمعزل عن دنيا الناس الشديدة الحركة . وقد عاشت جماعة الرهبان — التى أسسها ، حوال سنة ١٢٠٠ ، الأسبانى سان دومينيك والإيطالى سان فرانسيس مواطن بلدة أسيسى — عاشت هذه الجماعة فى الدنيا الشديدة الحركة تبشر الناس وتعمل بينهم . وجعلوا شأنهم شأن الرهبان فى قطع العهد على أنفسهم بأن يكونوا فقراء

وأن لا يتزوجوا وأن يطيعوا رؤساءهم . وقد حث سان دومنيك أتباعه على أن يبشروا بالإنجيل ويذودوا عن الحق ضد أولئك الذين قد يضلون الناس بتعاليمهم المبطلة الأفاكة . وكانوا يلبسون أردية سوداء . ولقد عرف بيتهم ، القريب من النهر فى لندن ، باسم ذى بلاك فرايرز (أى الرهبان السود) . وكثيراً ما أضحى الدومينيكانيون رعاة الملك الشخصيين أو كهان الاعتراف الأخصاء . وأطلق على بيت آخر فى لندن اسم ذى جراى فرايرز (أى الرهبان الرماديين) ، نظراً إلى أن الرهبان الفرنسسكان كانوا يلبسون أردية رمادية .

وكان سان فرانسس يذهب إلى أن الغنى ، بل أى شىء يقتنى . يعرض روح الإنسان للخطر . وكان من حواريى الفاقه . فقد هجر ذات يوم ، بغته متجر القماش الذى يملكه والده وتسول شحاذاً يلبس جلباباً رمادياً خشناً ويسأل الناس الصدقات ليرمم بها كنيسة قديمة خربة فى الغابة . وقد خاله الجيران مجنوناً . إلا أن إخلاصه وطيبة قلبه أقنعاهم بأنه ليس رجلاً عادياً . ولم يلبث أن جمع فرقة من الاتباع الغيورين أطلق عليهم اسم « الإخوة الصغار » وبث فيهم روح المسيحية التى تنكر النفس وتفيض بالحب . ولم يحدث أن شخصاً — غير من ذكروا فى الإنجيل — فاض حباً أكثر من حبه ولقد تحدث فى مرح عن « الأخت النوم » و « الأخ الموت » ، وأوصى بما أوصى به المسيح : « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية » .

وكان حواريوه يمشون حفاة الأقدام يرتلون فى مسيرهم ويقيمون على كسر الخبز وثمالات الشراب. لقد كانوا أصحاب العالم أجمع وجوالين يتغنون بحب الله للناس . وطالما فتشوا عن أعفن الأحياء القذرة ومذابح الماشية ليسكنوا فيها ويقيموا أكواخهم المتواضعة . غير أنهم — على غرار الفرق المنتقاة من أى جيش — اجتذبوا أقدر المجندين وأشدهم غيرة . وانضم إليهم

رجال ألمعيون نالوا بعدئذ الشهرة والثراء. وكانوا يعلمون فى الجامعات ، وما هو إلا القليل حتى أفسحت أكواخهم المتواضعة المجال لأبنية جميلة من الحجر .

ولقد ألفنا اليوم رؤية مبان عامة من أنواع مختلفة تعقد فيها المجالس والمؤتمرات ليست مع ذلك حصوناً ولا كنائس . أما فى القرون الوسطى فقد كانت الحصون والكنائس والأديرة ، كانت المبانى «العامة» الوحيدة ، وفيها فقط كان يستطيع الملك أن يستقبل مستشاريه أو يجمع كبار أمراء مملكته وكان بهو قلعته الكبير أو بيت إصحاح الكنيسة أو ردهة الدير ، هو المخصص لشئون الحكم فى مملكته . وكان مستشاروه — كلهم تقريباً من رجال الكنيسة كما كان أغلب أعضاء مجلس اللوردات من الأساقفة أو رؤساء الأديرة .

ومجلس الملك شىء أنشىء من زمن بعيد . ويرجع تاريخه فى إنجلترا إلى أيام السكسون . وكان يضم كل من يسرُّ الملك اختياره . وفى القرن الثالث ولد نوع جديد من المجالس ، الفكرة الأساسية فيه أن امرءاً واحداً يستطيع أن يمثل رفاقه ، أولئك الذين يماثلونه فى المرتبة أو المهنة .

وبما أن كل فرسان البلاد لم يكن من السهل جمعهم ، ولا جمع كل مواطنى البلدان وكذلك جميع رجال الدين، فقد اقتصر الملك على استدعاء ممثليهم إلى اجتماعات (برلمانات أو مساجلات) فى وستمنستر أو أكسفورد أو جلوستر أو أى مكان آخر يتصادف وجوده فيه . وهناك كانوا يجتمعون ويجتمع كبار أمرائهم .

ويكون الفرسان والمواطنون « العموم » أى الشعب، ويكون الآخرون « اللوردات » وهذان اسمان ما يزالان يستعملان إلى اليوم .

وقد درج فرسان كل مقاطعة على أن ينيبوا عنهم فارسين كما درج مواطنو كل مدينة على أن ينيبوا عنهم مواطنَين كذلك .

وقد درجوا على أن يحملوا معهم شكاوى مقاطعاتهم وبلدانهم التي تتصل بالمظالم . وهذه الشكاوى أو الملتمسات كان يقرؤها رجال الدين الذين يتكون منهم مجلس كهنة الملك . وبهذا يسهل على الملك أن يأمر بسن قوانين تعالج بها الأخطاء والمظالم ، وبعد ذلك يطلب إلى البرلمان الترخيص بفرض ضرائب تساعده — في أغلب الأمر — على الإنفاق على حروبه .

وكان هذا النوع من البرلمانات ينعقد في الشهور الصيفية ، ولم يحدث قط أن امتد انعقاده فترة بالغة الطول . على أنهم لم يستدعوا إلا في الفترات التي كان الملك يحسبها مناسبة . وكان الفرسان والمواطنون يقومون بنفقاتهم الخاصة ، وكثيراً ما وجدوا في الحضور مشقة . ومن النقط التي تجب علينا ملاحظتها : أن الكنائس كانت لها برلماناتها الخاصة التي تسمى بـ « المجامع الأكليروسية » والتي ترخص للملك فرض الضرائب . وفي كل الأعمال البرلمانية كان الأساقفة ورؤساء الأديرة يقومون بأدوار قيادية ،في كنائسهم أو أديرتهم أحياناً .

وكانت برلمانات كهذي ، مختلفة الأشكال ، تستدعى كذلك في فرنسا وأسبانيا للانعقاد .

وفي الكنيسة كانت هنالك مناسبات عديدة يجتمع فيها المندوبون للمشاورة في بعض الشئون . أما إنجلترا فهي وحدها التي فيها ظلت البرلمانات النيابية تستدعى للانعقاد حتى يومنا هذا . ولقد نطق إدوارد الأول بالعبارة الآتية : « الشئون التي تخص الجميع يجب أن يتشاور فيها الجميع » . وقد تعود اللوردات الإنجليز ووزراء الملك على هذا ، وأسهمت أشياء أخر في بقاء البرلمانات بصفة مستمرة . ولقد أطلق على البرلمان الإنجليزي — في أيامنا —

« أم البرلمانات » وذلك لأن أمماً أخرى نقلت عنه . وكان من حسن حظ الإنجليز أن يعيشوا فى جزيرة ويفلتوا من الغزو . كان من حسن حظهم أن تكون لهم حكومة ملكية موحدة قوية على رأسها ملوك يؤمنون بالحكومة العادلة القوية . كان من حسن حظهم الظفر بميثاق عظيم للحريات من الملك چون (هو الماجنا كارتا) مع تمتعهم بروح الإخلاد إلى القانون .

وقد تصادمت ، مراراً ، المملكتان الدنيوية والروحية :

كان البابوات يمتلكون أراضى فى إيطاليا وكانوا يحاطون ببلاط كالملوك ، وكان للكنيسة نظامها القضائى . وفى بعض الأحيان كان البابوات والملوك يتنازعون نزاعاً شديداً . وعندما يحرم البابا من عضوية الكنيسة أحد الحاكمين أى عندما يحكم بأنه خارج على ملة الكنيسة المسيحية ، عندئذ يكون رعايا هذا الحاكم فى حل من الخروج عن طاعته ويكون فى وسعهم أن يثوروا برضاء من الكنيسة ، وهذا ما يسبب له أشد الحرج والضيق . وعندما قضى البابا جريجورى السابع على الإمبراطور الرومانى المقدس هنرى الرابع بالحرمان من عضوية الكنيسة اضطر هذا الأخير إلى أن يستجدى عفو البابا ، ولم يحظ به إلا بعد أن عبر جبال الألب وانتظر ثلاثة أيام خارج حصن كانوسا حيث أقام جريجورى . وليس فى وسعنا أن نتصور أن أى حاكم عظيم ، بل أى رئيس وزارة ، يقبل أن يصنع اليوم مثل ذلك .

وقد وقعت أسوأ نتائج مثل تلك المنازعات فى القرن الرابع عشر عندما قبض بعض الفرسان الفرنسيين على البابا بسبب نزاع احتدم بينه وبين الملك الفرنسى . ونتيجة لهذا انتقل البابوات إلى أفنيون بفرنسا حيث أقاموا أعواماً طويلة . ثم حدث أن بعض الكرادلة فى روما انتخبوا هناك بابا آخر . وكان من دواعى الخزى والفضيحة لكل المسيحيين المخلصين أن وجد

بابوان يدّعى كل منهما أنه البابا الحقيق ويتهم كل منهما الآخر . وانتهت هذه الحالة المحزنة آخر الأمر ولكن بعدأن أضعفت احترام الناس للكنيسة .

ورغم كل تلك المنازعات التى يرثى لها شعر المسيحيون فعلاً أنهم جميعاً أعضاء كنيسة واحدة ومدنية واحدة .

ويرى ذلك بمزيد من الوضوح إذا تذكرنا أنه فى القرون الوسطى كان يسع قسيساً إيطالياً أن يمسى أسقفاً فى إنجلترا وكان يسع إنجليزياً أن يصبح مدرساً من علماء جامعة باريس . فلقد كانت جامعات الغرب إذ ذاك دولية حقاً . . تضم كل منها طلاباً من جميع الشعوب . وكانت الكنيسة دولية لغتها اللاتينية التى يتكلمها جميع المثقفين .

وكان أحد أسباب التنازع الكثيرة الوقوع : من الذين ينبغى للأسقف طاعته ، أهو الملك بوصفه من ملاك الأرض أم هو البابا بوصفه من خدام كنيسة الله ؟ ؟ ولقد ترددت أصداء نزاع كهذا فى كل مكان بسبب الفاجعة التى أدى إليها : عندما حدث أن هنرى الثانى الإنجليزى — وهو ملك سريع الانفعال — خاصم أسقف كانتربرى توماس بيكيت ، تولى أربعة من الفرسان قتل الأسقف داخل الكنيسة بكانتربرى بفكرة أن هذا (العمل) يسر هنرى ، عندما حدث هذا أذل هنرى نفسه بل ترك رهبان الكنيسة يجلدونه . ثم أمسى مزار بيكيت حرماً هاماً يُحج إليه .

لقد سيطر المعقل والكنيسة على القرون الوسطى . ومهما يكن فقد كان اعتماد الفارس والقسيس والكاهن والراهب على كد الآلاف من المزارعين والصناع المتضعين الذين أقيمت بيوتهم من الخشب والطين . غير أن جميع الناس كانوا عاجزين إزاء القحط والأمراض التى كانت تقضى عليهم قضاء غامضاً . فلقد يصبح المرء مجذوماً ويتبعد عنه رفاقه . وكانت الحياة قصيرة والموت كثير الحدوث . وكان أخوف المصائب

التى يخافها الناس : الطاعون أو الوباء الذى لم يتخلف قط فترة طويلة والذى طغى فى ١٣٨٤ على كل أوربا بـ « موت أسود » مبيداً قرى بأكملها وقاضياً على شخص من كل ثلاثة أشخاص .

وكانت حماية المعقل وسلوى الكنيسة من الأمور الحقيقية التى تهم أسلافنا . وسنعرف الآن شيئاً من حياتهم ، وذلك بالذهاب مع طائفة منهم إلى ذلك المزار نفسه — مزار بيكيت فى كانتربرى — فى رفقة جوفرى تشوسر أول شعراء الإنجليز .

حجاج من كانتربيرى

قضى جوفرى تشوسرى — أحد خدام الملك الإنجليزى رتشارد الثانى — أيامه فى جمع الرسوم الجمركية أو ضرائب الصوف المكدس فوق مراسى السفن على نهر التيمز وإلا فى الإشراف على إصلاحات مبانى القصور الملكية وأثاثها . أما الأمسيات فكان يقضيها فى إعادة سرد الحكايات القديمة ونظمها شعراً ، وهذا الشعر ما تزال قراءته فى متناول أيدينا وإن تكن لغته قديمة الأسلوب إلى حد ما .

وإنا لنقرأ فى كتابه « حكايات كانتربيرى » — الذى كتب حول عام ١٤٠٠ — صورة لرجال عصره ونسائه الذين كانوا يحجون مزار سنت توماس بيكيت فى كانتربيرى ، وكانوا حشداً أكثر تنوعاً مما قد نجده الآن إذا ما قمنا برحلة جماعية . غير أن الحج يسوى بين الناس كافة .

كان على الناحية الجنوبية من جسر لندن فى سوثوارك (خان) تابارد .

وقد انطلق الحجاج من فنائه — فى صباح يوم من أبريل مطير بهى — انطلقوا جميعاً على ظهور الخيل . ورافقهم هارى بيلى مدير (الخان) . ذلك أن صاحب (الخان) فى تلك الأيام كان حقاً مضيفاً يرحب بنزلائه كأنما هم

ضيوفه ويجلس وإياهم إلى المائدة. وكان بيلى رجلا بالغ المرح جسوراً متزن الكلام . وهو الذى اقترح أن كل حاج عليه أن يقص حكاية لتسلية الجماعة وتهوين الرحلة . ووقع الإقتراح منهم جميعاً موقع القبول ، وهكذا ظفرنا بالكتاب .

قاد الركب صاحب الطاحونة وما زال يوقع لهم على مزمار القرية حتى زايلوا المدينة . وكان رجلاً جسيما غليظ البنية قصير المنكبين عريضاً مكتنز البدن يسعه أن ينفذ من الباب إذا نطحه برأسه . وكان يلبس سترة بيضاء لها قلنسوة زرقاء . وتبعه آخرون وهناك فارس « بالغ الوداعة كامل الصفات » وكانت صدرته الوقورة الألوان يلطخها الصدأ حيث ضغطت عليها السترة الزردية . الوصيف ، ابن الفارس ، وهو أعزب ممتلىء الصحة أجعد الشعر يرتدى ملابس مبهجة الوشى ، ثم فلاح من الملاك أسمر الوجه يرتدى ثياباً خضراء ويحمل فى حزامه حزمة من نشاب الطاووس وفى يده قوس كبير . وبعده دكتور — فى الطبيعة أو الطب — عباءته مصنوعة من قماش أحمر وأزرق سماوى ومبطنة بالحرير ، وكان يعرف مسببات جميع الأمراض سواء أكانت «حارة أو باردة أو رطبة أو جافة». وضابط قضائى عالم ذو وجه وقور يلبس أبسط الملابس . وتاجر له لحية متفرعة يلبس قبعة من السمور الفلمنكى وحذاءين أنيقين . وفرنجى صغير خفيف الروح أحمر الوجه أبيض اللحيه أو قل إنه فلاح ، بيته « يمطر لحماً وخمراً » . وطباخ يعرف كيف يقدم « خواناً مباحاً » طيباً . وكاهن من أكسفورد — أو طالب — حصانه الصغير نحيل كالجاروف يصرف قروشه الزهيدة على الكتب ثم يحتفظ بها فى فراشه . ومراكبى من سفينة البضائع « موديلين » وهى من سفن دار تموث ، وهو بحار سفعته الشمس يعرف الشواطىء جميعاً من هول إلى البحر

الأبيض المتوسط . وقد ركب الآن — بملابسه الخشنة الغزل — ركب حصانه ركوباً غريباً كما قد يركب البحار .

وتبع أولئك بائع غفران أصفر الشعر تملأ جرابه صكوك الغفران المجلوبة من روما : ثم محضر وهو موظف بالكنيسة عمله استدعاء الناس إلى المحاكم الكنسية ، وكان مبقع الوجه مبثوره رغم الأدهان التى درج على استعمالها وربما كان مرد ذلك إلى إخلاده إلى الشراب فى أغلب الأحيان. وتلاه متعهد عمله توريد الأغذية لإحدى كليات الحقوق . ثم قفاه عمدة ذو سترة زرقاء وسيف صدىء إلى جانبه ، ثم سيدة هى رئيسة دير أنيقة مهذبة اسمها مدام إجلنتين ، وكانت رقيقة الشعور حتى إنها لتبكى إذا رأت فأراً فى مصيدة . وجاءت بعدها سيدة أخرى هى « زوجة صاحب حمام عام » وكانت مرحة جريئة غنية كثيرة الترحال. وقد تزوجت خمسة رجال ، الواحد تلو الآخر — وعمرت بعدهم جميعاً ، وكان يسعها أن تغزل كما قد يغزل أى غزال فلمنكى .

ثم جاء ناسك يحب الصيد أكثر مما يحب الترتيل فى المصلى ، وراهب درج على الغناء فى الحانات يستجدى روادها نقوداً . ثم جاء — على النقيض من هذا — خورى (أى راهب كنيسة) كان يحب جمهوره حقاً ويرشدهم إلى دنيا الله خير إرشاد . وقد صحبه أخوه وهو حراث .

وفى آخر الموكب جاءت جماعة من صناع المدن : بائع سلع صغيرة (خردوات) ونجار وصباغ ونساج وصانع سجاد ، يلبس كل منهم زيه أى البذلة التى يلبسها أرباب حرفته .

ويقدم لنا جوفرى تشوسر أغلب أنواع الشخصيات التى يلقاها المرء فى القرون الوسطى ، بين رجال نساء . وكان الأمراء الكبار والأساقفة يسافرون ترافقهم — بطبيعة الحال — مجموعاتهم الخاصة من خدام منازلهم. فمثلاً عندما ركب إيرل أكسفورد إلى لندن ليسكن بيته الواقع فى واريك

لين (حارة) كان يركب أمامه ثمانون سيداً فى حلل ريدنج العفراء ومن خلفه مائة من ملاك الفلاحين يلبسون شارة أكسفورد وهى خنزير أزرق مطرز على ستراتهم . وعندما ركب أسقف هيرفورد إلى لندن احتاجت بطانته إلى واحد وخمسين فرساً .

أما الملك فكان موكبه الملكى يشمل منادين وسعاة ومجموعات من المركبات الطويلة وكلٌ حاشيته . وكان منظر سير هذه المواكب خلاباً .

ولنترك الآن حجاج تشوسر المرحين يجلون فرحين ، هابطين درب كينت القديم فى طريقهم إلى كانتربيرى ولنتحول إلى الكلام عن حياة بعضهم .

الفرسان والشهامة :

دأب الفارس المسيحى على أن يحمى الكنيسة ويساعد الفقير والضعيف وأن يظهر الشجاعة فى الحرب والولاء لسيده المتبوع ويقاوم كل أذى أو ظلم وأن يكون نبيل السلوك فيتحلى بفضائل الفروسية . والفارس المسيحى يبدأ ، أول الأمر ، وصيفاً صغيراً يخدم سيده عند تناول طعامه ويسوس خيله ويرعاها ويحمل أسلحته . فإذا أضحى فارساً طوق بسيف ، وجهز بمنخاسين مذهبين بدلاً عن منخاسية الفضيين القديمين ، وتناول لطمة أو ضربة على كتفه بسيف عارٍ عن قرابه . وفى بعض الأحيان كان يضع أسلحته فوق محراب فى كنيسة ويسهر فى حراستها طوال الليل . وكان درعه ومعطفه — الذى يغطى وشاح الدرع — يحمل شعاره أو شارته وكان يتخذ لنفسه عنواناً أو لعله يرثه . وعندئذ يستعد ليثبت أنه فارس صنديد فى الحرب أو فى ألعاب الخيل الممتازة (البرجاس) . وكان يتخذ لنفسه مثلاً أعلى : كبار الأبطال الغابرين من أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر وشارلمان وآرثر وجود فراو دى بويون .

ولقد كان ، قبل كل شيء ، فارساً مسيحياً . فكان فى أيام الحروب الصليبية الكبرى ، « يأخذ الصليب » أى يذهب إلى الحروب الصليبية مع رتشارد قلب الأسد أو سنت لويس . ومع أن أيام الحروب الصليبية قد انتهت فإنه كان يسعه مع ذلك ، إذا أراد أن يحارب الترك ، الالتحاق بفرسان سنت جون ومركزهم بيت المقدس ، أو يستطيع أن يحارب البروسيين الوثنيين ، وذلك بالالتحاق بفرسان السيف فى ألمانيا الشرقية . وكانت هناك تشكيلات أخرى من الفرسان أو هيئات من النبلاء أسسها فرسان أو أمراء . فإدوارد الثالث ملك إنجلترا أسس طائفة تحمل وسام ربطة الساق ، وهنرى الرابع ملك إنجلترا أسس طائفة تحمل وسام الحمام ، وفيليب الطيب دوق بورجاندى أسس طائفة تحمل وسام الفروة الذهبية . وكانت تلك كلها جماعات زمالة أو إخاء للفرسان ، لها قواعدها وجلساتها النظامية ومُصَلاها أو كنيستها الخاصة للعبادة الجماعية .

وكان أهل القرون الوسطى يهتمون كثيراً بتشكيل جماعات إخاءٍ أو زمالة .

أرباب الحِرَف بالمدن :

وكان هناك نوع آخر من الزمالة ، أكثر تواضعاً هو نقابة الصناع . وتضم النقابة كل مواطنى المدينة الواحدة الذين يحترفون حرفة واحدة تكون فيما بينهم « السر الدفين » . مثال ذلك نقابات صنع الخبز والبيرة والشمع والمصنوعات الخشبية (النجارة) . وكانت من أغنى نقابات لندن . نقابة صائغى الذهب الذين درجوا على الاشتغال بأعمال البنوك ، ونقابة صناع القماش الذين جمعوا ثروات طائلة من الاتجار بالصوف . وكثيراً ما كانت نقابات المهن تلك — فى لندن وغيرها — يخاصم بعضها بعضاً بسبب نصيب كلّ نقابة فى حكم المدينة .

وقد قامت خصومات — فى أيام تشوسر — بين البقالين والسماكين، وبين تجار الأقمشة والحرير والسلع الصغيرة (الخردوات) .

وكثيراً ما أدى هذا النوع من المنازعات إلى شغب بين الصناع وتلاميذهم (أى صبيانهم) ، شغب ينتهى بتهشيم الرءوس أو بالعقوبات يوقعها عليهم القضاة .

وكان رئيس كل نقابة حرفة ينظم نوع الشغل وساعات العمل . وكانوا يعاقبون أعضاء النقابة إذا قدموا عملا غير متقَن أو طففوا وزنَ البضاعة . وكانوا يكرهون صانعى الأحذية — إذا أساءوا صناعتها — على أن يعلقوها حول رقابهم أمام الناس فى الأماكن العامة .

وكانت النقابات تحدد أسعار البضائع ، وتقوم مقام شركات التأمين وتقدم مساعدات مالية للأرامل واليتامى وأهل المهنة . وكان لكل مهنة زىّ خاصّ بها ، وبهو يجتمع فيه أهلها ، كما كانوا يتعبدون جميعاً فى إحدى الكنائس القريبة . وكانت بعض النقابات تختار لنفسها قديساً حارساً ، مثل سنت هيو لصانعى الأحذية . وكانت كل نقابة تشرف على قبول التلاميذ الصبيان الذين كانوا يعيشون فى بيوت رؤسائهم سبع سنوات كى يتعلموا أسرار المهنة . وكان الرؤساء يفحصون عن مصنوعات تلاميذهم فحصاً ينتهى ، آخر الأمر ، بجعلهم رؤساء فى أعمال المهنة . نعم ، لقد كانوا يصبحون ، مثلا ، رؤساء فى صناعة الخبز أو الجلد ، تماماً كما قد يصبح بعض المتعلمين « أساتذة فى الفنون » . وإذا صادف تلميذاً حظ كبير كالذى صادف ديك ويتنجتون فإنه هو أيضاً يتزوج ابنة رئيسه ويصبح محافظاً للمدينة . وكانت فى كل مدن أوربا نقاباتها المهنية .

وكانت فى أكثر المدن أسواقها العادية ، وفى أقلها أسواقها الموسمية ، وتلك أسواق تقام فى كل عام من « الأكشاك » أو الظُّلال الخشبية تنصب

لمثل ذاك الغرض . ولقد كانت السوق الموسمية استوربردج (بالقرب من كمبردج) تقام سنوياً وتستمر ثلاثة أسابيع ويؤمها التجار من كل مناحى أوربا . وكانت نوتنجهام تقيم سوقاً موسمية للإوز ، وكانت للندن سوقها الموسمية الشهيرة بسوق سنت بارثولوميو ، وتقام تحت الأسوار الكبيرة لكنيسة سنت بارثولوميو . وكان يفتتحها — رسمياً فى كل عام — محافظ المدينة نفسه . وكانت تلك الأسواق تجذب الجماهير كما تجذب ، بطبيعة الحال ، النصابين والمشعوذين والمنجمين وذاك النوع من الدجالين الذين يقدمون حبوباً وأدوية تشفى جميع الأمراض. وكانت المشاجرات والمجادلات العنيفه ، التى تنشب فى تلك الأسواق ، تفصل فيها محاكم خاصة تقام على أرض السوق التى كان يطلق عليها اسم مناسب (وهو : دقيق الفطير) ويقصد به : محاكم الأقدام المعفرة . وليس ما نسميه اليوم (سوقاً) غير الجزء المختص بالتسلية فى تلك الأسواق السنوية القديمة .

وبدافع حب الأبهة القديم ، تستعد النقابات استعداداً طيباً : فتسهم كل نقابة فى لندن بنصيبها فى الرقابة والحراسة داخل الأبواب الكبيرة ، إذ لم يكن هنالك عندئذ نظام الشرطة ، مع ضرورة حراسة الشوارع خوف اللصوص وحراسة المنازل خوف الحريق . وكان من أفخم ما يرى فى منتصف ليلة صيفية « موكب الحرس » لشركات نقابات الحرف يقوم باستعراض عبر الشوارع التى كانت تضيئها المصابيح وتبهجها الأعلام والأزهار ، مع إعداد موائد فى كل مكان عليها الفطائر وخبز الزنجبيل ، وذلك استعداداً للوليمة التى تلى الاستعراض .

وكانت النقابات المهنية تقدم ، فى كل صيف ، من فوق منصات على عربات نقل كبيرة متحركة تقف فى أماكن معينة معروفة — كانت تقدم مسرحيات يستطيع فيها المتفرجون أن يشهدوا تمثيليات متعاقبة . وكانت المشاهد تقتبس من الكتاب المقدس . فكان صانعو السفن يمثلون سفينة

نوح ، والصاغة يمثلون «سجود الملوك المجوس الثلاثة للطفل فى بيت لحم» . وكانت الملابس نفسها تستعمل فى كل عام . ولقد درجوا فى يورك على أن يُلبسوا يهوذا الأسخريوطى ، فى كل مرة ، أردية صفراء ، والمسيح فروة غنم بيضاء وخفين أحمرين . وكانوا يظهرون هيرودوس (وهو ملك اليهودية عند ميلاد المسيح) متبجحاً وضحاباً كبيراً . وكان مشهد نوح وزوجته يمثل بأسلوب فكاهى . وكانت تمثيليات أرباب المهن أو التمثيليات الدينية تلك ، تبرز حكايات الكتاب المقدس أمام عيون الناس الذين لا كتب عندهم تماماً كما كانت تبرزها الصور والتماثيل المحفوظة بالكنائس . ولقد كان أسلافنا يحبون الملابس المسرحية والتمثيليات بقدر ما نحبها نحن .

رجال القانون ورجال الدين :

كان المشرع الذى تكلم عنه تشوسر ينتسب إلى أحد دور العدالة الموجودة فى لندن . وكان رجال القانون — كغيرهم من الناس — يعيشون مع زملائهم فى المهنة . وكانت دور العدالة كأنها كليات يسكنونها ويطعمون بها ويدرسون فيها معاً فى رعاية أنظمة صارمة . وكانوا يدرسون ، بوجه أخص ، القانون الإنجليزى . أما فى جامعة باريس فكان طلبة الحقوق يدرسون ، بصفة خاصة ، القانون الرومانى . ومن أهم ما تفردت به إنجلترا أن أهلها احتفظوا بنوع من القانون خاص بهم . وكان القانون المدنى الرومانى يدرس فى القارة ، وهو أساس كثير من القوانين الأوربية المعمول بها الآن . وإلى جانب هذين النظامين القضائيين كان هناك نظام قضائى ثالث وهو شريعة الكنيسة التى كانت سائدة فى المحاكم الكنسية .

ولا يذكر تشوسر القضاة ولا مستشارى البلاط الملكى ضمن حجاجه إذ أن الشخصية العظيمة المهيبة التى هذا شأنها كانت أعلى وأعظم من أن تسير راكبة على ذاك النحو ، وإنما كانت لها حاشيتها الخاصة . فقد يرى الأئمة هذه الشخصية جالسة ، وحدها أو مع زميل أو اثنين من القضاة ،

على منصة القضاء يلبسون أردية قرمزية وشعراً أبيض مستعاراً ولفائف تدثر بها رءوسهم الحافلة بالعلم . وقد يترافع دكتور القانون في قضية أمامهم في وستمنستر أو في بلدة ريفية مثل واريك أو نورتش . وعند ما يفد المستشارون الملكيون إلى بلدة ريفية ، ليحاكموا كل من أذنبوا منذ زيارتهم الأخيرة ، يملك الفزع كثيراً من سكانها إذ أن المستشارين الملكيين كانوا متجهمين شديدي التقصّي .

وإلى جانب دكتور القانون كان هناك كاهن من أكسفورد ضمن موكب الحجاج . وهو ما قد نسميه طالباً لم يتخرج بعد .

ولم تقم دور القضاء اللندنية مقام الجامعة قط . نعم كان رجال القانون في الخارج يتمرنون في مدارس الحقوق التي تضمها الجامعات كما في باريس ، أو بولونيا وساليرنو في إيطاليا . ولم يكن في إنجلترا غير جامعتين هما أكسفورد وكمبردج . أما في أوربا فكانت فيها جامعات كثيرة ، اشتهر بعضها بالتخصص في بعض الدراسات : ففي بادوا مثلاً كانت هناك مدرسة طب قصد إليها كثير من الإنجليز للدراسة فيها . ولم تكن الجامعة إذ ذاك مبنىً أو مكاناً ولكن كانت هيئة من المدرسين والطلاب . وكان من المألوف بين الطلاب أن يتنقلوا من جامعة إلى جامعة للدراسة على أساتذة ذوي شهرة . وكان أولئك الطلاب الجوابون ، من الشباب الذين يتدفقون حيوية وأغلبهم من الفقراء الخليين من الهموم .

وكانوا يحصلون على ترخيص من أحد الأساقفة ليتلمسوا طريقهم . وما يزال بين أيدينا كثير من الأناشيد اللاتينية التي كانوا ينشدونها وهم يدبُّون في الطرقات أو يجلسون في الحانات المترامية على جانبي الطريق .

والأصل أن يكونوا من الكهنة أو خدام الدين ثم يتدرجون حتى يصبحوا من القساوسة . وبما أنهم كانوا الوحيدين الذين يعرفون كيف يقرءون ويكتبون (اللاتينية وهي أهم ما كان يستعمل في الكتابة من لغات) فقد كان كل من يستطيع أن يقرأ أو يكتب يسمى كاتباً . وعلى ذلك بقي لفظ « الكاتب » إلى يومنا هذا يطلق على كل من يكسب عيشه من الكتابة، وكان أغلب قراءاتهم وكتاباتهم يتصل بالدين . وكان أسمى ألوان الدراسة : علم « اللاهوت » أو دراسة كل ما يتصل بالله . وكانت هناك — إلى جانب الكتاب المقدس ، وهو الكتاب الذى ترجمه سنت چيروم قبل القرن الرابع بوقت طويل والذى سمي بالـ «فلجيت» أى النسخة اللاتينية للكتاب المقدس — كانت هنالك كتب كثيرة كتبها أساقفة المسيحية الأولون مثل سنت كلمنت وسنت أوجستين . وكان أولئك يلقبون بأباء الكنيسة . ثم كانت هنالك الكتب اللاتينية التي وضعها عظماء مدرسي الجامعات ، وأعظمهم جميعاً سنت توماس أكيناس . كما ترجمت إلى اللاتينية كتب أرسطو الإغريقية القديمة . غير أن الترجمة لم تكن على خير وجه . ومع هذا فقد أحلت تعاليم أرسطو محل الاعتبار الكبير لأنها حكمة كبير فلاسفة الدنيا القديمة . وقد وصلت إلى المسيحيين بعض المعلومات عن مؤلفاته عن طريق الترجمة العربية التي قام بها علماء من المسلمين .

وكان بعض العلماء يدرسون الفلك الذى كانوا يزعمون أنه ينبيء بالمستقبل من واقع حركات الكواكب والأبراج . وقد حاول البعض أن يوجد « حجر الفلاسفة » (أو حجر الكيمياء) الذى يحول المعادن الرخيصة إلى ذهب . وقد درس نفر قليل جداً من العلماء — مثل الكاهن روجر بيكون الذى تخرج في أكسفورد — درس البصريات والعلوم الرياضية دراسة جدية . وكان كثير من العلماء العرب يجيدون العلوم الرياضية . وكان أشد ما يعوق الدراسة — بطبيعة الحال — صعوبة الحصول على الكتب لأن كل كتاب كانت تنبغي كتابته باليد من أوله إلى آخره .

وكان أحد معوقات التقدم العلمى ذيوع اللاتينية فى كل الأغراض ، وكانت لغة أهل العلم جميعاً ، وكانت القداسات الكنيسية ينطق بها ويتغنى بها باللاتينية . وكذلك كانت تعلن بها البلاغات الملكية . وكانت البراءات (الرخص) والقوانين تكتب بها . وقد استعملها أهل العلم فى مجادلاتهم ، كما كتب بها بعض الكتب النفيسة مثل « محاكاة المسيح » لمؤلفه توماس كمپيس . غير أنه عندما يستخدم أهل العلم جميعاً لغة غير لغتهم الأصلية فليس لنا أن نأمل ظهور كثير من الكتب العظيمة .

ولكن حول سنة ١٤٠٠ وجدت طائفة آخذة فى الإزدياد من الكتب التى تتصل بالعبادة والقصص والشهامة ومن الشعر ، مكتوبة باللغات التى كان يألفها ويتحدث بها غرب أوربا . وكانت هنالك دائماً قصص شعرية وأغان . وما يزال بين أيدينا قليل مما خلفه لنا هذا النوع . غير أنه لم يكن بد من فقدان مجموعة كبيرة منه . ولكن حول نهاية القرن الرابع عشر وجدت كتب باللغات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية . فهناك ، بالإيطالية ، ملحمة دانتى « الملهاة(١) الإلهية » التى تحوى مشاهد من الجحيم والمطهر(٢) والجنة. وهناك ، بالفرنسية « الحوليات » التى كتبها جان فرواسار عن فرسان فرنسا وإنجلترا فى حرب المائة عام . وهناك ، بالانجليزية «قصص كانتربرى» تلك التى وضعها جيوفرى تشوسر والتى سبق الكلام عنها .

وقد طويت فى مكتبات بعض الأديرة كتب قديمة كتبت باللغتين الأنجلوسكسونية وبالفرنسية القديمة اللتين لم يقرأهما أحد . وهناك براءات (رخص) وقوانين أنجلوسكسونية قديمة كانت مخبأة فى علب وصناديق من الخشب البلوط (القرو) . ونحن نعرف تلك الأشياء الآن . أما هل

---

(١) الكوميديا .

(٢) المطهر (بفتح وسكون) مكان تطهر فيه أنفس الأبرار بعد موتهم قبل دخولهم الجنة.

استطاع أي راهب أو كاهن محب للاستطلاع أن يقرأها أو هل اهتم بها أى امرىء على الأطلاق فى ذلك الوقت ، فهذا ما لا علم لنا به .

المزارعون :

ومن سائر حجاج تشوسر يمكننا أن نكون ثلاث مجموعات: (١) الفلاح والطحان والعمدة (٢) راعى الكنيسة والناسك والراهب وبائع الغفران ومحضر المحكمة الكنيسية (٣) النوتى .

لقد كفل الفلاح للعالم أجمع البقاء . عاش فى كوخ ذى إطار من خشب مرقع بالأغصان المضفورة والطين مسقوف بالقش أو البوص . كان يطعم على الخبز الخشن ولحم الخنزير المقدد والزبد والجبن والعسل الأبيض والمذر (وهو شراب يشبه الجعة أو البيرة) والفاكهة والمكسرات ، وكلها من إنتاج أسرته أو مجاوريه . وكان لباسه من صوف ينسجه النساء فى البيت ، ومداسه من صوف أو جلد يصنع فى البيت . كان يلبس المشلح (ويشبه ثياب السيدات) . والقدر من الضوء الذى كان يحتاج إليه مبعثه سمار الحصر تحشر فى مصباح . أما قناديل الزيت وأما الشمع فكان ترفاً . وكان مسكنه ذو الغرفة المفردة يؤوى بهائمه وغنمه فى أيام الشتاء القارسة الموجعة ، هذا بعد تثبيت عارضةٍ عبر الكوخ . وكان سريره صندوقاً خشبياً يمتلىء بالقش . وكان دخان نار الخشب الدائم الاحتراق — المنبعث من المدفأة التى تتوسط كل بيت — يتسرب من ثقب فى السقف .

وكان التعاون بين أهل القرية بالغاً مداه سواء فى الفلاحة وتبادل السلع والعمل . فكان أمراً محتوماً أن يوجد فى القرية الواحدة أو فى القرية التى يجاورها : الحداد والنجار والحذاء والنساج والطحان . وكل أولئك يدين بالطاعة لسيد الضيعة . وكان هذا يعيش فى إيوانه الخشبى المكون من حجرتين أو ثلاث تتبعه عن كثب منه : الأنبار ومبانى الـ (دوار) .

وإذا كان سيد الضيعة غنياً جاز — بطبيعة الحال — أن يعيش فى حصن أو فى بيت ضيعة محصنة ومبنى بالحجر والقرميد. وكان كل القرويين يدفعون الأتاوات بالعمل له أو بتقديم الغلال والبيض والسمك والشهد وما إلى ذلك أو بالأمرين معاً . ومن الجائز قطعاً أن يكون سيد الضيعة رئيس دير . وفى تلك الحالة يسلم العمل والمدفوعات إلى وكيله المكلف بإدارة أراضى الدير.

وكان من دواعى راحة الجميع أن يقسم العمل تقسيماً أتده حسن الإدراك، فواحد يعنى بالخنازير فى الغابات ، وثان يلتفت إلى الماشية ، وثالث يرعى الغنم . وكان لكل فلاح أن يرسل سائمته وشياته ترتع فى الأرض العامة وخنازيره فى الغابات وأن يحتطب حتى يستكفى . وكان خير أصدقائه — الثيران — يحملون أثقاله ، وهى صغيرة وبطيئة وصابرة . وقد درجوا — عند الحرث — على أن يستخدموا ثمانية منها تشد معاً إلى أنيار (جمع نير) ، كل بهيمتين تساق بمنخس يستحثها .

وكان الحصان ينقل الناس إلى الحرب والحج ، وإنه لحيوان نبيل . وأمسى من يجيد ركوبه سيد أقرانه ، لأنه يعد فارساً . ولقد كست الغنم الناس وقدمت عملاً دائماً للنساجين وأمدت تجار الصوف بالثراء. أما الثور الصغير الأعجف البادى العظام فكان واسطة كسب العيش ، إذ أنه لم يكد ينقطع عن العمل تحت النير عبر الفدادين وصاحبه يرشده ويستحثه . وهو خير أصدقاء الفلاح يجر له المحراث ويجرف له بالزحافة منذ قرون ويساعد فى تشكيل الأرض . « وماذا يجنى من كل تلك المدرات الطينية التى يقلبها بسكين محراثه رأساً على عقب ؟ » . كتبت تلك الكلمات فى القرن الأول قبل الميلاد بيد الشاعر الرومانى فيرجيل وفى وسعنا أن نجيب عن السؤال بتسميته « أخانا الثور » وبذكره مع عرفان فضله .

كان لأهل القرية ثوران أو ثلاثة تعمل معاً فى الحرث . وكانت أراضيهم

مقسمة إلى رقع مفردة ، كل منها (إيكر) عرضه ٢٢ ياردة وطوله ٢٢٠ ، وقد دأبوا على نظام « الأرض المراحة » . فكانت تلك الرقع تقسّم إلى ثلاثة « حقول » . ولم يكن الحقل فى تلك الأيام رقعة صغيره مسورة بل كان رقعة عريضة من الأرض العراء فكانوا ، فى كل عام ، يتركون منها حقلاً يستريح ويستخدم لرعى السائمة ويستعيد خصبة . وربما ملك كل فلاح نحواً من ثلاثين رقعة مبعثرة بين رقع رفاقه ، وبذلك يأخذ كل منهم نصيبه من الأراضى الطيبة والضعيفة .

وفى الصيف كانت الحياة بهيجة بقدر كاف أما فى الشتاء فنظراً إلى قلة الطعام الطازج وإلى شح أنواع الخضر الكثيرة التى نزرعها اليوم كانت الحياة يكتنفها الضيق ، إذ كانت الماشية عرضة للموت بنسبه كبيرة بسبب قلة العلف . وكذلك كان إنتشار المرض كثير الاحتمال كما أن شبوب الحرائق كان كثير الاحتمال أيضا . وإذا تصادف أن ساء الجو فى أى فصل من فصول السنة وأن شح المحصول ، تعرضت البلاد للمجاعة .

أما عن الآنية فكان القرويون يستعملون صحافاً (أى قصاعاً) خشبية وفخاراً خشناً ومُدى وقروناً للشرب . وأما عن الأثاث فقد استخدموا الكراسى غير المسندة والمناضد الخشنة . وكانت المهارة الزراعية تظهر فى الحرث والبذر وتمهيد الأرض وتكسير مدراتها بالمطارق وفى ضم المحصول ودق الحنطة وغربلتها وتخزينها وطحنها لتحويلها إلى دقيق . وكانت المهارة تبدو كذلك فى تسقيف البيوت بالغاب وإقامة السياجات وفلق القصب والخشب لصنع الحواجز المتشابكة والحصد بالمنجل وجز الغنم وتقطيع الأشجار وتشذيبها بالمقشرة (أى القدوم) . وكان فى الأديرة والمدائن رجال يصنعون الدروع المزرودة ويصوغون الجواهر والميناء (وهو طلاء خزفى ثمين) والخواتم والمحابك (البوكلات) ومشابك الصدر (بروش) ومقابض السيوف وينقشون على الخشب والحجر . وكان صنع الخبز والبيرة ودبغ

الجلود والطحن والنسج والحدادة من المهن الشائعة ، وكان بعضهم يصنع السلال ويجدل الثمار حيث يكسو شجر الصفصاف مجارى الماء أو حيث ينمو فى المروج التى تغزو المياه فوق أراضيها . وكان سكان الأباطح يقضون أوقاتهم فى تربية الدواجن ، كما أنهم تعلموا كيف يكدسون البيط (المكون من المواد النباتية القديمة المتحجرة) ليتخذوه وقوداً . وقد استخرج بعضهم الحديد من غابة (دين) ومرج سسكس ، والرصاص من ديربى شير وتلال منديب ، والصفيح من كورنوول . وكان العمال يجمعون الملح من آبار الماء الأجاج فى تشيشير وينقلونه عبر الريف فوق ظهور الخيل على طول الدروب التى أطلق عليها اسم « دروب الملح » . وفى الغابات المنبثة بكثرة كان حذاقو الفحم الخشبى يقومون بمباشرة فنهم الفذ العجيب وذلك بتكديس أكوام لا حصر لها من الغصون ويغطونها بمدر من الطين ويمضون أياماً كثيرة فى تحويلها — على مهل — إلى فحم بحيث يمتنع خطر أى انبجاس للهب . وقد درجوا على أن يقيموا لأنفسهم من الغصون أكواخاً صغيرة تكاد تماثل تلك التى كانت تقام فى العصور الحجرية .

ولقد كانت الأديرة الكبيرة — لدى البسطاء من الناس فى كل الكفور تقريباً — بيوتاً للمحبة والعون . أما لدى غيرهم فى سائر البقاع فكان الشاهد الوحيد على الديانة المسيحية هو كنيسة الأبروشية ، وفيها كان القسيس يبارك الخبز والنبيذ فى القداس ، ويتزوج الناس ويعمدون أطفالهم فى حوض المعمودية ، وإلى جوارها يرقد آباؤهم وأمهاتهم فى مقبرة الكنيسة « أرض الله » . ولقد بقى — بعد الوثنية — بعض مخلفاتها الأثرية كالتعاويذ والرقى والتمائم السحرية التى يبيعها الباعة المتجولون ، وكإيقاد مشاعل الزينة فى عشية سنت جون ، وكالاعتقاد فى الساحرات والعفاريت . أما الكنائس فكانت مراكز الحياة الريفية . ففيها كان يحتفل بالأعياد تقدم فيها — بوفرة — الفطائر والجعة . وكان الغلمان المجدون يتلقون العلوم والآداب ، جالسين فى

السقيفة إلى جوار القسيس . وكان القسيس الطيب – مثل قسيس تشوسر – زعيم قومه ومطمئن قلوبهم .

ولقد كان أولئك الفلاحون أميين لا يعرفون شيئاً عن التاريخ والجغرافيا ، ويعيشون حياة خشنة . فكان القسيس يقص عليهم قصة عيسى الذي ولدته مريم في الناصرة ، وهي قصة طفل فقير ولد في مذود (أي طوالة) وأضحى واعظاً طوافاً يحكي حكايات رمزية عن بعض الزراع وعن أناس وقعوا بين اللصوص وعن مزارع الكروم وحفلات الزواج وعن وكلاء خراج ظلمة وعن الخبز والخميرة والحصاد والرعاة وعن أبناء ضالين وبعض زارعي الكروم . فإذا أصغوا إليه فهموا تلك المسائل على طريقتهم ، تبعاً للحوادث اليومية البسيطة التي تقع في حياتهم الخاصة .

الكنيسة :

كانت الكنيسة مركز حياة الكافة ، وكانوا يدفعون لها الضرائب أو « العشور » ، غلالاً في بعض الأحيان . وما زلنا نرى ، إلى الآن ، الأنبار الفسيحة الأرجاء التي كانت الغلال تخزن فيها . وكانت هنالك محاكم كنسية تنظر في أمر غرق السفن أو تحطيمها وفي النزاع على الوصايا والزواج . وقد درجت الكنيسة على استخدام بعض ذوي المقدرة من القانونيين والكهنة ليباشروا اختصاصات الملك ، كما أن الغالبية العظمى من وزراء الملوك في القرون الوسطى كانت من الأساقفة . ودرج الناس على أن يحجوا روما وبيت المقدس ومزارات : سنت جيمس في كومبوستلا بأسبانيا ، وسنت توماس بيكت في كانتربري ، والعذراء في والسنجهام بنورفولك . وكانت الكنيسة – بالنسبة لحياة الناس الخاصة – مرشدهم وسكينة قلوبهم . وربما تخالبهم قوى الشر ، فينصت القديسون لصلواتهم وتصير نفوس الصالحين بين يدي الله . وكان كل أمرىء – إذا جاء أجله – يطمع في أن يسمع صوت القسيس يقيم صلاة السر المقدس . فكان القادرون

منهم يتركون للقساوسة مالا ليقيموا قداساً لإسعاد أرواحهم. على أن تلك القداسات كان يقوم بها يومياً ، فى الأبروشيات والكنائس ، قساوسة خاصون بالصلاة على أرواح الموتى .

وبسبب حيـــاة الدين المسيحى تلك ، أقيمت الأبروشيات والمبانى الكبيرة للأديرة .

وقد حل عقد الرومانيين المقوس مشكلة تسقيف الفتحة الواسعة فى أعلى البناء . ونال هذا الحل تقدماً فى قبة أو فى قبو كنائس الإمبراطور جستينيان وبخاصة فى كنيسته المدهشة ، كنيسة الحكمة المقدسة . وبعد هذا أخذت كنائس الغرب الكبرى تبنى على الطراز الرومانى أى أنها أقيمت من صفوف طويلة من العقود المستديرة تحمل سقفاً مقبوا مستديراً . وقد بنى كثير من أديرة إيطاليا وبلاد الراين على هذا الطراز ، الذى استخدمه النورمانديون ، وأهم ما يميزه العظمة والضخامة .

وإن تأثير ما نسميه بـ « الطراز القوطى» ليعدله فى العظمة ولكن مع مزيد من الروعة . وقد استخدم هذا الطراز — أول ما استخدم — فى كنيسة سان دينى بباريس عام ١١٤٠ . وتمكننا رؤيته اليوم — على سبيل المثال لا الحصر — فى سنت شابل أى (المصلى المقدسة) بباريس وفى أبروشيات أورفيتو وشارتر ووستمنستر أبى وسولسبورى ، وقد أكثر البانون من العقود المدببة التى ترتفع من كل عمود على هيئة تحاكى العناقيد وتنتشر وتتقاطع على شكل صليب لتشكل هيكلاً من الأضلاع الحجرية ترتكز عليها تربيعات السقف الحجرية . وكانت جوانب الأقبية الضخمة ، المكونة من المنقوشات الحجرية الرشيقة ، تثقب فيها نوافذ من الزجاج الملون . فأمست فى جملتها تشبه قفصاً حجرياً ذا أشرطة من الزجاج الملون معلقة فى الفضاء كالمصباح المدهش المرصع » . وبدلا عن الركائز أو الدعامات الراسخة القديمة المقامة خارج جدرانها أخذت المبانى القوطية الطراز تستخدم

الدعامات الطائرة (أى : الخالصة الحرة) ولقد كان مجموع العمل ، الذى أنجزه البناءون المجدون ورجالهم ، بالغ الضخامة . ذلك أن كل حجر ، على حده ، كان يلزم قياسه وتشذيبه ودفعه إلى مكانه ، فوجب رفع مئآت الأطنان إلى علو كبير وموازنته فى مهارة فوق تلك العمد الرشيقة والجدران ، كما تحتم تشغيل عدد كبير من الصناع المهرة الآخر قبل أن يبلغ العمل نهايته ، كما اقتضت الحال ايضا استدعاء الفنيين على اختلاف فنونهم لزخرفته .

ونقشت قصة المسيح على الحجر ورسمت على الجدران ووضحت فى الشبابيك الملونة . وقد نقش البناءون نقوشاً أنيقة ـ كرءوس ووجوه ودواب وملائكة وشياطين — وذلك فى أطراف الحجارة التى يتصادف بروزها من الجدران. وكانوا يخطون السقائف الغربية بتماثيل للأنبياء والقسيسين والملوك والملكات والقديسين والبطارقة بل بمشهد كامل ليوم الحشر . بل إن الدعائم كانت تحمل قباباً مستطيلة مرتفعة مزينة بنقوش ، وكانت بها فجوات لتماثيل القديسين . ولقد قدم النجارون وقاطعو الزجاج والحدادون والنقاشون والنساجون وصائغو الذهب وصائغو الفضة ، قدم كل أولئك خير ما فى مقدورهم من عمل ، إذ كان أهم هدف لأية مهنة هو زخرفة الأبنية . وكانت الحجب الخشبية المنقوشة وكراسى المرتلين غير المسندة ، والظلل والحجرية المحلاة كما قد تحلى الـ (دنتلة)، والقضبان والبوابات المصنوعة من الحديد المشغول ، والطنافس المزركشة بالزاهى من الألوان الذهبية والأرجوانية والخضراء والزرقاء ، والأوانى الفضية والمذهبة ، والصور والنماذج الملونة الماثلة فوق الجدران — ينير عليها جميعاً الضوء السهل المستمد من مجموعة كبيرة من الشمع — كان كل هذا يوحى للناس بمعنى لديهم غامض رهيب . وكثيراً ما كان وقع أقدامهم يطلب إسكاته ليحل محله الحفيف الصادر عن العصائب الجافة — من خضراء ورمادية — التى تنتثر على الحجارة .

وكان القداس يقام فى كل يوم ويحضره الملوك والأمراء ، وقد تطور

معنى كلمة « القــــداس » حتى أصبح معناه توقيتاً يومياً معيناً ، كما يعنى السر المقدس .

وكان الغناء — الذى يصاحبه الأرغن — غناء بسيطاً تتبع إيقاعاته اتزان الألفاظ اللاتينية . وكان يبدأ بفاصل غنائى يشترك فيه مغنيان أو أكثر ولكن ليس على (نوتات) موحدة . وقد ابتدع إنجليزى — اسمه جون دانستابول — فن كتابة طبقات لأصوات مختلفة تغنى على (نوتات) مختلفة وتتحرك بحيث يستقل كل منها عن ما عداه ، وبتطور هذا ، نشأت موسيقانا الحديثة وفى أواخر القرون الوسطى تطورت الموسيقى فى سرعة بالغة . والواقع أن هولاندياً كتب نشيداً بـ ٣٦ طبقة من الأصوات .

البحارة والرحالة

ليس هناك أدنى شك فى أن البحارة كان لهم — على ظهر القالة المائية موديلين — أسلوب فى الغناء يختلف كل الاختلاف عن أسلوب غيرهم . فلقد كان البحارة دواماً من الناس الذين يجيدون الغناء ،ولم يخالفهم فى ذلك بحارة دارتموث فى عهد تشوسر وكان بحارة الأقاليم الغربية من أكثر البحارة جسارة . فلقد كان بحار تشوسر فتى شجاعاً كأهل بلده .وذاك الفتى هو هارى بأى الذى ذهب بوازع من نفسه ليحارب ملك أسبانيا .

وهنالك مجموعة من البلدان تستحق أن ينوه بها فى صدد السفن والبحارة هى الموانىء الخمس، وكانت تلك: دوفر ، دومنى ، ساندوتش ، هيستنجس، هيث . وقد أضيفت إليها فيما بعد . ونتشلسى، راى . وكان على تلك البلدان أن تعدّ سفناً تحمل كل منها طاقم بحارة كامل لبحرية الملك . وكانت الموانى الخمس بالغة الأهمية إلى حد أن أقيم لها محاكم خاصة تقتص من اللصوص وسفاكى الدماء وتفرض ضرائب لتقام بها حواجز الماء . فإذا بذلت جهدها على أكمل وجه وسعها أن تبنى ٥٧ سفينة قوامها ١٣٠٠ بحار . وكانت السفن

تصنع من شجر البلوط (الأرو) وهى من نوع الىقالة المائة ذات السارية (الصارى) الواحدة والشراع الواحد . فإذا قامت حرب جهزت ببرج أمامى وبرج خلفى وبمرقب حربى فى أعلى ساريتها . وكانت مساحاتها تحصى بالدنان (البراميل) أى بعدد دنان نبيذ بوردو التى يسعها حمله . وكانت تلك هى السفن التى طليت وخفقت فوقها رايات الشعار المثلثة وحملت الملكين الإنجليزيين ، إدوارد الثالث وهنرى الخامس ومن لاذ بهما من فرسان ونبالة ، وعبرت بهما إلى نورمنديا .

وكان أولئك جميعاً من أهل الجزر . وكانت أعظم الدول البحرية فى القرون الوسطى ، البندقية والتجار الألمان فى العصبة الهنسية (مجمع دولى للتجار) .

ولقد حارب تجار البندقية الأتراك كما بادلوهم التجارة . فاشتروا الفراء والقنب (نبات الحشيش) والسجاجيد والحرير والجواهر والمعادن الثمينة والبن والسكر والتوابل والعقاقير من تجار البحر الأسود اليونانيين ومن التجار العرب فى مصر وسوريا . وفى الناحية الغربية أبحرت غلاييهم — ذوات الساريات العالية — إلى مياه سوذامپتن والتيمز لتقايض على بضائعها بأصواف إنجليزية وإهاب (جلود حيوانية غير مدبوغة) وصفيح وقد وصلت شبكة تجارتهم الغنية من البندقية — بالبر ، عبر ممرات الألب — إلى مدائن جنوب ألمانيا . وإلى بلاد الراين وفى الطريق كان على الأفاويه (أى التوابل) الغالية أن تدفع ضرائب لكثيرين من البارونات اللصوص الذين كانت معاقلهم تعبس منحدرة من قمة تل إلى ارتفاع هو قاب قوس فوق الطريق العامة التى يمر على طولها رتل من الخيل المحملة . ولا عجب إذا ارتفعت أثمان التوابل الشرقية ارتفاعاً كبيراً فى أسواق أنتورب (أنفرس) أوكولونيا أو باريس أو لندن .

وفى الناحية الشرقية كانت تجارة البندقية تصل عبر البحر — بحر الدنيا القديمة الكبير — إلى أراضى الشرق القديم الفسيحة وإلى البحر الأحمر عبر وادى مصر . وكانت قوافل الجمال والحمير والخيل تسافر عبر جبال آسيا وسهولها ، وكانت السفن العربية تسبح مسرعة أمام رياح البحر الأحمر الموسمية ، وبذلك استطاعت أن تبلغ الهند وجزائر الهند الشرقية بل موانى البلاد الصينية التى تشبه الخرافة . ولا شك فى أن نفراً قليلا من المسيحيين المجازفين قد ارتحلوا إلى تلك البلاد الغريبة الشاذة .

ولقد وصلت إلى علمنا معلومات عن رهبان ذهبوا إلى التتار فى مهمة تبشيرية . ذهب أولهم فى سنة ١٢٥٠ بعد أن أسس سنت فرانسيس جمعيته «صغار الأخوة» بوقت غير طويل جداً . وبين ١٢٥٠ و ١٣٥٠ شق أولئك المجازفون الجسورون طريقهم ، باسم المسيح ، عبر السهل الموحش — الذى يغطيه الثلج — ليعيشوا مع فرسان التتر ورعاتهم . وكثيراً ما ركبوا ثلاثة أيام متتابعة دون أن يروا إنساناً واحداً . وكانوا ينامون فى العراء أو فى أكواخ حقيره ، ويعيشون على الضأن المسلوق ومرق الضأن ، ويشربون لبن الحِجْر (أى أنثى الخيل) المختمر . وقد وصل أحدهم — بعد أن ركب ٥٠٠٠ ميل — إلى بلاط الخان (الأمير) الأكبر فى كاراكورام حيث يسكر كل امرىء ، فى وقت بالغ القصر ، من خمر مصنوع من الأرز وحيث وجد ، لشدة دهشته ، صائغ فضة من باريس وهو ماستر وليم الذى سبق أسره فى حملة تتارية والذى كان يشتغل عندئذ بصياغة الفضة للخان الأكبر ! وبعد ذلك بوقت ما وصل إلى الصين نفسها عن طريق الخليج الفارسى رهبان ممن نعرف أخبار رحلاتهم ، ووجدوا رهباناً فى الشرق الأقصى بل فى بكين ، فى بلاط قبلاى خان .

وخير حكاية عرفت هى تلك التى تحدثنا عن رحلات تاجرين من البندقية لقبهما : آل پولو : بدأ نيقولا وأخوه مافيو رحلتهما عام ١٢٦٠ ،

وقد تعلما كيف يتكلمان لغة التتار ويتوددان إلى قبلاى خان الذى أرجعهما لكى يعودا بمائة من القساوسة المسيحيين ، وهذا لم يعد بطائل ولكنهما رجعا إلى الصين بالابن الصغير لنيقولا : ماركو بولو ، وقد تسلق ثلاثتهم إلى « سقف الدنيا » (هضبات پامير وهضاب التبت العالية) وبلغوا بلاط قبلاى خان بعد رحلة دامت ثلاثة أعوام ونصف .

حدث هذا فى سنة ١٢٧٥ ، وحظى ماركو وأبوه وعمه برعاية التتار وقاموا برحلات فى أنحاء الشرق كافةً بوصفهم سفراء الخان . وعادوا إلى وطنهم يحملون رقاعاً ذهبية ، أى جوازات سفر ، تيسر أمور رحلتهم عبر آسيا ، ووصلوا إلى البندقية فى سنة ١٢٨٥ بطريق البحر إلى جاوه ثم إلى الخليج الفارسى . ولم يصدق أحد حكايتهم حتى شقوا جلود ضأنهم التترية وسقطت منها ، متناثرةً ، يواقيت حمراء وزرقاء . وأخيراً أنبأهم ماركو بحكايته التى أصبحت واحداً من أروع كتب الرحلات فى كل العصور .

ونحن أسعد حظاً من الناس الذين عاشوا فى عصر ماركو بولو أو عصر تشوسر إذ أننا جميعاً نستطيع أن نقرأ كتابه . وما الناس الذين استطاعوا قراءته عندئذ غير أولئك الذين أسعدهم الحظ إلى درجة استطاعوا معها أن يحصلوا على نسخة خطية منه .

ولنعد إلى البندقية مدينة القصور الرخامية ، تلك المدينة التى اجتاز دوجها أو دوقها الاحتفال بتزويج مدينته إلى البحر وذلك بألقاء خاتم فيه . ولقد كانت البندقية تحصى سفنها بالمئات ، وفيها الجروم (أى الزوارق الكبيرة) والجالصات (وهى ضرب من السفن الكبيرة) والغلايين وببأس تلك السفن كانت (البندقية) سيدة البحر الأبيض المتوسط المزهوة . وكان يحكمها تجارها . وقد حكمت أكثر من عشر مدن فى شمال إيطاليا ، هذا إلى احتفاظها بمستعمرات فى الجزر اليونانية . وكان أبناؤها أغنياء أسخياء يلبسون

أفخر الملابس ، ومبانيها مزخرفة بالتماثيل البرونزية وبالفسيفساء وأنواع الرخام الزاهية الألوان وبالحجر السماقى (البورفيرى) . لقد كانت (البندقية) مدينة قنوات وبحيرات ضحلة « بولغ فى تجميلها وسط البحر » كمدينة صور القديمة . وتقارير سفرائها — الذين مثلوها لدى جميع الأمراء والملوك الأجانب — ماثلة بين أحسن مسجلاتنا التاريخية .

وقد عرف البحار الذى وصفه تشوسر سفائنهم كما عرف جيداً البحارة الشماليين للبلاد الهنسية ، وكانوا زملاء من التجار يعيشون فى بلاد الراين ومدائن بحر البلطيق . وكان أولئك الناس يتاجرون فى الأخشاب والفراء المجلوبة من بلاد الشتاء الشمالية وفى السمك المملح والمقدد (البكلاه) وفى النحاس السويدى والمصنوعات الصوفية ، وكانوا — كأهل فينيقيا — يشتغلون بأعمال البنوك ويقرضون ملوكاً ، مثل إدوارد الثالث فى إنجلترا ، مالاً كان يعوزه ليغزو فرنسا . وكانوا يحتفظون بـ « وكالات تجارية » أو فروع محصنة فى المدائن الأجنبية حيث كان ممثلوهم يعيشون عيشة تقرب من عيشة الرهبان ذات النظم المتزمتة التى تقفل الأبواب فى وجوه جميع الأغراب . وفى لندن — حيث كانت وكالتهم التجارية تسمى بالميزان الرومانى (أى القبانى) — كانوا يعرفون بأهل المشرق .

ومثلما كان أهل البندقية يعرفون خصوم النصرانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط كان البحارة والتجار الهنسيون يعرفون أهل سهول البحر البلطيق الوثنيين حيث حاربت جماعات الصليبيين الألمانية — فرسان التيوتون أو فرسان السيف — البروسيين المتوحشين ، واستولوا على أراضيهم .

وقد غيرت الحروب الصليبية ومخاطرات رجال البحر مصاير المسيحية الغربية فى خلال القرن الذى تلا عهد تشوسر وهو أكبر قرن للمغامرات والاستكشافات ولرجال الحروب الصليبية والبحر ، ألا وهو القرن الخامس .

حروب الصليب :

شبت حروب الصليب فى كل من طرفى البحر الأبيض المتوسط : فى أسبانيا وفى أقطار الإمبراطورية اليونانية . ولم يفلح صليبيو الغرب قط فى استرداد شبر واحد من فلسطين بعد إخفاق الحرب الصليبية الثالثة التى شارك فيها رتشارد قلب الأسد . فلقد أخذت قوة المسلمين تزداد فى نموها وفى تهديدها للإمبراطورية اليونانية . وانتهى كل بأس الملوك والفرسان المسيحيين وكل جراحهم وآلامهم إلى لاشىء لأنهم تنازعوا فيما بينهم ولأنهم أعوزهم المدد من بلادهم . وتعب رجال الممالك الغربية وانصرفوا عن الاهتمام إذ كان لديهم ما يشغلهم عن الحرب ، ولم يكن الخطر يتهدد تخومهم .

وعلى خلاف ذلك : فى كل وقت الخطر ذاك ، من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر ، لم يكن للأسبان حاجة بالرحيل إلى الخارج ليشاركوا فى الحروب الصليبية ، إذ أن الحرب — فى ذاك الوقت جميعاً — كانت على أبوابهم . ذلك أنهم كانوا يحاربون المسلمين بغية استرداد أراضيهم .

وفى القرن الخامس عشر كان الخطر قاب قوسين من قلب الأملاك المستقلة للإمبراطور اليونانى فى القسطنطينية .

وانتهى الأمر إلى أن المسلمين فتحوا كل آسيا الصغرى ، وعندئذ اعتنق أهل آسيا الصغرى الإسلام ، وهكذا ظلوا إلى وقتنا هذا .

وعبر الأتراك إلى أوربا وركبوا عبر البلقان وبلغوا نهر الدانوب العظيم . وانضوت الشعوب المسيحية ، من رعاة وفلاحين وجبليين ، تحت إمرة أمرائهم ليحاربوا للصليب . فكافح السربيون والألبانيون والمنجاريون (المجريون) والبولنديون ليصدوا الفاتحين ولكنهم أخفقوا . وحاول الكثيرون من الغرب أن يؤلبوا الملوك والأمراء ورجال الكنيسة ليبذلوا جهداً جديداً فى حرب صليبية ختامية ، ولكن أحداً لم يتحرك لأن الملوك والأمراء كانوا منصرفين كل الانصراف إلى محاربة بعضهم البعض .

نهاية القسطنطينية :

أرسى چون چستينيانى — وهو نبيل من چنوا وجندى ذائع الصيت — سفينتيه فى ميناء القسطنطينية فى يناير من سنة ١٤٥٣ . والتحق — ومعه رجاله السبعمائة الحسنو التسليح المدججون بدروع نحاسية على صدورهم — التحقوا بحماتها الذين كانوا يدافعون عن أسوارها ضد الأتراك . وقد سبقهم إلى هناك بعض نبلاء البندقية وجنودها . واتخذ إمبراطور الإغريق ، اتخذ هذا ، چون چستينيانى قائداً عاماً له .

وكان الرجال المتعبون — الذين وقفوا بأسلحتهم على طول أسوار المدينة — يحسبون هذا الوضع جزءاً من حرب لانهائية . فلقد استمرت منذ قرون وبدا كأنها سوف تعمر أبداً . وكان أولئك تسعة الآلاف من الجنود المسيحيين — من أهل اليونان وچنوا والبندقية — يقاومون جيشاً ضخماً قوامه سبعون ألفاً من الأتراك . ومن ورائهم فى تلك المدينة الغنية الواقعة على البوسفور قامت هناك خزائن فنية وعلمية تجمعت فى ألف عام: صروح ريفية ، كنائس ، قصور . مكتبات ، تماثيل ، نقوش ، فسيفساء . وكانت الكنائس تغص بالناس يصلون للخلاص من الغزاة بمعجزة سماوية.

وكانت الأسوار ضخمة ولكنها قديمة . فلما أطلق المدفع التركى الضخم « قاهر المدن » اهتزت الأرض وملأ هدير الغلبة الجو وأرسل قنطار من الأكر الحجرية التى أطلقتها المدافع فهشم الدير العتيق الذى خر من وقع الصدمة الكبرى. وقد غص السهل الأمامى بحشود من آسيا . ولم يكن أولئك فلاحين خشنين وخيالة قطريين ، ليس غير ، بل لقد كانوا أيضاً جنوداً مهرة شجعاناً حسنى التنظيم . وصد المسيحيون الهجمة تلو الهجمة ، وقاوموا غزاوت خيالة الباشبوزوق الآسيويين الأشداء وفرق الأنكشارية المنتخبة التى أرسلت تحت بصر سلطانها وأمرت أن تتسلق الجدران أو تهلك دون ذلك .

وكان الأتراك قد أخذوا يهددون المدينة فى خريف ١٤٥٢ ، وقد حل مايو . ومع ذلك بدأت أيام القلق تمر ، وترقبت جنود چستينيانى وانتظرت وحاربت . ولم يبدُ أن أمم الغرب المسيحية ترسل مدداً . وحارب أولئك اليونانيون وحلفاؤهم القليلون ، حاربوا وحدهم فى ذلك الربيع المخيف ربيع عام ١٤٥٣ .

وقد وقفت المدينة كأنها جزيرة فى بحر من الأعداء وقفت المدينة الإغريقية المسيحية . . ووقف للدفاع عنها تسعمائة رجل أغلبهم من اليونان تساعدهم حفنة من أهل البندقية وچنوا . وقفوا مسلحين فى هذا التنازع الذى اشتدت وطأته على العالم المسيحى والذى سبق أن شطره قبل ذلك بسبعمائة عام .

وهكذا فتحت المدافع التركية نيرانها ، وهزت العصفة الأسوار ، وهجم جنود السلطان مغيرين ، وطار جزء من البناء فانفتحت فتحة إلى جوار أحد المداخل . ومع هذا صمد اليونانيون والبندقيون . ثم سَربَ بعض الأتراك خفيةً من المداخل الخلفية ودلفوا وراء المدافعين . وما هو إلا قليل حتى رؤيت على الحوائط قواويق (مفردها : قاووق) الأنكشارية الطويلة المصنوعة من اللباد وتسلقت جماعات كبيرة من الجنود الأتراك جثث موتى رفقائهم وتدفقوا إلى مشارف المدينة وجرح چستينيانى وبرّح به الألم فاعتزل فى إحدى سفائنه حيث مات متأثراً بجراحه .

وركب آخر الأباطرة — قسطنطين باليولوجاس مدججاً بسلاحه ، ومعه شرذمة من رفاقه المتحاربين — ودخل من الفجوة التى فتحت فى المدخل وهناك مات وهو يحارب شرذمة من الأتراك وكانت النهاية الحزينة التى تليق بالقصة الطويلة لقياصرة روما وأباطرتها أن آخرهم لم يعش بعد زوال الإمبراطورية .

واحتشد سكان المدينة — بين اللجب والجلبة — على طول الجبهة المائية ليهربوا بطريق البحر . ولكن قليلين هم الذين استقلوا الزوارق الإيطالية الكبيرة ، وكان الأسرى كثيرى العدد .

وركب محمد الفاتح — أمير المؤمنين — يجتاز الشوارع حتى بلغ كنيسة الحكمة المقدسة ، البديعة (أيا صوفيا) وهناك أمر بخطيب المسجد فصعد على المنبر — الذى ظل أسقف القسطنطينية يعظ منه مئات السنين — ونادى المؤمنين للصلاة . وكان المؤمنون عندئذ هم الأتراك الذين حاربوا وانتصروا ثم استحثوا الخطى ليستمعوا ، بلغة أخرى ، إلى الشهادتين « أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

ولقد كان السلطان نفسه رجلاً عالى التهذيب ، وقد تأثر بعد فتح تلك المدينة الذائعة الصيت . وعندما رأى قصر الإمبراطور المتوفى ، وقد أصابه ما أصابه ، توقف هنيهة ثم استشهد ببيت شعر فحواه : « لقد نسج العنكبوت نسيجه فى القصر الإمبراطورى ، ونعقت البومة على أبراجه بأغنيتها الساهرة . »

وهكذا سقطت القسطنطينية وصار اسمها الآن « استنبول » وأصبحت فى حوزة الأتراك غير أن الحرب استمرت . فقد احتفظ أهل البندقية بأجرامهم الحربية فى البحر ، واستولى فرسان سنت چون — ومقرهم بيت المقدس — على جزيرة رودس لتصبح حصناً بحرياً . وأبقى الخيالة الهنجاريون والبولنديون والسربيون الجبليون ، أبقوا الأتراك جنوبى الدانوب .

ورفرفت راية الإسلام على الأراضى القديمة — مصر ، فلسطين ، آسيا الصغرى ، بلاد اليونان الحالية — رفرفت عليها راية الإسلام الخضراء وبقيت — بعد ذلك ، على هـــذه الحال — طوال الأربعمائة من الأعوام التى تلت .

سقوط غرناطة فى أسپانيا :

غير أن المسيحيين انتصروا فى أسپانيا . فقد استولى ملوك قشتالة وأراجون على إشبيلية وقرطبة فى القرن الثالث عشر . وفى وقت سقوط القسطنطينيه فى يد المسلمين لم يكن فى يد المغاربة غير مملكة غرناطة الصغيرة وهذه هاجمها واستولى عليها فى ١٤٩٢ الجيش المسيحى الكبير الذى ضم فرساناً من إنجلترا وفرنسا . وعندما فتحت أبواب غرناطة — لفرديناند ملك أرجوان وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة — رفعت راية الصليب فوق أعلى برج فى قصر الحمراء ورتلت تسبيحة الشكر « الحمد لك يا الله » .

ومن هذه الأحداث القديمة نبعت أشياء كثيرة تركت أثرها اليوم على العالم . ففى أسبانيا والبرتغال الآن أناس يجرى فى عروقهم الدم المغربى ولغتهم تحوى ألفاظاً كثيرة أصلها عربى . وأهم من هذه أن جنود شبه الجزيرة المسيحيين تملكتهم رغبة جامحة لنصرة الصليب وألهبتهم الحروب الصليبيه الطويلة الأمد ، فرفعوا راية الصليب على مسجد غرناطة . ولم يمض وقت طويل حتى رفعوها فى بلاد غير شبه الجزيرة ، تحت آفاق غريبة ، بعضها يبعد آلافاً من الأميال بطريق البحر .

الاتجاه صوب الجنوب :

عندما نظر سماكو البرتغال إلى الغرب والجنوب فوق أمواج الأطلنطى الطويلة كانوا واقفين على طرف من أطراف المعمورة . وهكذا كان صيادوا السمك الإيرلنديون الذين يسكنون شاطىء إيرلندا الغربى الموحش . وثمه طرف ثان من أطراف المعمورة فى كورنوول وثالث فى بريتانى ورابع فى أسپانيا . غير أنه كانت هنالك جزائر وراء مغرب الشمس ، أو هكذا قالت القصص بل كانت لها أسماء : أنتيلة . برازيل ، جزيرة سنت برندان ، جزيرة المدائن السبع ، جزائر شيپ (الغنم) وتلك كلها بعيدة فى الغربه

الأقصى عبر المياه . على أن الرجال الذين أبحروا بحثاً عنها جاءوا ولم يكن عندهم مايقصونه أو ربما يكون قد أخذهم المحيط إلى الأبد . وكان كل شاطيء الأطلنطى ، يقيناً ، آخر الدنيا المعروفة من جهة الغرب ، ووراء ذلك لم يوجد غير البحر الأجاج .

غير أن الجنوب كان له شأن آخر . فقد جاءت قصص غريبة مثيرة من الجنوب إلى صليبيي البرتغال الذين انتزعوا سبتة (أى « سوته » فى مراكش) من المراكشيين فى سنة ١٤١٥ .

وأنبأهم المغاربة عن أرض خضراء خصيبة فى غانا على مسافة بعيدة عبر الصحراء الكبرى حيث يسكن كثير من الناس على شاطيء نهر كبير (هو السنغال) . وكان ذلك النهر — حسبما قيل — فرعاً من نيل مصر المعروف . وكان فى وسع أولئك الذين يبلغونه أن يركبوا الشراع ويصلوا إلى الإمبراطورية المسيحية الغامضة التى كان يحكمها برسترجونس (حنا القس) . الذى كان قسيساً وملكاً والذى عاش فى الشرق خلف البقاع الإسلامية .

واستثارت تلك الأخبار أميراً غنياً قوياً . وكان هذا الأمير : هنرى البرتغالى أخا الملك ورئيس جماعة الصليبيين البرتغالية . وقر قرار الأمير هنرى على أن يستولى على غانا وأن يدخل أهلها فى دين المسيح وأن يحكمها بفرسان جماعته . وكان عنده مال يكفى ليستخدم رسامين للخرائط وفلكيين وعلماء من اليهود وليبنى سفناً ويقوم بنفقات الرحلات . وأرسل سفناً شراعية كبيرة تبحر على طول الشواطيء الإفريقية . وتحسس رجاله طريقهم جنوباً ، رحلة فرحلة ، إلى ما وراء الشواطيء الرملية القاحلة والصخور . وكانت كل مخاطرة تضيف النزر اليسير من المعلومات ينتفع بها فى المحاولة التالية . وكان التقدم بطيئاً .

وبعد سنوات من الجهد الشاق وصل رئيس تجارته إلى (نهر) ،

ريودى أورو الذى كان يبعد عن بلاده أكثر من ألف ميل . ولم تكن النتيجة سيئة بالقياس إلى صغر السفن المسقفة تسقيفاً نصفياً والتى يسع كل منها ثلاثين رجلاً روع أغلبهم الخوف من الحرارة القاتلة ومن أهوال البحر . ولا بد أن ليالى البحر كانت تملأ راكبيه رعباً .

وإلى هنا كانت الشواطىء عقيمة مجدبة ، صحراوية أو نصف صحراوية . ومع هذا أفلح البورتغاليون فى أن ينزلوا إلى البر ويقبضوا على بعض الزنوج ايرسلوهم إلى بلادهم ويبيعوهم عبيداً للعمل أو للفلاحة فى المزارع البرتغالية . ولقد أخذوا ، فى إحدى الرحلات فقط ، أكثر من مائتين من العبيد التاعسين .

وأخيراً ، فى سنة ١٤٤٥ ، وصل إلى نهر السنغال أسطول من ست سفن شراعية كبيرة تحمل راية الصليب ورأى غابة غانا الخضراء أو غينيا ، منطق أهل البرتغال . وقد جاءوا ببعض العبيد وبنبأ أنهم استكشفوا الطريق إلى برسترجونس (القس حنا) وحمل أسطول آخر مستعمرين إلى جزائر الأزورس (أو « الصقر ») . وما هو إلا القليل حتى أخذ رجال الأمير هنرى يرسلون إلى بلدهم العاج الإفريقى والتبر الغينى .

وعرف الأمير قبل وفاته فى سنة ١٤٦٠ ، أن أحلامه قد تحققت .

وعندئذ بدأ التجار يقومون بالعمل الذى كان يقوم به لأنه كان رابحاً . وسارت السفن أبعد وأبعد إلى الجنوب ، ومرت بشاطىء العاج ، ومرت بساحل الذهب ، ومرت بنهر النيجر ثم وصلت تحت آفاق جديدة إلى نهر الكنغو العظيم . وأسست موانىء فى غينيا لتصبح مراكز لتجارة الذهب والعاج والرقيق . وبقيت تلك الرحلات جميعاً سراً دفيناً ، وبذل أمض الجهد للحرص على ألا تقع الخرائط فى أيدى أمم أخرى .

وفى سنة ١٤٨٦ أقلع بارثولوميو دياز ماراً بالكنغو . ثم توقف ليتطلع صوب الجنوب ، أى أنه أقلع فى عرض الأطلنطى. وأدركته الرياح الغربية وردته إلى وراء . فلما عاد إلى البر مرة أخرى كان الشاطىء شماليه .

ودار — دون أن يدرى — حول رأس الرجاء الصالح ووصل عندئذ وراء جنوب القارة الإفريقية . وكان يود أن يتابع الرحلة ولكن رجاله لم يشاءوا أن يتعرضوا للخطر . وهكذا عاد صوب وطنه .

وفى هذه المرة رأى الرأس الذى أسماه (كابو تورمنتوزو) . وكانه ملك البرتغال هو الذى أطلق عليه اسم « الرجاء الصالح » وهذا من أعظم الأسماء التى أطلقت أبداً على رأس من الرءوس .

وراء رأس الرجاء الصالح :

وكانت الرحلة الثانية مغامرة عظيمة . وقد أطلق على السفينتين اسمى « جبريل » و « روفائيل » تيمنا باسم هذين الملاكين ، وكانا قد بنيا بنياناً متيناً وجهزا بشراع مربعة وثلاث ساريات لكل ، وعلا طرفاهما عن الماء علواً كبيراً .

وجهزتا بأبراج حربية من أمام ومن خلف ، مع إمداد كل من السفينتين بعشرين مدفعا . وكانت حمولة كل منهما مائة طن . وقد خطط لبنائهما — من واقع تجاربه — بارثولوميو دياز ، وعقـــدت قيادتهما على فاسكو دى جاما وهو نبيل من بلاط الملك .

وتحركتا — تصحبهما سفينة شراعية صغيرة وأخرى لخزن المؤن — إلى منحدرات فى (نهر) التاجه وهو نهر لشبونة . وقد نفخت الريح أشرعتهما المرسوم عليها علامة الصليب . وقد اختزنت مؤن تكفى ثلاث سنوات .

وقبل أن يستقل البحارة السفن شهد البحارة قداس بركة ووداع فى أبروشية لشبونة . وفيما كان حشد من الأقرباء وأهل المدينة يرقبون من الشاطىء — وكثير منهم فى ثياب الحداد — انساب الأسطول الصغير إلى المحيط مغامراً . ورفرف علم الملك على رأس سارية « جبريل » . ثم نفخ فى الأبواق وعزف بالنايات وضرب على الطبول . واصطف الضباط على ظهر السفينة متسربلين بالزرد والدروع . وظهر بينهم القائد البحرى ڤاسكو دى جاما وهو رجل حارب أسلافه المغاربة وتربى فى البحر وامتلأ رأسه بقصصه ومهر فى المعرفة وصهرته تجاريب الرحلات البحرية ، رجل ذو شخصية قوى البنية شديد العزم أحمر الوجه شجاع معتز برأيه ، عنيد ، يقسو على أعدائه .

وتحركت السفن رويداً رويداً إلى أقصى مرقىَ البصر ثم اختفت تحت الأفق الغربى فى ذلك اليوم القائظ من يوليو سنة ١٤٩٧ .

وكان أول جزء من رحلتهم هو الاندفاع المعروف إلى الرأس الأخضر وشاطىء ســـيراليون . وتبع ذلك عبور بعيد المدى عن طريق جنوب الأطلنطى قادم إلى جنوب إفريقيا ، حيث أسروا رجلاً من سكان الغابات الأصيلين وكسوه واشترك بعد ذلك فى الرقص مع بعض المتوحشين من قبائل الهوتنتوت . ثم ألقوا مراسيهم فى مكان أسموه « ناتال » (أى الميلادى) إذ أنهم بلغوه فى عيد ميلاد المسيح ، وهناك نزلوا إلى الساحل ودفعوا سفنهم حتى احتكت بالقاع القريب من الشاطىء . وهناك أيضاً ظهرت على بعضهم أعراض مرض البحارة الوبيل المسمى بداء الأسقربوط . (وهو ضرب من الجرب) .

وبعد ثلاثة أشهر ، بعد أن ثابروا على الصعود بسفائنهم مصعدين مع

الشاطىء صوب الشمال ، بلغوا موزامبيق حيث تحدث مترجمو دى جاما مع العرب ، وهنا رأوا السمك الطائر وشجر جوز الهند . وبعد مضى شهر تركوا ثغر مومباسا الجميل . ووصلوا بعد ذلك إلى مالندى حيث رأوا السفن العربية التى تتاجر مع الهند وحيث استخدموا مرشداً عربياً سار بهم ، فى رياح موسمية ، عبر المحيط الهندى إلى شاطىء مالابار فى الهند .

وألقوا مراسيهم وراء كالكوتا فى مايو سنة ١٤٩٨ وذلك بعد أن أقلعوا من لشبونة بأربعة عشر شهراً . فرحب بهم الحاكم الهندى . وسألهم أحد العرب عن علة مجيئهم فأجاب أحد البرتغاليين بقوله : « بحثاً عن المسيحيين والتوابل » .

ولبثوا على مسافة من كالكوتا ثلاثة أشهر رأوا فى خلالها جميع ما فى مدينة هندية تجارية من غنى وتنوع : رأوا شجر جوز الهند وتعريشات الفلفل والمنجة والموز والليمون ورأوا الطواويس والنموس (جمع نمس) والدر (وهو ضربٌ من الببغاوات الصغيرة) والقرود والفيلة ، رأوا هذه وهى تُستخدم فى بعض الأعمال ورأوا فى الأسواق سلعَ النحاس الأحمر والأصفر والسيوفَ والمُدَى والمنسوجات الحريرية والقطنية ومحار السلحفاة (البريَّة) والعاج والزمرد والياقوت والكافور والقرفة (أو الدارصينى) وخشبَ الصندل وجوز الطيب ولباب جوز الهند المجفَّف . واختلطوا بالجماهير المبرقشة الأكسية ، من الهنود والصينيّين والزنوج والملوّنين والفرس والعرب . وحُمل فاسكو دى جاما فى محفّة (وهى نوع من الهودج أو التختروان) . وقايض بحّارتُه على ما كان معهم من سلع محليَّة تافهة ، قايضوا بهدايا تذكارية اشتروها من الأسواق . وأخيراً رفع دى جاما مراسيَه واستدار مُيمّماً وطنه موقناً من أمرين : الأول أن من المستطاع القيام بتجارةٍ وفيرة الربح مع الأمراء الهنود ، والثانى أن العرب الذين سيطروا على الشواطىء التجارية كانوا يتبرمون بإرسالية التبشير المسيحية .

واستغرقت العودةُ عاما . وحدث أنَّ عاصفةً أعطبت السفينةَ (روفائيل) بحيث اضطروا إلى سحبها إلى الشاطىء وإحراقها . أما (جبريل) فقد استدارت حول رأس الرجاء الصالح مع ريح مؤاتية وقامت برحلةٍ إلى غينيا ونهر التاجة ، وفى هذا النهر ألقت مراسيها — آخر الأمر — فى أغسطس من سنة ١٤٩٩ .

وكانت الرحلة مذهلة ، كانت أكبر رحلةٍ جَرت حتى ذاك الوقت . واستكشفت البرتغال طريقاً خاصة إلى مستقر كنز الشرق العظيم . ولا عجب إذن إذا كان سفير البندقية فى لشبونة قد أرسل الأخبار ، بكل ماوسعه من سرعة ، إلى سادته فى البندقية ، إذ أن البندقيّين كانوا يعيشون من الأرباح الطائلة التى درّتها تجارة التوابل مع عرب مصر .

وكان قِوام المغامرة البرتغالية التالية عام ١٥٠٠ ثلاث عشرة سفينة ، وقوامُ الرحلة الثالثة — عام ١٥٠٢ — عشرين سفينة مرة أخرى تحت إمرة دى جاما الذى قَتل كل عربىّ وقع فى قبضته والذى أطلق النار من مدافعه على كالكوتّا . وذبح ألبوكيرك — القائد البرتغالى الذى جاء بعد ذلك — ذبح ٦٠٠ مسلم فى جُوّا . وهكذا انتقم جنود الصليب من خصومهم متجاهلين الرحمة التى يأمر بها (الصليب) . وبهذا الأسلوب العنيف القاسى أقرّ البرتغاليون سلطانهم فى الشرق ، وما هو إلا القليل حتى ترامت حصونهم ومراكزهم التجارية بعيداً بعيداً حتى الصين .

وقد ظلّ البرتغاليون ، أكثر من مائة سنة ، أصحابَ الشرق وسادةَ المحيط الهندى وبحار الصّين .

جزائر غروب الشمس (سَنْسِت) وإمبراطوريات عجيبة :

عاش رجال البرتغال أولئك ، وكذا منافسوهم تجار البندقية ، فى عصرٍ ملىءٍ بالأعاجيب . وكان الجنود الأسبان يتقاطرون صوب الغرب على

أمواج الأطلنطى الطويلة حتى قبل أن يصل ڤاسكو دى جاما إلى الهند .

وسارت الأمور على النحو الآتى : كان مرشد من جنوا — اسمه كريستوفر كولومبوس — يعمل فى خدمة البرتغاليين فى التجارة الغينيّة . وكان بحاراً عظيم الخبرة سبق له الإبحار شمالاً حتى أيسلندة . وقد أنعش فى فؤاده طموحاً نهماً : وهو أن يبحر غرباً ، لا بحثاً عن أية جزيرة فى البحر ولكن ليصل إلى (كاثاى) الصين وإلى (جيبانجو) اليابان وإلى جزر التوابل ، رغبة فى نشر الدين المسيحى . وقد أيقن أن ذلك ممكن ولذا سأل ملوك أوربا مساعدته بالسفن والرجال . وكان ملك البرتغال شديد الانشغال برحلاته البحرية الشرقية . وظل الملك الإنجليزى — هنرى السابع — يفكر فى الأمر . أما العاهل الذى ساعده فعلاً فكانت الملكة إيزابلا ملكة قشتالة ، وكانت هى وزوجها — فرديناند ملك الأراجون — حاكمى أسبانيا .

وهكذا أبحر كولومبوس — فى الثالث من أغسطس من سنة ١٤٩٢ — من پالوس ، فى أسبانيا على السفينة سانتا ماريا (القديسة مريم) ومعها سفينتان تصغرانها كثيراً . وكان بين البحارة بعض معتادى الإجرام الذين أجبروا على ركوب المغامرة التى أرعبت معظم البحارة . وفى التاسع من سبتمبر زايل كولومبوس جزر كانارى (العصفور) واندفع إلى الغرب المجهول . ولم يحلّ اليوم الواحد والعشرون من ذلك الشهر حتى تملّكهم الخوف . وهبّت الريح ، مثابرةً ، من الشمال الشرقى وانقطع كلُّ أملٍ فى عودتهم . ولم تقع أبصارهم — من كل هذه الدنيا — على غير البحر والسماء ، ولم يطرق آذانهم غير جرس أصواتهم وضوضاء حبال السفينة وبكراتها . وعمد رئيس بحارتهم إلى تهديدهم ومجادلتهم وإلى مخاتلتهم فى صدد المدى الذى قطعوه فعلاً .

وعندما حلّ اليوم الحادى عشر من أكتوبر كانوا قد استعدوا لقتله .

وبعد أن انقضى أكثر النهار رأوا أرضاً . وفى اليوم التالى نزلوا إلى البرّ . وقد دار بخلد كولومبوس أنه — على أقل تقدير — وجد طريقاً غربية إلى آسيا بل إنه يقف الآن على إحدى جزر جيبانجو (اليابان) . والحقيقة أنه كان فى إحدى جزر البَـهاما . وقد قدم له الهنود الذهبَ والحلى وسجدوا أمامه وأمام رجاله كما لو كانوا آلهة . وكان أولئك الهنود من هنود البحر الكاريبى . وبعد أن ارتادَ كولومبوس ما بين جزائر الهند الغربية عاد إلى وطنه وواصل السير حتى بالوس فى الخامس عشر من مارس من سنة ١٤٩٣ . وكانت رحلته الثانية التى قام بها بعد ذلك بستة شهور بعثة مسلحة قوامها ١٥٠٠ رجل وسبع عشرة سفينة . وكانت تلك حرباً صليبية إذ أن الجنود الذين أجْلوا ، لتوّهم ، المسلمين من أسبانيا تأهبوا من فورهم ليخضعوا الدنيا الجديده ويدخلوها فى دين المسيح . استعمروا جزيرتى بورتوريكو وكوبا وأكرهوا أهاليهما التاعسين على العمل فى مناجم الذهب ، وعمّدوهم ، وصادوهم بالكلاب كلما فروا ، وضربوهم بالسياط حتى الموت .

ولم يفطن كولومبوس قط إلى أنه وقع على عتبة دنيا جديدة . وحدث أن مرشداً إيطالياً آخر — اسمه أميريجو ڤسپوتشى كان أول من كتب عن « الدنيا الجديدة » التى رآها . واعتاد الناس على استعمال كلمة « أمريكا » وهم يقصدون الأرض التى وصفها أميريجو .

فما الذى حدث إذن فى صدد كاثاى (الصين) وجزر التوابل ؟ لقد أجيب عن السؤال فوراً . رأى بعض الأسبان — من فوق قمة جبل فى پاناما — محيطاً جديداً يفيض وراء الدنيا الجديدة .

وعلى أية حال فقد استكشف البرتغاليون ، حتى الآن ، أمريكا انطلقوا أمام الرياح التجارية الشمالية الشرقية ثم انثنوا عبر الرياح الجنوبية . ورأى مرشدوهم شاطىء البرازيل فى سنة ١٥٠٠ . وحدث أن مرشداً كان يعمل فى خدمة

البرتغاليين — وقد سبقت له زيارة جزر التوابل بالإبحار حول رأس الرجاء الصالح — ذهب ليعمل فى خدمة ملك أسبانيا وملكتها . وكان هذا المرشد : فرديناند ماجلان . وفى سنة ١٥١٩ عبر الأطلنطى إلى البرازيل واتجه جنوباً(١) ومرعبر المضايق الطويلة التى تحمل اسمه الآن ودخل ذلك المحيط الجديد : المحيط الهادى . وقتله بعض الأهلين فى جزائر الفلپين ولكن سفينته « فكتوريا » (أى المنتصرة) دوامت السير إلى بورنيو وجزائر الهند الشرقية ثم استدارت حول رأس الرجاء الصالح ووصلت إلى وطنها عام ١٥٢٢ . ولم ينج ممن كانوا عليها — الذين أقلعوا قبل ذلك بثلاث سنين وعددهم ٢٧٢ — غير ثمانية عشر رجلا . ولقد فاقت مأثرة ماجيلان — وهى السياحة بالبحر حول الأرض — فاقت مأثرة ماجلان تلك ، أحلامَ كولومبوس . ذلك أنه لم يكتف بكشف الطريق البحرية الغربية إلى آسيا بل طاف بالبحر حول الكرة الأرضية العظيمة .

وجد جنود أسبانيا وقسوسها دنيا جديدة شاسعة المساحة يغزر فيها الذهب والفضة. وأبحروا من جزائر الهند الغربية إلى داخلية البلاد ، وهناك عملوا أعمالاً هى أعظم من أن تصدق . فلقد ناضلوا فى المستنقعات المميتة الموبوءة بالحمى وعبر جبال دارِين التى تكثر فيها الغابات . وفى عام ١٥١٩ سيطر فرديناند كورتيز على إمبراطورية المكسيكيين العتيقة : نزل إلى البر وأحرق سفنه وتقدم فى داخلية البلاد يصحبه ٦٠٠ رجل ، وبهم هزم قبائل الأزتك الذين حكموا البلاد واستولى على عاصمتها وثبت صليب المسيح على أعلى مكان من المعبد الذى كان قسوس قبائل الأزتك يضحون فيه بقرابين آدمية . وقد استولى على كنوز الذهب الذى كدسته قبائل الأزتك فى مدى نيّف وسبعمائة عام. ومأثرة السلاح هذه بَزّتها مأثرة فرانسسكو بزارو الذى قوض الإمبراطورية الغامضة التى كانت تقيمها قبائل الأنكاس فى بيرو . صنع ذلك فى سنة ١٥٣١ بمساعدة رفاق لا يزيدون على المائة والستين .

(١) انظر شكل رقم — ٧ — (مخارج جنوبية من الأطلنطى) .

وقد عرفت تلك الشعوب (الأنكاس) كيف تقيم قصوراً هائلة الحجم وكيف تنشىء طرقاً طويلة من دون آلات حديدية ، بل من دون أن يعرفوا العجلة ، كما أنهم استخدموا المعادن الثمينه فى صنع الأوانى العادية على نحو ما نستخدم نحن الحديد أو الفخار . وكان حكامهم يخططون لكل كبيرة وصغيرة فى حياتهم . وكانت أراضيهم تعاد تسويتها فى كل عام ، وطعامهم يقسم بينهم فى عناية ، بل أن زيجاتهم كانت تحدد لها أيام تعيّن من قبل . ولم يكن العوز معروفاً لديهم ، ولم يعرفوا الانفعال إلا بعد مجىء الأسبان . وقد ملأوا حجرة بقضبان ذهبية ليفتدوا مليكهم من يزارو .

على أن مئات من جنود الأسبان هلكوا فى المستنقعات والغابات ، بفلوريدا . فنى إحدى المرات أرسلت بعثة قوامها ألف رجل لم يعد منهم غير ٣٠٠ بعد أن قضوا أربع سنين فى رحلة ، بمركبات النقل ، إلى المكسيك وفى مرة أخرى لم يبلغ شاطىء المحيط الهادى ، غير رجل واحد من فرقة قوامها ٦٠٠ وكانت سبيلُه إلى النجاح : انضمامه إلى قبيلة من قبائل الهنود . وفى الحق أن الجنود الأسبان نقبوا فى أنحاء تلك القارة الضخمة عن مدائن الذهب وعن الينابيع التى تكفل مياهها للناس شباباً مقيما . وقد يبدو لنا الآن أن بساطتهم تشبه بساطة الأطفال غير أن صلابتهم كانت بطولية .

ولم يكن عمل رجال الكنيسة من الأسبان أقل بطولة . فقد صنع الكثير منهم كل ما وسعه ليساعد الأهلين اليائسين . وعملاً باقتراحهم استدعى زنوج من إفريقيا ليعملوا فى مزارع قصب السكر ، إذ أن الزنوج قوم أكثر صلابة . وعملَ رجال الكنيسة ما يزال ماثلاً فى خرائطنا بخط كبير واضح ولئن نظرت إليها لتجدنّ أسماء مثل : فيرا كروز (الصليب الحقيقى) — ترنيداد (الثالوث) — سان سلفادور (المخلص المقدس) وعشرات أخرى على هذه الشاكلة . ولقد كانت الدنيا — فى نظر كثير من القانتين من القسيسين

والرهبان والراهبات — حقل تبشير كبير . وإنا لنجد — إلى جانب قسوة الجنود وشرههم — براً ورأفة مسيحيّين . وتجيئنا التقارير والإحصاءات — عن أهل جزائر الهند وعن اليابسة — منقولة عن دراسات الرهبان الأسبان .

توسع المعمورة :

كانت هذه تغيرات عظيمة ، أعظم بالتأكيد — فى تلك الفترة التى قد يعيشها امرؤ ، وهى الفترة التى وقعت بين سنتى ١٤٥٣ و ١٥٣٠ — كانت أعظم من التغييرات التى يسعنا التعرف عليها فى أية ثمانين سنة غيرها .

فالإمبراطورية الإغريقية المسيحية — بكنوزها التى تجمعت فى ألف من السنين — جرفهـــا تيار المسلمين الجارف . فالتركى وفد على أوربا وسيبقى بها فى واحدة من أروع مدائنها جمالا ، وإلى هذا فإن جيوشه تعسكر على ضفتى الدانوب .

ثم إن البرتغاليين شقوا طريقهم — بحراً — إلى آسيا . وأثرت لشبونة بتجارة التوابل ، ووجد بحارتها شاطىء البرازيل . وأقلع الأسبان عبر الأطلنطى وأخذ مستكشفو الطرق ، الذين أوفدوهم ، أخذ هؤلاء طريقهم إلى نيومكسيكو وكاليفورنيا ، وطافت سفائنهم حول الأرض . وأصبحت أعلام الصليب ترفوف على بيرو والمكسيك والحصون البرتغالية فى غرب إفريقيا وفى الهند وفى جزائر الهند الشرقية . والذهب يتدفق على أوربا : ذهب غينيا والذهب الأسبانى . والتوابل والموسلين (الشاش) والأصباغ وأنواع الحرير ترد إلى أوربا بحراً .

وتجارة رقيق زنوج إفريقيا — الفظيعة — بدأت فى الغرب .

والإغريق والترك والبندقيون والمغاربة والبرتغاليون والأسبانيون ... أولئك جميعاً قاموا بأدوار قيادية فى أثناء تلك الأعوام الثمانين ، ترتبت

عليها نتائج بقى أثرها طويلا . ووقعت حوادث أخرى ، بقى أثرها طويلا كذلك فى المدائن الايطالية وفى ألمانيا ، وسننتقل إليها فى الفصل الثانى .
وفى تلك الفترة ذاتها عاش فى إنجلترا — فى مدينة برستول — تاجر من البندقية اسمه جون كابوت وكان يتاجر مع بلاد العرب فى التوابل . جهز هذا التاجر سفينة فى بريستول . عليها بحارة من ذلك الثغر ، وأقلع غربا . وكان يعتمل فى خلده كثير من أفكار كولومبوس ، واستكشف — مثله — أرضا غريبة . حدث هذا فى عام ١٤٩٧ وهو العام الذى فيه قام دى جاما برحلته ولم يستطع أسلافنا أن يطلقوا عليها اسماً خاصاً فأسموها نيوفاوندلاند (أى الأرض المستكشفة حديثاً) وهى ما زالت تحتفظ بهذا الاسم .

ومن ثم بدأ السماكون الجسورون — من إنجلترا وويلز وبسكاى وبريتانيا — يستقلون قواربهم فى كل عام إلى شواطىء نيوفاوندلاند ليعودوا بسمك القد المملح (البكلاه) لأوربا . ولقد كان أولئك السماكون المجهولون أمهر رجال البحر فى العالم ، يعملون نهاراً وليلا ، فى الضباب وفى الريح القارسة وفى البحار المضطربة . لقد طيف بالبحر حول إفريقيا . . . وكشف الشرق الأسيوى . . وفتحت الدنيا الأمريكية الجديده . . كل هذا حدث فى مدى لا يتجاوز مدى حياة فرد واحد ! وإذا لم نقرأ قصص الرحالة القدماء فلن نستطيع مشاركة الرواد الأوائل دهشتهم عندما رأوا براكين جزائر الهند وغابات جبال الأپالاش ، ومستنقعات إفريقيا المنجروفية (أى الغاصة بالأشجار التى تخرج كثيراً من الجذور الهوائية) ، وغابات الهند ومعابدها ، ومعابد بورما (المسماة پاجورا) ، والبلدان الصينية المزدحمة الصاخبة ، ورحاب المحيط الصامته . وإن آلافاً جديدة من أنواع الصخور والحيوان والحشرات والأسماك والطيور والنبات لتنتظر علماء طبقات الأرض والحيوان والنبات ليدرسوها . ومن يدرى ! فلقد وردت فى ثرثرة تافهة بأحدى الحانات ، أو فى خريطة مصورة مفقودة ، أو بين

أسرار ديوان ملك من الملوك — وردت أنباء قارة ظلت غير مستكشفة فلنسمها (كما أسماها البرتغاليون) «أرض الروح القدس الجنوبية ، أو ترّا أوستراليس» . ولقد وصلت سفينة برتغالية — واحدة على الأقل — إلى أخيرة القارات . وقد تُعزز هذا الرأى المدافعُ النحاسية الطويلة التى تركتها على شاطئها الشمالى .

وهكذا تجد أن أودية القرون الوسطى قد فقدت حدودها . فإن صحراوات الجنوب والشرق قد دار حولها البحارةُ كما أن المحيط الواقع فى الغرب قد عرف البحارة طرقه

المسالك البحرية :

فى كل جزء من أجزاء القصة، التى تلت ذلك ، معلومات عن تجارة جديدة تنشط ، تجارة يزاولها الرجال الذين ينحدرون فى سفائنهم إلى المحيطات . فى النهار والليل ، سنة بعد سنة ، تعبر السفن والرجال الذين يعملون ويغنون بها ، يعبرون المحيطات إلى أمريكا وإفريقيا والهند والصين وأخيراً إلى أستراليا وجزائر المحيط الهادى . إنهم يحملون — يوماً بعد يوم — الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ويحرصون على بقاء أبواب التجارة الغنية مفتوحة بينهم وبين الشرق الأقصى . والمدنية — كما نعرفها — لا يمكن لها أن تدوم بغير هذا العمل المتصل وبغير تعرض البحارة للخطر والموت ومثل هذا الكد — ككد الفلاحين سواء بسواء — يظل غالباً ، غير مرعىّ لأن السواد الأعظم من سكان المدن الكبرى لا يراه رأى العين . ومن سوء حظ الكثيرين أنهم ينطبق عليهم قول الشاعر :

قوارب خشبية قديمة مفردة الشراع غرقت بحطامها المتقطر ،

إنها سفن لم يقُدها أحد قط إلى الميناء ولم تعد إطلاقاً .

ومع ذلك فالسفن والرجال — الذين يعلق عليهم المحافظة على بقاء الطرق البحرية مفتوحة — لم ينضب معينها قط .

والاستكشاف الأول عبر المحيطات يسّره اختراع البوصلة البحرية وكذلك الجهاز الذى ينظم أشرعة السفن الذى اخترعه أحد صانعى السفن بين سنتى ١٤٠٠ و ١٥٠٠ . ويتركب ذلك الجهاز من ثلاث ساريات تحمل نحواً من ستة أشرعة يستطيع مهرة البحارة تسويتها بحيث تقوى على مقاومة الرياح ، وبهذا لم يعد البحارة خاضعين لرحمة تلك الرياح . أما البوصلة فإبرة ممغطسة تترجح على قطب فوق ورق مقوى به علامات . وأصل البوصلة مجهول ، كأصل اختراعات القرون الوسطى الأخرى مثل الورق والبارود والأرقام العربية والبرلمانات والطباعة . وبإضافة الاسطرلاب — وهو آلة تعرف بها خطوط الطول عن طريق قياس ارتفاع الشمس والنجوم — بإضافة الأسطرلاب تُيسر البوصلة للمرشد السير فى مجراه المطلوب فى البحار المفتوحة ، فى دقة معقولة . أما طريقة معرفة خطوط الطول فقد كان على المرشدين أن يعملوا إحصاء تقريبياً وذلك بحساب سرعتهم بمساعدة الساعة الرملية . ولقد كانت هذه الإحصاءات — فى القرن الثامن عشر — تجرى فى مزيد من الدقة وذلك بإستخدام كرونومتر السفينة (وهى ساعة بالغة الدقة) وكذلك بالرجوع إلى جداول المواعيد والأماكن الملاحية التى وضعها الفلكيون .

وبسبب هذه الاختراعات ومغامرة أولئك الذين استخدموها مرت التجارة من البحر الأبيض إلى الأطلنطى ، وإلى المحيط الهادى بعد ذلك ، ونشرت الأمم الأوربية أقوامها وأساليب حياتها وقوانينها وعاداتها ودياناتها وحروبها فى كل مكان من العالم .

الباب الرابع

إعادة استكشاف العلوم القديمة

ثلاث مدنيات :

الفترة التى نسميها « القرون الوسطى » هى الفترة الواقعة بين القرنين الخامس ، والخامس عشر أى بين سنتى ٥٠٠ و ١٥٠٠ الميلاديتين . وتلك هى القرون التى تقع بين المدنيات القديمة وبين زماننا هذا . وقد بدأت هذه الفترة بتضعضع الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وقتما اختفى القياصرة وفيالقهم وتخربت المدائن ونسيت المعرفة والحرف الدقيقة . حدث هذا عندما دخل الفرنجة والغوط والبرجانديون والسكسون نصفَ الإمبراطورية الرومانية الغربى واستقروا فيه يحكمهم ملوكهم وأمراؤهم .

أما نصف الإمبراطورية الرومانية الشرقى فقد ظل يحكمه الأباطرة المتكلمون باللغة الإغريقية وذلك فى القسطنطينية : الحصن القوى والمدينة الجميلة التى أنشأها قسطنطين على مدخل البحر الأسود حيث تتقارب آسيا وأوربا على أقصر مدى .

ودخل فى دين المسيح الفرنجة والقوط والبورجانديون والسكسون ومَن إليهم من شعوب غابات الشمال العظمى ، وبذلوا أكبر ما وسعهم من جهد لتقليد مدنيات روما القديمة . وما هو إلا وقت قصير بل بالغ القصر حتى استولى خصومٌ لهم أقوياء مهرة على كل بقاع آسيا الصغرى والعراق وسوريا وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وأسبانيا . وكان هؤلاء الخصوم هم المسلمون العرب .

وقد أشعلت الحروب الصليبية بقصد العود إلى الاستيلاء على الأصقاع التى خرجت عن النفوذ المسيحى والتى لم تكن خصبة جيدة فحسب بل كانت كذلك موطن المعرفة القديمة والجمعيات المسيحية الباكرة . ورفرفت راية الإسلام فوق البقاع التى مشى المسيح فوق أرضها والتى فيها بشر حواريوه بالإنجيل .

وعاد المسيحيون — كما رأينا — فاستولوا على أسبانيا بعد قرون طويلة من الحروب التخومية . وقد أنزلوا فعلا — أعواماً قليلة — جيوش فرسانهم فى سوريا وفلسطين ولكن الحروب الصليبية أخفقت فى رد المسلمين عنها . وفى القرن الخامس عشر أضاع المسيحيون القسطنطينية ، وبفقدها تلاشت الإمبراطورية الرومانية فى الشرق .

وإذن فقد كانت هنالك — على مدى القرون الوسطى — ثلاث مدنيات :
المدنية الإغريقية المسيحية ومركزها القسطنطينية .

والمدنية اللاتينية — أو الغربية — فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والجزر البريطانية .

والمدنية العربية أو الإسلامية الممتدة حول جنوب تلك الأصقاع من قرطبة فى أسبانيا إلى بغداد على الفرات .

وترقد تحت المدنيات الثلاث خرائبُ الدنيا العتيقة التى ضمت بلاد الإغريق الوثنية وروما الوثنية ، ترقد منسية بعد أن تفتتت وضاعت هباء . فلقد اختفت مدائن برمّتها مثل قورين (سيرين) فى إفريقيا الرومانية بعد أن نسفها زلزال ولم يبق منها غير خرائب عمد رخامية مكسرة مهشمة وجدران محطمة . وكانت بلاد أخرى فى إفريقيا مطمورة تحت رمال الصحراء السافية. وفى إنجلترا تستطيع الأرانب والخلد(١) ، وحدها ليس غير ، أن تزور

(١) الخلد (بفتح اللام) أو الطوبين حيوان ، صغير ذو عينين بالغتى الصغر وفروة ناعمة ، يحدث حفراً فى الأرض ويقذف بأكوام صغيرة من الطين أو التراب .

أساس جدران سيلشستر مدينة الأبهاء والردهات الكبيرة التي تركت موحشة ثم دفنت تحت التراب السافي والحشائش المتعفنة . ولم يبق منها إلا بعض الجسور وإلا الطرق الطويلة المستقيمة التي أصابها البلى والتي أغرقتها وطمستها فيضانات الشتاء . وهنالك كانت المخلفات العجيبة لمساقى المياه الضخمة التي تجرى فوق قناطر . مثال ذلك : بون دى جار فى فرنسا التى تمتد عبر الريف ، وبعض مدرجات مهجورة تغطيها الحشائش البرية ، وأقواس نصر نحتت الصور على جدرانها ، وقلاع وقصور حصينة تمتد على تخوم غابات بلاد الراين أو على طول سور هادريان الكبير القائم على أجم نورذمبريا العالى . أما بوابات مدينتى يورك ولينكولن وأسوار لندن ، « والبوابات السوداء » ذوات الطبقات الثلاث فى (ترابر) حيث عاش ذات مرة حاكم بريطانيا الرومانى ، أما هذى ومئات غيرها من الآثار فقد تذكّر الناس بتفوق الرومان فى الهندسة ، ولو بفرض أنها لم تكن تستخدم إلا محاجر لحجر البناء وإلا لصنع الكلس (الجير) . وكثيراً ما تفرس الفلاحون فى جدران ريشبورو أو كايستر بعيون تملكتها الدهشة وخالوها من عمل المردة أو الشياطين ! وكثيراً ما وجد الفلاح وهو يحرث ، مشبكا (دبوساً) من البرونز أو قدراً مليئاً بالنقود ، أو كثيراً ما كشف اللحّاد (حفار القبور) طواراً (رصيفاً) من الحجارة الملونة ، وأخذها صغاره كى يلعبوا بها !

وإلى هذه الآثار والخرائب البالية كانت هناك مخلفات تفوق تلك كثيراً فى أهميتها ولكنها أهملت كذلك . ففى مكتبات وخزانات وأقبية الكنائس والأديرة تتكدس كتب قديمة ومخطوطات لتمسى نهباً للبلى . وقد بادت تماماً وثائق البردى كما قد يبيد الورق . وأسدل النسيان على الوثائق المكتوبة على جلود الرق . وكانت تلك الكتب : مكتوبات ومسجلات الإغريق والرومان : تواريخ وأشعار وتمثيليات ورسائل وخطب وكتب رحلات وعلوم ورياضيات وهندسة وزراعة .

والكتب الوحيدة التي عني بأمرها علماء المسيحيين الغربيون لم تعد الكتاب المقدس والكتابات الدينية التي كتبها آباء الكنيسة الغربيون مثل سنت أوجستين والتي كتبها مدرسو الجامعات مثل القديس توما الأكويني، إذ فيم يكلف أي رجل خاطره الاهتمامَ بأمر كتب الإغريق والرومان الوثنيين ؟ قال أوجستين الذي عاش عندما كانت كتب الوثنيين القديمة موفورة ، قال إن الكتاب الوحيد الذي يحتاج إليه المسيحيون هو الكتاب المقدس .

ولم يكن العرب — بطبيعة الحال — يستخدمون اللغة اللاتينية أو الإغريقية أو يوجهون اهتمامهم إلى كتب أخرى أكثر مما يوجهونه إلى كتابهم المقدس : القرآن الذي جمع تعاليم دينهم . ومع هذا ظهر من بينهم علماء يدققون في البحث والاستقصاء ويبحثون في الفلك والطب والرياضيات، علماء عرفوا بعض ما كتبه الإغريق ونقلوا إلى الغرب ثانية حكمة مجوس(١) الشرق ومعرفة فلكيي الكلدانيين وفن الأرقام ، نقلوها عن حكماء الهند القديمة . ومن أمثال أولئك من علماء العرب المجتهدين عرف رجال الغرب شيئاً عن تعاليم أرسطو وهو الإغريقي الذي ربى الإسكندر الأكبر قبل المسيح بثلاثمائة عام . وقد جمعت كتب أرسطو العديدة خلاصة الكثير من معارف الدنيا القديمة . ولكن عالماً مسيحياً قرأ ترجمة لاتينية لترجمة عربية لكتابات أرسطو الإغريقية وقرر أن الترجمة ينقصها شيء من الدقة !

أما تاريخ الدنيا القديمة — في نظر أهل القرون الوسطى — فكان خليطاً عظيماً ، مشوشاً من قصص الأبطال والأباطرة وكلها عن الأحداث العجيبة المثيرة أو عن السحر .

---

(١) المجوس قوم كانوا يعبدون الشمس أو النار .

وهكذا كانت الأمور تجرى فى الغرب ، فى خلال العصور الوسطى .

كان الفلاحون فى كل مكان يستعينون بثيرانهم على فلح رقع أراضيهم المستطيلة. وكان أرباب الحرف فى المدن يجتمعون — فى نقابات طوائفهم — للعمل والعبادة والتصدق بعضهم على البعض . وكان ملاك الأرض أو الفرسان هم الخيالة الذين يحلفون لملوكهم وأمرائهم يمين الولاء ويتبعونهم إلى الحرب ويتطوعون فى الحروب الصليبية أو يتنازعون فيما بينهم . وكان التجار يغادرون فى البر والبحر يشترون ويبيعون أصوافهم وأقمشتهم المنسوجة ونبيذهم وما لديهم من جلود الحيوان غير المدبوغة . وكانت دنياهم صغيرة . فقد حبسهم البحر غرباً والغابة السوداء شمالا . ولم يكن يعرف ما ينضم عليه جوف صحارى الجنوب غير العرب . ولم ينتقل إلى آسيا القديمة على طرق تجارة التوابل أو الحرير غير رحالة قليلى العدد .

وفوق كل المسيحيين وبينهم جميعاً كانت : الكنيسة المسيحية بأبروشياتها العجيبة وأديرتها العظيمة ورجال دينها ورهبانها ونساكها العلماء والجهال ومحاكمها الدينية وضرائبها وجامعاتها الكثيرة التى أسست لدرس كل ما له علاقة بالله وبعلة الخلق .

ولم يكد الغرب يعرف أى شىء عن الحكمة والعلوم والصناعات الدقيقة التى كان لها شأن فى دنيا الإغريق القديمة . وكان الناس فى القسطنطينية يتكلمون اللغة الإغريقية لا كما تكلمها الأقدمون بل مع بعض التغيير فى النطق وفى الألفاظ . ولم يكن فى القسطنطينية من العلماء من يعرف اللغة ويبحث فيها إلا القليلون ، تلك اللغة التى كان يتكلمها كذلك سيدات البلاط الإمبراطورى اللائى وُلدن نبيلات . وكان فى القسطنطينية مجموعة كبيرة جداً من الكتب القديمة . وعلى أية حال فإن نصارى الكنيسة الإغريقية هناك كانوا — كنصارى الكنيسة اللاتينية أو الغربية تماماً — لا يأبهون

أصلاً بالكتابات القديمة . ولم يكن هنالك كثير من الحب المفقود بين هاتين الطائفتين من المسيحيين . وبهذا الخيط الواهن تتعلق فرصة الحفاظ على مسجلات الأقدمين .

هكذا كانت الحال فى القرن الخامس عشر وقتما كان البرتغاليون يقلعون فى نصف الكرة الجنوبى على طول سواحل إفريقيا الغامضة ، ووقتما اقتحم الأتراك المسلمون القسطنطينية تحت إمرة محمد الفاتح ، ووقتما قاد كولومبوس بحارته المذعورين إلى البحر الكاريبى .

بدء التنقيب :

وفى النهاية عندما أخذت البلدان تثرى من التجارة ، وعندما تعلم الناس كيف يبنون بالحجر ويصنعون عروضاً جميلة من الحديد والخشب ، وينسجون البديع من أقمشة المفارش الثمينة ، ويبنون سفناً كبيرة ، وعندما أصبحت الحياة أكثر أمناً وأقل عناء وكداً ويقظة خشية الأعداء المتوحشين وعندما زادت الحياة مراعاة للقانون ، عندئذ بدأ بعض العلماء يهتمون بالقـــديم من الكتب والعملة وآنيات الزهر والزينة ومن التماثيل التى خلفها الأقدمون .

حدث هذا فى إيطاليا حيث انتعشت المدنية القديمة أيما انتعاش ، وحيث يتسنى رؤية المخلفات فى مزيد من الجلاء . ولقد كانت مدن إيطاليا أول المدن التى صارت جميلة وأثرت تجارتها . مثال ذلك : فلورانسا .. وبولونيا .. بادوا . البندقية .. بيروجيا .. ميلانو .. وروما الكبيرة ذاتها . وكان الصناع الإيطاليون معروفين بالمهارة المذهلة فى كل صنعة (ومايزالون كذلك) ، يكدح كل منهم ليبز أترابه فى الاتقان . وفى القرن الخامس عشر كادوا يبلغون أجمل ما صنعه الأقدمون من الإغريق والرومان ، ولهذا كان طبيعياً أن يبدءوا فى الاعجاب بمخلفات الماضى بما لدى الصناع المهرة من غبطة .

وكان من أسبق مَن بدأ البحث والتنقيب عن الكنوز القديمة : بترارك الذى عاش فى القرن الرابع عشر (من ١٣٠٧ إلى ١٣٧٤) . كتب شعراً بالإيطالية وبذا زاد اهتمامه بالألفاظ وكيفية استعمالها . وحاول أن يكتب باللاتينية ، على غرار شيشرون ، السياسى الرومانى الكبير . وهذا حداه إلى دراسة اللغة الإغريقية القديمة . وكان شيشرون نفسه قد صرح بقوله : « الإغريق أساتذتنا فى المعرفة وفى كل فرع من فروع الأدب » ، وكان شيشرون — ككل الرومان المثقفين — يعرف اليونانية . وهكذا تجد أن رغبة بترارك فى تقليد شيشرون قادته إلى دراسة اللغة اليونانية . وجال فى إيطاليا وفرنسا وبلاد اليونان بل فى شمال إفريقيا ابتغاء الكتب والعملة والنقوش والمدونات . وكان همه أن يستكشف الدنيا المفقودة ، دنيا الجمال والمعرفة ، تلك التى اختبأت منذ قرون . ومن أنفَس كنوزه كتاب لم يستطع قراءته وهو الشعر الإغريقى الذى نظمه هومر عن سقوط طروادة وعن رحلات يوليسيز (عوليس) « إن ذكرى الأعمال المجيدة بل إن أسماء الأقدمين من الإغريق والرومان وحدها لتملأنى حبوراً » . قال هذا القول وهو يصدُق على أولئك الذين جاءوا بعده .

ولقد كانوا كثيرين : رهباناً ، علماء ، قساوسة ، أساقفة ، باباوات ، فنانين ، تجاراً ، رجال مصارف مالية ، أمراء . . . فى كل مدن إيطاليا .

وعندما استقر فى فلورانسا إغريقىٌ من القسطنطينية — اسمه مانيويل كريسولوراس — وبدأ فى تدريس الأغريقية ، تزاحمت حشود من الناس لتستمتع إلى محاضراته . ولقد اعتذر طالب حقوق — من بين من واظبوا على الاستماع إليها — اعتذر لنفسه عن إهماله دراساته القانونية بقوله ، محدّثاً نفسه : « أتأبى أن يلقنوك دراسات عن هومر وأفلاطون وديموسطين وعن كل أولئك الكتاب الذين يروى عنهم كل هذه الأعاجيب ؟ » . ولقد نحا نحو كريزولوراس علماء إغريقون آخرون زابل كثير منهم

القسطنطينية جاءوا يحملون كتبهم ، كتبهم الإغريقية ، وقد أحضر واحد منهم ٢٣٨ مجلداً ! وأرسل بعض الأغنياء من تجار فلورنسا والبندقية إلى القسطنطينية وكلاء ليبتاعوا منها كتباً إغريقية . وبدأ البابا نيقولا الخامس جمع المكتبة الكبيرة التي ماتزال تحتل مكانها فى الفاتيكان حيث يعيش البابا ، قد جمع فعلاً ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مجلد .

وقد هربت إلى إيطاليا أفواج كثيرة من الإغريق وذلك قبل فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ مباشرة . وقد بقيت فى مكتبتها — حتى بعد فتحها — مجموعات كبيرة من الكتب . بل لقد فاخر سفير ألمانى لدى سلطان تركيا — بعد ما انقضت مائة سنة على فتحها — بأنه استجدى واشترى كتباً ومخطوطات على الرق إغريقية ، ملأت مركبات نقل كاملة وأعدها لتبحر إلى البندقية .

واستمر البحث ، إذ ذاك ، فى كل مكان استمراراً حثيثاً . ووجدت — فى نسخ مفردة — مخلفات كثيرة من قدامى المؤلفين وحملت إلى بعض الأمراء أو الأساقفة أو التجار الذين دفعوا لقاءها أثماناً عالية جدا

عصر النهضة العلمية :

كان الأغريق أحكم الأقدمين قاطبة . فلا عجب إذا افتتن بهم أهل القرن الخامس عشر . وبما أن أفلاطون — وهو الفيلسوف الإغريقى الذى كتب عن سقراط ، أعقل أهل أثينا — درج على التدريس لتلاميذه فى حديقة باسم الأكاديمى (أى الندوة العلمية) فقد أسست فى المدن الإيطالية « ندوات علمية » اختلف إليها محبو المعرفة . وكانت كتابات أفلاطون تبجل تبجيل الكتب المقدسة ، إلى حد إن بيكو دلا ميراندولا أوقد مصباحاً أمام مزار وقفه على تمجيد أفلاطون . بل أن إيراسموس —

وهو العالم الهولندى وأحد المبرّزين الأفذاذ — تضرّع إلى « القديس سقراط » أن يصلى من أجله. وأهاب أحد كرادلة الكنيسة بأصحابه ألا يقرءوا ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية وذلك لرداءة أسلوبها بالمقارنة إلى اللاتينية السامية التى استخدمها شيشرون. وقال كردينال آخر إن أحداً لا يستطيع أن يفهم الكتاب المقدّس مالم يقرأ كتب أرسطو الإغريقى.

ولم تكن تلك المعارف « الجديدة » — فى واقع أمرها — غير معارف الإغريق القديمة أعيدَ استكشافها، لقد كانت بعثاً أى ميلاداً جديداً.

و « عصر النهضة العلمية » هو الاسم الذى أطلقه المؤرخون على تلك الحقبة من الزمان. وقد بلغت النهضة أوجَها فى مدينة فلورنسا فى عهد لورنزُو دى ميديتشى من ١٤٦٩ إلى ١٤٩٢، وفى روما فى عهد ولده البابا ليو العاشر من ١٥١٣ إلى ١٥٢١. غير أن الأساقفة والنبلاء والتجار ظاهروها فى كلّ المدائن طوال نصف قرن من الزمان.

ولم يكن قوام النهضة — من أول عصرها إلى آخرها — الكتب وحدها بعد أن نُقب فى خرائب روما عن النقوش والتماثيل. وقد استخفى دوناتيللو النحات استخفاء فى ثياب عامل وجال فى كل مكان بمِعْوَله ومجرفته ليستخرج دفائنها من التحف والفرائد فلم يظفر بطائل، ولم يلبث أن أكره على السعى إلى رزقه من مهنة صياغة الذهب. وعندما وجد تمثالُ لاؤكوئين مطمورا بالقرب من روما نقب عنه الفنان الكبير ميكلأنجيلو شخصياً ونقل (التمثال) عبر المدينة فى موكب كمواكب الغزاة الفاتحين: أزدانت الشوارع بالأعلام ودُقت الأجراس وأطلقت المدافع بينما كان الشعب يهلل وينثر الأزهار ونقلت النقود المعدنية والأوسمة (المداليات) والنماقم والقوارير البرونزية وأوانى الزينة ونماذج الوجوه المصغرة، نقلت أحمالاً فى السفن من الجزائر الإغريقية إلى البندقية حيث دفع هواة جمع التحف لقاءها أثماناً عالية. ولم يدر فى خلد

الفنانين الذين زخرفوا جدران الكنائس والمنازل أن يدخلوا فى تصاويرهم، للمناظر التى وردت فى الكتاب المقدس ، شيئاً من صور آلهة الوثنيين وتماثيلهم ! وبما أن القوم إيطاليون فقد اعتزوا بأنفسهم لأنهم من سلالة الرومان الأقدمين، وقد لبس بعضهم الشَّملة(١) تقليداً لأعضاء مجلس السناتو الرومانى. وادعى أحد الباباوات مزهواً، أنه من سلالة الإمبراطور نيرون.

وبصرف النظر عن كل ما صدر عن البعض من الانفعال والسلوك الغريب،ظهر كثير من نتائج العمل المضنى إلى حيز الوجود . فقد قضى كثيرٌ من العلماء حياة مديدة فى دراسة النحو والصرف الإغريقيين وفى تفهم الأشعار والتمثيليات والروايات والسِّير الإغريقية . وإنا لندين بالكثير لكدهم الطويل الأناة الذى سهل جميع ما تلى ذلك من دراسات . وإلى هذا النبوغ والتعمق فى العلم ، وجدت بإيطاليا ، فى عصر النهضة ، مجموعة مذهلة من عظماء الفنانين .

فقد كان ميكلانجلو يقدر على نحت كتل ضخمة من المرمر، فى سرعة ودقة فائقتين ، فى أعجب موئل للتماثيل رأته الدنيا فى كل العصور . وكان ليوناردو دافينتشى يجوب الشوارع ساعات طويلة بحثاً عن « وجوه » تصلح موضوعاً يرسمه بريشته ، وكان يصور صوراً ، جمالها منقطع النظير وكان نبوغ هذين الفتـــاتين متعدد النواحى ... كان ميكلانجلو أيضاً شاعراً مهندساً.ودرس ليوناردو الموسيقى والرياضيات وخطط لآلات تطير ولمدافع سريعة الطلقات ، وإن حياته لتذكرنا بقول أفلاطون : « ماينبغى لرجل يتبع الحكمة أن يهوى نوعاً واحداً من العمل بل عليه بجميع الأعمال »

ولقد شحذ عصر النهضة اهتمام الناس بكل ماصنعه الإنسان وبكل مايسعه صنعه . لقد كان « الإنسان » موضوع دراساتهم ولذا أسموهم « الباحثون فى علم الطبيعة البشرية أو علم الإيمان بالإنسان » .

(١) الشملة كساء واسع كان الرومانيون (واليونانيون) يشتملون به .

بدأت الفترة العظيمة الأولى — من عصر النهضة العلمية — فى إيطاليا. غير أن تلك العظمة امتدت إلى بقاع أوربا الغربية . وفى غير إيطاليا أمسى العلماء « إغريقيين » ومؤمنين بالإنسان : فى فرنسا وفى هولاندا وفى ألمانيا . وكثيراً ما وطأت أقدام الإنجليز الطرق الطويلة الممتدة إلى فلورنسا وبولونيا وپادوا ، نعم حدث ذلك فى القرون الماضية عندما كانوا يطوفون — بوصفهم طلبة — منشدين أغانيهم اللاتينية . ولقد كانوا يرتحلون إذ ذاك ، بوصفهم حملة مشاعل للمعرفة الجديدة، ويزورون إيطاليا لينقلوا إلى وطنهم (إنجلترا) حكمة قدامى الإغريق التى بعثت . وكان من بين أولئك : توماس لينا كر مؤسس كلية الأطباء الملكية ، وچون كوليت الذى أسس فى لندن مدرسة سنت پول . وما هو إلا القليل حتى أخذت اللغة الإغريقية تدرس فى أكسفورد وكمبردج .

وازداد عدد الكتب أضعافاً مضاعفة . فقد استأجر الأغنياء من هواة جمع الكتب ، استأجروا النساخين لنقل كتب أفلاطون وأرسطو ومن إليهما . ولم يكن فى حساب المؤمنين بالإنسان ، الذين استكشفوا هذا القدر الكبير من المعرفة المنسية ، أن هذه المعرفة قد تضيع مرة أخرى . وكان المفروض أننا سوف نظل ننقل كل كتبنا بأيدينا لولا أن ظهر رجل اسمه يوهان جوتنبرج كان يعيش فى مدينة ماينز الألمانية .

الطباعة :

اخترع جوتنبرج مطبعته حول سنة ١٤٥٠ . وقد عرف الناس ، قبل عهده بزمان طويل ، كيف يطبعون أو كيف يصنعون وسماً أو انطباعاً ... على الشمع أو على الصلصال ، بخاتم محفور . وكانوا قد بدءوا ينقشون صوراً وحروفاً على كتل من خشب ويدهنون الكتل بالحبر ويخرجون صوراً بسيطة مطبوعة ، وذلك بضغطها على فروخ من الورق ، من نوع الورق الذى نعرفه ، لا من البردى .

وكانت صناعة الورق قائمة منذ بعض الوقت ، تعلمها أسلافنا من العرب الذين يكونون قد نقلوها عن الشرق الأقصى . ثم قفزت صناعته من فورها إلى عمل عادى بسطته الخبرة العالية . وكانت خرق الأقمشة القطنية تمزق وتندف حتى تتنسل ثم تحول إلى عجين سائل كاللبن السميك ، وتبيّض وتسكب على أحواض لتجف وتصير أشرطة من الورق رقيقة بيضاء. وقد كان جوتنبرج يطبع كتبه على الورق .

وأهم ما فى اختراعه أنه صنع حروفاً هجائية معدنية تتحرك بحيث يمكن أن تتركب منها كلمات وسطور وصحائف تشد فى إطار شداً محكما ثم تطلى بالحبر بحيث يمكن أن يضغط عليها فرخ الورق بعد الفرخ .

ولقد تعودنا على الكتب المطبوعة إلى حد أننا لا نستطيع أن نتصور الدنيا من دونها ومن دون الورق . فعندما شرع كوسيمودى ميدتشى الفلورنسى فى إنشاء مكتبته طلب كتباً من مورّد كتبه ، فاستخدم هذا ٤٥ نساخاً لينقلوا بخط اليد ٢٠٠ كتاب مختلف ، وقد أنجزوا هذا العمل فى ٢٢ شهراً . وكان السيرجون باستون الإنجليزى ينقد نساخة بنسين (أى قرشاً مصرياً على وجه التقريب) لقاء نقل كل صفحة من الصفحات المخطوطة على الرّق . على أن أحسن الخطوط المكتوبة بالحبر الأسود الحالك على رق من العاج لتفوق كثيراً فى منظرها كل ما كان مطبوعاً آنذاك . وفى الواقع أن كثيراً من الكتب المطبوعة كانت قبيحة إلى حد أن نبيلاً إيطالياً أبى أن يقتنى فى مكتبته كتاباً مطبوعاً واحداً ولذا استمر فى أن يؤجر طائفة كبيرة من النساخين لينسخوا له الكتب التى يبتغى اقتناؤها .

ولقد واتت الطابعين الأولين فرص فريدة ، إذ أن كتب العالم جميعاً كانت تنتظرهم . واستقرت الطباعة ، بعد بدء اختراعها ، فى مدى خمسين عاماً فى كل البلاد الغربية ، وعندئذ أضحت الكتب متقنة الصنع . فاستعملت

حروف جديدة واضحة حسنة الرسم . وطبع جوتنبرج الكتاب المقدس باللاتينية : وفى إيطاليا طبع ألدوس فى البندقية سلسلة عظيمة من الكتب الإغريقية واللاتينية القديمة . وكان الرعيل الأول من الطابعين يختار من بين الكتاب والعلماء .

وقد حدث أن وليم كاكستون — وهو تاجر أصواف إنجليزى كان يقيم فى بروج — تعلم الطباعة هناك وجاء بمطبعة إلى إنجلترا . وقد أقامها عند ساين أوف ذى رد بيل (أى دليل السور الأحمر) القريب من وستمنستر حيث اشتغل بتلك الصناعة المدهشة . وفى الإمكان الوقوف على وصف أول الكتب التى طبعها من « تقفيلته » أى من العبارة التى يختتم الكتاب بها .

وهنا ينتهى الكتاب — المسمى : أمالى وأقوال الفلاسفة — الذى طبعتُه أنا ، وليم كاكستون ، فى وستمنستر فى السنة الميلادية ١٤٧٧ . ولقد ترجم هذا الكتاب أخيراً ، من الفرنسية إلى الإنجليزية ، اللورد النبيل القدير : لورد أنتونى أيرل ريفرز .

وكان من بين الكتب العديدة التى طبعها كاكستون « أسطورة القديسين الذهبية » ، و « قصص كانتربرى » لـ .. تشوسر .

وقد نمّت الكتب المطبوعة الرغبةَ فى دراسة الكتب وبعثت فى الناس الحمية لاغتنام المعرفة التى يمكن أن تصدر عن الكتب ، ويسرت المطبعة لكثير من العلماء قراءة مؤلفات الإغريق والرومان ، وبغير ذلك لم يكن التعرف عليهم ممكنا . والطباعة فى الواقع هى الاختراع الذى حفظ الكتب القديمة والذى يسّر كذلك المعرفة الحديدة ونشرها بمجرد ظهورها فى أية بقعة من بقاع العالم .

ولقد جاء الورق والطباعة فى الوقت المناسب لإنقاذ ما بقى من حكمة

الإغريق . ومنذ أن طبع الطابعون الأولون كثيراً من الكتب بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بدأ الناس يدرسون لغتهم الأصلية وإلى جانبها اللاتينية والإغريقية . وقد بدءوا يؤلفون المزيد من الكتب بلغاتهم وإن استمر العلماء فى استعمال اللاتينية بوصفها نوعاً من لغة دولية .

الأرض والسماء :

كان السواد الأعظم من الناس يعتقد أن الأرض مسطحة . على أن العلماء كانوا يعتقدون أن الدنيا كرة تدور الشمس حولها . وقد صور الشاعر الإيطالى دانتى ، فى قصيدته العجيبة «الملهاة الإلهية» ، صور الجحيم حفرة ذات تسع طبقات تحت الأرض . وصور الأعراف (أو المطهر) على أنها جبل وعر الانحدار يطلع من البحار الجنوبية . وصور الفردوس على أنه مكان أعلى من منازل السماء التسعة . وكانت تلك المنازل تحاكى كرات ضخمة شفافة يلف كل منها فى قلب الأخرى .

وقد زعم كل العلماء تقريباً أن الشمس تدور حول الأرض . غير أنه كانت هناك قلة تعتقد أن الأرض تدور حول الشمس . وهذا ما زعمه واحد من فلاسفة الإغريق القدامى . وزعم ليوناردو دا فينتشى أن الأرض إن هى إلا كوكب كالكواكب الأخرى . وكان الرجل الذى أثبت أن الأرض تدور حول الشمس ، وتلف حول نفسها وهى تسير سيرها ، هو : نيقولا كوبارنيكوس ، وهو بولندى وقسيس كاثوليكى سابق درس فى جامعات كراكاو — و — بولونيا — و — بادوا . ولقد كتب عنها بعد أن درس الرياضيات والفلك .

وذاعت أفكاره ذيوعاً بطيئاً . واستأنف آخرون عمله وبرهنوا على صحة ما ذهب إليه وبدءوا يرسمون عالم الكواكب والنجوم .

ويصح أن يقال بحق إن رحالة النهضة العلمية وباحثيها وفنانيها وعلماءها قدموا للناس دنيا جديدة ومعرفة جديدة ومعنى جديداً للجمال وسماء جديدة

الباب الخامس

ممالك الغرب الكبرى
والدنيا الأمريكية الجديدة

الإمارات والدول :

« شخصيات هذا الجزء من الحكاية : ممالك ودول . وكانت ممالك الغرب الكبرى هي أسبانيا وفرنسا ، وإنجلترا ... التي أصبحت بريطانيا العظمى في عام ١٦٠٣ وقتما ورث الملك جيمس الأسكتلندي عرش إليزابيث الأولى الإنجليزية . وكانت لهذه الممالك الثلاث شواطئ طويلة على المحيط ، وقد كافحت ضد بعضها البعض من أجل التجارة وأملاك ما وراء البحار ، وكانت هي الممالك التي حققت أكبر الثراء من استكشاف أمريكا ومن فتح باب التجارة مع إفريقيا والهند والشرق الأقصى .

وكذلك اشتغلت دولتان ، أصغر شأناً ، بالتجارة والمستعمرات ، وهما مملكة البرتغال وجمهورية هولاندا ، وتقعان على شواطئ أوربا .

وكانت في داخل أوربا ، بلا شواطئ ، دولتا النمسويين والأتراك القويتان وحوت كل منهما شعوباً متعددة .

وكان حكام النمسا — البالغة الصغر في حـــد ذاتها — يلبسون تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ذلك أنهم ورثوا الأبهة والصولة والجلال عن أباطرة القرون الوسطى الذين زعموا أنهم الخلفاء المسيحيون لأباطرة الدنيا القديمة « الرومان » .

وكان أباطرة الرومان النمسويون المقدسون هم السادة الأعلين لمجموعة الممالك الألمانية وإماراتها ولولاياتها ومدنها ، غير أنه تعذر عليهم إقرار

النظام فيها : إذ أن ولايات ألمانية قوية — مثل بافاريا وسكسونيا وفورتمبرج — كانت تتصرف على هواها إلى حد كبير . ومع ذلك كان للإمبراطور الرومانى المقدس سلطان شرعى عليها . وكان الأباطرة — إلى أنهم حكام ألمانيا التقليديون — كانوا كذلك ملوكاً على هنجاريا حيث عاش المجريون . وتحتم عليهم — نتيجة لذلك — حماية أوربا من الأتراك المسلمين . ولقد تملكوا كذلك على البوهيميين الذين نعرفهم الآن باسم التشيك .

وقد حاول سلاطين تركيا أن يهيمنوا على إمبراطورية ضخمة كانت تمتد من نهر الدانوب إلى الفرات وإلى النيل ، إمبراطورية أسست على الأنقاض المتعددة الأشكال لمدنيات قديمة أخذت الآن تتحطم وتتعفن وتصبح فلاة أو هباء .

وفى الناحية الشرقية كان ينتشر — على السهول الأوربية الكبرى — البروسيون وهم شعب تحوى من الفرسان الشجعان ومن ملاك الأرض نشئوا على حب الحروب ، على غرار أمراء ويلز العسكريين لهذه الجزيرة فى القرون الوسطى . وكان من خلف البروسيين : البولنديون الكاثوليك الشجعان يحكمهم ملك خاص بهم . وعلى مبعدة منهم ، على مسافة جد طويلة ، وجدت حول موسكو مملكة الموسكوف التى كانت بداية روسيا الحديثة . وقد أخذ تجارنا يتاجرون مع المسكوف ، وذلك عقب مغامرتين . فلقد أبحر ويلوبى وتشانسيلور إلى البحر الأبيض ومنه رحل تشانسيلور براً إلى قصر إيفان الرهيب الفخم .

وظلت إيطاليا بلاداً ، تسعى كل مدينة فيها إلى حظها من الثراء . بلاداً لا يحسب أهلها أنفسهم إيطاليين بل رومانيين أو بندقيين أو فلورنسيين أو جنويين . وكان يحكم قلب شبه الجزيرة مندوبون من قبل البابا .

وقد أسمينا هذه الأمم والممالك « شخصيات » وكأننا نكتب تمثيلية . وقد نستطرد إلى القول بأن للتمثيلية مشهدين أساسيين : المشهد الأول ، أوربا حيث كان الملوك يحاربون ابتغاء السلطان والبقاع : النمسا ضد تركيا ، والنمسا ضد فرنسا ، وفرنسا ضد أسپانيا ، وبريطانيا ضد فرنسا الخ . والمشهد الثانى ، المحيطات والدنيا الجديدة حيث تسابقت أسبانيا وفرنسا وبريطانيا فى مضمار التجارة والمستعمرات .

وكانت المملكة التى عقد لها التفوق فى كلا المضمارين هى فرنسا . ذلك أنها كانت كأنها محور تدور حوله ثروات الدول الغربية . وكان الفرنسيون يقودون الدول المسيحية ضد المسلمين فى الحروب الصليبية حتى إن العرب والترك كانوا يعدون كل غربى « فرنجيا » أو فرنسياً . وظل الفرنسيون يتزعمون المدنية الغربية فى العصور الحديثة . وفى القرن السابع عشر كانت آداب السلوك الفرنسية والأزياء الفرنسية والأدب الفرنسى والعلوم الفرنسية ، كانت كلها نماذج تحتذيها أوربا بأسرها . وكانت اللغة الفرنسية هى لغة التخاطب بين الأمم المختلفة ، لغة السفراء ومعاهدات الصلح ، وقد أستمر ذلك معمولاً به حتى القرن العشرين ، بل إنها كانت اللسان المهذب المتمدن حتى لدى البلاط الألمانى والنبلاء الروسيين . وكان احتذاء الملابس وآداب السلوك الفرنسية سمة ... المرء تربى وتهذب .

مذاهب كنسية متعددة بدلاً من مذهب واحد :

وقتما أبحر كولومبوس إلى أمريكا — أول مرة — على ظهر سفينة أسبانية كان يحكم أسبانيا : فرديناند حاكم أراجون وإيزابيلا حاكمة قشتالة . وبزواجهما أصبحت أسبانيا مملكة موحدة وقوية ، وأثرت بالذهب الأمريكى . وبفضل التوفيق فى زيجات أخرى لم يرث حفيدهما — شارل الخامس — أسبانيا والممتلكات الأسبانية فى أمريكا فحسب به ورث أيضاً تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فحكم النمسا والمجر والدويلات الألمانية

(بما فيها ما نسميه الآن : بلجيكا وهولاندا) وأسبانيا وأمريكا الأسبانية . ولم يسبق لملك قط أن ظفر بمركز قوى كهذا أو تعرض لمتاعب شديدة كتلك . ذلك أن محاولة حكم أسبانيا والإمبراطورية جميعاً ، دفعة واحدة ، لم يكن بالأمر السهل إطلاقاً حتى فى الأونة العادية . ومن سوء حظ شارل الخامس — الذى كان واسع الأفق — أن قامت ، فى حكمه وفى أملاكه ، ثورة على تعاليم الكنيسة . وبما أنه كان إمبراطوراً فقد أصبح — بطبيعة الحال — حامى الكنيسة .

و « الشقاق الدينى » — حسب مدلول التعبير الإغريقى يفيد الخروج أو الانشقاق على الشريعة المتبعة . ولقد كان الشقاق الدينى — الذى حدث فى القرن السادس عشر والذى عرف باسم : الإصلاح الدينى — كان ، بصفة أخص ، من عمل رجلين شهيرين هما مارتين لوثر وجون كالفن .

وكانت حال الكنيسة سيئة . فلقد كثر ، بين الرهبان ، المستهينون والمتوانون ، كثرة فاحشة . ووجدت بين كبار رجال الكنيسة أغلبية ضخمة تتهالك على اقتناء الأرض والأموال لأنفسهم ولذويهم . وتاق الناس الطيبون فى كل مكان إلى أن يروا تحسناً فى أمور الكنيسة ، وأجريت إصلاحات صغيرة هنا وهناك . ففى أسبانيا كان الكهان يحكمون حكماً شديد التحفظ . وفى إيطاليا ضربت جماعات من الناس الصالحين مثلاً طيباً للحياة المسيحية وذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعيادة المعوزين والمرضى .

وفى إنجلترا حوّل قليل من الأديرة التالفة إلى مدارس . ولكن أكبر الاضطراب كان فى روما نفسها . فالباباوات لم يكونوا دائماً على ما ينبغى لهم أن يكونوا . فلقد حاكى بعضهم ، كل المحاكاة ، الأمراء العاديين ، يكدسون الثروات لأنفسهم ولبنى إخوتهم ، ولأولاد أولئك فى بعض الأحيان .

ولربما كان بعضهم علماء صالحين ، ولكن كنسيين طالحين . وبطبيعة الحال : إذا لم يبلغ البابا ورجال الكنيسة مستوى الصلاح الذى وجب أن يكونوا عليه فإن أمراء أوربا ونبلاءها كانوا مثلهم فاسدين . وأمسى الكثيرون من الناس مهملين أو قل : دنيويين . وكان هناك فعلاً — قبل عهد شارل الخامس بوقت طويل نوعاً — باباوان متنافسان : واحد فى فرنسا وواحد فى روما . وكان ختام هذه الحالة المؤسفة عقد مجالس كنسية . وتحسنت أحوال الكنيسة تحسناً يسيراً ، إذا كانت قد تحسنت أصلا . ولكنها ظلت مع ذلك سيئة إلى حد قلق معه الناس الطيبون من أمثال سير توماس مور كبير قضاة إنجلترا وصديقه إيراسموس ، ذلك الهولاندى الذى كان واحداً من العلماء الأعلام فى زمانه .

وكانت الكنيسة ، منذ وقت سحيق ، قد عملت على أن يشعر جميع الشعوب ، التى استقرت فى بقاع الإمبراطورية الرومانية القديمة ، بأنها أعضاء فى مجتمع مسيحى كبير واحد على الرغم من اختلاف لغاتهم وتعدد ملوكهم . أما الآن فقد بدأ الناس يشعرون بغير ذلك . قال رجل من البندقية يوماً « دعونا نكن بندقيين أولاً ثم مسيحيين بعد ذلك » . ولقد أذن الوقت بأن نقول عما قليل « دعونا نكن فرنسيين أو ألماناً أو إنجليزاً أولاً ثم مسيحيين بعد ذلك » . فلقد كانوا يفكرون فى أن يكونوا وطنيين أكثر مما كانوا يفكرون فى أن يكونوا مسيحيين .

وبفرض أن الحال لم تكن على هذا المنوال بل بفرض أن الكنيسة كانت على حال طيبة فإنه لم يكن بد من حدوث مجادلات ومشاحنات فى شئون الدين . ذلك أن اختراع الطباعة قدم الكتاب المقدس إلى كل الناس ليقرأوه وما فهم الكتاب المقدس بالأمر اليسير ، وإن الناس المختلفين ليفسرون تعاليمه تفاسير مختلفة .

هكذا، إذن كانت الحال وقتما كان شارل الخامس يبذل ماوسعه من جهد فى حكم نصف أوربا .

ولد مارتن لوثر — وهو ولد معدّن ألمانى — فى أيزليبين عام ١٤٨٣ . وكان مجتهداً فتلقى دروساً فى النحو والصرف مصحوبة بكثير من الضرب بالسوط كى يُكب على كتبه . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره دخل جامعة إيرفورت حيث نال ، فى سنة ١٥٠٥ ، درجة الأستاذية فى الآداب وأمسى قسيساً . ثم عين مدرساً فى جامعة ڤيتنبرج الجديدة حيث لفتت الأنظار غيرته وتفوقه فى اللغة . وكان قانتاً غيوراً على الكنيسة .

وحدث أن أمرين غيرا حياته وغيرا — تبعاً لذلك — حياة ملايين غيره :

الأمر الأول أنه رحل إلى روما عام ١٥١١ وأفزعته قلة الصلاح والاحتشام بين أسراب رجال الكنيسة .

والأمر الثانى أنه خاصم راهباً اسمه جون تيتزل .(١)

كان تيتزل يجوب البلاد ليبيع الغفران ويحصل من ذلك على أموال للبابا . . . تماما كما صنع بائع الغفران الذى تحدث عنه تشوسر . نعم إن الرجل الذى يندم حقاً على ذنوب ارتكبها لا يضايقه أبداً تقديم أموال للكنيسة . ولكن صكوك الغفران تلك كانت تطرح للبيع أمام الناس جميعاً بشتى أنواعها كالأدوية الرخيصة أو الفطائر المحشوة . ولم يكن عليك إلا أن تقدم نقودك وتتسلم غفران سيئاتك .

لقد كانت الفكرة حسنة ولكن طريقة تنفيذها كانت سيئة .

كان تيتزل يدق طبلة ليستجمع الناس حوله . فقال لوثر « سأحدث ثقباً

---

(١) يوحنا تيتزل .

فى طبلته بإذن الله ، وعمد إلى كتابة خمسة وتسعين من التقارير أو البحوث ضد المتاجرة بصكوك الغفران وإلى تعليق الرقوق على باب الكنيسة ، وهى المكان المعتاد لإعلان الإشعارات ، كما هى الحال الآن ، فى أغلب الأحيان . وقد ترتبت على هذا مجادلات عنيفة . وانحاز الكثيرون إلى رأى لوثر .

وكان لوثر ماهراً أميناً . وظل زماناً طويلاً تساوره الشكوك والمخاوف حتى تنبه إلى النص الوارد «أما البار فبالإيمان يحيى» وكان هذا كالنور بالإنجيل العظيم بدد ظلام حيرته . وفكر : أية حاجة بنا إلى هذه الغفرانات ومخلفات القديسين الأثرية والحج والأبهة والمظاهر ولثراء رجال الكنيسة الفاحش ؟ وفى سنة ١٥٢٠ وجه نداء إلى نبلاء ألمانيا حمل فيه على ادعاء البابا رياسة الكنيسة ، قال فيه : «فى وسع كل مسيحى أن يعرف دينه وأن يقدره قدره» . وعلى هذا فلا محل لأن يقف القساوسة بين الله والناس إذ أن الناس يسعهم أن يسترشدوا بكتابهم المقدس وبضمائرهم .

وكان هذا تحدياً للبابا وللإمبراطور تبعاً لذلك . وفى سنة ١٥٢١ استدعى لوثر لحضور « مجمع عام » أو اجتماع للمجلس الإمبراطورى فى ورْمس ليجيب عن سلوكه . فلما مثل أمام شارل الخامس والنبلاء وأساقفة الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى كامل أبهتهم وجلالهم ، أبى أن يسحب كلمة واحدة مما سبق له قوله ، فقد أوتى شجاعة فائقة . وتوقع السجن والموت : الموت حرقاً . وعلى أية حال فقد قضوا بخروجه على القانون وحرمانه من حمايته إياه ، أى أن دمه أهدر لدى من يريد قتله . إلا أنه وجد ملاذاً بحصن حاكم سكسونيا ، وكان من النبلاء الذين أحبوه كما كان قوياً إلى حد لا يخشى معه شارل الخامس . وفى هذا الحصن بدأ لوثر ، ترجمته العظيمة للكتاب المقدس عن النسخة اللاتينية إلى اللغة الألمانيه ، تلك الترجمة التى أصبحت الآن أحد كنوز الأدب الألمانى .

وكان لوثر شاعراً ومتفقهاً فى اللغة ، وقد حدا كتابه المقدس بمئات من الناس إلى الأخذ بتعاليمه .

واستمرت أفكار لوثر تنتشر فى ألمانيا وهولاندا وفى إنجلترا . غير أنه لم يكن زعيماً يستطيع أن يؤسس كنيسة جديدة . وإلى أن جاء ذلك الوقت وجد كثيرون يبشرون ضد روما والباباوات . وكان من بينهم واحد بزهم جميعاً وهو جون كلفن .

كان كالفن أصغر من لوثر بكثير . ولد فى ١٥٠٩ . وهو ابن محام فرنسى وقد تمرن ليصبح محامياً مثله . ودراسة القانون تشحذ الفطنة وتزيدها مضاء . وكان كلفن ما يزال شاباً عندما طبع ، فى سنه ١٥٣٦ « مجامع الدين المسيحى » وهو كتاب ممتاز أرسى أسس مشروعٍ مكتمل لحكم الكنيسة ولمعتقداتها . وأصبح هذا هو الأساس القوى لكنيسة كالفينية جديدة ، كنيسة يحكمها رعاتها وشيوخها ، كنيسة صارمة دقيقة ، أدق بكثير من كنيسة روما القديمة . وقد زعمت المجامع الكلفينية أن رجالها هم رجال الله المختارون . وعندما اضطهدهم « الكاثوليك » — حسب الاسم الذى كان يطلق إذ ذاك على رجال الكنيسة القديمة — عمدوا هم إلى اضطهاد الكاثوليك . وكان كل هذا ، فى الواقع ، عنيفاً فظيعاً غير أن الناس عندما يبدأون فى الانحياز إلى هذا أو ذاك يكره بعضهم البعض — فى أغلب الأحوال — دون مبرر .

وقضى جون كلفن سنين عديدة فى حكم كنيسة فى جنيف إلى حيث انتقل عشرات وعشرات من الرعاة ثم انطلقوا يبشرون بتعاليمه . وكانوا — فى فرنسا — يعرفون باسم « الهوجنوت » وفى انجلترا باسم « البرزبيت » أى المشيخيين .

ولربما كان الباباوات ورجال كنيستهم قد تطلعوا إلى أن يردوا ، يوماً ما ،

بعض اللوثريين إلى الدين القديم . غير أن الكالفينين قوبلوا فى كل مكان بالسيف والبارود ، وكانوا هم كذلك ، يحسنون استعمالهما ، وقد خبر الكاثوليك ذلك .

وكان باباوات روما وكالفينيو جنيف خصوماً ألداء .

وكانت نتيجة هذا كله أن جزءاً كبيراً من الشعبين الألمانى والهولاندى أصبح لوثرياً ، وما يزال كذلك . وأصبح جمهور كبير من الفرنسيين كالفينيا أو هوجنوتيا . وحدثت فى ألمانيا وفرنسا حروب ضاربة بين الكاثوليك والبروتستانت ، حروب لم تزد على أن أججت مرارة كل فريق ضد خصمه .

ومن أسف أنه كان فى كل من الفريقين أناس طيبون صالحون مخلصون وأن مذاهب المسيحية المختلفة تأثرت بأوطان الناس . فى اللحظة التى خرج فيها الأوربيون — أول مرة — ليلاقوا الشعوب الأصيلة فى أمريكا وإفريقا وآسيا، عندئذ ذهبوا شيعاً مسيحية مختلفة بدلاً من أن يذهبوا على أنهم إخوان فى المسيحية .

الملك هال المخادع :

انتشل هنرى السابع الإنجليزى — وهو « الملك الحزين الوقور ذو الأفكار الجياشة » الذى كان يحكم عندما استكشف كولومبوس أمريكا — انتشل هنرى السابع مملكته من شغب الأمراء ومن معارك حروب الورد ووصل بها إلى بر السلام والرخاء . واستمتع الإنجليز ، فى مدى أربعة وعشرين عاما ، بحكمه الحازم الرحيم . فلقد كبح قوة الأمراء ونشط التجارة الخارجية . وبما أوتى من الاقتصاد والتدبير ترك الخزانة الملكية عامرة بعد وفاته ، على غير عادة الملوك بصفة عامة . وعند وفاة ذلك الملك الرمادى العينين المتحفظ الحذر ورث عرشه ولده فى سنة ١٥٠٩ م باسم هنرى الثامن .

كان الملك الجديد فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان مرحاً وسيماً مغرماً بالتنس وصيد الصقور ورمى السهام شغفاً بالموسيقى ميالاً إلى العلم . وكان محباً للمسرة والعشرة الطيبة ودوداً طيب السجية ، كل ذلك مالم يعترضه معترض . وظل بلاطه ثمانية عشر عاماً فى فرح بالأعياد وألعاب الفروسية (البرجاس) والولائم والرقص التنكرى وإضاءة المشاعل والشموع فى رتشموند وجرينتش . وكان لهنرى — فى كبير مستشاريه الكاردينال وولزى — خادماً أميناً حكيماً . ولقد كان وولزى حقاً واحداً من الأمراء العظام الأخيرين فى الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية . كان يأوى فى بيته خمسمائة : من السادة واللوردات ومن الخاصة والخدم . وإذا نطق — مشمولاً بالرعاية الملكية — فإن صوته هو صوت إنجلترا . وبوصفه كبيراً للمستشارين كان تلقائياً « الحفيظ على الضمير الملكى » . وبوصفه كردنيالاً كان يتطلع إلى أن يكون يوماً هو البابا . ومع هذا فقد بدأ حياته ابناً لتاجر فى إبسوتش . ولم يتأت لأحد من أى ملك رعايا إنجليزى مثل أبهته وترفه ، كما لم يحدث لأحد منهم أن عمل لسيده بمثل هذا الكدح والعناء .

كان هنرى شديد التعلق بالكنيسة ، وقد كتب كتاباً ينكر فيه مارتن لوثر وتعاليمه ، ولم يتقبل مشاركة الثوار من أى نوع فى أى عمل . ومع هذا لم يمض القليل حتى أخذ يشهر بالبابا .

وكانت زوجته الملكة ، أميرة أسبانية ، هى كاترين من أراجون . ولم ينجبا غير طفلة وحيدة هى مارى التى كانت قرة عينيه . ولكنه تاق إلى أن ينجب مولوداً ذكراً يرث عرشه . وأغرم غراماً عنيفاً بـ . . . آن بولين من سيدات البلاط . وسأل البابا أن يمنحه الطلاق فأبى ، فما كان من هنرى إلا أنه

أنكر سلطان البابا. ذلك أنه لم يكن ليسمح لشأن من شئون الضمير أو السياسة أن يعترض أمراً متى صحت عزيمته على تنفيذه . فانقلب من فوره ، من رفيق حسن السريرة إلى طاغية عنيد . ونادى بنفسه رئيساً للكنيسة ، وهيأ بنفسه ظروف طلاقه، وتزوج (آن) وطرد كاترين ومارى التعستين لتعيشا فى الريف عيشة العوز .

وولدت الملكة الجديدة بنتاً (إليزابيث) ولم يلبث أن أمر بضرب عنق الملكة بتهمة أنها أحبت رجلاً آخر .

وقد جلبت تلك الحوادث الخزى والموت لكثير من الرجال .

وعزل وولزى (مستشاره) وقبض عليه ومات حزناوكمداً. ثم إن رهبان جرينتش الورعين ونساك (دار الميثاق) الكرثوزيين بلندن — الذين اعترضوا على الطلاق — ألقى بهم فى غياهب برج لندن حيث ماتوا وتعفنوا . وقطعت رأس سير توماس مور — أحكم مستشارى عهده وأنبل رجاله — لأنه لم يغير من ولائه للكنيسة الذى لازمه طوال حياته . وحكم بالإعدام كذلك على فيشر أسقف روشستر البار . وألقيت مقاليد الحكم إلى توماس كرمويل وهو مغامر كان يوماً فى خدمة وولزى وخُول لسلطة وضع اليد على الأديرة وعلى أموالها وكنوزها وأراضيها . وقد فعل هذا وباع ممتلكات الأديرة لحساب الملك . وشنق بعض رؤساء الأديرة . وقد عوملت غالبية الرهبان معاملة معقولة . غير أن رجال البلاد الشمالية — عندما ثاروا على القضاء ، فى نزق وتهور ، على بيوتهم الدينية القديمة — أبادهم هنرى فى قسوة لا تعرف الرحمة . فلقد كانت رغبات الملك قانونا . ومن يعترض على الإرادة الملكية فهو ثائر . والثوار يستأهلون الموت . لقد كان الأمر ، من أوله إلى آخره ، بسيطاً إلى ذلك الحد !

وكان مصدر كل هذا العنت والاضطراب رغبة الملك فى الطلاق وطبيعته

الفاسدة العاتية التى — على حد قول وولزى — لم تكن لتسمح لأى شىء أن يعترض رغباته . وفى الحق أن هنرى كان سىء الحظ إلى حد منقطع النظير ، وذلك فى مغامراته الزوجية بعد أن طرد كاترين لتعيش فى الريف عيشة الخزى وبعد أن أطاح برأس آن بولين . ولقد تزوج بعد ذلك أربع مرات . ماتت زوجته الثالثة وهى تضع غلاماً ضعيفاً هو إدوارد : الابن والوارث الذى طال إنتظاره . والزوجة الرابعة — وهى أميرة ألمانية بروتستانتية — ظهر أنها ساذجة بلهاء وأحيلت على المعاش تواً . والخامسة — التى عرف سائر الناس أنها فتاة نزقة هوائية والتى أسرت هنرى بشبابها وفتنتها — لم تلبث أن قطع رأسها لأنها أحبت رجلاً آخر . والسادسة أرملة تعهدته بعنايتها وعاشت بعده . وهنرى — زوجاً — يبدو عديم الهيبة والحكمة . ولقد ترك بعدموته أسرة غريبة التنوع ، ثلاثة أطفال لأمهات مختلفات : الأميرة مارى الكاثوليكية ، والأميرة إليزابيث والأمير إدوارد اللذين ربيا تربية بروتستانتية . على أن هنرى لم يكن بروتستانتياً فى شىء . وظل يكره لوثر وأعماله . لم يكن يهمه غير شخص هنرى ولذا كان يقدر ما يراه هو فى شأن دينه . لقد عاقب البروتستانت لأنكارهم حقيقة العقيدة الكاثوليكية ، وعاقب الكاثوليك لأنكارهم رياسته للكنيسة . هنرى وحده على حق . ولا سبيل إلى معرفة رأى السواد الأعظم من الشعب الإنجليزى إذ ذاك ، إذ الزم أغلبه الصمت الحكيم . وأغرب ما فى منازعات هنرى للبابا هو توقيته . فلقد حدثت وقتما كانت تعاليم لوثر البروتستانتية تكسب أنصاراً من بين الكاثوليك فى كمبردج وغيرها ، وهذا ما زاد صعوبة التفاهم بين طريقتى العبادة : القديمة والجديدة .

وفى المدى القصير الذى فيه جلس على العرش الصبى ، الملك إدوارد السادس ، بتوجيه بعض النبلاء البروتستانت ، انتشرت تعاليم لوثر انتشاراً

وأسعاً وحدث مزيد من نهب الكنائس ، ومن تمزيق الأستار المنقوشة عليها صور المسيح مصلوباً ، واغتصاب الأوانى الثمينة والملابس الفاخرة ، وحرق الكتب القديمة ، والأتلاف الشامل للأشغال اليدوية الدقيقة التى تحلى الخشب والمرمر. وقد أثرى بعض الناس، وأسست مدارس قليلة العدد، ولم تعطَ الثروة المنهوبة إلى الكنائس البروتستانتية الجديدة . وعلى الجملة كابد الفقراء مثلما ما كابدوا عندما جرد أولئك السادة أنفسهم صغار الفلاحين من أراضيهم ، وذلك لينشئوا حظائر للماشية . إنهم سادة أوجز وصفَهم أحد النبلاء بقوله « رجال طلعوا من تحت كوم سباخ » .

وعندما ورثت الأميرة مارى تيودور — الكاثوليكية المخلصة — عرش إدوارد عام ١٥٥٣ هتف لها الشعب وفرح بها مستبشراً . فلقد تربت فى الكنيسة القديمة (وقد يكون ذلك عيباً بسيطاً فى نظر البعض) . لقد كانت أميرة ملكية أصيلة وابنة كاترين ملكة أراجون المحبوبة . غير أن شبابها الغض عصفت به قسوة أبيها . وكان يصح أن تصبح ملكة سعيدة خيّرة ولكنها امتُهنت ودفعت إلى العوز بل هددت أكثر من عشرين عاماً . ثم إنها لم تزد شعبية عندما تزوجت فيليب الأسبانى فى أبروشية ونشستر وعندما أمرت باضطهاد عشرات وعشرات من البروتستانت أحرقوا حول الخازوق . لقد كانت حقاً امرأة دمثة طيبة القلب فى كل أعمالها اللهم إلا فى حرق البروتستانت. ولا مراء فى أن الاضطهاد الذى أمرت به كان له تأثير كبير فى تعريض قضية الكثلكة لمقت الكثيرين . ولما ماتت ، دون عقب ، فى سنة ١٥٥٨ ورث عرشها أختها إليزابيث .

وإليزابيث الأولى هى ابنة آن بولين تلك التى تخاصم الملك هنرى، بسبب حبه إياها، مع البابا. وقد أتخذت مكان أبيها فى رياسة كنيسة إنجلترا، وأعادت إصدار

كتاب الصلوات الذى وضعه أخوها إدوارد لينتفع به رعاياها . كانت إنجلترا فى عهدها — من الناحية الرسمية — بلاداً بروتستانتية ولكنها كانت أكثر من ملكة بروتستانتية . ولقد ثبت أنها — كجدها هنرى السابع — « أعجوبة فى نظر العقلاء » لقد حكمت ٤٥ عاماً وسط مخاوف ومؤامرات ، وساعدتها شخصيتها على جعل حكمها بالغ الغرابة كالأقاصيص .

كتب مقدسة للفلاحين :

كتابان من أجل الكتب التى كتبت باللغة الإنجليزية فى أى زمن من الأزمان الماضية خرجا من بين كل مظاهر الشغب عندما كان ذوو العقول الخسيسة يحطمون النقوش الحجرية والخشبية وينهبون المزارات ويتلفون ما لن تسعف قرائحهم يوماً فى صنع مثله .

ويرجع أكبر الفضل فى وضع كتاب الصلوات إلى توماس كرانمار الذى نصبه هنرى الثامن أسقفاً لـ . . كانتربرى . وكثير من تلك الصلوات تُرجم عن الصلوات الكاثوليكية القديمة فى سلسبرى . غير أن هذه العبارات الجديرة بالذكر لا تصدر إلا من مـلك أعنّة الألفاظ :

« يا رب ، يا من عندك كل إرادة طاهرة ومشورة حسنة وعمل صالح ، إمنح عبيدك السلام الذى من قِبلك وليس من الأرضيات . ولتتأصل فينا وحدانية القلب لنطيع أوامرك . وبحفـظك نجنا من قيام الأعداء لكى نكمل أيامنا بكل طمأنينة وسلامة » .

ولقد أحرق كرانمار المسكين عند الخازوق بـ . . أكسفورد بأمر من مارى تيودور ليس فقط لأنه بروتستانتى بل كذلك لأنه طلق أمها امتثالاً لأمر هنرى . ولقد ملك كرانمار هبة البلاغة وهى هبة جعلت صلواته يتردد صداها منذ ذلك الوقت فى كل مكان يتكلم فيه باللغة الإنجليزية .

وفى كل مكان يُتكلم فيه باللغة الإنجليزية يدخر الناس الكتاب المقدس الإنجليزى .

وقد تمت الترجمة النهائية عام ١٦١١ على يد جماعة من العلماء الذين يتقنون اللغتين الإغريقية والعبرية وطُبعت على أنها الكتاب المقدس الذى صدر تحت إشراف الملك جيمس وكان أغلب أولئك العلماء من الشيوخ الذين درجوا على الاستماع إلى لاتينية الكتاب المقدس القديم والذين نشئوا على البساطة السامية التى كانت عليها اللغة فى مستهل عهد أسرة تيودور وقد استندت ترجمتهم إلى حد كبير على أعمال وليم تيندال الذى كلف نفسه — فى عهد هنرى الثامن — عناء القيام بترجمة تمسى فى متناول فهم كل فلاح. وإليك ترجمته ليشوع فى الفقرة الخامسة والثلاثين :

« تنشرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القفر ويزهو كالزنبق . يظهر إظهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنم . يدفع إليه مجد لبنان وبهاء كرمل وشارون . هم يرون مجد الأب وبهاء آلهتنا . شددوا الأيادى المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها .

قولوا لخائفى القلوب تشددوا . لا تخافوا هوذا إلهكم . الانتقام يأتى جزاء الله . هو يأتى ويخلصكم . حينئذ تتفتح عيون العمى ، وآذان الصم تنفتح . حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنم لسان الأخرس » .

هذا هو تيندال . وترجمة ١٦١١ هى اليوم بين أيدينا جميعاً . وفى الإمكان مقارنتها بتلك . وقد اضطر تيندال إلى أن يفر سراً إلى البلاد الواطئة ليستأنف عمله دون أن تزعجه الشرطة الملكية . هذ وإن يكن هنرى الثامن قد أصدر ، فيما بعد ، كتاباً مقدساً إنجليزياً ينتفع به رعاياه . وقد لقى تيندال حتفه بسبب عقيدته البروتستانتية ، فقد خنق وأحرق عام ١٥٣٦ بأمر من الإمبراطور شارل الخامس .

أما تأثير الكتاب المقدس على اللغة الإنجليزية فيجل عن الوصف. ذلك أن ألفاظه وعباراته أصبحت جزءاً من اللغة التى نتكلمها . وأن السجية التصويرية الواضحة فى العبرية وبساطة الإغريقية ووضوحها لم تنتقلا بمثل البراعة التى نقلتا بها إلى الإنجليزية . ولقد كان — فى نظر جماهير غفيرة — الكتاب الوحيد الذى يستحق أن يقرأ . وقد وجد فيه الكثيرون تاريخهم وجغرافيتهم كما وجدوا فيه دينهم . وقد تشربوا تاريخ اليهود كأنه سجل أسلافهم الوثنيين .

مائة السنة الأسبانية :

فى القرن السادس عشر كانت أقوى دولة فى العالم هى أسبانيا . وكان تاريخها مغايراً كل المغايرة للبقاع الغربية الأخرى . نعم إنها تماثلهم فى أنها كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . غير أنه قبل ذلك بزمان طويل كانت مناجمها ومزارعها وموانيها يديرها القرطاجنيون من إفريقيا . وبعد تدهور روما فتحها العرب المسلمون والمغاربة من إفريقيا . وظل معظم تلك البلاد تحت حكمهم — بعيداً عن تيار المسيحية العام — حتى تجمع ملوك النصارى وفرسانهم ، من الشمال والشمال الغربى ، وحاربوا حروباً طويلة انتهت بمعركة غرناطة التى انتصروا فيها .

وفى ذلك الوقت أخذت أسبانيا تزيد ثراء فوق ثراء بذهب أمريكا وفضتها. ومرد هذا إلى رحلة كولومبوس البطولية. وبينما كانت القادسيات (وهى السفائن الأسبانية الكبيرة) الفخمة تندفع ، فى كل عام ، بشراعها عائدة إلى وطنها مع الرياح التجارية عبر الأطلنطى ، كان نواب ملوكها يحكمون الأراضى الواطئة بمساعدة المشاة الأسبان المشهورين الحسنى التدريب ، إذ أنه بفضل الزيجات الملكية السعيدة أمسى فيليب الثانى الأسبانى يحكم كذلك الأراضى الواطئة . وكان فرسان أسبانيا وجندها يقومون بالحراسة على مصبات الراين وعلى طول شواطىء البحر الكاريبى .

وفى كل فترة من فترات القرن السادس عشر كان النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت الجدد يزيد فى مرارته . لقد كان الأسبان من الكاثوليك ، ولكن رعاياهم الهولانديين كان معظمهم من البروتستانت ، تماماً كحال شعبي إنجلترا واسكتلندة . أما الأيرلنديون فقد ظلوا من الكاثوليك .

وفى ١٥٨٨ أرسل فيليب الثانى — الذى كانت جنوده تعسكر فى الأراضى الواطئة — أسطولاً ضخماً أو « أرمادا » ليغزوا إنجلترا ويحتلها . وكانت هذه الحملة خاتمة دراما وقعت فصولها الباكرة فى إسكتلندة وفى الأراضى الواطئة وفى الدنيا الأمريكية الجديدة .

ماري ملكة الأسكتلنديين :

يتصل ملوك آل ستيورات الأسكتلنديون — عن طريق المصاهرة — بآل تيودُور الإنجليزى . وكانت إليزابيث — آخر أسرة تيودور — بلا عقب وعند ما توفى جيمس الخامس ، فجأة فى سنة ١٥٤٢ — ترك طفلةً هى ماري التى نقلتها ، عندئذ ، أمها الفرنسية إلى فرنسا . وهناك ، عندما بلغت السابعةَ عشرة ، زوّجوها من الملك الفرنسي . فلما مات بعد سنتين من ذلك ، أى فى ١٥٦٠ عادت إلى إدنبره وهى أرملة كاثوليكية فى التاسعة عشرة ، وكانت ابنة خالتها — إليزابيث الأولى — البروتستانتية الإنجليزية قد أمست ملكة قبل ذلك بسنتين . على أن قطراً إنجلترا و أسكتلندة الشقيقين كانتا — فى واقع أمرهما — « مملكتين تحكمهما ملكتان » .

ولقد كانت ماري — ملكة الأسكتلنديين — إحدى الملكات البئيسات فى التاريخ . ولم تكن علاقاتها بلورداتها البروتستانت على ما يرام إذ كان يعوِزها المستشارون القديرون الحسنو التصرف . وتزوجت مرة أخرى . وكان زوجها ، هذه المرة ، نبيلاً شاباً طائشاً اسمه دارنلى ، ولقد ملكت لورد دارنلى غيرةٌ جنونية من (سكرتير) ماري وهو إيطالىّ اسمه

دافيد ريزيو ، فأرسل جماعة من السفاكين الأوشاب فقتلوا ريزيو في حضرتها . وفيما كان دارنلي قد أرقده المرض — بعد ذلك بعام — في بيت بالقرب من إدنبره اسمه كيرك أو فيلد قائم على مقربة من إدنبره ، نسف بالديناميت ومات . وقد اتجهت شبهة القتل إلى إيرل بوذويل : فلما تزوجته ماري اتجهت الشبهة إليها هي الأخرى وثار عليها اللوردات . فهربت إلى إنجلترا تنشد حماية إليزابيث فحمتها فعلا بوضعها في قلعة تحت حراسة مشددة .

وإذ ذاك كانت ماري في الخامسة والعشرين من عمرها وقد أصبح جمالها أسطورة تدور على ألسنة الجميع . وكانت كاثوليكية ، وفي الوقت نفسه وارثة إليزابيث وفي الإمكان أن تصبح ملكة إنجلترا ، ولم تدر إليزابيث ماذا تصنع بها . وظلت ماري عشرين عاماً تحت الحراسة تنقل من حصن إلى حصن على أنها سجينة ، وفي الوقت نفسه كان اللوردات الأسكتلنديون البروتستانت ينشئون طفل ماري الذكر — جيمس السادس ملك الأسكتلنديين — تنشئة بروتستانتية .

واتسعت الانقسامات والخصومات بين الكاثوليك والبروتستانت وزادت عمقاً ، ونتيجة لأن البروتستانت بجميع طوائفهم كانوا يبشرون بالتعاليم على جميع أشكالها ، عقد الأساقفه الإيطاليون والأسبان — وكلهم من الكاثوليك — في ترنت بالنمسا عقدوا مؤتمراً ليصدروا لوائح في صدد العقيدة الكاثوليكية والعبادة الكاثوليكية . وأسست في أسبانيا محكمة التحقيق والاستقصاء الكنسية المسماة « محكمة التفتيش » للتحقيق مع الرجال والنساء الذين يعرف عنهم أنهم هراطقة (ضالون) أو يشك في كونهم يؤمنون بتعاليم غير كاثوليكية . فإذا أبدى أولئك الناس العناد يسلمون إلى مندوبي الملك ليحرقوا ، ولقد حرق فعلاً عند الخازوق آلاف من اليهود والبروتستانت ، وكان أعضاء محكمة التفتيش لا ينون عن العمل حيثما سيطر الأسبان .

وقد اسس جندى أسبانى — اسمه ايجناتيوس لويولا — جماعة عيسى وهى الجزويت (أى العيسويون) بقصد حماية الدين المسيحى من أعدائه. وكان الجزويت هيئة من الناس جديرة بالاعتبار يدربون وينظمون فى أشد تزمت ويتعلمون أن يطيعوا ، دون تردد ، أوامر رؤسائهم. وقد خالف نظامهم أنظمة كل الجماعات الدينية القائمة إذ ذاك. فكانوا يعيشون فى الدنيا لا فى دير مقفل ، ولا يتقيدون بلبس خاص يميزهم ، على أن يسمح لهم أن يحترفوا المهن العادية فى الحرف والتجارة. وقد درجوا على أن يجتذبوا إليهم أناساً من الطراز الأول فى الكفاية ، شأنهم فى ذلك شأن كل جماعات الرهبان. وكان بعضهم يلجأ إلى الغش والدسائس ليبلغوا مبتغاهم. غير أن من بينهم القديسين والأبطال كما أن من بينهم المتآمرين والسياسيين. وقد حرم عليهم دخول إنجلترا وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ، وقد أعدم بعضهم فعلا. «كان الجزويت يوجدون فى كل بلد وينبثون — مستخفين — بين صفوف كل مهنة : علماء ، أطباء ، تجار ، خدمة ، فى البلاط السويدى المناجز ، فى البيوت القديمة بضيعات شيشير ، فى حظائر الماشية بـ . . كونوت ، يجادلون ويعلمون ويستولون على قلوب الشباب ويشحذون شجاعة الجبناء ويحملون الصليب أمام عيون الموتى . . . . لقد انبثوا فى أعماق مناجم بيرو وفى أسواق قوافل الرقيق بإفريقيا وعلى شواطىء جزائر البهار وفى مراصد الصين . . . ولقد كانوا يبشرون ويجادلون بلغات لم تكن أية أمة غربية تفهم منها كلمة واحدة».

وكان مجمع ترنت ومحكمة التفتيش وجماعة عيسى هى الوسائل التى توسلت بها الكنيسة الكاثوليكية لرد البروتستانت إلى ملتها. ولقد قامت حروب دينية ، فيها اقتتل المسيحيون البروتستانت والمسيحيون الكاثوليك ، وقتل بعضهم بعضاً. بدأت تلك الحروب فى ألمانيا. وقبل عام ١٥٧٠ تحارب الكاثوليك والهوجنوت ، الموجودون بفرنسا ثلاثة حروب أهلية.

انقسمت المسيحية على نفسها ولم يكن هنالك ما يبشر بالسلام . غير أنها بقى لها ، مع ذلك ، أعداؤها القدامى . فنى الجنوب كانت أساطيلُ الأتراك العثمانيين تهدد بتطهير البحر الأبيض المتوسط من السفن المسيحية. ولقد غضب سلطان تركيا الكبير — سليمان العظيم — من هجمات فرسان القديس حنا بعد أن نهبت سفائنهم الكبرى التجار المسلمين فضرب حصاراً على جزيرة مالطة فى سنة ١٥٦٥ . وقد كابد الفرسان — أكثر من ثلاثة أشهر — الهجمات المتلاحقة غير أنهم احتفظوا بقلاعهم وأنقذوا مالطة عام ١٥٧١ . ودمر دون جون النمسوى — الذى عقدت له قيادة سفن أسبانيا والبندقية — الأسطول التركى فى نصر مدوّ بالقرب بين ليبانتو ، وفقد سرڤانتس — وهو الأسبانى الذى ألف رواية دون كيشوت — فقد يده فى تلك الموقعة الضارية . على أن الأمم المسيحية الأخرى كانت أكثر انشغالاً بشئونها الخاصة من أن تشارك فى محاربة تركيا .

وما كان عسى أن تصنع الملكة اليزابيث الإنجليزية بمارى ملكة الاسكتلنديين التى كان من أمرها ما قد يحمل السادة الكاثوليك على أن يتآمروا عليها ويثوروا ضدها ؟ وكانت محكمة التفتيش والجزويت يدبرون هجوماً مضاداً على البروتستانت ، وكانت مارى هى الوريثة الكاثوليكية للعرش الإنجليزى .

وعلم البحارة الإنجليز الموجودون فى البحار الضيقة بكل شىء عن ذلك الهجوم الكاثوليكى المضاد . وعلى بعد أميال قليلة من مصب التيمز كان نواب الملك فيليب الثانى الأسبانى يبذلون قصارى جهدهم لتحطيم بروتستانتيّ البلاد الواطئة .

الهولانديون :

استعمر الأراضى الواطئة الواقعة بالقرب من نهر الراين العظيم ومن نهر الـ . . ماس الذى يصاحبه ، استعمرها ، فى القرون الوسطى ،

الهولانديون الذين — على حد تعبير أحد المؤرخين — «اقتلعوا» أرضهم من البحر . ولقد استطاعوا — بالمصارف والسدود والقنوات — أن يتعلموا كيف يسيطرون على مسيل الماء العذب وماء البحر بين الملاحات وجزر شواطئها . ولقد كانوا رعايا الإمبراطور الرومانى المقدس شارل الخامس ، وبتنازله انتقلوا إلى تبعية فيليب الثانى الأسبانى . وقد نجحت التعاليم البروتستانتية فى اجتذاب كثير من الكاثوليك السابقين .

ولقد كانت تلك الفترة عصيبة، بسبب الخصومات الدينية والاضطهادات. ففى فرنسا قام الكاثوليك — تشد أزرهم الملكة الوالدة كاترين دى مدتشى — بمذبحة مفاجئة غادرة بين الهوجنوت الفرنسيين، عشية عيد سنت بارثولوميو من سنة ١٥٧٢ . وفى انجلترا خشيت اليزابيث الأولى أن يغتالها السادة الكاثوليك الذين رغبوا فى إجلاس مارى — ملكة الاسكتلنديين — على العرش . وفى أسبانيا كانت محكمة التفتيش تفتش عن البروتستانت اليهود وتعدمهم ، وأزمع فيليب الثانى على أن يمحق الدين الجديد من كل ممتلكاته .

فأرسل فرق مشاته المشهورة إلى الأراضى الواطئة لتقمع نواب المقاطعات البروتستانتيين فى المدن الهولندية المتجمعة حول مجارى الماء . وقد خربوا المدن ولكنهم ، مع ذلك ، لم يستطيعوا أن يقضوا على البروتستانت . وفى سنة ١٥٧٢ — عندما استولى بعض البحارة (من الملقبين بمتسولى البحار) على بريل ، وهى مدينة ساحلية صغيرة — عندئذ انفجرت الثورة انفجاراً ضارياً . وأصبح صيادو السمك وأصحاب الحوانيت وأرباب المهن والفلاحون والبحار ، أصبحوا أبطالاً يحاربون — فى وقت معاً — جيشاً كاثوليكياً وأجنبيا كذلك . وعندما حوصرت بلدة ليدن

كسر حماتها السدود فردوا إلى البحر حقولهم التى كسبوها بكدهم . ونهب الأسبانيون أنتورب (أنفرس) وذبحوا من أهلها ثمانية آلاف .

وإلى أن حلت سنة ١٥٧٩ كان دوق بارما — وهو القائد العام لفيليب — قد تمكن ، بإشاعة الرعب، من استرداد العشرين مقاطعة الجنوبية. واستغاث أهل الشمال بالفرنسيين لينجدوهم غير أن الفرنسيين كانوا مكروهين كالأسبان ، وكابدت أنتورب (أنفرس) هذه المرة من الغضب الفرنسى المحطم . وتبددت آمال الهولانديين مرة أخرى فى سنة ١٥٨٤ عندما أقدم مجنون على اغتيال وليم أمير أورانج الذى كان يقود المقاومة ضد فيليب .

وكان مصدر النجدة الوحيد المرتقب ، هو إنجلترا حيث كانت إليزابيث الأولى ووزيرها الحذران سسيل ووالسنجهام يرقبون فى اهتمام وينتظرون الحوادث. وكان مما كشفه جواسيس والسنجهام : مؤامرة ترمى إلى استخدام الجيوش الأسبانيه فى إجلاس مارى ، ملكة الاسكتلنديين ، على العرش . بل إن دون جون النمسوى — الذى انتصر فى ليبانتو — عنى بفكرة إنقاذ ملكة الأسكتلنديين التعسة .

ولما كان شعب الملكة اليزابيث شعباً جزيرياً كانت الحوادث متوقفة على ما يفعله البحارة الإنجليز .

رواد البحر الإنجليز — و — دريك :

كان لاستكشافات ما وراء البحار — على إنجلترا — أثر عميق . فلقد أصبح المحيط الغربى — الذى كان يوماً سداً من مياه لاتحد — طريقاً عامة للمغامرة تومىء إلى أبناء إنجلترا بالانطلاق . وأخذت السفن والبحارة ، منذ ذلك الوقت ، تملأ صدر صورة نشاطها ، واعتلت البحر المجازفة والبطولة .

« النازلون إلى البحر فى السفن العاملون عملاً فى المياه الكثيرة هم رأوا أعمال الرب وعجائبه فى العمق . أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه ويصعدون إلى السموات ويهبطون إلى الأعماق » .

وردت تلك الكلمات — المذكورة فى المزمور ١٠٧ — عن البحر الأبيض المتوسط . ووجد ملاحو عصر اليزابيث أنها تصدق على بحار أوسع مدى وأشد تعرضاً للعاصفة ، بحار فيها :

... صفارة الملاح كأنها همسة فى أذن الموت لا يسمعها أحد ...

وقد يمكن تقدير استجابة الملاحين من الوصف الذى قدمه سير همفرى جلبرت فى قوله : ما استحق أن يعيش على الاطلاق من يجافى خدمة بلاده أو شرفه خوف الخطر أو الموت ، إذ أن الموت محتوم وذكر الفضيلة خالد .

أبحر جلبرت — فى ١٥٨٣ — على الـ سكويريل (السنجاب) ، التى تزن عشرة أطنان ، فى عاصفة على مبعدة من جزائر الأزورز (وهى الجزر « الخالدات » فى شمال الأطلطى) . وقد أخذ يصيح صيحة الفرح عندما غاصت سفينته فى الماء المصطخب بين الأمواج، قائلاً «نحن قريبون من السماء فى البحر والبر سواء بسواء » . وبعد أن انقضى على ذلك سبع سنوات قاتل سير رتشرد جرينفل بسفينته ريفنج (أى الثأر) — عند فلورز فى الجزائر الخالدات — ثلاثاً وخمسين سفينة أسبانية كبيرة مدة خمس عشرة ساعة ، ثم استسلم ومات على ظهر سفينة للعدو ، وهذه أعجوبة أدهشت أمراء الأسبان ذوى الوقار والتؤده .

هذا أنموذج من ملاحى عصر اليزابيث . وأعظمهم قاطبة: سير فرانسيس دريك الذى أصبح اسمه لدى الأسبان أسطورة . وهذا الاسم «إل دراكى» كلمة فحواها الرعب . ولقد رأى — فى إحدى زياراته للسفينة الأسبانية .

«مين» (ومعناها عرض البحر) رأى المحيط الهادى ونذر الإقلاع على ظهره، وأقلع - فى سنة ١٥٧٧ - من بليموث على الـ .. «بليكان» (أى البجعة) ترافقها أربع قرينات. سايرت الشاطىء البرازيلى وسلكت مضايق ماجلان، وكانت قد تركت قبل ذلك سفينتين صغيرتين على شاطىء أمريكا الجنوبية، وعندئذ غرقت «مارى جولد» بكل من عليها فى عاصفة هوجاء من الريح والمطر. واندفعت «إليزابيث» أدراجها صوب الوطن، وأقلع دريك وحده مغيراً على المدينتين الأمريكيتين التابعتين لأسبانيا وهما ڤالباريزو — و — ليما، واستولى على «كاكافيوجو» وهى سفينة كبيرة تحمل النفائس، ومنها استخرج ملاحو ديفونشير الشبان — والبشر يملأ نفوسهم — «١٣ صندوقا ملؤها صحاف زنتها ٨٠ رطلا من الذهب و ٢٦ طناً من الفضة» وصعد شمالا حتى أقر رجاله على شاطىء كاليفورنيا الذى أسمـــاه نيو ألبيون. وعاد فأبحر غرباً إلى الـ (جزائر) ملقا (أى جزائر البهر) ثم استدار حول رأس الرجاء الصالح، وبعد رحيله بثلاث سنوات رأى أهل بليموث سفائنه تأتى لتلقى مراسيها، وفى تلك الليلة ذاعت قصص عديدة فى ميناء الإقليم الغربى.

وفى ١٥٨٥ جهز أسطولاً من ٢٥ سفينة وذهب به إلى أسبانيا، والمياه الأسبانية على فيجو — و — سان دومينجو وقرطاجنة، وأصبح دريك يحارب أسبانيا لحسابه الخاص.

الأرمادا الأسبانية(١):

شارفت المأساة الطويلة على نهايتها، اتهمت مارى ملكة الإسكتلنديين، فى سنة ١٥٨٦، بالتآمر على إليزابيث، وربما كانت بريئة، وحكم عليها

(١) انظر شكل رقم ٨ — (محاولة أسبانية لغزو إنجلترا فى سنة ١٥٨٨

بالإعدام ، ونفذ الحكم فى حصن فورذرينجاى عام ١٥٨٧ . وبهذا ضاع الأمل فى أن يرث العرش الإنجليزى كاثوليكى ، إذ أن ابن مارى — جيمس السادس الاسكتلندى — كان بروتستانتياً .

وفى ١٥٨٧ أيضاً رخصت اليزابيث لصفيّها — إيرل ليستر — فى أن يقود قوة من المتطوعين الإنجليز ليخفّ إلى نجدة الهولانديين .

وقر قرار فيليب الأسبانى على أن يغزو إنجلترا ويخضعها ثم يصفى حسابه مع ثوار البلاد الواطئة . وظل سنة يجمع السفائن والمؤن والمعدات من موانىء أسبانيا والبرتغال وإيطاليا ويبذل ذهب الدنيا الجديدة وفضتها فى اسراف لاحد له . وقد عمد دريك — الذى لم ينقطع عن النظر إلى شواطىء الأعداء على أنها حدود إنجلترا — عمد إلى تحطيم ٣٧ سفينة أسبانية فى ميناء قادس.على الرغم من هذه المحنة ظل فيليب يشغل ماعنده من أحواض السفن ودور الحدادة ومصانع الأسلحة ويثابر على الاستعداد لما كان يعده حرباً مقدسة . وكان رجاله من السادة تتحرق قلوبهم بحماسة محاربى الصليبين ، وقد أطلقت على سفن فيليب أسماء مريم والحواريين والقديسين . وأعد فى دنكرك جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من المشاة : الإيطاليين والألمان والفلمنك والأسبان وجهز له سفائن مفرطحة القاع تسهل نقلهم بمجرد وصول الأرمادا من أسبانيا .

أما إنجلترا واليزابيث فقد عمدتا إلى المراقبة والانتظار . وعسكر فى تلبورى الجيش الملكى بأمرة رئيس الحرس الملكى سير وولتر رالى . واتخذ الملاحون مراكزهم : ونتر — و — سيمور على مبعدة من كنت ، وهو وارد ـ و ـ دريك ـ و ـ هوكنز فى بليموث .

وفى التاسع عشر من يوليو من سنة ١٥٨٨ رؤيت أرمادة فيليب على مبعدة من ليزارد — وكان قوامها ١٣٠ سفينة — مبحرة ، على شكل نصف

قر واسع المدى ، تسبح فى ريح عاصفة . وأفلت أسطول بايموث وأصبح بمأمن من السفن الأسبانية ، واستولى على إثنتين منها . وفى الثالث والعشرين والخامس والعشرين من يوليو حدثت اشتباكات على مبعدة من پورتلند ، وجزيرة وايت نجم عنهـــا هروب السفن الكبيرة واحتماؤها بالشاطىء الفرنسى . وبعد رسوها على هذا النحو طاردتها السفن الإنجليزية المقاتلة وأرعبتها . واستدارت شمالاً — وهى بعدُ أسطول كبير ولكنه غير منظم — فتعقبها الأسطول الانجليزى فوراً . وقاتل الأسبان فى شجاعة — وقد أقل ذاك الأسطول كل فرسان أسبانيا ونبلائها — ولكن الجو والتقاليد الملاحية لم تسعفهم . وشحت ذخيرة الإنجليز فكفوا عن الملاحقة بعد شاطىء نورفولك .

فأين يا ترى يذهب الأسبان الآن ؟ لقد تجادلوا فيما بينهم . لقد أجابت البحار عن هذا السؤال بالعاصفة العظيمة التى هبت . وبعد أن كابد الأسطول كربَ العواصف والأمراض والعطش أخذ أقل من نصف الأسطول يناضل حول آخر الصخور المخيفة : من بعد جنوب إيرلندا الغربى إلى أسبانيا . وقد غرقت — أو أسرت — خمس سفائن . وغرق ما بقى من السفن فى البحار الشمالية أو طرح على الشواطىء الموحشة فى أسكتلندا وإيرلندا . ومات من العطش بحارتها — الذين برّح بهم التعب — أو خاضوا إلى الشاطىء حيث ذبحهم الأيرلنـــديون . وتكومت الحطام ، على شواطىء سليجو ، أكداساً أكداساً .

« أرسل الله رياحة ففرقتهم » بهذه العبارة أبدت إليزابيث شكرها . وكانت لفيليب الثانى الأسبانى شجاعته ، فقد قبل الهزيمة ولكنه أزمع فى الحال على أن يحاول من جديد . والواقع أنه جهز أسطولين آخرين حطمتهما الأنواء قبل أن يبلغا البوغاز .

إنجلترا فى عصر إليزابيث

ظلت اليزابيث الأولى تحكم إنجلترا ١٥ سنة أخرى بعد تحطيم الأرمادا ، وهى ملكة فذة حقاً ، عاتية ، عالمة ، ألمعية ، غضوب، مختالة ، نزقة ، مدبرة ، لم تزف" إلى أى أمير بل تزوجت إنجلترا ، وقد أضفت اسمها على عصرها .

لقد كان عصر ملاحين عادوا إلى وطنهم بقصص عن : كهوف شاسعة ، وصحارى متوخمة ، ومحاجر وعرة ، وصخور وتلال تطاول هاماتها السماء ، والنمنميين (أكلة لحوم البشر) الذين يأكل بعضهم بعضاً ، والناس الذين تنمو رؤوسهم تحت أكتافهم .

وقد جمع القس رتشارد هاكلويت حكايات ومذكرات عن كل ما أمكنه جمعه من رحلات ، وطبعها فى سنة ١٦٠٠ فى كتاب ينبض بالحماسة عن المغامرات البحرية اسمه « الرحلات البحرية والبرية والاستكشافات التى قام بها البحارة الإنجليز » . وأقلع أحد أقرباء الملكة — إيرل كمبرلاند — بسفينته «ماليس سكوراج» مرات عديدة لينهب الشاطىء الأسبانى . وذهب وليام آدامز — وهو مرشد بحرى من لايمهاوس — مع السفن الهولاندية إلى اليابان حيث عاش بقية حياته مستشاراً بحرياً للميكادو .

وأمست مناطق من العالم كانت مجهولة ، أمست مواضيع مألوفة على ضفتى التاميز . فكنت ترى فى أية حانة من حانات لندن خليطاً من جوابى البحار : ترى الرجل ذا المنديل المزخرف حول عنقه الذى عاد من الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط بعد أن احتكت سفينته بقرصان مغربى بعد جبل طارق . وترى الرجل الذى لوحته الشمس صاحب العيون المتغضنة وقد قضى سنة على سفينة نحاس بين غينيا وجزائر الهند الغربية . وترى آخر يعمل لحساب الشركة المسكوفية العتية ، ترقد سفينته فى النهر وعليها زيوت وأخشاب . وهذا فى استطاعته أن ينبىء عن انعكاس الأنوار الشمالية على

الثلوج الروسية وعن الأراضي المدرجة الخشنة المكثفة كأنها حزم من الفراء. وترى الرجلين الأصفرين يتكلمان بلهجات الاصقاع الغربية الناعمة — تلك اللهجات التي يستعملها سير وولتر رالى في البلاط — تراهما وقد جاءا من سفينة توماس كافنديش، بعد رحلة حول العالم، تحمل غنائم كانت على ظهر سفينة أسبانية كبيرة. ويشتغل الباقون بالتجارة الساحلية، وربما يكون بعضهم قد أفلت أحياناً وعبر إلى هولاندا ليسعف الهولانديين. وما من شك في أن البحر كان يهيب بأهل الجزيرة أن يشدوا رحالهم. وقد شهد عصر اليزابيث محاولاتهم الأولى للمغامرات العظية التجارية منها والإمبراطورية.

وكذلك كان هذا العصر عصر كبار الشعراء ومؤلفي الروايات التمثيلية. كتب إدموند سبنسر قصيدته المشهورة «الملكة الحورية». غير أن كل رجل من رجال البلاط يسعه أن ينظم شعراً جيداً. وفي ملهى جلوب بـ ... سوثورك تيسر لأهل المدينة ولصغار الصناع ولطلبة الحقوق أن يشهدوا تمثيليات وليم شيكسبير. لقد تيسر لهم أن يرقبوا شايلوك اليهودي يطالب أنطونيو «تاجر البندقية» برطل اللحم. أو بُوتوم النساج الأثيني — الذي يحوله السحر رأس حمار — ينتحب إلى تيتيانا ملكة الجن. أو فالستاف — الفارس البدين — يستخفي في سلة من كتان قذر ليفلت من غضب أزواج «زوجات وندسور الطروبات»، أو يستمتع بالتمثيليات التي تظهر الابهة والفخفخة الملكيتين اللتين سادتا حروب الورد. وحدث — مرات — أن مثل الممثلون رواية في بلاط الملكة كاصنعوا بتمثيلية «الليلة الثانية عشرة». وكثيراً ما طوّفوا بالبلاد يشتغلون في دور كبيرة مثل ويلتون في سمرست.

وكانت لندن مكاناً صغيراً. كان هناك بجع في التاميز، وحدائق ورد في ستراند، وبساتين كرز في بيرمَندسى، وكان ما نسميه إيست إند (أي الطرف الشرقي) خلاء تنمو فيه أشجار البلوط (القرو) والمزارع. وكانت

مركبات الدريس تتكدس يومياً فى السوق والسائمة تساق إلى المجازر (السلخانات) . وكانت القرى الريفية — أمثال إسلنجتون — و — كامبرويل — تعد أنها على مسيرة قصيرة من المدينة . ولم يكن أهل المدن قط بعيدين عن أهل الريف : الحراثين والحصادين والدراسين ومسقفى البيوت بالقش . وفى الصيف كانت تقام فى القرى مراقص على المزمار والدف وملاعب فى دور الرقص المغربى الذى يقوم به تسعة رجال . وكانت تقام هنا وهناك حلقات للمصارعة ولسباق الأرانب : وكان هناك نوع من « كرة القدم المطاردة » تلعب طوال النهار عبر رقع واسعة من الخلاء . وفيها يستطيع الناس أن يستعملوا الهراوات بل أن يتباروا على ظهور الخيل ! والباعة المتجولون — مثل أوتوليكوس فى تمثيلية شيكسبير — يجولون بعروضهم . ولا مراء فى أنهم كانوا يمرون على البيوت الجديدة فى الضيعات ، تلك البيوت المبنية بالآجر الأحمر والخشب والمزودة بمداخن ملتوية عالية تقوم فى حدائق زخرفية ذوات شرفات وسياجات مقلمة ومشرجات ناعمة وبماشٍ مغطاة ومقاعد مظللة . ولابد للسادة والسيدات أن يهيئوا وسائل تسليتهم كما قد يصنع القرويون : وبعد العشاء تدار كتب الموسيقى على الجميع ، لغناء الأراجيز والأنشودات الغزلية ، بحيث تغنيها أصوات كثيرة فى أجزاء كثيرة مختلفة . ويحق لإنجلترا فى عصر اليزابيث أن تفاخر بموسيقييها العديدين من أمثال جون ولبى — و — وليم بيرد اللذين كانت أغانيهما تغنى بمصاحبة المزهر (أى الطنبور) .

وبعد أن تنتهى الفرقة من الغناء تطفأ الشموع وينصرف الجميع توآ إلى النوم ويسود البيتَ السكون . وفى بيت من هذا القبيل يدخل الملك أوبيرون والملكة تيتيانا ، تتبعهم حاشيتهم من الجنيات ، فى « حلم ليلة من ليالى منتصف الصيف » لشيكسبير ، لتحرسه وتهتدمه .

ومن خلال هذا البيت يظهر بصيص من الضوء :

من النار الهامدة الوسنانة .

لقد غنى الناس أغانيهم وذهبوا ليصيبوا قسطاً من الراحة . والجذوات في المصطلى الكبير تنبض وتموت لتصبح رماداً .

وفى عام ١٦٠٣ كانت السيدة الموجودة فى هذا البيت الكبير — وهو إنجلترا — تقترب من نهايتها . لقد كانت ملكة ٤٥ عاماً وكانت آخر أفراد أسرتها . ولقد عمرت بعد أحبابها وأعدائها . وقد توفى وزيراها ولزنجهام — و — بيرجلى . ومات فيليب الأسبانى . وفى الرابع والعشرين من مارس ماتت الملكة فى رتشموند . ولم يكد سير روبرت كيتسي يسمع الخبر فى ستاتلى حتى امتطى صهوة جواده وخبّ حتى وصل إدنبرة ليحيّ الملك چيمس السادس ملك الأسكتلنديين بوصفه چيمس الأول ملك إنجلترا .

وانتهى عهد .

قرن جديد :

أصبحت إسكتلندة وإنجلترا — أول مرة فى تاريخهما — مملكة متحدة تحت حكم ملك واحد من أسرة ستيوارت . غير أن چيمس الأول — الذى جاء راكباً صوب الجنوب عام ١٦٠٣ — لم يكن الملك الوحيد على المسرح ... فى فرنسا انتهت الحروب الدينية بانتصارات زعيم الهوجنوت هنرى النافارى . وعندما أصبح — فى ١٥٩٤ — الملكَ هنرى الرابع وتحول كاثوليكياً ترك للهوجنوت حرية العبادة . وفى أسبانيا جلس على العرش — مكان فيليب الثانى المتحمس المجتهد — فيليبُ الثالث اللين العريكة . وظل — هو وعظماء الدولة — يحكمون إمبراطوريتهم الأمريكية ويجنون منها أحمالاً من الذهب والفضة ، كما ظلوا يحكمون الأراضى الواطئة الجنوبية (« الأراضى الواطئة الأسبانية ») . وكان هولانديو الأراضى الواطئة الشمالية قد ظفروا من أسبانيا بحريتهم ولم يلبثوا أن أبدوا مهارة وشجاعة وإقداماً .

ولامراء فى أن بداية القرن السابع عشر كانت بداية عصر جديد من التجارة فى المحيطات والحروب الدينية .

وقد برهن الهولانديون — وقد هذَّبهم البحر الذى منه استخلصوا وحموا أراضيهم الشاطئية الخصبة — على أنهم أمة بحارة وتجار . طردوا البرتغاليين من جزائر البهار وأنشأوا مصانعهم ومستعمراتهم فى جزائر الهند الشرقية حيث بقيت إمبراطوريتهم حتى ١٩٤٦ . وقد استحقوا لقب «ناقلى بضائع العالم» ، لأنهم حملوا البضائع إلى كل الشعوب ، وأصبحت أمستردام ميناء لأوربا . ونقلوا الرقيق من غرب إفريقيا إلى جزائر الهند الغربية كما نقلوا السكر من جزائر الهند الغربية . وأقاموا مستعمرة فى نيويورك (التى كانت قبل ذلك تسمى : أمستردام الجديدة) واشتغلوا بتجارة الفراء الأمريكية . ونقلوا جالية صغيرة إلى رأس الرجاء الصالح كانت بداية لمستعمرة البوير فى جنوب إفريقيا . وفتش مرشدوهم البحار الجنوبية واستكشفوا تسمانيا ولمحوا أستراليا ، كل هذا فعلوه فى خمسين عاما . ونتيجة لتجارتهم ، أيسرت مدائنهم وبنى نواب أقاليمهم لأنفسهم بيوتاً أنيقة . وانتعشت هولاندا . وكان هذا هو العصر العظيم للفن الهولندى . وُلد الفنان الشهير رمبرانت سنة ١٦٠٧ . ومع أن صغر هولاندا منع الهولانديين عن أن يصبحوا شعباً من أقوى شعوب الغرب فقد قاموا بدور قيـــادى فى مصاير الغرب .

وقد ملأ الهولانديون البحار بأرجوزاتهم (أى بسفنهم الشراعية التى تحمل بضائع ثمينة) غير أن الإنجليز لم يتلكأوا وراءهم على مدى بعيد . فنى عام ١٦٠٠ أرسلت جماعة من تجار لندن ، إلى الشرق ، قافلة من السفن عادت فى ١٦٠٤ بحمولة عظيمة من الفلفل . ونتيجة لهذه المغامرة نمت شركة الهند الشرقية الإنجليزية ذات النفوذ العريض والسيطرة البريطانية على الهند . وغامر تجار إنجليز آخرون بالسفر إلى إفريقا وجزائر الهند الغربية

وإلى تركيا وشرق البحر الأبيض المتوسط وشمال روسيا . وقد تاجر الهولانديون والإنجليز — كلاهما — فى البلطيق .

ولم يلبث الشعبان أن أصبحا فى التجارة متنافسين غيورين . وفى القرن نفسه — فيما بعد — اشتبك أسطولاهما فى ثلاثة حروب، فى البحار الضيقة، شكسة مروعة . ومن حسن الحظ أن ذلك لم يولّد أية مرارة مستمرة أو كراهة ، إذ أن الدنيا كانت تتسع لهما كليهما .

وفى الحروب الدينية لم تقف المرارة والكراهية عند حد . والحادث الذى بدأ فى ١٦١٨ — فى الأراضى الألمانية — ظل قائماً حتى ١٦٤٨ : حرب دامت ثلاثين عاماً فيها أتلف الكاثوليك والبروتستانت الريف ونهبوا البلدان وحطموا ودمروا . ولم يكن لكل هذا من مبرر لأن النزاع انتهى فى ١٦٣٨ بمأزق ممضّ . فإن كل حاكم — كبيراً كان أو صغيراً ، ملكاً كان أو دوقاً أو باروناً — قد رخص له فى أن يبت فى أمور إقليمه الدينية . وقد نجم عن استمرار الحرب الضارية ثلاثين عاماً تعويقُ تقدم المدنية فى كل أنحاء ألمانيا التى ظلت بلاداً تتألف من مئات الدويلات الخاضعة لسلطانٍ غير محدد المعالم من أباطرة آل هابسبورج فى ڤينا ، أولئك الذين حكموا النمسا والمجر . وقد نجت إيطاليا من الحروب الدينية ولكنها ظلت منقسمة إلى دويلات . وكان البندقيون ما يزالون يهيمنون على تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط . غير أن تلك التجارة نقصت حجماً بعد فتح طريق رأس الرجاء الصالح ، فأخذت جمهورية البندقية تفقد ، تدريجياً ؛ القوة والثراء اللذين كانت تتمتع بهما فى يوم من الأيام .

وكذلك كابدت مملكة بريطانيا العظمى المتحدة من حرب دينية . غير أن الخصومات الدينية فى بريطانيا كانت دائمة التشابك بالخصومات السياسية التى كانت تنشب فى صدد سلطات الملك والبرلمان . ومرت مملكة فرنسا أيضاً بمغامرة سياسية جديدة .

ومن يفهم الفرق بين هاتين المملكتين يفهم تاريخ الغرب فى القرنين التاليين.

المقارنة : بريطانيا :

درج ملوك إنجلترا — منذ القرن الثالث عشر — على أن يعقدوا البرلمان، بين الفينة والفينة ، ليمدهم بمشورته وليرخص لهم فرض الضرائب ، وبذلك يتسنى لحكومة الملك أن تستمر فى تسيير دفة الأمور . وكانت التغييرات فى القوانين تسن بمقتضى قرارات برلمانية يقرها الملك واللوردات والأساقفة وفرسان المقاطعات والمنتخبون فى المدن . وكان مقر اللوردات والأساقفة مجلس اللوردات . وكان مقر الفرسان والمنتخبون — الذين يختارون ليمثلوا أعيان الريف — ونواب النقابات المهنية بالمدن ، مجلس العموم .

ولقد كانت الخصومات التى تنشب بين آل ستيوارت — جيمس الأول وابنه شارل الأول — وبين برلماناتهم ، خصومات بين ملوك آمنوا بحقهم المقدس فى أن يتصرفوا وفق هواهم ، وبين رعاياهم الذين آمنوا بأن الملوك ينبغى لهم أن يوفوا بعهودهم وأن يحافظوا على قوانين البلاد . وعندما عارض القانونى سير إدوارد كوك ، جيمسَ الأول فى بعض الشئون صرخ جيمس قائلاً : « وإذن فأنا (تحت) القانون ، وتقرير هذا المبدأ خيانة وطنية » . فأجاب كوك الشجاع : « نعم يا سيدى ، أنت خاضع لله والقانون » وكان جيمس وشارل ينازعان برلماناتهما فى صدد المال . هل للملك أن يفرض الضرائب على رعاياه بغير رضاهم؟ وكان ملكا آل ستيوارت هذان سيئَ الحظ لأن قيمة النقد كانت — فى عهديهما — فى هبوط ، وكانا يطلبان منها المزيد ، ولم يكن أى منهما لبقاً فى معاملة الناس أو أريباً فى اختيار مستشاريه . على أن النزاع الدينى الذى أدى إلى الحرب الأهلية كان أكثر مرارة وعمقاً .

ولم يتحد البروتستانت اتحاد الكاثوليك . نعم كان يرضى أغلب الناس أن يُخلدوا إلى لوائح الأساقفة وأن يقرءوا كتاب الصلاة الذى وضعته

الكنيسة الإنجليزية غير أن أقلية — شديدة النشاط والقوة — لقبت بـ « المتطهرين » كانت تنكر الأساقفة وكتاب الصلاة كما كانت تنكر وسائل معينة من التسلية مثل : سارية مايو(١) والرقص المغربى والألعاب الرياضية والمسارح . وربما كان البعض — على حد قول لورد ماكولى — قد كره لعبة استدراج الدببة بالطعم أو الشرك لا على أنها تؤلم الدببة ولكن لأنها تسر المتفرجين . كان أولئك الناس « أحرار الفكر » . كان كل منهم حراً فى أن يفسر أسفار الكتاب المقدس على ضوء معلوماته وضميره . ولم يتيسر لهم هجر الكنيسة إلا بالهجرة إلى أمريكا ، وهذا ما صنعه كثير منهم فى ١٦٢٠ وفيما بعد . إلا أنهم لم يكن فى مكنتهم أن يعيدوا تشكيل الكنيسة على هواهم ما لم يلغوا الأساقفة .

على أن الأساقفة لم يكونوا رعاة رعاياهم فحسب بل كانوا أيضاً خدام الملك وموظفين فى الكنيسة التى كان يرأسها . لقد كانوا رجالاً ذوى نفوذ . كان فى سلطتهم أن يقبضوا على الناس ويحاكموهم فى محاكمهم الخاصة وأن يغرموهم ويسجنوهم فى سجونهم الخاصة . لقد قطعت أذنا أحد المتطهرين لأنه ألف كتاباً ضد الأساقفة . ووقع على آخر مثل هذا الجزاء لأنه أنكر التمثيل على المسارح . وكذلك أنكر هذا الرجل غير العادى — وكان من رجال القانون — الوثيقة الكبرى لا لشىء إلا لأن أسقفاً شارك فى حمل الملك يوحنا على إمضائها . ولقد وجد بين المتطهرين بعض الشواذ كما أن الأساقفة لم يكونوا كلهم ورعين . وكان من سوء الحظ أن شارل الأول — وهو الرجل الجاد المستقيم العطوف المنصف الذى أخلص للكنيسة أكثر مما فعل أى ملك إنجليزى آخر على الاطلاق — كان يعوزه تماماً فن سياسة الرجال .

---

(١) ساريه تركز فى رحبة وتشكل بالورد ويحتفل من حولها بعيد أول مايو .

طلب السادة المتطهرون — الذين كانوا ذوى نفوذ فى البرلمان — تغييرات فى شئون الكنيسة . وقد أنكر شارل هذا إلى حد أنه حاول أن يحكم البلاد ، من دون برلمان ، أحد عشر عاماً (١٦٢٩ — ١٦٤٠) ، وفى أثناء تلك الأعوام فرض جميع أنواع الضرائب دون مشورة أحد ، وترك لود — كبير أساقفة كانتربرى — يضطهد المتطهرين ، ودفع لود — وهو رجل طيب ولكنه كثير اللغط — دفع الناس جميعهم إلى أن يتعبدوا وفق كتاب الصلاة بل أنه تطلع إلى أن ينشر تعاليم كنيسة إنجلترا فى كل مكان من العالم يتفق أن يعيش فيه رعايا ملكه . ولكن حدث أنه عند ما فرض كتاب الصلاة على رعايا الملك الأسكتلنديين فى المملكة الشمالية قامت الفتن فى الحال ، فلقد كان الاسكتلنديون تابعين للكنيسة المشيخية (برزبيتيريان) ، وكان لهم اتجاه خاص فى العبادة سنه جون كلفن ، وكانت كنيستهم قوية متحدة ، ثاروا وجيشوا جيشاً وغزوا إنجلترا .

ولم يستطع شارل أن يحمل لورداته على مساعدته ، واضطر إلى أن يستدعى برلماناً ، وبعد عراك مرير دام سنتين حاول زعماء الآباء المتطهرين فى البرلمان أن يسيطروا على الجيوش المرابطة بالمقاطعة ، فركب شارل إلى نوتنجهام وأهاب بجميع المخلصين أن يلتفوا حول رايته وانقسم البرلمان فشايع بعض الأعضاء الملك ، وخذله البعض . وأشفق الكثيرون من خوف الحرب ، وبعض الذين كرهوا الأساقفة كرهوا — أكثر وأكثر — فكرة حمل السلاح ضد ملكهم الشرعى . كتب سير إدموند ڤيرنى — وكان حامل العلم الملكى — « أنا لا أكن احتراماً للأساقفة الذين ينشب النزاع من أجلهم » .

وكانت الحرب الأهلية التى تلت (١٦٤٢ — ١٦٤٨) فى أول مراحلها أمراً غير بالغ الحماسة ، وكان من الجائز أن تنتهى بانتصار الملك ، وذلك لولا أمران : (١) الجيش الأسكتلندى المشايع للكنيسة المشيخية .

(٢) أوليفر كرومويل . انزعج برلمان المتطهرين من إخفاق الفرق التي جندوها على عجل من المعاطف الزرقاء والمعاطف الصفراء والمعاطف الخضراء والمعاطف الأرجوانية ضد الخيالة المشايعين لشارل فعقد حلفاً مقدساً مع الأسكتلنديين وضموهم إلى صفوفهم ضد الملك . وبعد ذلك حولوا حملة البنادق وحملة الرماح التابعين لهم إلى « جيش جديد أنموذجي » تحت قيادة سادة ونبلاء تمرسوا بالحرب ، وكان أوليفر كرومويل — الذي شكل فرقه الخاصة من الخيالة الغيورين الورعين في المقاطعات الشرقية — أحد الضباط الأنموذجيين الحديثين ، ولم يلبث أن أصبح القائد العام . كان جندياً عبقرياً . وقد حوى الأنموذج الحديث كثيرين من المتعصبين الغيورين الذين كانوا يتلقون النصح من قساوسة الميدان قبل أن يحملوا رماحهم إلى ميدان القتال والذين كانوا يحسبون أنفسهم رجال الله المختارين ليحاربوا العمالقة والوثنيين، ولم يحدث قط أن وجد جيش كجيشهم لأنهم كانوا جنوداً لا سبيل إلى قهرهم ، وقد وصفهم أحد أعدائهم بقوله : « جيش رفعته يقظته وأخلاقه وشجاعته ونجاحه فجعلته ذائع الصيت مرهوب الجانب في العالم أجمع » ، ولما دحر الجيش النموذجي الجديد الجيش الملكي في نيسبي عام ١٦٤٥ استسلم شارل .

وكان يصح أن يضع هذا حداً للحرب . ولكن عندما حاول البرلمان تسريح الجيش ، أبى الجيش أن يسرح ، وطرد كرومويل غالبية أعضاء البرلمان ولم يترك في الجلسة غير « مؤخرة » من المستقلين المتطهرين . واضطلع كرومويل والجيش بشئون الجزيرة . وعمد كرومويل إلى قمع الثورات الملكية وإلى قهر الأسكتلنديين الذين كانوا يكرهون المستقلين ويحبون حباً جماً ملكاً من آل ستيوارت .

وحكمت « المؤخرة » وضباط الجيش على شارل الأول بالإعدام .

وقطعت رأسه فى وايتهول (البهو الأبيض) وقد حرست صفوف من الرماحة المشنقة حراسة قوية .

وكانت أسكتلندا وأيرلندا من أنصار الملك . فشن كرومويل حملة على أيرلندا لاتعرف الرحمة ثم قهر الأسكتلنديين . وبيعت جماعات كبيرة من الأيرلنديين والأسكتلنديين بيع الرقيق فى أمريكا وجزائر الهند الغربية . والتحقت جموع غفيرة — وبخاصة من الأيرلنديين — بالجيوش الأجنبيـة فى أوربا .

تلك كانت أمور فظيعة ولكنها ليست شيئاً على الإطلاق إذا قيست بسفك الدماء والقحط والوباء والدمار التى حلت بألمانيـــا فى حرب الثلاثين عاما .

وقد نصب الجيشُ كرومويل حامياً لحمى مجموعة البـلاد التى حكمها بمساعدة بضعة عشرة ضابطاً برتبة لواء . وانتهت سلطة البرلمان فى عهده ! وفى الخارج حارب جيش كرومويل وبحريتُـه أسبانيا « الخصم اللدود » واستولى على جاميكا ، وغلب الجيشُ الأسبانَ بدفعهم بأسنة الرماح فى دنكرك . وحارب أسطوله تحت إمرة « أميرى البحر » مونك ـ و ـ بليك ، الأسطولَ الهولندى الذى يحمل الـكنوز تحت فوهات مدافع الشاطىء فى تينيريف بالجزائر الخالدات .

وجاء دور كرومويل فى أن يضمن إخلاد القسم المتعصب من المتطهرين إلى النظام ولكنه أيضاً لم يستطع . فالبرلمانات التى استدعاها للانعقاد كانت عديمة الفائدة فطرد أعضاءها من المجلس وبقى وحيداً مخوفاً ممقوتاً . تآمر الملكيون على قتله . وتجمع غلاة المتطهرين . وحاول « الممهدون » (المجاهدون للتسوية بين الناس) المنبثون فى الجيش أن يلغوا الضباطَ

فاعدموا رمياً بالرصاص . وعمد « أنصار الملكية الخامسة » — وهم خيالة المملكة الدنيوية (مملكة الله) الذين لا يحترمون سلطان بشر — عمد هؤلاء إلى نشر راية يهوذا فى أرباض لندن فأحيط بهم . ورغب البعض فى أن يلغوا القوانين جميعاً وأن يستبدلوا بها سفر تثنية الاشتراع (فى التوراة) .

واحتفظ كرومويل برأسه . ولم يكن هادم الملذات . وكان لديه رصيد من حسن الإدراك ومن الحكمة العملية وإلا لما استطاع أن يصبح قائداً عظيما . وقد وصل هذا الرجل الثرى — الذى جاء من البطاح — إلى مركزه العظيم بعبقريته الحربية على هدى « الإيمان والعزيمة التى لا تبارى » . ولم يكن صيته فى بلاده إلا صدى لصيته خارجها . ولما مات فى هامپتون كورت عام ١٦٥٨ بملاريا حادة (كانت تعاوده كل يومين) وفاضت روحه فى خلال عاصفة من الريح والمطر قال البعض إن تلك إشارة من الله ، وقال آخرون إن الشيطان عاد إلى جسده . وليس فى وسع الناس أن يمروا على تاريخ كرومويل مر الكرام . فلقد كان أول رجل من الشعب فى أوربا ، رفع نفسه بعبقريته ، إلى مصاف الملوك .

وفقدت الجزيرةُ الملك والبرلمان كليهما . وخلقت جيشاً محترفاً وبحرية قوية . غير أن غالبية الناس تعبت تعباً عميق الجذور من حكم الجيش وحكم « القديسين » . وفى ١٦٦٠ جاء الجنرال مونك بـ شارل الثانى إلى دوڤر بوصفه ملكا . جاء به على موجة من الفرح والتهليل الشاملين . وأعيدت البرلمانات والأساقفة وكتاب الصلاة . غير أن الخصومات الدينية كانت قد بدأت تفقد مرارتها تدريجاً . وكان شارل قد بلغ من المهارة ما ثبته فى الحكم ٢٥ عاماً لم تعترضه فى خلالها خصومات سياسية كبيرة . كان هنالك اضطهاد . كان محظوراً على المستقلين — أو المنشقين على الملة ، كما كانوا يسمونهم — أن يعلموا فى الجامعات أو يدخلوها أو أن يتعبدوا خارج

دائرة الأسرة . وكان محظوراً عليهم كذلك تولى مناصب حكومية .
غير أنهم — بمرور الوقت — وجدوا سبيلهم إلى التغلب على تلك العقبات .

ومن الغريب أن جيمس الثانى — أخا شارل — عندما حاول أن يعطل مفعول قانون الأرض — لم تأت المعارضة من جانب المتطهرين بل من جانب سبعة من أساقفة الكنيسة . فقدمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ولكن قضاته برءوهم . وفى ١٦٨٨ دعا لوردات البرلمان وليم (أورانج) صهر جيمس الثانى ليأتى ويعيد العمل بالقوانين . فهرب جيمس وأصبح وليم « وليم الثالث » . وقد حكم بالاشتراك مع مارى الثانية (زوجته) ملكاً وملكة بعون الله « وبموافقة البرلمان » .

المقارنة : فرنسا

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر صارت بريطانيا العظمى ملكية برلمانية . وقد حكم هذه الجزيرة على التوالى ملكان من أسرة ستيوارت — وأوليفر كرومويل — وملكان آخران من أسرة ستيوارت — وملك هولاندى متزوج بملكة من آل ستيورات — وملكة أخرى من آل ستيوارت (آن) — ثم أربع ملوك ألمان تسمى كل منهم باسم جورج ، ذلك أن لوردات البرلمان الأكابر — عندما توفيت الملكة آن — قدموا تاج بريطانيا إلى حاكم هانوفر . ولقد أسقطنا آخر أربعة تسموا باسم جورج وذكرنا عشرة حكام . وفى خلال الفترة التى فيها حكم بريطانيا أولئك العشرة لم يحكم فرنسا غير ثلاثة ملوك : لويس الثالث عشر — ولويس الرابع عشر — ولويس الخامس عشر ، وكلهم فرنسيون . وصارت بريطانيا ملكية مقيدة . أما فرنسا فقد صارت ملكية مطلقة فى عهد الملوك الثلاثة من آل بوربون .

وعندما قتل مجنون — فى سنة ١٦١٠ — هنرى النافارى كان ولده

لويس الثالث عشر لم يتجاوز ، بعد ، الثالثة عشر من عمره . وكان رئيس وزراء الدولة : الكردينال ريشليو ، وهو رجل نشيط حازم جسور حاد الذكاء ملكى — فى تصرفاته وأعماله — أكثر من الملك الذى كان هو يعمل فى خدمته . وقد استهدف الكردينال شيئاً واحداً وهو أن يجعل لويس الثالث عشر أقوى رجل فى فرنسا وأن يجعل فرنسا أقوى دولة فى أوربا . وقد هد القوى السياسية لكبار النبلاء وذلك بهدم حصونهم وبإرسال بعضهم إلى المقصلة . ولما وجد أن الهوجنوت يسيطرون فعلاً على المدائن والمقاطعات حاصر أقوى مدائنهم — لاروشل — واستولى عليها عنوة . وبث فى كل منطقة موظفين ملكيين — يسمونهم « مديرى الشئون » — يكل إليهم تنفيذ الأوامر الملكية . وقد وقفت فرنسا تحت حكمه فى الداخل والخارج : انتعشت الصناعات ، ونمت أرباح المزارعين ، وأصلحت ووسعت جامعة باريس ، وأرسلت الشركات التجارية عمارات بحرية إلى مدغشقر والسينجال وجزائر الهند الغربية ، واستوطنت ألوف من فلاحى نورمانديا — و — بواتو ، استوطنوا كندا (حيث يعيش سلالتهم حتى الآن) ، وزيدَ الجيش الملكى إلى مائة ألف ، وأنشىء ميناءا برست — و — لو هافر الحربيين وبنيت سفن حربية للمحيط والبحر الأبيض المتوسط . ولكى يدفع ريشليو قوات سيده الملكى إلى حدود فرنسا الطبيعية — وهى نهر الراين وجبال الألب وجبال البرانس — شن حروباً على آل هابسبرج فى النمسا وأسبانيا .

ومات فى ١٦٤٢ ، ومات مليكه لويس الثالث عشر فى ١٦٤٣ .

وورث العرش لويس الرابع عشر وهو — بعد — طفل فى الخامسة . وحل محل ريشيليو رجل آخر من رجال الكنيسة هو الكاردينال مازاران الإيطالى . ولم يكن مازاران يطاول ريشليو فى عظمته ولكنه ، مع ذلك ، كان حاذقاً نشيطاً متشبثاً برأيه قوى العزيمة . وقد تابع أعمال ريشليو رغم

الشعب والثورات التى كان يشعلها النبلاء والمواطنون ورجال القانون . وقد عرفت هذه الثورات باسم « لا فروند » (أى المقلاع) وكان يعوزها قائد حقيق وانتهت بالقحط والوباء . وقد تخطى مازاران — بصبره ودهائه — هذه الفترة واستعاد سلطانه . وترك — لدى وفاته — ملكه لويس الرابع عشر حاكماً بأمره فى فرنسا . ولم يخضع لويس الرابع عشر لنفوذ وزير ، ولكنه حكم بنفسه وأخذ يختار خدامه من بين الناس المتواضعين من التجار ومن أصحاب الحوانيت وسواس الخيل . ولم يكن لكبار النبلاء نصيب فى حكم فرنسا . وظل لويس الرابع عشر يحكم فرنسا — سيداً مطاعاً — أكثر من خمسين عاماً : من ١٦٦٠ إلى وفاته فى ١٧١٥ .

وقد امتد حكم لويس الرابع عشر وابنه لويس الخامس عشر - مجتمعين - إلى أكثر من مائة عام ، من ١٦٦٠ إلى ١٧٧٤ . وخير وصف لتاريخ أوربا طوال هذه الأعوام هو وصفها بأنها « قرن فرنسا » .

لقد كانت فرنسا - بسكانها الذين بلغوا الثمانية عشر مليوناً ، وبمزارعها الخصبة وبغاباتها وكرومها وبصناعها المهرة وبحضريها الأذكياء - كانت زعيمة المدنية وحجر العقد فى أوربا . وكانت ثروة فرنسا وقوتها فى يد رجل واحد « الملك » . وكان لويس الرابع عشر : « الملك الشمس » التى تتحرك الحاشية والأمة حول عرشه المتألق . وكان من بين وزرائه : لوفوا الذى خلق جيشاً نظاماً عزيزاً — و — فوبان الذى اشتهر بمقدرته فى الهندسة الحربية — و — كولبير الخبير بالشئون المالية والتجارية . وقد غذى كولبير الصناعة عن طريق الترحيب بالفنيين الأجانب وتنظيم الحرف . وأنعش تجارة ما وراء البحار والمستعمرات بتأسيس شركتى شرق الهند وغربها . وقوى البحرية إلى مدى كبير حتى إن السفن التى حشدها فى سنة ١٦٨٠ بلغ مجموعها ٣٠٠ سفينة .

وكان أعظم ما شيدة لويس الرابع عشر من الأبنية الأثرية : قصر

ڤرساى الذى صرفت نفقات باهظة لبنائه بين سنتى ١٦٦٩ و ١٧١٠ . لقد شمخ — بين بساتين البرتقال وحدائق الزهر والمرجات ومنابت العشب والبحيرات الصناعية والطرق الواسعة المشجرة والماشى التى تزينها التماثيل والنافورات — لقد شمخ بين كل هذا ، الصرحُ الفسيح الذى آوى الملك ووزراءه وموظفيه وندماءه وموسقيبه وممثليه وصياديه وحرسه وجيش الخدم والأتباع المكلفين بالصيانة . وفى أبهائه وأروقته المذهّبة المحلاة بالمرايا كان الأخصاء يقامرون بالمصائر ويخططون للحرب ويديرون شئون الدولة ويشهدون ملاهى (جمع ملهاة) موليير ومآسى راسين ويسمعون أوبرات لولى . وقد جعلتهم شعورهم المستعارة وستراتهم الحريرية الأطلسية وأطراف أكمامهم المزركشة بالدنتلة .. جعلتهم تلك الأشياء جميعاً أقرب إلى شكل الممثلين منهم إلى من يمارسون الحياة العادية .

ولم يغب عن ذهنَى ڤوبان وكولبير المستقبل المرموق الذى ينتظر التجارة والمستعمرات وراء البحار . غير أن لويس الرابع عشر آثر أن يستخدم قوته فى محاربة آل هابسبرج لكى يستولى على حصونٍ تخومية مثل ايل — و — ستراسبرج . وقد أضر بتجارة فرنسا وبصناعتها باضطهاده الهوجنوت الذين هرب منهم الآلاف إلى إنجلترا وبروسيا وأفادوهما بمهارتهم وذكائهم .

وفى عهد لويس الرابع عشر وخليفته لويس الخامس عشر دخلت الجيوش الفرنسية البلاد الواطئة وأراضى الراين حيث نازلت الهولانديين والألمان والنمسويين . غير أن أوربا جميعاً اتخذت فرنسا قدوة لها . واستعملت المجتمعات المهذبة اللغة الفرنسية والعادات الفرنسية فى كل مكان .

وكان حتماً أن تستمر المقارنة بين مملكتى بريطانيا وفرنسا فى الحياة السياسية . وقد اشتبكت المملكتان فى حرب — أعواماً طوالاً — فى القرن

الثامن عشر ، وترتبت على ذلك نتائج هامة لها وللدنيا جمعاء . ولكن ينبغى لنا — قبل أن نتتبع هذا المبحث — أن نلم بما كان يجرى وراء البحار فى الدنيا الجديدة وفى الشرق .

الاتجاه صوب الغرب :

كانت ڤرچينيا المسماة بـ « المستعمرة القديمة » أول مستعمرة إنجليزية فى أمريكا . بدأ سير وولتر رالى يرسل مستوطنين إلى شاطىء ڤرچينيا ولكن واحدة من تلك المستعمرات لم تدم . فتبنى فكرته بعض التجار وأرسلوا مستوطنين ، فى ١٦٠٧ ، إلى نهر چيمس . ولكنهم لم يحسنوا اختيار تلك الجماعة فكاد الكسل والجهل والنزاع أن تضع حداً لتلك المستعمرة الوليدة . وكان مخلّصها الضابط جون سمث وهو جندى شهم مزهو موسر ، فطن إلى ضرورة العمل الجدى وإلى تحسين العلاقات مع الهنود . وبعد فترات هزيلة شاقة بدأت ڤرچينيا تنتعش ، وكان محصولها الرئيسى هو الطُّبّاق (الطمباك) . وفى ١٦٣٥ بدأ عدد سكانها يرتفع إلى ٦٠٠٠ .

وما وافت تلك السنة حتى كانت القارة الأمريكية — التى وجدت فيها قبلاً أسبانيا جديدة — تحوى كذلك إنجلترا جديدة وأراضى واطئة جديدة وفرنسا جديدة .

أسس إنجلترا الجديدة منفيون دينيون كانوا يبحثون عن أرض فيها يستطيعون أن يتعبدوا وفق ما يريدون . استأذن بعض أسر المتطهرين — من سكان شرق إنجلترا — تجارَ لندن فى أن يسافروا ليستوطنوا شاطىء ڤرچينيا . ونزلوا فعلاً مكاناً بعيداً شماليها . وعبر مائة منهم — وهم « الآباء المهاجرون » ، تصحبهم أمهاتهم وأطفالهم ، عبروا الأطلنطى على السفينة « ماى فلاوار » (أى زهرة مايو) وأنزلهم بحارتُها الشجعان فى خليج پلايموث . حدث هذا فى خريف ١٦٢٠ . وفى خلال أول شتاء لهم مات

نصفهم من المشقة والمرض ، غير أنهم كانوا ذوى عزم . وأصبح الآباء المهاجرون — بقياة وليم برادفورد ، الذى حكمهم إلى أن توفى فى ١٦٥٧ — أصبحوا مستعمرة مزارعين وسماكين وتجار فراء .

وفى سنة ١٦٢٨ أسست شركة خليج ماساتشوستس الإنجليزية فى بوستن مستعمرةً أخرى ، أعظم وأغنى ، باسم نيو إنجلند (إنجلترا الجديدة) ولم يحل عام ١٦٤٢ حتى خوت مدنها وقراها أكثر من ١٦٠٠٠ مستوطن من المتطهرين . وقد وسع هؤلاء أن يتعبدوا وفق مرامهم غير أنهم منعوا الصاحبين (الذين ينتمون إلى طائفة الأصحاب المهتزين) وغيرهم عن أن يتعبدوا على الطريقة التى يفضلونها . وعلى هذا يكون المكان الوحيد فى أمريكا الذى يسمح فيه لكل المسيحيين بحرية العبادة هو « ماري لاند » وهى مستعمرة كاثوليكية أسسها لورد بلتيمور عام ١٦٣١ تمجيداً للملكة شارل الأول ، هنريتا مارية .

وكان التوأمان : ڤرچينيا فى الجنوب وإنجلترا الجديدة فى الشمال ، هما أساس الولايات المتحدة التى تكونت فيما بعد . وقد نقل المستعمرون معهم — سواء أكانوا من زارعى الطبّاق الأغنياء أو من المزارعين المتطهرين — نقلوا اللغة والأغانى والعادات والقوانين التى كانت سائدة فى إنجلترة فى القرن السابع . وهذا هو السبب فى أن الوثيقة الكبرى تتصل بالتاريخ الأمريكى بقدر ما تتصل بالتاريخ الإنجليزى ، وفى أن المحاكمة — أمام المحلفين وبمقتضى القانون الإنجليزى العام — معمول بها فى إنجلترا ، وفى أن مأمور الأحكام (العمدة) ورجاله فى الولايات المتحدة يتصرفون تصرف مأمورى الأحكام ورجالهم فى إنجلترا . وربما صح القول بأن التاريخ الأمريكى يبدأ بإنجلترا الأنجلوساكسونية ويعبر المحيط بعد سنة ١٦٠٠ .

وكان فى جنوبى إنجلترا الجديدة : البلاد الواطئة الجديدة ، وفى شماليها — على بعد ٣٠٠ ميل وراء الغابات والجبال — فرنسا الجديدة .

وقد خطط الهولنديون مستعمرتهم — أمستردام الجديدة — على جزيرة مانهاتان فى سنة ١٦٠٩ . وبما أن الهولنديين مشغوفون بالتجارة فإن هـذه المستعمرة سرعان ما أضحت واحدة من المراكز الهامة لتجارة الفراء الهندية ، وبعد أن أدركتها تغييرات عظيمة كثيرة أصبح يطلق عليها الآن الاسم المألوف : نيويورك ، أكبر مركز تجارى فى الولايات المتحدة .

وتختلف فرنسا الجديدة عن سائر المستعمرات فى أنها تقع على مسافة قد تبعد عن المحيط ٨٠٠ ميل . ومن الخريطة يتضح : أولاً ، أن خليج نهر سنت لورنس يضاهى البوغاز الإنجليزى اتساعاً . وثانياً ، أن مونتريال ميناء تقع على بعد ألف ميل من الأطلنطى . وفى ١٦٠٨ أسس صموئيل تشامپلين — النورمندى الأصل — مستعمرة فى كويبك . وهنا أنشىء من جديد أسلوبُ حياة الضيعات العتيق فى فرنسا القديمة : يشتغل المزارعون فى أرض السادة الملاك ويدفعون لهم المستحق نقداً أو عيناً . وبطبيعة الحال كانت فرنسا الجديدة كاثوليكية . وقد أوغل تشامپلين فى رحلاته حتى تطرق إلى البحيرات الكبرى . وقد تودد أهل فرنسا الجديدة إلى هنود هيورون الذين قام الجزويت الفرنسيون بينهم بأعمال تبشيرية بالغة الأهمية . وأصبح كثير من المستعمرين خبيرين بتجارة الفراء فى الشمال .

وهذه المستعمرات الإنجليزية والهولاندية والفرنسية البالغة الصغر روعى فى تأسيسها أن تكون على السواحل وعلى مجارى الماء فى تلك البلاد العظيمة الاتساع التى لا يربط بين كثيف غاباتها التى تنبت الشيكران (وهو نبات مخدر) والبلوط والتنوب والسدر (أى الأَرز) والتامول — وهى تلك الغابات التى تمتد إلى مسافات بعيدة فى داخلية البلاد — نقول إن هـذه البلاد العظيمة لا يربط بين كثيف غاباتها تلك جداول ماء صامته ودروبٌ هندية ضيقة . والغابات فى كل مكان تشبه بحراً أخضر . غير أن الشتاء يغيّـر من المنظر فـ ‍ يغلق النافورات ويكبل جداول المـاء ويحوّل

الغابات المتسربلة بالخضرة إلى فلاة مرتعصة عارية فلا تسمع فى تلك الدنيا الباردة المقفرة إلا « صفير الريح الشمالية الشرقية وصرخات الذئاب الجائعة » .

وقد هام — فى الزمن الغابر — ذوو الجلود الحمراء بحثاً عن مناطق الصيد ولاقوا صعاباً ممضة فكابدوا وارتكبوا قساوات وحشية وإن قدموا كرماً بالغاً فى بعض الأحيان . لقد كانوا أبناء الغابة ولهم دستور سلوك يختلف تمام المخالفة عن دستور ذوى الوجوه الباهتة . وقد كانوا يصغون الساعات الطويلة إلى الخطب الطويلة ويُقْعون فى المجالس بصبر رزين يليق بشيخ من شيوخ مدينة قديمة ما . ولكنهم كانوا أيضاً مع ذلك ، المتوحشين العارين المرعبين المطليين بالمغْرة (تراب حديدى) وبالهباب ، كان الفرد منهم الخائن العديم الرحمة نازعَ جلود الرءوس وكانت فؤوسه القاتلة وجمراته تستخدم ضد ضيعات الحدود المنعزلة .

وكانت فى الغرب الكبير : برارى تسرح فيها قطعان الجاموس، وأنهار تفيض على أودية فسيحة أو تضل فى ممرات هائلة بين الجبال ، وصحارى ينثر فيها نبات الصبار العجيب ، وسلاسل جبلية شاسعة ، وقبائل هندية متوحشة لم تعرف ولا يتوهم وجودُها . وعلى هذا الجانب من المسيسبى كان يحكم القارة الإيروكئوا أو الشعوب الخمسة الذين كانوا يفترسون القبائل الأخرى والذين كانت بيوتهم — المصنوعة من لحاء الشجر وخشب التامول — تنتثر عبر مسالك البيض الوافدين من البحر .

وفى أخريات القرن — فى حكم شارل الثانى — أسست جماعةٌ من السادة الفرسان : كارولينا التى أطلق عليها هذا الاسم تمجيداً لـ .. شارل . وأسس وليم بن ـ الصديق الصاحبى (أى الذى ينتمى لطائفة المهتزين) لشارل الثانى — أسس ، فى سنة ١٦٨٠ ، مستعمرته الصاحبية : بنسيلفانيا وجعل عاصمتها مدينة فيلادلفيا « موئل المحبة الأخوية » .

وفى اخريات القرن إمتدت المستعمرات الأوربية فى أمريكا إلى أبعد من ١٠٠ درجة من خطوط الطول ، من نهر بلات إلى خليج هدسون .

وفى الجنوب كان آباء يسوعيون (جزويت) يحكمون هنود باراجواى ويحرصون على عدم اتصالهم بالخارج ، وكانت هناك البرازيل البرتغالية بحقولها التى تنبت القصب والطباق والتى يشتغل فيها العبيد الزنوج ، وكانت هناك المستعمرات الأسبانية القديمة تحكم كلها من أسبانيا عن طريق نائبى ملكها فى بيرو والمكسيك ، وكان لزاما عليهما أن يبعثا بالمعادن الثمينة إلى مدريد وأن يتلفا غياضَ الزيتون وكرومَ العنب لكى لا تنافس نظائرَها فى أسبانيا .

وكانت فى البحر الكاريبى جزائر الهند الغربية الغنية الآهلة بالسكان ، والإنجليز والفرنسيون يُثرون من التجارة ومن تهريب السكر والعسل الأسود والروم والقطن وخشب البقَم الأحمر . وكانت هناك أيضاً مساكن قرصان البحر الذين تجمَّع بحارتهم المختلفو الأجناس وعملوا — عام ١٦٧١ — فى خدمة هنرى مورجان لينهبوا مدينة بناما الأسبانية .

وعلى الأرض الأمريكية — شمالى فلوريدا الأسبانية — وجدت المستعمرات الإنجليزية : (١) زارعو الجنوب يعيشون فى بيوت فسيحة ، وعبيدهم يكدون فى حقول الأرز بكارولينا أو فى حقول الطباق بڤرجينيا (٢) مزيد من العبيد يأتون تباعاً من غير انقطاع من غرب إفريقيا وقد برّح بهم الخوف من الألم الشاحب المبرح الذى كانوا يعانونه فى الطريق الأوسط عبر الأطلنطى (٣) مهربون من جزائر الهند الغربية يتسربون فى هدوء إلى ميناء تشارلستون (٤) بروتستانتيون ألمانيون « ألمان بنسيلفانيا » من بلاد الراين (٥) لاجئون من الهوجنوت الفرنسيين فى نيويورك جنباً إلى جنب مع أغنياء الـ « باتنهير » (أى النبلاء الدنماركيين) أو تجار الفراء الهولانديين تصحبهم حاشيتهم من العبيد السود وصاحبيون سذج مسالمون

فى مستعمرة پن ونيو چرزى (٦) جماعات دينية للمتطهرين فى بوستون مستغرقة فى مطاردة السحرة (٧) مزارعو إنجلترا الجديدة الكادحون المقتصدون المستقلون (٨) بحارة كنكتيكات وصيادوا الحيتان من جبهة نانتوكيت (٩) سماكو نيو فاوندلاند الذين يفدون ، فى المواسم فقط ، من بسكاى وغرب إنجلترا (١٠) جماعات من أقاصى البلاد المعمورة تطأ أول الدروب التى تصل بجبال ألليجانى والآبلاش (١١) فى كل مكان من الغابات الهنود الحمر : الموهوك حلفاء الهولانديين ، التوسكارورا والياسى على تخوم كارولينا ، الهيورونيون يغيرون على ضيعات الـ .. مين وهاءشاير الجديد ويحالفون الفرنسيين فى كندا .

ولم يكن الفرنسيون يقصرون نشاطهم على كندا . فقد استكشف لاسال — أحد حكامهم — الأنهار ومجارى الماء على طول الطريق الواقع بين البحيرات الكبرى وبين خليج المكسيك وأعلن تبعية منطقة «لويزيانا» للويس الرابع عشر .

أما عن أقصى الشمال فقد أعطاه شارل الثانى إلى سادة جمعية خليج هدسون الذين يحكمهم ابن أخته الأمير روپرت . وقد كان وكلاء الشركة يعيشون عيشة العزلة فى الأراضى الشمالية المنجمدة يتقاضون المدافع والسكر والشاى والبطاطين والغلايات والبلط لقاء فراء السمور والراقون (وهو حيوان من اللواحم) والقضاعة (وهو نوع من كلب البحر) والثعالب التى يجىء بها ، سنة بعد سنة إلى مصنع نيويورك ، صائدو الحيوان الهنود على قواربهم .

وكانت الدنيا الأمريكية الجديدة التى — تُنقل كلها من أوربا — فى سبيلها إلى البروز إلى عالم الوجود بكدّ أيد مجهولة لا حصر لها .

السلطان والقيصر :

تعدّى الأسبان والهولانديون والفرنسيون والإنجليز الحدود البحرية

الغربية التى تحد البلاد المسيحية ، وانطلقوا يجازفون ـ فى سبيل مصالحهم ـ وراء مياه الأطلنطى الواسعة . وكانت شعوب أخرى تشكل مصاير أوربا من ناحيتها الشرقية أى من جانبها اليابس حيث كان سلاطين الأتراك — من قصورهم القريبة من القرن الذهبى — يحكمون الألف مدينة العتيقة المخربة . كان الأتراك يحكمون مناطق سبق للفرسان الألمان أن أقاموا فيها حصونهم وحكموا مزارعهم التى انتزعت من قفار پروسـيا المقفرة وقتما كانت تلك الأراضى « سِمة » أو تخوماً محصنة ضد الوثنيين . كان الأتراك يحكمون مناطق سبق لنبلاء پولندا الكاثوليك أن حكموا فلاحيهم المنتشرين فى القرى على السهول ومعهم جماعة من اليهود كبيرة العدد . كان الأتراك يحكمون الأودية الواقعة على هذا الجانب من جبال الكرپات والذى سبق أن آوى الهنجاريين الذين يتكلمون اللغة المجرية الغربية كما آوى الفلاحين والنبلاء الذين كان ملكهم إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وكما آوى — على مدى مئات من الأميال شرقاً — أميراً مسيحياً درج على أن يقيم بلاطه فى موسكو .

كانت الإمبراطورية التركية تضم مجموعة كبيرة من الشعوب المختلفة كل الاختلاف ، تجارها من الأرمن والإغريق ، وعلماؤها من العرب واليهود ، وبحارتها من الإغريق ، وعلمها وشعرها مستعاران من الفرس والعرب ، وجنودها فلاحون أناضوليون من آسيا الصغرى . . . كان الأتراك سادة على أولئك وعلى كثيرين غيرهم ، ويتقاضون منهم الضرائب ... ويشمرون سواعدهم للحرب ، وكان اعتمادهم على إرادة الله يجعلهم أقوياء الشكيمة فى الحرب ويمدهم بالتفوق فى حرب الهلال والصليب الطويلة الأمد .

وبسبب فرقة الشعوب المسيحية بسط الأتراك سلطانهم على شعوب البلقان وعلى الرومانيين والبلغاريين والعرب واكتسحوا المجر . وفى ١٦٨٣ بلغ جنودهم أبواب ڤينا . ولم يتحرك ملوك الغرب . غير أن حظ المسلمين

خانهم نهائيا فى هذه الغزوة إذ أن جون سوبيسكى ـ على رأس نبلائه البولنديين وحشودهم — أجلاهم عن ڤينا وأنقذ المدينة . وفى ١٦٩٧ أحدق الأمير النمسوى أويجين بجيش تركى فى زنتا . وثبت البندقيون والهنجاريون حتى تنازل السلطان فى ١٦٩٩ عن كل مطمح لحكم المجر . ومنذ ذلك الوقت ظلت الإمبراطورية التركية فى حالة دفاع . غير أن وجود الأتراك فى البلقان ظل مسألة قائمة « المسألة الشرقية » فى أوربا .

ومنذ ذلك الوقت أيضاً كانت هناك دولة جديدة تنافح عن المسيحيين والشعوب السلافية التى كانت ما تزال تحت حكم الأتراك . وقد نهضت تلك الدولة الجديدة على سهول بلاد المسكوف وكان يحكمها قيصر الروس ، ويتبع شعبها الكنيسة الإغريقية . وكان سياح شركة المسكوف اللندنية وتجارها يعرفون أسواقها . وقد أرسل القيصر — إيڤان الرهيب — سفراءه ، ذوى الأحذية العالية واللحى المرسلة ، إلى بلاط الملكة إليزابيث الأولى . ولقد بقيت وقتاً طويلاً تتعرض لهجمات خيالة التتر وتدفع الأتاوات لزعيم تلك العشائر الأسيوية . وإذ ذاك أيقظها ـ على صورة ما ، من تأخرها ورخاوتها — جبار صغير السن وهو القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٩ — ١٧٢٥) مجدد بلاد المسكوف .

وكان بطرس قد زار هولاندا وإنجلترا حيث اشتغل عاملاً فى أحواض السفن بـ تساندام — و — دبتفورد وحيث تعلم كل ما وسعه تعلمه من عادات الغرب وحرفه . فلما عاد إلى روسيا أخذ — فى نشاط هائل يكاد يبلغ حد الجنون — يغير جميع أساليب حياة الروس وأساليب عملهم . واستقدم مستشارين وخبراء أجانب ليساعدوه . وبنى عاصمة جديدة « نافذة على الغرب » فى سنت بطرسبرج (لنينجراد) وهى مدينة جديدة ذات طابع جديد فى مستنقع كلفت خسائر باهظة فى أرواح العمال . وبنى سفناً وصب مدافع . وأدب المعارضة والعصيان بالجلد والتعذيب وضرب العنق ،

وكثيراً ما ضرب بالفأس بنفسه ودفع قضاته على أن يحذوا حذوه . وكان الحاكم المطلق على أهل ممتلكاته جميعاً . وقد رمى إلى جعل روسيا دولة أوربية .

وبعد وفاته أخذ العمل يزيد توانياً . وقد بدأت روسيا تسهم بقسط فى سياسة أوربا الشرقية . واشتبكت مع الأتراك على شواطىء البحر الأسود ومع السويديين على شواطىء البلطيق . وكان هذان البحران منفذيها . غير أن البحر الأسود يستطاع إغلاقه بالقلاع التركية الرابضة فى القسطنطينية . ثم أن البلطيق يتجمد شتاء . ووراء روسيا تترامى — إلى جبهة الشرق — غابات وسهول سيبيريا التى لا تقف عند حد ، وتترامى — إلى جبهة الجنوب — مدرجات التركستان وصحاريها وجبالها . وكانت الأصقاع الشرقية والجنوبية المجهولة فى الدولة الجديدة تعدُل فى مساحتها ما كان يوجد غرب المستعمرات الجديدة فى أمريكا . وقد ظلت روسيا فى عهد القيصر تحكم حكماً استبدادياً وظلت شعوبها تعيش فى مجتمعاتها القروية تحت حكم ملاك الأرض . وكان أهل البلاط والأشراف الروس فى العاصمة الجديدة يتخذون أساليب حياة الأرستقراطيات المثقفة فى فرنسا وألمانيا .

ولكن الروس لم يتعلموا ولم يفهموا أفكار الغرب السياسية عن الحرية والحكم الذاتى . وكذلك لم تفهمها الدويلات البروسية الدائمة الاعتداء ، تلك الدويلات التى أخذت قواتها تزداد فى تلك الفترة من الزمان .

وقد احتفظ أمير البروسيين البروتستانتى — فريدريك فيلهلم (١٦٤٠ — ١٦٨٨) — بجيش عظيم ودعم سلطانه باستدعاء كثيرين من الهوجنوت الفرنسيين ، الذين طردهم من فرنسا لويس الرابع عشر ، ليستوطنوا بلاده واتخذ ابنه لقب ملك بروسيا . غير أن حفيده — الملك فريدريك فيلهلم (١٧١٣ — ١٧٤٠) هو الذى حوّل بروسيا إلى دولة مسلحة . وكان محارباً

متهوّساً فظاً غير مثقف . فاحتفظ بجيش عامل قوامه ثمانون ألف رجل كان كثير منهم من الأجانب المخطوفين الذين جلدوا حتى استسلموا . وقد عمر خزانته نتيجةً لصهر الأوانى الفضية الملكية وبيع الجواهر الملكية وإلغاء البلاط وقطع مرتبات خدَمه الخصوصيين ، ولم يبق لهم غير الكفاف . وكان كل ما يهم فى مملكة پروسيا : المال والسكان والجنود — الجنود بصفة أخص .

بريطانيا تعادى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر (١٦٨٩-١٧٤٨)

وقتما ولى وليم الثالث ملك بريطانيا العظمى فى سنة ١٦٨٩ — بشرط أن يحافظ على القوانين وعلى الملة البروتستانتية — كان الملك لويس الرابع عشر هو الحاكم بأمره فى فرنسا . وفى سنة ١٧٨٩ كانت المقارنة بين الملكين تناسب هذا الوضع : كان صاحب الجلالة البريطانية جورج الثالث يحكم عملاً بنصيحة أعضاء مجلس اللوردات وأعضاء مجلس العموم فى برلمانه ، بينما كان لويس السادس عشر يتصرف وفق هواه . الواقع أن المقارنة ذهبت إلى أعمق من ذلك . كان لانجلترا قانونها الخاص وكان لاسكتلندا قانون آخر : قانون وستمنستر أو قانون إدنبرة . كان فى فرنسا تنوّعٌ فى القوانين كبير يتناسب مع تنوع المقاطعات بينما الحكومة الملكية هى الوثاق الذى يربط البلاد بعضها ببعض . ولا عجب إذا كان الكثيرون من الفرنسيين قد عدُّوا أسلوب الحكم فى بريطانيا قدوةً تحتذَى أو إذا كان أحدُ البابوات قد علّق بأن استمرار قيام الملكية الفرنسية معجزة .

ولقـــد ظلت الدولتان تتحاربان أكثر من سبعين سنة (بين ١٦٨٩ و ١٨١٥) .

وكانت فرنسا أقوى دولة برية كما كانت بريطانيا أقوى دولة بحرية . ولم يرَ عصر من العصور قط — منذ روما — همة حربية مدعمة كهمة

جيوش فرنسا التى بلغت ذروتها بانتصارات نابليون ، كما أن أى عصر من العصور السابقة لم يرَ إطلاقاً قوة تستحق الفخر كقوة بريطانيا التى أتاحت لها أن تحتفظ فى البحار بـ ١٥٠ سفينة حربية كبيرة والتى بلغت ذروتها بانتصارات الأميرال نلسون وعقدت لواء السيطرة على المحيطات على بريطانيا طوال القرن التاسع عشر .

وعلى هذا كانت بريطانيا فى حروبها مع فرنسا تنشد عون أحلاف فى القارة أشداء فى الحرب ، غالباً من النمسويين الذين كان ملوكهم (من آل هابسبورج) ينافسون ، من قديم ، ملوك فرنسا من البوربونيين .

وقد تُوّج وليم الهولندى ملكاً باسم وليم الثالث غير أن الكثيرين — وبخاصة من الأسكتلنديين والأيرلنديين — وقفوا ولاءهم على . . جيمس الثانى ، وقد حارب وليم حروباً قاسية ليهزم « اليعقوبيين » (أنصار يعقوب الثانى) فى إيرلندا . وقد التحق آلاف من الأيرلنديين بخدمة جيوش فرنسا حيث شكلوا ألوية إيرلندية ووفوا المقام حقه ببأس شديد . وقد استبقى جيمس الثانى وابنه جيمس إدوارد (جيمس الثالث) وحفيده شارل إدوارد (شارل الثالث) ، استبقى هؤلاء « بلاطهم » فى فرنسا ضيوفاً على ملوكها وظلت الفرصة سانحة طوال نصف قرن ، لاحتمال إثارة متاعب فى بريطانيا من جانب أتباعهم . فلقد ظل وكلاء يعقوبيون سريون يجيئون ويذهبون ولم يكن لامرىء أن يوقن إلى أى مدى فى داخلية البلاد تستطيع صيحة « طير بدى » فوق مستنقع رومنى أن تنتقل قبل بزوغ الفجر — إلى بيت ضيعة ناءٍ إيذاناً ببدء الغزو أو الثورة ! وكان وليم الثالث نداً لمثل هذا الموقف وأحرص من أن يؤخذ على غرة . فلقد كان يعرف أن كبار اللوردات الذين أجلسوه على العرش لا يستغنون عنه . وكان على جانب كبير من الشجاعة والعزم والصبر وإن كان يبدو فى الظاهر أنه بارد رخو . وقد قنع بأن

يكون ملكاً برلمانياً ما وسعه أن يحرز مساعدة بريطانية يستعين بها على كبح قوة لويس الرابع عشر . ولقد ضم فرق الجزيرة إلى فرق جنشه الهولندى وقادهم — فى سبع مواسم متوالية — حارب فى خلالها مشيرى (مارشالات) الملك الفرنسى فى البلاد الواطئة . وكان جندياً محنكاً عنيداً متثبتاً برأيه ، بل لقد كان بطلاً فى عدم اكتراثه بالربو المزمن الذى انتابه، وتحمل فى رباطة جاش ، محن المعسكر والميدان . وهو — وإن لم يكسب قط معركة فاصلة — لم يكابد قط نكسة شديدة الوطء . ومعركة نيرفندن أنموذج حظه : انتصر المشـــير زاكس ولكنه خسر فى المعركة ١٠٫٠٠٠ جندى .

وفى سنة ١٦٩٧ عُـقد صلح ، غير أن الحرب قامت من جديد عندما ارتضى لويس الرابع عشر عرش أسبانيا لحفيده . ولسوء حظ لويس أن وليم مات وقتما كان هو يجهز للحرب . ذلك أن الملكة (آن) — التى ورثت وليم — عينت جون تشرشل ، دوق مولبرا ، قائداً لجيشها .

كان مولبرا جندياً عبقرياً . وقد استطاع بالصبر والحصافة أن يبقى حلفاءه متماسكين . وكان ذا خيال وبصيرة فى شئون الحرب ، يشتد فى إقرار النظام وإن عنى أشد العناية براحة رجاله الذين يثقون كل الثقة بقائدهم « الأومباشى جون » (قائد الاثنى عشر) . وفى ١٧٠٤ زحف سراً ، وفى أقصى سرعة ، إلى الدانوب حيث التقى بالقائد النمسوى الأمير أوبجين ودمر الجيش الفرنسى فى بلينهايم . وكانت هـذه المعركة ، بالإضافة إلى انتصاراته الشهيرة فى راميليس — و — أودينار — و — مالبلاكية ، ذروة فخار فى مجموعة كاملة من التحركات العسكرية المتألقة التى دفعت لويس الرابع عشر إلى عقد الصلح . إلا أن الأمور لم تسر على هذا المنوال الطيب فى أسبانيا حيث قهر الجيش الفرنسى — بقيادة دوق بيرويك الإنجليزى المولد — جيش الحلفاء الذى يقوده إيرل جولوى الفرنسى المولد ، فى

ألمانزاسنة ١٧٠٧ . ولم يكن الحلفاء محبوبين فى أسبانيا . ولهذا فإن حفيد لويس الرابع عشر احتفظ بها (أى أسبانيا) فى صلح ١٧١٣ . وتعويضاً عن هذا أعطيت الأراضى الواطئة الأسبانية . للنمسا ابتغاء متابعة كبح قوى فرنسا .

وفى البحر كان الأميرال روك قد دمر أسطولاً فرنسياً على مسافة من لاهوج وأسطولاً آخر عند فيجو حيث تقاضى أحد عشر مليون قطعة نقدية — من ذات الـ ٨ بزتياس — من سفائن الكنوز الأسبانية . وروك هو الذى استولى على القلعة المغربية القديمة ، جبل طارق ، فى ١٧٠٤ . وفى الحربين حافظ الأسطول البريطانى على أمن البحار لضمان حرية نقل الجنود .

وماتت الملكة (آن) ولويس الرابع عشر وتغير المشهد . ذلك أن اللوردات الكبار بايعوا أمير هانوفر الجرمانى البروتستانتى — جورج — ليكون جورج الأول ملك بريطانيا . وفى ١٧١٥ كان الملك الفرنسى ما يزال صبياً : لويس الخامس عشر . وهنا حلت فترة سلام طويلة مداها خمس وعشرون سنة نتيجة لسياسة نبيل نورفولك المخادع سير روبرت وولپول الذى كان أول رئيس وزارة فى بريطانيا ولسياسة الألمعى المسن الكردينال فلودى الذى حكم فرنسا لحساب لويس الخامس عشر . وكان كل منهما ، ديدنه السلام وتشجيع التجارة والصناعة ولا ينتظر من الحرب إلا كسباً قليلا ، وقد أثرى بلداهما وانتعشا تحت حكميهما .

ورث جورجُ الثانى جورج الأول، وبلغ لويس الخامس عشر الرجولة وتسلم مقاليد الحكم . وتوفى الكردينال فلورى وطرد وولبول من منصبه نتيجة ضجة تطالب بأشعال الحرب ضد أسبانيا لم تلبث أن انقلبت حرباً على فرنسا . وفى ١٧٤٠ مات الإمبراطور النمسوى وترك عرشه لابنته

مارية تيريزا . وفى ١٧٤٠ أيضاً مات الشيخ المتوحش ملك بروسيا وترك تاجه وجيشه الحسن الأعداد لولده النابه فردريك الثانى الذى استولى من فوره على مقاطعة سيليزيا النمسوية الغنية من الملكة الصغيرة السن . وخف الفرنسيون إلى مساعدة فردريك ضد النمسا بينما أخذت بريطانيا جانب مارية تيريزا ، فعلت ذلك بطبيعة الحال عن طريق هجومها على الفرنسيين .

ولم تلبث القارة أن عجت بالجيوش وشوهدت فى تلك الحرب ، حرب « الوراثة النمسوية » ، الفرق البريطانية والهنوفرية تحت إمرة جورج الثانى تشق طريقها للخروج من محنة فى ديتينجين عام ١٧٤٣ . وشهدت القارة بعد ذلك دوق كمبرلند ، العديم الكفاية ، ابن جورج ، ينهزم أكثر من مرة أمام مارشال زاكس الذى ضم جيشه الفرنسى فرقة اليعقوبيين الأيرلندية الجبارة . ومن الصعب معرفة : هل كسبت بريطانيا من الأيرلنديين الكثيرين الذين حاربوا من أجلها أكثر مما خسرت من الأيرلنديين الذين يعدُّ لونهم كياسة والذين حاربوا ضدها . قهر أميرا البحر الأنجليزيان ، أنسون — و — هوك ، الأساطيل الفرنسية وجرت مقارعات بين قوات الفرنسيين والأنجليز فى الهند وفى أمريكا الشمالية ولكن — بعد تكرار الزحف والزحف المضاد فى النمسا وبوهيميا وسيليسيا وبلاد الراين والبلاد الواطئة — انتهت الحرب بالموقف البالغ الحرج ، سنة ١٧٤٨ . وقد ردت الفتوحات كلها ما عدا فتح سيليزيا المخزى على يد فردريك البروسى .

على أن ثورة سنة ١٧٤٥ اليعقوبية ، أهميتها المباشرة تربو فى نظر الإنجليز والأسكتلنديين .

وبينما كان بلاط سنت جيمس يصغى إلى « تسبيحة الشكر » ، لناظمها هاندل ، حمداً لله على النصر الملكى فى ديتينجين ، كان عملاء آل ستيوارت مشغولين بالاستعداد لغزو إنجلترا . وقد تبين أن ذلك يمس بالغ الصعوبة

مالم يشارك فيه الفرنسيون بقدر كبير . غير أن شارل ستيوارت الظريف الطيب — شارل إدوارد الفارس الصغير — أبحر إلى أسكتلندا حيث نزل إلى البر فى صحبة سبعة من أتباعه . ولم يمضِ أسبوعان إلا وهو على رأس ألفين من الجبليين غالبهم من عشيرة ماكدونالد . واستمرت العشائر تتجمع حوله ، ودخل أدنبرة ، وتُوّج باسم شارل الثالث ، وتغلب على جيش من جيوش الأغوار (أى الأراضى الواطئة تحت منسوب البحر) وسار جنوباً . وعبر ٨٠٠٠ من رجال العشائر الحد الغربى . وتطرقوا فى بسالة إلى كارليل وصعدوا (شاب‌فيل) التى يشتد فيها الريح فرحبت بهم لانكشَير « الموالية لهم » . وتقدم شارل ولبس الصوف الأسكتلندى المخطط والصدرة الزرقاء المزدانة بالدنتلة الفضية ، والطاقية الأسكتلندية . وفى الرابع من ديسمبر — عندما بلغ الجبليون دربى — بدا كأن المغامرة تتخذ سبيلها إلى النجاح . وكان شارل يتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى لندن غير أن اللوردات الأسكتلنديين — الذين خيب أملهم إحجامُ نبلاء الإنجليز عن مد يد المعونة إليه — نصحوا له بالانسحاب . فاستداروا وعادوا أدراجهم على الطريق التى أتوا منها .

وتجمعت قوات جورج الثانى الإنجليزية والألمانية فى داخلية البلاد بقيادة كمبرلاند وتبعته . وبعد ثلاثة أشهر التقى الجيشان فى عاصفة ثلجية على كالودين مور (السبخة) .

وزحزحت فرقةُ أثول رجالَ ماكدونالد عن مراكزهم الممتازة المعتادة الواقعة على يمين خط القتال فوقفوا بمعزل إلى ان فنى الماكينتوش (أصحاب معاطف المطر المشمعة) وغيرهم نتيجةً لهجماتهم الشهمة اليائسة على خطوط المشاة الثلاثية التابعة لـ . كمبرلاند . وكان نجاح غارة الجبليين يعتمد على هجومها الأول . فلما هجمت عشائر ماكدونالد كان وقت كسب المعركة قد فات . وأخذ آخر جيوش اليعقوبيين يتفتت تفتتاً سريعاً . ونأى ضابطان إيرلنديان وشارل عن الميدان . وبقى الميدان فى حوزة رجال كمبرلاند .

ونجا الأمير شارل بفضل ولاء أصدقائه : الرجال والنساء الجبليين الفقراء . وتمكن كمبرلاند — بمساعدة آل كامبيل من أر جيل — من القبض على الثوار وإعدامهم ومن حرق الأكواخ والمحاصيل ومصادرة الماشية . وألغى البرلمان السلطات الاقطاعية التى كان يتمتع بها زعماء العشائر، وخطر لبس القماش الأسكتلندى المربع النقوش والعباءة الصوفية المخططة . وقضى على اليعقوبية . وعاش شارل إدوارد حتى ١٧٨٨ ولا عمل له غير شرب الخمر . وصار أخوه الصغير هنرى — « هنرى التاسع » فى نظر اليعقوبيين — قسيساً كاثوليكياً وكاردينالا ، ومات فى ١٨٠٧ وهو آخر شجرة آل ستيوارت السيئة الحظ .

ومن الغريب أن إحدى نتائج ثورة الـ «٤٥» هذه كانت تقوية الجيش الملكى البريطانى . ذلك أن الحكومة ساعدت على تجنيد الفرق الجبلية . ولا محل للكلام فى تحية ذكراهم المجيدة منذ ١٧٥٠ . والحق أن الجيش لم ينتعش وحده من معاضدة الأسكتلنديين ، ولكن الحياة الوطنية البريطانية انتعشت كذلك منذ أواسط القرن الثامن عشر .

وفى خلال الحرب الكبرى — التى فيها كانت الـ «٤٥» حادثاً شائقاً — أعلت البحرية البريطانية مكانتها ثانية بتأمين البحر للنقل والتجارة . نعم لقـــد وسع البحرية البريطانية أن تقرر مصاير حوادث ما وراء البحار فى الشرق وفى الدنيا الجديدة ولكنها عجزت مع ذلك عن وضع قراراتها موضع التنفيذ فى أوربا دون أن تعتمد هنالك على حليفة ذات قوة برية عظيمة(١) .

حرب السنوات السبع :

والآن استطاع خيل الملك جميعاً ورجال الملك جميعاً فى فرنسا وبريطانيا أن يعودوا إلى ثكناتهم : الحرس ، فرسان الدراجون ، حملت القرابينات

---

(١) انظر شكل رقم — ٩٠ — (إنجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة ١٧٥٥ — ١٧٦٣)

(وهى نوع من الأسلحة النارية) ، حملة البنادق ، رماة القنابل اليدوية ، وسائر الرجال . . . يعودون إلى التدريب والعرض العسكرى ، لابسين أحذيتهم الطويلة والأحذية يغطى وجهها القماش وجلود الدببة أو الطواقى ذوات الريش الثلاث وضفائر الشعر الطويلة تزينها الزهور والأدهنة أيما تزيين . فلقد انتهت الحرب فى أوربا .

ولكن الحرب لم تقف فى الهند حيث كانت شركات الهند الشرقية المتنافسة تتاجر فى أمريكا التى فيهـــا كان المستعمرون يتسابقون إلى استعمار القارة .

ولم يكن لأهل الهند نفوذ كبير فيها . ولذا أتيحت لـ . . دوبلكس — حاكم بندتشرى الفرنسى — فرصة تنمية نفوذه ، وذلك بالمشاركة فى السياسة المحلية فى الولاية الهندية المسماة « كارناتيك » (أى القرنفلة) . وفى ١٧٥١ حاول أن ينصب على العرش حاكماً هندياً جديداً يلقبونه « النواب » فحاصر جيش من الهند تريتشينوپولى التى كان النواب القديم قد التجأ إليها . وأزعجت تلك الأحداث رجال الشركة البريطانية فى مدراس . فجمع كاتب صغير اسمه روبرت كلايف حفنة من الجنود الوطنيين (أو الجنود الأهلية المجندة فى جيش أوربى) واستولى على آركوت العاصمة القديمة . وكانت تلك خطوة موفقة لأنها تسببت فى سحب الحشود التى كانت تحاصر تريتشينوپولى . وحافظ كلايف على أركوت خمسين يوماً تعرض فى خلالها لاحتمالات شديدة وطرد بعدها الهنود . وفى ١٧٥٢ استولى على تريتشينوپولى وأعاد النواب القديم . وعلى أثر ذلك رجع دوبلكس وكلايف إلى وطنيهما . عاد الفرنسى بالخزى ، أما كلايف فقد عين عقيداً فى جيش جورج الثانى .

وكانت هذه العمليات — التى أخضعت الحصون الجنوبية بجنوب الهند — تافهة إذا قيست بالأحداث التى وقعت فى الغابات الأمريكية . كان الفرنسيون

المقيمون فى كندا قد استكشفوا مجارى الماء . وكان قناصتهم — الذين يصيدون الحيوانات لبيع جلودها — وضباطهم ينشطون على طول الأنهار التى تجرى بين كندا والبحيرات الكبرى وبين المستعمرة الفرنسية فى لويزيانا وكان نشاطهم يقابل بالاستنكار الشديد فى المستعمرات البريطانية فى الولايات الساحلية .

وفى ١٧٤٩ نصّبت جماعة من رواد منتريال لويس الخامس عشر ملكاً على المناطق التى تحيط بنهر ألليجانى وفى ١٧٥٤ شيد الفرنسيون حصن دوكين حيث يلتقى نهر الليجانى — و— مونونجاهيلا . ونتيجة لهذا التهديد المتوغل فى داخلية البلاد جاء الرائد جورج واشنجتن — مع من جندهم فى فرجينيا — إلى فلاة غرب بنسلفانيا حيث أوقعوا فصيلة فرنسية فى كمين . وبددت مباغتة أطلاق النار دفعة واحدة ، الصمتَ الذى يسود الغابة ، وبدأت حرب فى سبيل الاستيلاء على قارة .

وفى ١٧٥٥ انطلق القائد برادوك ليستولى على الحصن فمهد كشافوه درباً فى الغابة سعته ١٢ قدماً وتقدم رجاله وجيشه المرابط — وكانوا ألفين — ١٠٠ ميل فى شهر واحد . وخاضوا ، فى روح عالية نهر مونونجاهيلا على أنغام المزامير والطبول. وعندئذ وقعوا فى كمين كان قد أعده لهم الفرنسيون والهنود . ووقع نصفهم صرعى طلقاتِ أعداء اختبأوا فى مكان لم يروه ، وجرح برادوك جرحاً عميقاً . وأثرت تلك الكارثة أسوأ تأثير فى سمعة ذوى المعاطف الحمر ، بين المستعمرين والهنود الحمر . ورغم المباغتة التى قام بها ، فى الشمال ، الهنود الموالون لسير وليم جونستون ومجندى إنجلترا الجديدة ، كان الموقف سيئاً . فلقد ظل خطر عزل الفرنسيين للمستعمرات البريطانية ماثلا ، وجاهد واشنجتن بغيةَ إيقاف زحف الجنود الحمر الذين أطلقوا العنان لوحشيتهم على طول مزارع الحدود من نيويورك إلى ولايات كارولينا.

وفى تلك اللحظة بالذات اشتعلت الحرب فى أوربا من جديد . ذلك أن مارية تريزا — التى صح عزمها على استرداد سيليزيا — تآمرت مع فرنسا وروسيا وباڤاريا ، على مهاجمة فردريك البروسى . وتنبه فردريك إلى هذا فسبقها بتسيير جيش كبير إلى قلب سكسونيا التى ظل يتصرف إزاءها كما لو كانت من أراضيه . وفى هذه المرة انحازت بريطانيا — بوصفها عدوة الفرنسيين الذين كان أبناء بريطانيا مشتبكين وإياهم فعلاً فى حرب بأمريكا — انحازت بريطانيا ، راغبة أو كارهة ، إلى جانب فردريك .

وكانت بداية الحرب فى غير مصلحة بريطانيا ، وأمرت زمرة السياسيين الخائنين فى وستمنستر ، بأعدام أمير البحر (بنج) رمياً بالرصاص لأنه لم يصد الأسطول الفرنسى عن الاستيلاء على مينورقة . ولم يؤثر قط هذا الحادث على العدو . وكادت الأمور تتردى فى حمأة الارتباك لولا أن الجمهور أكره جورج الثانى على أن يسلم مقاليد الحرب إلى وليم بيت . . . لم يكن بيت يؤمن بأنصاف الحلول فأهاب بالقوى المحاربة أن تتخذ خطة الهجوم وأعد ١٥٠ سفينة للعمل . وقد رمى إلى غرض واضح وهو أن يهبط بفرنسا إلى دولة من الدرجة الثانية ويبيد أساطيلها ويستولى على جميع ممتلكاتها الواقعة وراء البحار . وخطط لحماية هانوفر ولحماية الأراضى الواطئة ، وذلك بتأدية أموال طائلة إلى فردريك وبإرسال فرق بريطانية إلى القارة وكان أكبر همه أن يسيطر على البحار وعلى ما وراء البحار .

واكتسب سيادةَ البحار الضيقة أمراء البحر : هولمز — و — أنسون — و — هوك . وأقفل أوسبورن البحرَ الأبيض المتوسط وأسر أمير البحر الفرنسى دوكين فى سفينة قيادته . ودفع بوسكاون جيش القائد جيفرى أمهرست إلى لويزبرج وهى القلعة التى كانت تذود عن مدخل كندا البحرى أوحمل عليها وأستولى عليها .

ثم بدأ الهجوم على كندا . تقدم ٢٠٫٠٠٠ رجل، بقيادة آبروكرومبى ، فى طريق (هدسون — موهوك) وهبطوا بحيرة جورج. وتحركت العمارة البحرية الصغيرة المنتشرة — بمجاديف لا حصر لها تغطس فى المياة الهادئة — تحركت شمالاً بين غابات أديروندا كس والجبال الخضراء . فلما نزلوا من السفن قام أبروكرومبى بهجوم أمامى على تيكونديروجا حيث أحيط بخنادق جنود مونتكالم على جرف بين المستنقعات مستتر وراء حاجز من الأشجار المقطوعة . وحصد الحماة بطلقاتهم النارية المباغتة،حصدوا المهاجمين العشرات تلو العشرات . وقد كابدت خسائر جسيمة فرق الجبليين الذين جندوا حديثاً من بين رجال العشائر المتكلمين بلغة بلاد الغال ، فلقد كان الهجوم جسارة تبلغ حد الحماقة . وفى الوقت ذاته كانت الجنود البريطانية — بقيادة فوربز — تسير فى حذر إلى حصن دوكين على الدرب القديم، الذى أنشاه برادوك ، وكانت الطبول تدق ليلاً ونهاراً لتحافظ على وحدة (طابور) الجنود الطويل . بلغوا المكان فوجدوه مهجوراً . فحرسوه وأسموه : حصن بيت . وبمرور الوقت تطور وانتعش حتى أصبح مدينة بتسبورج الصناعية العظيمة .

وكانت ١٣٥٩ سنة النصر . فلقد دمر بوسكاون أسطول البحر الأبيض الفرنسى فى لاجوس . وضرب رودنى الـ . . هافر بالقنابل . ودمر هوك أسطولاً فرنسياً فى مياه خليج كيبيرون الضحلة . وفى أمريكا اشتعلت موقعة — فى مكان تسمع منه سقطات مياه شلالات نياجارا الهادرة — موقعة جعلت البريطانيين سادة طريق برى يوصل إلى كندا . ولما استولى جيفرى أمهرست على تيكونديروجا ضمن طريقاً أخرى . وثمة طريق ثالثة — هى طريق البحر — توجت انتصاراتهم . فقد نقل أمير البحر سوندرز، نقل القائد جيمس وولف وجيشه إلى أعالى الـ .. سنت لورنس : وشق وثابوشاطىء

التيمز — الذين يشتغلون بالتعبئة والنقل — طريقهم عبر المياه غير المدروسة بمهارة فائقة إلى أن فاجأوا مواطنى كويبك بالرسو أمام عيونهم . وعندما أزمع وولف على أن يمر بجيشه فى درب بالغ الضيق من شاطىء المياة إلى المرتفعات العالية اضطلع البحارة بجر المدافع والذخائر . وعلى المرتفعات التقت الجيوش الفرنسية والبريطانية للفصل فى مصير كندا . وقتل مونت كالم — و — وولف فى المعركة التى ضمنت استيلاء البريطانيين على كويبك . وعندما وصل أمهرست فى ربيع ١٧٦٠ استسلمت مونتريال وأصبحت كندا كلها بريطانية .

إلى هذه النتيجة وصلت الحرب وقتما أمر جورج الثانى — الذى كان يزور هانوفر — بشوكولاتة الصباح الساخنة وشربها وسقط ميتاً .

وكان هذا حدثاً فاصلا ، إذ أن جورج الثالث — الذى كان يكره وليم بيت — أحل محله وزيراً سارع إلى عقد الصلح . وقد ظلت خطط بيت تكلل بالنصر حتى بعد استقالته . فعندما دخلت أسبانيا الحرب استولت البعوث البريطانية من فورها على الأملاك البريطانية فى هافانا والفلبين وهى الأملاك التى أعيدت بمقتضى صلح ١٧٦٣ . وتنازلت أسبانيا لبريطانيا عن فلوريدا . فإذا أضفت كندا إلى تلك البقاع وجدت أن بريطانيا تملك ، إذ ذاك ، كل شمال القارة الأمريكية شرقى المسيسبى . وفى جنوب الهند — التى كانت الدولتان ترسلان إليها الأساطيل والجنود — هزم سير أيركوت الفرنسيين فى واندواش — و — بندتشرى عام ١٧٦٠ . واحتفظ الفرنسيون بمحطاتهم التجارية الواقعة على السواحل الهندية ولكنهم فقدوا كل أمل فى السيطرة على الولايات الأهلية . وبدلاً عن ذلك أصبح تجار لندن سادة البنجال نتيجة لانتصارات كلايف على الجيوش الأهلية وفى بلاسى عام ١٧٥٧ وانتصارات مونرو — و — باكستر عام ١٧٦٤ .

وهكذا فقد الفرنسيون إمبراطورية وكسب البريطانيون إمبراطورية .

تركنا فردريك البروسى مع جيشه فى سكسونيا عام ١٧٥٦ . لقد أنهى الحرب مع مملكة خربت تخريباً محزناً ولكنه ظل ، مع ذلك ، يضع يده على مقاطعة سيليزيا ، وهى البلد الذى اشتعلت حرب القارة بسبب التسابق إلى امتلاكها . كان فردريك قد حقق انتصارات : على النمسويين فى براج ، وعلى الفرنسيين فى روزباخ ، وعلى الروس فى لويتين ولكنه كذلك منى بهزائم كثيرة . لقد أمضى ست سنوات لم ير فى خلالها عاصمته برلين التى كان أعداؤه قد استولوا عليها . وكان الحمل الذى قام به ضد الدول الكبرى بالغ الصعوبة . نعم ، لقد ساعدته أموال بيت فاستطاع أن يوجه الهجمات الهانوفرية والبريطانية فى الغرب ضد قوات لويس الخامس عشر ولكن هذه المساعدة كانت هينة ، إلا أن خلاصه جاء ، آخر الأمر ، نتيجة لوفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية . ولم تناوئه وريثتها — كاترين — بل سحبت قواتها من ميدان القتال .

كان فردريك جندياً عظيماً هادئاً لا سبيل إلى قهره . وقد أكسبته شجاعة — فى مواجهة احتمالات بالغة الخطر — إعجابَ العالم . وكان يؤمن كل الإيمان بالهجوم المركز الذى يوجه إلى جناح ضعيف ، الهجوم الذى يقوده مشاته المنظمون والذى ينقض فيه حشدٌ من الخيالة . لقد كان مثل هذا الهجوم — فى أغلب الظروف — يكتسح كل ما أمامه . غير أن كل شىء ، فى بعض الظروف ، كان يبدو خاسراً حتى فى نظره هو . وكان يستهين بالأرواح ، وبروحه هو بوجه أخص . وكان مظهره يشير إلى أنه قوى المعزم إلى درجة الغلظة فى بعض الأحيان ولكنه كان ذو طبيعة حساسة يتفانى فى خير أمته . وكان يوحى بالثقة والإخلاص لشعبه حتى استحق — جزاء وفاقاً — لقب « العظيم » ، لا بسبب حذقه الحربَ فحسب بل بسبب الجهد الذى بذله بعد الحرب فى إعادة الرخاء إلى الأرض التى

خربتها الحرب . لقد أعاد بناء البلاد التى خربت وشجع التجارة والصناعة وأعاد تعمير المزارع المهجورة ، وذلك بتوزيع الماشية عليها . ولقد حث شعبه على الكد وحماه ، مع ذلك ، من جشع ملاك الأرض ، وبدأ خطة التعليم النظامى ، ونظم مملكته كأنها جيش ، وفرض الطاعة والنظام والعمل الجدى ولكنه حرص على العدل والتسامح وأداء الواجب .

كانت النمسا — قبل تلك الفترة — هى صاحبة الكلمة العليا بين الدويلات الألمانية . ولكن منذ ذلك الوقت وجدت مملكة منافسة حسنة التنظيم والأعداد هى بروسيا .

الإنسان والكون :

وسيلتنا الأولى فى الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا هى التطلع إلى شىء حقيق نرجو وجوده هناك ، كالذهب مثلا . وطالما أمضى الكثيرون من الرجال حياتهم ابتغاء مواد سحرية كـ «حجر الفلاسفة» (حجر الكيمياء) الذى يكفى أن يلامس المعادن فيردّها ذهباً أو كـ « إكسير الخلود » (ماء الحياة) الذى يمد مالكه بشباب دائم . ولقد كانوا يسخنون كل أنواع الأمزجة (جمع مزيج أو مزاج) ويغلونها ويجففونها ويفتتونها ويستقطرونها ويستكشفون ، اتفاقاً فى بعض الأحيان ، أشياء نافعة . وكان أولئك يطلق عليهم اسم « السيماويين » (أى الكيماويين الذين يحولون المعادن إلى ذهب) فكانوا كمن يبحث عن مـــدينة خرافية ولا يرى الأزهار تحت قدميه .

والوسيلة الثانية فى الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا — وهى التطلع إلى ماهو موجود هناك فعلا — هذه أتبعها آلاف الناس البسطاء كأهل الريف الذين عرفوا أسماء كل النباتات البرية والخلائق كما أتبعها أرباب المهن والحدادين ودباغو الجلود ونافخو الزجاج وصانعو السكاكين والآلات

القاطعة والساعات والبيرة وهلم جرا ، وهم أولئك الذين استكشفوا كل أنواع الحقائق النافعة والشائقة التى تتصل بمهنهم . وكثيراً ما استكشف هؤلاء أيضاً أشياء بطريق الصدفة . وقد تيسرت الحياة المتمدنة بفضل حذقهم ومعلوماتهم المتعددة النواحى . ولم يكن أغلب التعليم (وهو وسيلتنا فى استبقاء الحياة المتمدنة) غير تدريبٍ فى إحدى تلك المهن التى تحتاج إلى مهارة .

ومعلومات العلماء أساسُها معلومات الصناع المهرة . والعلماء يعمدون فى بعض الأحيان إلى تقصّى شىء بعينه كإيجاد علاج للملاريا . ولكن الذى يشتغل بالعلم لذاته إنما يبحث بدافع الفضول . وترد معلوماته إلى تعقبه الحقيقة لذاتها ، وهذا ما قد يسمى بحق ثمرة الكسل ، كالفائدة التى قد تأتى من مراقبة العناكب بدلاً من تفليح الحديقة ، أو من العكوف على التفرس فى السماء ليلاً بدلاً من التوفر على قدر من النوم يساعد على إتقان عمل الغد. إنها المتفرج على الكون . إنه لا يهتم : هل تفيد معلوماته أو لا تفيد ! إنه لا يهتم إلا بتشكيل صورة الكون . وهو بتقصياته (التى يطلق عليها عادةً الاسم الفخم : اسم « البحوث العلمية ») يبدأ فى التعرف على أن الدنيا مكان أكثر روعة وإثارة للدهشة مما قد يستطاع تصوره فى حلم سحرى .

والحقائق التى تستكشف على هذا النحو ينبغى ربط بعضها ببعض فى نسق أو مشروع ، هذا إذا قدّر لها أن تفهم وتبقى فى الذاكرة .

والمعرفة العلمية تنظمها نظريات وفروض . وتبدو دلائل النظام ... (وإذا استعرنا وأسأنا استعمال كلمة من كلمات الساسة) نقول : وتبدو سماتُ « القانون » فى تعاقب الفصول وفى حركات الأجرام السماوية « جعل القمر لمواقيت . والشمس تعرف مقرها » . ولقد عرف قدامى حكماء الكلدانيين وكهان مصر الكثير عن الفلك . وتعلم الإغريق من الكلدان ومن مصر

الفلك والعلوم الرياضية . وقد حقق الإغريق أكبر تقدم — سُجل قبل زماننا — فى صدد المعلومات الخاصة بالكون ووجوه التقدم فى زماننا مصدرها الطفرة فى المعلومات التى نشأت عن بعث الحكمة اليونانية فى عهد النهضة العلمية .

والرأى الإغريقى الذى يقول بأن الكواكب والنجوم مثبتة فى أجسام كروية غير مرئية يدور بعضها من داخل البعض — انتقل هذا الرأى إلى العلماء المسيحيين : بيت المقدس مركز الكرة الأرضية ، والكرة الأرضية مركز نظام سير الكواكب ، والإنسان مركز الكون . وإبان نهاية القرون الوسطى كان الكثيرون من ذوى الذكاء الحاد غير مقتنعين بهذا . وفى سنة ١٥٤٣ طبع كاهن بولندى — وهو نيقولا كوپرنيك (كوپرنيكوس) الذى تدرب فى بعض الجامعات الإيطالية — طبع كتاباً عنوانه « الدوران حول المركز » . ويوحى هذا الكتاب بأن الأرض تبرم حول محورها كالنحلة الخشبية المدوّمة وتدور — فى الوقت نفسه — حول الشمس تصاحبها الكواكب . وقد توصل كوپرنيكوس إلى هذا الكشف باستخدام ثلاثة أعواد خشبية شُد بعضها إلى البعض بحيث تشكل آلة للرؤية. وإنه لعبقرى مافى ذلك شك . وقد أيد كشفَه هذا جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) وهو الإيطالى الذى حسن التلسكوب التى كانت قد اخترعت حديثاً والتى بها رأى صورة القمر والكواكب الدائرة فى فلكه التى تدوم حول كوكب المشترى . وقد أيد بحوثه فى صدد الأجرام السماوية — مرة أخرى — راصدو الليل المثابرون العاملون مع الدنمركى تيشو براهى وكذلك الألمانى يوهان كيلر صاحب الدراسات العميقة المتواصلة فى الرياضيات . والعلم لا وطن له .

والحقائق والنظريات — فى الفلك والعلوم — لا سبيل إلى تعريفها دون الاستعانة بالرياضيات التى هى نوع من أنواع اللغات المضبوطة المحكمة.

ومن حسن الحظ أن تقدماً كبيراً فى الرياضيات تحقق فى القرن السابع عشر على يد أربعة فرنسيين من ذوى المواهب السامية وهم: ديزارج — وديكات — وفيرما — وبسكال . والعلوم الرياضية لا وطن لها .

وتوج جهودَ أولئك الرجال جميعاً ، فى القرن السابع عشر ، إنجليزى اسمه إسحاق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) وهو ابن فلاح من لينكولنشير دخل ترينتى كولدج (كلية الثالوث) وكمبردج وفيها تخرج وأصبح « زميلاً » عام ١٦٦٧ . وقد حول ذهنة إلى الرياضيات كتاب عثر عليه اتفاقاً فى أحد الأسواق الموسمية بستوربردج وفى ذلك الوقت — الذى بلغ فيه الثالثة والعشرين من عمره — كان قد استكشف النظرية ذات التسمية الثنائية التى تتطلب البرهان وكان قد أخذ يشتغل فى إيجاد طريقة للعد عرفت ، منذ ذلك الوقت ، باسم « حساب التفاضل والتكامل » . وقد قضى كثيراً من وقته فى دراسة الضوء . وكان عديم العناية بالشهرة إلى حد أن تحفته « الأصول » (أى المبادى الأولية — التى كتبت باللاتينية لكى يتيسر للعلماء قراءتها !) لم تنشر إلا بعد إلحاح صديقه الفلكى : هالى .

وكانت عبقرية نيوتن توفيقاً فذاً بين الرياضيات والمقدرة العملية الفائقتين . وقد ربطت نظرية الجاذبية التى وضعها بين كل الحقائق المعروفة فى هذه الدنيا المحيرة ، ربطتها جميعاً فى نهجٍ واحد جليل يشمل كل ما يتحرك من ذرة التراب إلى النجم المذنب ومن النحلة الخشبية المدومة إلى الكوكب السيار . . . ألق بالك إلى تواضعه إذ يقول عن نفسه « لست أعرف كيف بدو فى نظر العالم ولكنى — فى نظر نفسى — يلوح أننى لا أزيد على صبىٍّ يلهو على شاطىء البحر أسلّى نفسى بالعثور ، بين الفينة والفينة ، على حصاة أملس من المعتاد أو محارة أجمل . هذا بينما خضم الحقائق العظيم يظل جميعه مجهولاً أمامى » وقد لخص الشاعر اسكندر پوب آثار نيوتن فى بيت من الشعر

فحواه : (الطبيعة وقوانين الطبيعة تستخفى فى الظلام . فقال الله « فليكن نيوتن ! » فأضاء كل شىء) . إلا أن عبارة نيوتن أنبل العبارات فهى تصف العالم الذى يعرف ضآلة معلوماته .

وماذا عن الأرض وكل ما عليها ؟ قال أرسطو إن الأشياء جميعاً تتكون من أربعة عناصر : التراب والهواء والنار والماء وإن كلاً من تلك العناصر قد يكون ساخناً أو بارداً ، رطباً أو يابساً . وقد ظلت الطبيعة الحقة للمادة سراً غامضاً حتى فى عهد نيوتن . فالشمع والحديد والرمل والكبريت والملح . . . أى نهج يستطيع أن يسلك هذه وملايين الأشياء الأخرى فى أى نوع من أنواع التبويب ؟ وكانت مئات من الحقائق معروفة وكان المغنطيس (حجر المغنطيس أو الحديد الخام الممغطس) موضع بحث ، وبه كان وليم جلبرت — طبيب الملكة إلزابيث — يجرى تجاربه وقد بحث فان هلمنت المولود فى بروكسل (١٥٧٧ — ١٦٤٤) فى الابخرة وصاغ كلمة « الغاز » التى شاع استعمالها فى البيوت منذ ذلك الوقت . وجمع جلوبر (١٦٠٤ — ١٦٦٨) طائفة كبيرة من الحقائق فى صدد مواد شتى . وأثار روبرت بويل (١٦٢٧ — ١٦٩١) فى كتابه « الكيمائى المرتاب » ظلالاً من الشك فى رأى أرسطو وفى كثير غيره من التخمينات الحديثة كما قد يفعل كيمائى مرتاب . وهو أول من أوحى بالطبيعة الحقه لأى جوهر . إنها مادة — مهما تشعب تفتيتها — تظل كما كانت ولا يمكن استخراج مادة أخرى منها ، ولا يتأتى أن تنقلب إلى مركب أو مزيج . وبرهن كافندش (١٧٣١ — ١٨١٠) — و — بريستلى (١٧٣٣ — ١٨٠٤) — و — لافوازييه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) على أن الهواء والماء ليسا جوهرين وعلى أنهما يتركبان من مواد أخرى . وأثبت لافوازييه بالدليل أنه مهما عظم تغيير أية مادة لشكلها (أى مهما تحولت إلى غاز أو سائل) فإن وزنها

يظل فى ، كل الحالات ، كما كان . وفى ١٨٠٨ لخص جون دالتون — وهو أحد اتباع مذهب الصاحبين من كمبرلاند — كل مظاهر التقدم تلك ، فى النظرية الذرية للمادة التى ابتكرها والتى فحواها : أن كل مادة تتركب من ذرات ، وأن كل ذرات الجوهر الواحد تتماثل أوزانها وطبائعها ، وعندما تتجمع العناصر لتكون مركبات — كالملح المعروف مثلا — بالشكل نفسه ، وبالنسبة نفسها فإن ذراتها تتجمع دوماً . وقد صنعت نظرية دالتون بالمادة التى تحيط بنا ماصنعته نظرية نيوتن بالقوة غير المرئية التى تحيط بنا وأخذ الكون سبيله إلى النظام .

أما القوى أو الطاقات غير المرئية التى تعرف بالكهرباء فقد فحص عنها العديدون من العلماء الذين عرفوا كيف يتحكمون فيها ويسلكونها فى الأسلاك ويقيسونها ويسخرونها للاستعمال . والأسماء التى تقترن بهذا التقدم المتواصل هى : بنيامين فرانكلين — جلفانى — ڤولتا —أمبير— فاراداى — أوهم — كلارك مكسويل — لورد كلڤين .

وماذا عن الإنسان نفسه والكائنات الحية ؟ طبع العالم بالتشريح أندير شاسبليوس — (١٥١٤ — ١٥٦٤) ، الطالب فى لوڤان وباريس والأستاذ فى المدارس الشهيرة ،.. بادوا — طبع فى بازل (بال) ، عام١٥٤٣ بعد ظهور كتاب كوپرنيكوس ، كتاباً هاماً عنوانه « كيف يعمل جسم الإنسان . » وبعد ذلك ظل علماء الأحياء والجراحة يحرزون تقدماً راسخاً ولكنه وئيد وذلك إلى أن طبع وليم هارفى — (١٥٧٨ — ١٦٥٧) الذى درس فى پادوا كذلك — كتابه الذى صنع عصره : « حركة القلب » الذى وصف فيه الدورة الدموية . وقد أرسى هذا الاستكشاف أساس كل بحوث المستقبل . وكما أفسحت التلسكوب مجال البحث فى شئون السماوات بوضع اللانهائية فى دائرة إبصار الإنسان هوناً ما ، كذلك فتح اختراع الميكروسكوب

— فى شمال إيطاليا حول ١٦٥٠ — آفاقاً جديدة ولا سيما فى علم الأحياء ، وذلك بوضع لانهائى الصفر فى دائرة إبصار الإنسان إلى حد ما . ووضعت الكائنات الحية جميعاً فى نسق واحد بفضل نظرية التطور والانتقاء الطبيعى التى قدمها شارل داروين عام ١٨٥٩ فى كتابه « أصل الأنواع » .

وثمة تعريف آخر بـ « الإنسان » أورده جون لوك عام ١٦٩٠ فى كتابه «مبحث عن الإدراك الإنسانى» الذى كان محاولة لمعرفة كنه العقل الإنسانى. وهذا بدأه الإغريق ، وما يزال علماء علم النفس المحدثون يبحثون فيه .

وتاريخ العلوم وحده هو الذى يستطيع أن يقص القصة الكاملة للاستكشاف الذى لم ينقطع منذ النهضة العلمية . وتعكس تاريخه فى بريطانيا — إلى درجة كبيرة — سجلاتُ الجمعية الملكية التى أسسها شارل الثانى بميثاق عام ١٦٦٢ . ويشمل الرعيل الأول من أعضائها : بويل — برن — نيوتن . وقد انخرط فيها منذ ذلك الوقت كل مشاهير علماء بريطانيا على وجه التقريب .

الثورة الأمريكية :

حدّت حرب السنوات السبع من الخطر الفرنسى على المستعمرات الأمريكية وكبحت هزيمة بونتياك — وهو زعيم هندى تزعم مؤامرة اشتركت فيها قبائل عديدة ضد وحدات الحاميات البريطانية — كبحت خطرَ الهنود الحمر . ولكن الحاجة مست — مع ذلك — إلى وحدات من جنود الحاميات وإلى أموال لسد نفقاتهم . وأقنع وزير إنجليزى — هو جورج جرنفل — برلمانَ وستمنستر ، فى سنة ١٧٦٤ — أقنعه بإصدار لائحة لطوابع الدمغة تقضى على المستعمرين أن يبتاعوا طوابع يلصقونها على الوثائق الرسمية ، وكانت تلك طريقة مألوفة بسيطة لزيادة الدخل . فلما احتج المستعمرون وطاردوا محصلى الضرائب سحبت اللائحة . غير أن

ضرائب أخرى تقررت على الزجاج والورق والشاى . فلما أبى المستعمرون أن يشتروا تلك البضائع ألغيت الضرائب عنها جميعاً فيما عدا الشاى . وقد استغرقت هذه الحركات — بين التقرير والإلغاء — ستة أعوام .

اعترض الأمريكيون على إلزامهم بدفع ضرائب دون أن يكون لهم رأى فى إدارة الحكومة . وهذا مبدأ نقدسه فى الوقت الحاضر إلى حد أنه يصعب علينا أن نفهم أولئك الرجال الذين حكموا بريطانيا وأمريكا فى القرن الثامن عشر . ولقد كانت حكومة بريطانيا البرلمانية حكومة مظهرية درج فيها الرجال العريضو الثراء على أن يبيعوا ويشتروا مقاعد فى مجلس العموم . وكان الأمريكيون فى نظر رجال كجورج جرنفل وزملائه — ولم يكن أى منهم بالغ الذكاء — كانوا رعايا جورج الثالث كمزارعى سسكس أو نورفولك سواء بسواء . أما المستعمرون فكانوا رجالاً بلغوا من الحرية شأواً لم يكن ليستطيع بلوغه عمال المزارع البريطانية . فلقد كان المستعمرون يتنفسون حرية بلاد جديدة شاسعة غنية . وكان فى وسعهم أن يجوبوا الغابات دون أن يكون لواحد من ملاك الأرض أى حق عليهم . وعلى أية حال — بينما يكون معقولاً دفع ضرائب للملك — لا يعقل إطلاقاً دفع ضرائب لبرلمان ينتخبه غيرهم .

وكانت هنالك خصومات أخرى فى شأن التهريب ، بين الإنجليز القادمين حديثا ، حاول البريطانيون وقفها . غير أن التهريب كان شائعاً بين الإنجليز الجدد بقدر ما شاع بين سكان إنجلترا القديمة . وفى سنة ١٧٧٢ ذهب أهل جزيرة رود إلى حد حرق سفينة حربية بريطانية تعمل فى منع التهريب .

وحلت الكارثة النهائية فى سنة ١٧٧٥ عندما سمح لورد نورث لبعض سفن الشاى بأن تبحر إلى أمريكا وقد خفض ثمن الشاى ولكن مع إبقاء

الضريبة عليه . وقد بدا هذا الإجراء وكأنه خدعة تجارية خسيسة ، إذ أن شركة الهند الشرقية البالغة النفوذ كانت فى أمس الحاجة إلى أن تصفى بالبيع القدر الكبير المختزن من الشاى الهندى. فاستخفت جماعة من أهل بوستون فى زى عصابة هندية وتسلقوا سفن الشاى وألقوا بحمولتها فى الميناء . فأجاب سياسيو وستمنستر بأقفال ميناء بوسطن وبوضع مستعمرة ماساتشوستس تحت الأحكام العرفية .

وعندئذ كان أمريكيون من كل المستعمرات يتشاورون فيما بينهم إذ أن النزاع كان قد تلكأ مدى أحد عشر عاما . وفى مؤتمر بـ فيلادلفيا رفعوا أمرهم إلى الملك جورج الثالث وإلى شعب بريطانيا مطالبين بأن يعاملوا على أنهم رجال راشدين قد يكون لهم رأى فى إدارة حكومتهم .

وكان الرأى عند خير رجال وستمنستر ، لورد تشاتام — و — إدموند بيرك — و — تشارلز جيمز فوكس ، أن يستجيبوا إلى الاسترحام . ونادى بيرك بأنه إذا أحسنت بريطانيا معاملة مستعمراتها فإن « أية قوة تحت السماء لن تقوى على أن تنتزعهم عن ولائهم». قال هذا وكأنما كان يخاطب جماعة من البربر المتوحشين رغم كل ما فى كلماته من خير .

وجر النزاع إلى حرب ، لا إلى حرب حقيقية بين شعبين ولا حتى إلى حرب أهلية، بل إلى حرب بين طائفة من سياسيي وستمنستر ومستعمرى أمريكا .

بدأت الحرب فى لجزنجتن حيث رصد رجال من الجيش المرابط الأمريكى ـ فى ١٧٧٥ ـ لبعض الجنود البريطانيين وأوقعوهم فى كمين . وبعدئذ أمر الجنرال جيدج عساكره بالاستيلاء على مرتفع اسمه تل بنكر (هِل) نفذوا أمره فى أكثر ما وسعهم من دقة وذلك بالهجوم على الجبهة مباشرة ، وفى ذلك خسروا ألف مقاتل .

وقد اختار المؤتمر جورج واشنجتن ـ وهو سيد من فرجينيا ـ قائداً أعلى. وقد اقتضت مهمته البغيضة أن يشكل جيشاً من بين متطوعى المستعمرات

الثلاث عشرة المنفصل بعضها عن البعض وأن يطعم هذا الجيش ويعمل على أن يدفع مرتباته ويزوده بالذخيرة ويوفر له الغذاء والكساء والتدريب والنظام والضباط الأكفاء ثم يستخدمه بعد ذلك فى محاربة بعض الجنود النظاميين بقيادة ضباط شجعان اكتسبوا خبرة فى الحروب الأوربية . وهذا رغم البرد والجوع وعدم التعاون وعدم وجود الضباط والذخيرة . واستطاع واشنجتن أن يخلق جيشاً ويحتفظ به مما دل على نبوغه . وتلقى الجيش البريطانى إمداداً قوامه ثلاثون ألفاً من المسترزقة الألمان الذين استؤجروا ليحاربوا . ولكن واشنجتن ورجاله كانوا يعرفون البلاد ويحسنون إصابة الهدف .

وفى اليوم الرابع من يوليو من سنة ١٧٧٦ أصدر مؤتمر القارة (الأمريكية) إعلان الاستقلال الشهير . ويرجع أكبر الفضل فى صياغته إلى توماس چفرسون ، وهو ارستقراطى ڤرچينى :

« ونحن نستمسك بأن هذه الحقائق بيّنة لا تحتاج إلى إيضاح ، وأن الناس كافةً قد خلقوا سواسية ، وأن بارئهم حباهم حقوقاً ثابتة لا سبيل إلى التحول عنها ، وأن من بين تلك الحقوق : الحياة والحرية والبحث عن السعادة ، وأنه لكفالة هذه الحقوق تقوم الحكومات بين الناس وتستمد سلطاتها المشروعة من رضاء المحكومين ، وأنه عندما يكون من شأن أى شكل من أشكال الحكومة أن يهدم هذه الأهداف فإن من حق الشعب أن يغيره أو يلغيه وأن يقيم حكومة جديدة تضع أساسها على مثل هذه المبادىء وتنظم سلطاتها فى وضع يرجح معه جداً أنه يحقق أمن الشعب وسعادته .

وليس فى هذا من شىء يأباه الرجال الذين عزل أجدادهم چيمس الثانى عن عرشه لأنه أساء الحكم .

ولقد تكلم هذا الإعلان بلغة الحرية . أما الرجال الذين حكموا بريطانيا العظمى فلم يفعلوا ، لا ولم يعرفوا الكثير عن ممارسة الحرب .

ولإخضاع أمريكا — حتى ولو كان هذا مرغوباً فيه — كان ينبغى التوفر على ثلاثة أمور : السيطرة على البحار « فى جميع الأوقات » ، وقواعد حربية قوية على الشاطىء الأمريكى ، وقوات ضخمة من الجند لتكبح شعباً متفرقاً . وكانت الحرب — فى واقع الأمر — يمجها الشعب فى بريطانيا إلى حد جعل التوفر على المجندين أمراً عسيراً .

وكانت الخطة التى رسمت لسنة ١٧٧٧ تقضى بالتقاء الجنرال بورجُويْن (من كندا) والجنرال هووى (من نيويورك) . فانطلق بورجوين عبر الغابات . وكذلك انطلق هووى . ولكنه — وهو لم يعرف شيئاً عن الدور الذى يطلب منه القيام به — أبحر جنوباً إلى فيلادلفيا ! وكانت النتيجة اضطرار بورجوين إلى التسليم للأمريكيين تلقاء عيون ساراتوجا وقد قل جنوده عنهم عددا وأحيط بهم وشحت ذخائرهم .

وقد شحذ هذا الخبر من عزم الرجال الذين كانوا عندئذ يرصدون هووى بقيادة واشنجتن وقد كانوا فى حاجة إلى ما يشدّ عزائمهم . وقد حل الشتاء التالى وهم معسكرون فى أكواخ خشبية فى ڤالى ڤورج تعوزهم البطاطين وقد حفيت أقدامهم وتهلهلت ملابسهم . ولم يبق على تضامنهم إلا همة واشنجتن وروحه الوثابة العالية. وقد شاركه هذه الروح فى الناحية الأخرى من الأطلنطى لورد تشاتام الذى قال : « لو كنت أمريكيا — بقدر ما أنا إنجليزى — ووطئت جنود أجنبية بلادى فإننى لن ألقى السلاح أبداً ، لن ألقيه أبداً أبداً أبداً ! » .

وبعد سنة ١٧٧٧ تلقى الأمريكيون مساعدات جمة . فلقد أعلنت فرنسا وأسبانيا وهولاندا الحرب على بريطانيا العظمى . وقد قامت البحرية الإنجليزية بأعمال ضخمة ضد أولئك الأعداء . فحطمت أسطولاً أسبانيا على مسافة من سنت فنست و أسطولاً فرنسيا فى جزائر الهند الغربية . على أن الأسطول الوحيد الذى اقترب من الشاطىء الأمريكى — عند وصول لورد كورنووليس وجيشه إلى (بلدة) يورك تاون وحاصره جنود الأمريكان ومتطوعو الفرنسيين — كان هذا الأسطول أسطولاً فرنسيا . وعلى هذا اضطر إلى الاستسلام و انتهى أمره .

وقد أعاد الصلح الذى وُقع فى ڤرساى عام ١٧٨٣ تنظيم استقلال الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى ١٧٨٣ كان هناك أكثر قليلاً من ١٣ مستعمرة ، يغلب عليها الميل إلى المعركة يتزعمها ويحفزها نفر من الرجال البالغى الاقتدار . وفى ١٧٨٧ سن أولئك الرجال دستوراً سلكهم جميعاً فى اتحاد « فيدرالى » له رئيس منتخب وسناتو (مجلس شيوخ) منتخب يمثل الولايات كلاً على حدة . وله مجلس نواب يمثل الشعب تمثيلاً إجمالياً بوصفه وحدة . وكان هذا شىء بالغ الجدة فى السياسة . وكان أول الرؤساء : جورج واشنجتن ، وثانيهم : جون آدامز (من ماساتشوستس) ، وثالثهم : توماس چيفرسون .

وهكذا أسس أكبر أبناء بريطانيا بيتا ، وبدأت مغامرة كبيرة جديدة . وإلى هنا يجدر بنا الآن أن نترك الكلام عن كل ما مضى ، نترك المجتمعات الصغيرة فى نيويورك الصاخبة ، وبوسطن موئل العلم ، و تشارلستون العصرية ، وفيلادلفيا الصاحبية (أى التى تنتمى لطائفة الأصحاب المهتزين) نترك صاحب المزرعة وعبيده الجنوبيين ، والفلاح الشمالى ، وسماك نيو انجلند (إنجلترا الجديدة) والهوجنوتى الفرنسى ، والپروتستانتى الألمانى ، ومتطهر

ماساتشوستس، نترك قاطع الأخشاب المتخلف يعمل فأسه فى الغابة، وقناص الحيوانات بقصد بيع جلودها، والصياد، والمرسل للتبشير بالدين، والهندى الأحمر فى كوخه المخروطى الشكل. ولكن ينبغى لنا — قبل أن نترك كل هذا — أن نُرجع البصر كرّةً إلى مركبات النقل، تلك المركبات البطيئة الحركة المغطاة التى تسير على الدروب مصعّدة وعابرة الجبال لتدخل كنتاكى — و — أوهيو — و — إللينوى — و — إنديانا. إنها طلائع الغرب.

وفقدت بريطانيا أول إمبراطورية لها عبر البحار، الإمبراطورية القديمة التى ترجع أصول أساليب لغتها إلى الإنجليزية التى كانوا يتكلمونها فى أيام شيكسپير. ومن غريب المصادفات أن هذه الخسارة ترتبط بميلاد إمبراطوريتها الثانية وراء البحار.

وفى خلال الحرب الأمريكية هاجر ألوف من الأمريكيين - الذين لم يرغبوا فى الانفصال عن بريطانيا - هاجروا براً وبحراً ودخلوا نوڤاسكوتشيا ونيو برنزويك وشبه جزيرة كنجزتون بين البحيرات الكبرى. وهناك أسسوا المستعمرة الإنجليزية: «كندا العليا». وبمجيئهم تغيرت كندا من مستعمرة فرنسية خالصة إلى مستعمرة ثنائية من الفرنسيين والإنجليز. وكانت تلك بداية مستعمرة كندا المستقلة التى تأسست فيما بعد.

والواقعة الثانية بهيجة ولكنها لا تبعث الاحترام. لقد كان من عاداتنا أن نرسل إلى أمريكا المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام. ولم يكن مستغرباً، بطبيعة الحال، أن الولايات المتحدة لم ترتح كثيراً إلى مضينا فى هذه الفعلة. وكان الكابتن كوك قد استكشف حديثاً، الشواطىء الخصبة لـ.. نيوسوث ويلز، فاقترح إرسال المجرمين إلى هناك، على أمل أن يسهم جمال المكان فى جعلهم أخياراً. وعلى هذا أبحر الكابتن فيليب - فى سنة ١٧٨٧ -

مع ٧٠٠ مجرم إلى البحار الجنوبية وهبط بهم (سيدنى) فى يناير من ١٧٨٨ . وكانوا أول من استوطن أستراليا من البريطانيين .

ولم يصبح المجرمون المنقولون أسلافاً للأمة الأسترالية ، غير أن استقرارهم حوّل القارة الجنوبية إلى مستعمرة بريطانية كما أنه أظهر حاجة البلاد القاصية إلى الرجال الأحرار المغامرين .

ثروة الأمم :

يجب أن لا تحدونا حكاية الحروب فى القرن الثامن إلى الظن بأن ذلك العصر كان عصراً صاخباً . فلقد كان جندى الحرس الطويل القامة وفارس الدراغون الجسور — فى زيهما الأنيق — من الجنود المحترفين الذين علمتهم شريعة أخلاقهم أن يحترموا حياة المدنيين وأملاكهم . وكان الجيش يحارب الجيش ولم تكن الأمة تحارب الأمة كما هى الحال فى عصرنا هذا . كانت الحروب تفصل فى مصائر الشعوب فتحول — على سبيل المثال — الكنديين الفرنسيين إلى رعايا بريطانيين . غير أن الحرب لم تكن لتحوّل حياة التمدن إلى خراب . وكان العصر عصر آداب السلوك حتى فى الحرب . وقد قرأنا حكاية رئيس فرقة فرنسى بلغت به المجاملة إلى حد أنه عند بداية الاشتباك تضرع إلى خصومه أن يبدءوا هم بإطلاق النار . وكان الفرنسيون والإنجليز يتاجر بعضهم مع البعض ، والحرب بينهم قائمة . وكانت المعارك فى الواقع من الأحداث القليلة الوقوع ، وأغلب البقاع تستمتع بالسلام الوقت كله .

وكان من شأن استكشاف الأراضى الجديدة وتقدم الفنون والحرف أنها أفادت الجنس البشرى إلى حد جعل المدنية الغربية تزيد انتعاشاً وتنوعاً عما كانت عليه فى أى فترة منذ قياصرة روما . ولقد كانت هناك — بطبيعة الحال — شوائب وآلام مروعة ، وجزاءات قاسية توقع على المجرمين ،

وتجارة فى الرقيق الأسود كريهة ، ولكن ذلك كله لم يبلغ من الوحشية مثل ما بلغته المذابح العانية التى ألفتها ساحات المجالدات فى الدنيا القديمة ، مع أنه لم يكن هناك همج يخشى بأسهم يهددون بأن يغيروا بحشودهم من الغابات غير المطروقة الواقعة وراء الحدود . وكانت قرون عديدة من القوانين وحياة المدن والتقاليد والعادات السلمية تؤتى أكلها . وانتهت حروب الدين الضارية . وتوافرت ضرورات الحياة ورفاهاتها بفضل التجارة . انظر إلى سفن نقل الفحم التى توسق به من شاطىء (نهر) التاين تزحف منحدرة من بحر الشمال إلى (نهر) التيمز ، أو إلى سفن السكر الفرنسية الفاخرة تتدافع إلى (ميناء) بوردو من (جزائر) جوادا لوب ، أو إلى رجال الهند الشرقية واسقين لنا أحمالاً كبيرة من البهار والشاى والسلع الشرقية ، أو إلى أهل الشرق الأدنى مصعدين من البحر الأبيض المتوسط بألوان الفاكهة والخمر والحرير . لقد كان رخاء العالم يتدفق على الغرب . وكانت حشود غير ظاهرة للعيان تكدح تحت سماوات استوائية وشبه استوائية من أجل رخاء الأمم الغربية .

وارتفع الصناع فى الغرب بمصنوعاتهم إلى ذروة عالية من الإتقان ، وهذه المصنوعات معروضة الآن فى متاحف ودور قديمة أو بين أيدى التجار : مصنوعات زجاجية وخزفية دقيقة من درسدن وليموج ، وأقمشة جوبلان (للمفروشات) من باريس ، وحرير من ليون ، وأقمشة مزركشة بالدنتلة موشاة بالخيوط الحريرية أو الذهبية أو الفضية ، وأدوات ذهبية أو فضية للمائدة : أقداح وأباريق وصينيات وطاسات وسلطانيات وأدوات تناول الطعام كالشوك والملاعق والسكاكين ، ومصنوعات من الحديد المطروق والحديد المسبوك كالقضبان والمواقد من سسكس ، وساعات للحوائط فى صناديق خشبية طويلة وساعات مذهلة الضبط والإتقان ، وأثاث من طراز لويس الخامس عشر والملك جورج ، قمطرات (تصان فيها الكتب والأوراق) وخزانات للثياب وأرائك (أى كنبات) وكراسى تشينديل

ـــو ـــ شيراتون وكلها من خشب المُجْنِيّ (أو الـكابلى) مطعمة ومنقولة عن نماذج فريدة ، ومراوح ومساعط (علب نشوق) ومشابك (أى أبزيمات وتوكات) وصور مصغرة (على العاج أو ما شاكله) وحلى ومصوغات من كل نوع . وقد رسمت أنواع من الحروف المطبعية الدقيقة (مثل الـ.. كاسلون ـو ـ الـ .. بارسكرفيل ـو ـ الـ.. بوردونى) ليستعملها الطابعون فى طبع الـكتب التى ينشرونها . . . كتب مجلدة تجليداً كاملاً بجلد العجل . وقد تضاعفت الـكتب والمـكتبات أضعافاً تفوق كثيراً الأمانىّ المبرحة التى كان يحلم بها أولئك الرهبان الذين أسلموا ـ فى انعطاف فائق ـ أسلموا كتبهم فى القرون الوسطى . وكان «تصميم» الأثاث ـ حتى فى بيوت المزارع البسيطة ـ بديعاً وعلمياً مثل : الأسرّة ذوات أربعة الأعمدة (بلدكان) والمضاجع والأرائك وكراسى وندسور وخزانات أدوات المائدة (درســــوار) والسلطانيات المصنوعة من النحاس الأحمر والأقداح المصنوعة من الزنك وأدوات المطبخ الحديدية . وكانت تبدو على مركبات الفلاحين لنقل البضائع عناية صادرة عن طواعية ورغبة فى إتقان صنعها وكانت حقاً تسر الناظرين . وربما كان أروع ما صنعه الرجال بأيديهم سفينة المحيطات الـكبيرة العالية ذات الساريات الثلاثة التى كان كل جزء منها ثمرة أجيال من التجربة بين صانعى السفن .

ولقد كان القرن الثامن عشر ـ حقاً ـ قرن العمل المتفوق الممتاز نتيجة لميراث من المهارة الصناعية بعيد الأصول ، قبل اختراع الآلة .

وبدأ الناس الآن ـ أول مرة منذ عهود الإغريق الذين استهدفوا أن يحيوا حياة راضية فى مدائن جميلة ـــ بدءوا يخططون لأحياء من مدائنهم ويزينونها بأنصاب تذكارية استرضاء للعين وكرامة الحياة ، إذ لم تعد ترضيهم مدن أسلافهم البسيطة المزدحمة المشوشة المرتبكة . لقد فكروا فى فن المعمار على أنه أرفع الفنون التى يحتاج إليها فن تشييد المدن ، الذى نسميه الآن تخطيط المدن . ونتيجة لهذا ظهرت شرفة برايتون ، وميدانا الـكونكورد

وفندوم بباريس ، وميادين بلومزبرى ، ومراسى السفن فى بوردو ، وأهلة باث وتشلتنهام . وما يكون لكل هذا أن يثير دهشتنا إذا تذكرنا أن كل مثقف قد نشأ على تعلم الدراسات الإغريقية والرومانية القديمة وأن كل النقوش المشهورة كتبت باللاتينية . ومن دواعى الأسف أنها لم تصل إلى مثل الدقة التى نراها على الآثار الرومانية . ولقد استلهم المعماريون من المبانى العتيقة المخربة . أما رأى الإغريق فى الشعر المستعار الذى كان يلبس فى القرن الثامن عشر ـ لو كانت أتيحت لهم رؤيته ـ فلا نعرفه إلا تخميناً .

وفى فرنسا أمر وزراء الملك بالطرق العامة الكبرى فأصلحت لكى يتسنى للمركبات الكبيرة أن تسافر سفراً مريحاً منظماً . واحتفروا قنوات تربط الأنهار الهامة بعضها ببعض وتسهل نقل البضائع بالملاحة المائية من الأطلنطى إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى بريطانيا أيضاً بدىء فى إصلاح الطرق واحتفار القنوات . وستُقص قصتُها على نحو أكثر ملاءمة فيما بعد ضمن حكايتنا كما ستقص قصة بداية الاختراعات الآلية . وفى مدى طويل من الزمن لاقى السفر من الصعوبة حداً جعل كل مدينة كبيرة عاصمة إقليمها على صورة ما . فكانت إدنبرة حقاً مركز الأراضى الواطئة الأسكتلندية وأهم مدنها ، ونورتش مركز صناعة الصوف فى أنجليا الشرقية ، وبرستول ثانية كبريات الموانىء فى البلاد . وازدحمت باث ـ بعد أن أعيد بناؤها وإنعاشها لتكون ملاذاً صحياً ـ ازدحمت بحشدٍ حاشد من الأغنياء الذين سعوا إلى الاستشفاء من النقرس (أى داء المفاصل) بالمياه الطبية وإلى التسلى بالمقامرة بلعب الورق . وكانت إجزتر ـ و ـ يورك مركزين للمجتمعات الراقية المحلية . وكان عدد ما نعرفه من البلدان الصناعية قليلا . وقد تابعت شيفيلد تخصصها القديم فى صناعة أدوات المائدة . ودوّت ببرمنجهام دقات المطارق على السنادين تصنع سلعاً حديدية ونحاسية صغيرة . ولم تعرف مدلزبورا وبيركنهد بل إنهما لم تكونا موجودتين إطلاقاً .

وفى القرن الثامن عشر وجدت « الحاضرة الكبرى » للبلاد ، على النحو الذى نعرفه الآن . فكان المزيد من الناس يستمر فى التزايد ، العام تلو العام تدفعهم جاذبية تشبه المغنطيس . وأخذت باريس — التى كان يسكنها نحو ٧٠٠٫٠٠٠ نسمة — تبدأ فعلاً فى السيطرة على فرنسا بقدر يزيد كثيراً على سيطرة لندن على بريطانيا . وكانت هذه السيطرة المتزايدة — المتمَركِزةُ فى حاضرة كبرى — علامة تشير إلى سلطان الملكيات وحكوماتها الآخذ فى الزيادة . ومنذ ذلك الوقت اطّرد تضخم هذه السيطرة إذ أن الأمم أخذت تزداد شبهاً بالجيوش التى تتلقى جميعاً أوامرها من قيادة عليا واحدة فقط لأنها أضحت فى الواقع « دولا كبيرة » .

ولقد بادت لندن التى عرفها شيكسبير، بادت فى حريق سنة ١٦٦٦ الكبير فى عهد شارل الثانى . فتسعرت كجهنم ، البيوتُ المسقوفة بالخشب أو الغاب وأمست خرائب يكتنفها الدخان . ومن ذاك الرماد ولدت مدينة جديدة من القرميد والحجر تزينها الأبراج العديدة لكنائس السير كريستوفر رِنّ الجديدة التى تتوجها جميعاً قبة تحفته وهى كنيسة (سَنْتْ پول) القديس بولس .. فى ذاك الوقت أصبحت المدينة الجديدة — مع جارتها وستْمنْسْتر — أصبحت عاصمة . وبفضل وجود البلاط الملكى فى كِنزنجْتون ، والبرلمان فى وستمنسْتر ، ونزُلِ دار العدالة التى كان يدرب فيها رجال القانون ، وبيوت النبلاء بالمدينة ، والمكاتب التجارية لشركات الهند الشرقية والغربية وروسيا وإفريقيا وخليج هدْسون وبنك إنجلترا والبورصة الجديدين ، بفضل هذه جميعاً صارت لندن مركزاً للمجتمع الراقى والحكومة والتشريع والسياسة والتجارة والشئون المالية والعلم والأزياء المستحدثة والأخبار والفنون . وفى عهد الملكة آنْ وسعتْ عشر مجموع السكان وغص نهرها بسفن تحمل ثلاثة أرباع تجارة المملكة .

وحتى فى القرن الثامن وصف الراهب (بيد) لندن بأنها « سوق

لأمم كثيرة لاذت بها عن طريق البر والبحر» . وكذلك كانت بعد أن مضى على هذا ألف عام : فلقد رأى دانيال ديفو — فى سنة ١٧٢٤ — فى نهر التيمز « نيفاً وألفى شراع من كل الأنواع التى تعبر البحر حقاً » . وكانت راتكليف هايواى — التى عاش فيها البحارة — عتبة مدخل الدنيا . كان رجالها يهبطون النهر بالسفن العظيمة الارتفاع للقيام برحلات تستمر مواسم كاملة لتعود مع تيار الفيضان محملة بسكر الهند الغربية وعسلها الأسود ، وشاى الصين ، وطبّاق (تمباك) ڤرچينيا ، والعاج وخشب المجْنى الأفريقيّين ، والفراء الروسية ، والموسْلين (قماش قطنى رفيع) والقهوة من الشرق .

وتجارة كهذى لا يمكن المضىّ فيها بدون عملة نقدية قوية ونظام مصرَفى متين ففى كل من بريطانيا وفرنسا ألغيت العملة القديمة المضعضعة التى انخفضت قيمتها بالاستعمال وحل محلها — فى بريطانيا — الشلنات الفضية والجنيه الاسترلينى الذهبى الفاخر ، وفى فرنسا : الريال الفضى (الدرهم) والليرة الفرنسية (البِنْتو) . وكانت الصّرافة المالية — وهى عملية إعارة الأموال واستعارتها لقاء ربح — كانت فناً قديماً جداً يجرى على يد الصياغ والمرابين . وقد ساعدت المصارف المالية (البنوك) الجديدة ، التجار بإصدار أوراق النقد وهى تعهد بدفع قدر معين من المال عند الطلب ، ووسع التجار أن يتداولوا هذه الأوراق ، بدلاً من العملة ، مابقيتْ ثقتهم فى (البنوك) والواقع أن العجز فى الذهب والفضة المطلوبين لِسَكّ العملة ، جعل المضى فى الأعمال المالية صعباً بدون أوراق النقد . وقد أخذ الناس — منذ عهد ديفو — يبيعون ويشترون أسهم الشركات التجارية ويتجرون بها فى أسواق الأوراق المالية (البورصات) وفق قواعد مقررة . ومازلنا نفعل هذا إلى اليوم . وقد دفعت « تجارة الأوراق الضخمة » — على حد تعبير ديفو — فى بدايتها ، المئآت من الناس فى بريطانيا وفرنسا الذين

اشتروا أسهم شركات مزيفة أو أسهم مشروعات رعناء طائشة ، دفعتهم إلى الخراب . أما فى عصرنا فإن أثمان الأسهم تعلن يومياً فى الصحف .

بدأ صدور الصحف فى القرن السابع عشر : وظهرت أولى الصحف اللندنية اليومية — « أخبار اليوم » — عام ١٧٠٢ . وما هو إلا القليل حتى ظهرت أفواج من الصحف باسم « بريد . . . » أو « رابطة . . . » أو « سجل . . . » أو « رسول . . . » وحظيت واحدة من الفوج الأخير بأوسع انتشار فى زمانها . وكانت تلك صحيفة مركوردى فرانس (أى رسول فرنسا) وهذا برهان على نفوذ فرنسا فى ذاك القرن الذى أشار إليه فردريك الأكبر بقوله : « باللغة الفرنسية يستطيع المرء أن ينتقل إلى كل مكان » . وقد بدأت أشهر صحف العالم « التايمز اللندنية » فى الظهور عام ١٧٨٥ .

والأخبار والتجارة جديرة بالبحث . درج الناس فى أيام الملكة إليزابيث على أن يلتقوا فى حانات كحانة ميرميد التى كان يجتمع فيها شيكسبير وأصدقاؤه . وفى أيام الملكة (آن) كان المستمسكون بأبهة المظهر يستعملون المحفات فى تنقلاتهم بينما كان القساوسة أو العلماء — الأكثر تواضعاً — يمشون إلى مقاهيهم المفضلة ، وكانوا يحدثون بالعشرات والعشرات . وكان ذوو الفطنة والعلماء يلتقون فى محل ويلتى ، والقساوسة فى محل تشايلد ، ومقامرو الأوستقراط فى محل وايت أو محل ألماك . وذاع صيت مقهى لويد فى العالم أجمع ففيه كان يلتقى وسطاء (سماسرة) السفن . وما يزال الكثيرون من أعضاء الجمعيات الطائفية والنوادى يلتقون فى الحانات . مثال ذلك : أعضاء جماعة رفقاء كهنة الأبروشيات الذين يحتمل أنهم درجوا على التحادث — عن علم — فى ترانيم المزامير وتسابيح الحمد وفى دخل رجال الدين وذلك فى أثناء إخلادهم إلى شرب الجعة أو تدخين الغليونات (أى البيبات) الطويلة التى يستعملها كبار الكهان .

وكانت هناك ـ من سوء الحظ ـ مباءات أقل بعثاً للسرور . وتوجد المئات منها فى الأزقة والعطفات: (حانات ادرچن) حيث يفرط المتبطلون والمتشردون فى الشراب حتى يفقدوا وعيهم ، لقاء دراهم معدودات . وقد يتسقط المرء منهم أخبار الأوباش الذين قطعوا الطريق على مركبات إسانجتون الكبيرة المعدة للبريد والركاب ، فى الليلة السالفة . ولم يكن هناك رجال شرطة . وكان نظام الحراسات المتعاقبة (النوبتجية) قد انقضى وحل محله فقط قليل من الحراس المسنين يعلنون الوقت . ثم حدث فى سنة ١٧٥٠ أن هنرى فيلدنج ـ قاضى شارع (بو) القطن ـ ألف فرقته (عدائى شارع بو) ليلاحقوا المجرمين ويقبضوا عليهم . وكان دهماء لندن ـ أو دهماء باريس ـ شيئاً مروعاً لا يستساغ . والأحياء القذرة ، التى تغص بالمساكن الوبيئة ، لم تكن جديدة . إلا أنها فى القرن الثامن عشر ـ كما حدث فى روما القديمة ـ كانت وفيرة العدد مكتظة بالسكان إلى حد شائن .

وكان فى وسع المواطن المستقيم الأخلاق ـ الذى يتنحى الزحام والبيئات المسلية ـ أن يصغى إلى داڤيد جاريك وهو يمثل روايات شيكسبير على مسرح درورى لين ، أو إلى أوپرات هاندل فى كوڤنت جاردن ، أو لعله يستمتع بألحان أوپرة المتسولين المبهجة لچون جاى ، فى لنكولن إن فيلدز . وكان فى وسعه ـ فى أمسية صيفية صافية ـ أن يستقل زورقاً موسداً عبر التيمز ويجول فى حدائق التسلية المضاءة بالمصابيح ... ڤوكسهول ويسلم نفسه إلى أنغام الموسيقى ، فى ليلة مشهودة ، أنغام موسيقى هاندل النارية احتفاء بذكرى صلح عام ١٧٤٨ .

ومع هذا كانت لندن صغيرة فى نظره إذا مارغب فى أن يتجول على قدميه فى الخلاء . . فى پادنجتون أو فى مروج تشلسى أو فى أزقة كمبرول المورقة . وعلى مقربة من الشمال والشرق غابات إنفيلد ـ و ـ إيبنج .

وكانت غالبية الناس - فى الأراضى الغربية قاطبة - من الفلاحين .ولم يكن تأثير الوقت والتقدم سريعاً فيهم . غير أن أساليب زراعية جديدة ومحاصيل جديدة جربت فى هولندا ونجم عنها تغير كبير فى نواحٍ من بريطانيا. ولا شك فى أن حراثى بعض المناطق ظلوا فى العهـــود القديمة يسوقون أزواجاً من الثيران فى الحقول . غير أن تجاريب على المحاصيل وتربية الماشية بدأت ثورةً حقيقية فى الزراعة . وقد أخذ كثير من الأغنياء فى القرن السادس عشر ، عندما كانت تربية الغنم تدر ربحاً أكثر من زراعة الحبوب - أخذ كثير من الأغنياء يقيمون السياجات حول أراضيهم ليكسبوا من بيع صوفها . وفى القرن الثامن عشر أخذت إقامة السياجات والأسوار تتكاثر تدريجاً ، لا لتربية الغنم بل لزرع نخبة من الحبوب وتربية سلالات مختارة من الماشية - ابتغاء الإكثار من محصول الغلال والثمار الجذرية الجديدة ولزيادة حجم البهائم - وتلك أمور كان من المستحيل التوفر عليها أبداً مع نظام قطع الأرض الصغيرة ، المختلط بعضها بالبعض . وكان الأغنياء من ملاك الأرض يقدمون أموالاً لإصدار لوائح برلمانية ترخص لهم أن يقيموا سياجات حول الأراضى القديمة ، ومعها - فى أغلب الأحيان - المروج والروضات القروية والحظائر العامة والأراضى البور . وكثيراً ما كان فقراء المستأجرين يغصبون على أن يصبحوا أجراء لا يملكون أرضـــاً . وحتى لو سمح لهم باستبقاء الفضلات الصغيرة فعليهم أن ينجلوا عن الحظائر العامة التى درجوا على أن يحفظوا فيها أبقارهم وعن الأراضى البور التى يطعمون فيها خنازيرهم . وقد توسل أغنياء المزارعين بعزق الأرض عزقاً مستمراً وبالتسميد وبصرف الماء عن الحقول وبإنفاق مقادير كبيرة من المال ، توسلوا بهذا كله إلى صنع الأعاجيب ، بدأوا تربية سلالات الماشية التى اشتهرت بها المملكة وحولوا الخلاء إلى منظره الحالى المألوف الذى يشبه رقعة لعبة الدام (الضامة)

فتبدو صفوف من السياجات والحقول تميزها عن خلوات الحقول المفتوحة القديمة الطراز التى شاعت فى القارة . واستمرت العملية على وجه مُرْضٍ إلى بداية القرن التاسع عشر . وكان اختفاء صغار ملاك الأرض نكبة . فكانت الثورة الزراعية — ككل الإصلاحات — شيئاً نافعاً نفذ بطريقة ضارة .

وفى طول الأراضى الزراعية وعرضها قامت بيوت الضيعات المبنية بالطوب الأحمر التى أصابتها الرطوبة بمضى السنين . ووجدت أيضاً أماكن أحدث ، لأغنياء من نبلاء القرن الثامن عشر . لاتقع تحت حصر . وجدت أماكن مثل قصر بلنهايم — و — ستو — و — حصن هووارد . وفى هذه الأماكن كانوا يستمتعون بساعات فراغهم ويجمعون مجموعات كبيرة من الأثاث والكتب واللوحات والخزف ويحتفظون بجيوش من الخدم . ولقد عبست حصون النبلاء الباكرة الخربة فى وجوه تشبستو ـ و ـ بوديام وعشرات وعشرات من الأماكن الأخرى وأبدت تبايناً رومانسيا للملاط (المونة) والعمُد وواجهات البناء التى أقيمت فى المبانى القديمة (الكلاسيك). وما تزال بقية من آثار روما معروضة فى يورلكونيوم ـ و ـ لنكولن وغيرهما . وتدارست جمعيةُ العاديات التى تأسست حديثاً ، المتاريسَ الترابية التى أقامها إنسان ما قبل التاريخ ، وأبادة قليل من الجدران المتعفنة هنا وهناك عن موقع منسك بناه أسلاف الرجال والنساء الذين عاشوا فى القصور الفاخرة والذين عاشوا فى عشش القرية .

أهملت الأبروشيات والكنائس وغطاها الغبار ، وكان كثير منها مقصورات تفرشها الأسر الكبيرة وفيها يستطيع السيد النبيل أن يحتفظ بنضدته وأريكته (كنبته) بل بموقده وأن يغط فى النوم فى أثناء القداس،وكلبه

المختار عند قدميه . ولم تمس الكنيسة فى حالة راضية فهى لم تسترد قط ثرواتها التى سلبها إياها الملك والأمراء ، وفى القرن الثامن عشر لم يبد أساقفتها وقساوستها حماسة فائقة . وقد ظل بعض الأسقفيات بدون رعاة (أى خورية) ، وامتنعت طائفة من الأساقفة عن زيارة أسقفياتهم إلا فى مناسبات نادرة . وتركت الأمور على عواهنها بدون عناء أو همة .

وعادت الحمية مع جون ويسلى وهو عالم تخرج فى أكسفورد وقسيس آمن برسالة الإنجيل والوصايا . . سافر آلاف الأميال، على متن فرس ، إلى كل مناحى البلاد مبشراً وواعظا منبها الناس إلى إصلاح حياتهم . وقد حرمت عليه منابر الكنائس وبدا له الاحتقار من رجال الدين . وقد نظم أتباعه فى مجتمع مسيحى . وبما أنه كان منظماً عظيما فقد بقى ذاك المجتمع إلى الآن . واستطاع مع أخيه شارل — وهو ناظم ترانيم عبقرى — أن يستعيد للدين شيئاً من الحمية التى أعوزته منذ القرون الوسطى .

ولم تترك تعاليم الكنيسة البروتستنتية قط تأثيراً عميقا فى حياة الغرب الذى تطلع أهله إلى ملةٍ أخصب . وعندئذ أقيمت فى قرى ويلز ، التى أسميت بأسماء قديسى ويلز فى العهود المظلمة ، كنائس صغيرة جديدة ! . : بيتيل — و- سالم -و- إيبينيز وانتعشت حولها حياة الناس . وتركت مواعظُ ويسلى تأثيرها على المملكة كلها . وكان لها من النفوذ فى كورنوول - و - ويلز ما كان لتعليم الكنيسة المشيخية (بيرزبيتريان) ، التى سنها جون نوكس ، على اسكتلندة .

ولقد أتاح ويسلى للكثيرين من الفقراء المتضعين كرامةً جديدة وهدفاً

معنويا جديداً يقومان على قيم أبقى من السياسة والتجارة . وكان هناك آخرون ، يحفزهم العقل أكثر مما يحفزهم الدين ، أرادوا أن يرفعوا مستوى الجنس البشرى . وقد كتب العلامة جوزيف بريستلى ، سنة ١٧٩١ ، يقول : « سوف يكون عهد إمبراطورية العقل أبدا ، عهد أمن وسلام » .

وحوالى آخر القرن كان الناس فى حاجة قصوى إلى كل من العقل والدين . فقد بدأت عندئذ ثورة فى أسلوب حياة الرجال والنساء . فقد نشأت مصانع جديدة فوق مناجم الفحم فى ويلز وداخلية البلاد وشمالها وعلى طول جداول الماء فى منطقة جبال الـ بينانين ! وأخذت القرى تتحول إلى أماكن وبيئة مزدحمة وكانت هنالك أفران لافحة تصبغ السماء ليلاً بلون أحمر . وأخذ الـكادحون ، الذين لا يملكون أرضا ، يتزاحمون على الصناعات الجديدة ليعيشوا عيشة وبيلة فى الشوارع الغبراء القذرة . وتلك عيشة تبعد كل البعد عن العيشة الطبيعية ، مدى الحياة ، فى الريف الذى يستطيع أهله جميعاً أن يجدوا السعادة والصحة حتى الذين يعيشون منهم من سرقة الصيد . وإن العالم لفى أشد الحاجة إلى كل حكمة رجال السياسة وكل حكمة المؤجرين ورجال الدين وذلك لحفظ ثروة الأمة الحقة التى هى حياة الناس ورخاؤهم .

وقد كانت الأقدار تقدم للناس عطايا جديدة ، إذ أخذ الطب ينبثق من السحر ، والعلم من السيميا والبازرجه (أى التنجيم) ، والهندسة — التى بدأت تغير وجه الأرض — من الحرف اليدوية ، وأخذت المعرفة والاختراع — اللذين تطورا فى مدى عشرة أجيال منذ النهضة العلمية — يتيحان الفرص لتحسين حياة البشر . ثم إنه لم يسبق قط من قبل أن تحمس الـكثيرون لإصلاح القوانين وتحرير العبيد ومساعدة الفقراء

وتعليم الجهال وإحلال النور والحياة فى كل الأماكن المظلمة .

ومن سوء الحظ أن العالم قليلاً ما أبدى استعداده للاستفادة من مستكشفات حكمائه . فهنا استعدّ المخترعون وهنالك وجد المصلحون الذين أزمعوا على العمل باسم العقل والرحمة . غير أن إعصاراً أهوج من الحماقة والكراهية هب واكتسح مطمح العقل . وقد بدأ كل شىء يعمل باسم الحرية المقـــدس ، بدأ يعمل فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وهز أوربا والعالم خمسة وعشرين عاماً .

الباب السادس

الثورة الفرنسية

الثـــورة

فيما كان مجرمو فيليب يستوطنون جانب الدنيا الآخر فى الوطن الأسترالى الغريب الجديد لقيت الملكية القديمة فى فرنسا نهاية عنيفة وهزت العالم بسقوطها .

كانت الحكومة والقوانين والضرائب — فى فرنسا — خرقاء جائرة . وهكذا كانت فى الدويلات الألمانية والإيطالية . فلقد حدث أن بعض الحكام الألمان باعوا — بالفعل — شبابهم ليصبحوا جنداً لملوك أُخر . وكان بعضهم أحمق بشكل لا يتصوره العقل . إلا أن فرنسا تقدمت العالم إلى طريق المعرفة والفنون والعلوم وأساليب الحياة المتمدنة ، وأن الملك الفرنسى لويس السادس عشر كان رجلاً أديباً طيب القلب .

ومن الجائز أن تكون دولة ما ، غنية موفقة وأن يكون الكثيرون من أهلها ، مع ذلك ، فقراء معوزين . وهكذا كانت فرنسا، ففيها عاش الفلاحون على منوال أجدادهم فى القرون الوسطى . درجوا على أن يدفعوا ضرائب مبهظة إلى الملك وإلى ساداتهم أصحاب الضيعات الكبيرة ، وكانت غلالهم التى يكسبونها بكدهم طعاماً لحمامه وأرانبه التى حرم عليهم صيدها . كانت غلالهم تطحن فى مطحنه وأعنابهم توطأ فى معصرة العنب التى يملكها . ولم يكن لهم أن يبيعوا سائمة أو أن يتزوجوا دون أن يدفعوا له جعلا . كانوا عبيداً وجد الكثير من أمثالهم فى البلاد الأخرى .

ونحن — فى بريطانيا — لنا أن نعد أنفسنا سعداء بأن غزانا وحكمنا

ملوك نورمانديون وزراع أقوياء كانوا سادة العالم وفرضوا على كل الناس واجبات يؤدونها ، ملوك استدعوا برلمانات تعينهم على أمور الحكم، ملوك كانت شريعتهم — شريعة الملك — يطبقها فى طول البلاد وعرضها قضاة اتصفوا بالشدة والجهامة والجرأة ، تخور فى حضرتهم عزائم « الجميع » . وكما أنه لا يزال فى فرنسا — فى ١٧٨٩ — أقاليم لها قوانينها الخاصة . تصور أنه وجد فى إنجلترة القرن الثامن عشر إقليم اسمه ميرسيا أو وسكس يطبق قوانينه الخاصة ! ولقد أعجب الكثيرون من الفرنسيين بنظام الحكم فى بريطانيا ، واستثار الكثيرين أيما استثارة إعلان الاستقلال الأمريكى الذى صنعه المواطنون البريطانيون الذين آثروا أن يثوروا على أن يدفعوا ضريبة زهيدة . ذلك لأنهم أرادوا أن يكونوا أحراراً فى إبداء رأيهم فى شئونهم الخاصة . وكذلك قضى الفرنسيون عمرهم فى النيل من سلطان الكنيسة وثروتها فى فرنسا . ومقت البعض الكنيسة ورجال الدين مقتاً ضارياً متقداً .

حكم لويس السادس عشر فرنسا من ڤرساى وكان سلطانه مطلقاً . كان يختار وزراءه وفق مرامه . ولم يكن هناك برلمان أو جمعية وطنية . ولم يكن لواحد من النبلاء أو السادة — الذين فرض فيهم أن يصبحوا زعماء فرنسا — أى رأى فى الحكم . ولكنهم — بدلاً من ذلك — أخلدوا إلى الكسل وأضاعوا وقتهم فى منادمة الملك أو لبثوا فى قصورهم ومع ذلك كانت لهم امتيازات . فلم تطلب منهم واجبات ولو أنهم لم يؤدوا ضرائب . وقد تمرس كل الناس فى بريطانيا — قروناً — على أن يمارسوا فن الحكم : حاكمين « أو محكومين » .

أما الفرنسيون فلم يكتسبوا تجارب من هذا القبيل .

وعندما أفلس لويس السادس عشر — فى ١٧٨٩ — إفلاساً لا رجاء فى تغلبه عليه استدعى مجلساً مشتركاً منتخباً من النبلاء ورجال الدين والشعب

وهذه هى الأركان الثلاثة القديمة أو الأركان العامة لمملكة فرنسا التى لم تجتمع منذ ١٨٠ عاماً . اجتمعوا ، إذ ذاك ، فى فرساى حيث قام النبلاء ورجال الدين (فى حللهم) ومندوبو الشعب (فى أكسيتهم السوداء الوقورة) بمظاهرة باسلة عند افتتاح الاحتفال يحدوهم جميعاً أمل عظيم فى إصلاح الضرائب والحكومة إصلاحاً جدياً . وحفزت المشاحنات والمحاجات الطويلة فى شأن طريقة التصويت، حفزت الركن الثالث (مندوبى الشعب) إلى أن يجتمعوا وحدهم ويحولوا أنفسهم إلى جمعية وطنية مهمتها إعادة النظر فى شكل الحكومة وصياغة قوانين الدولة . وطالت المجادلات وبخاصة ممن لم تسبق لهم خبرة بتلك الشئون . وبينما كانت الجمعية تتكلم أخذ الشعب الفرنسى يصنع ما يحلو له.

وفى كثير من الأقاليم عمد الفلاحون إلى مهاجمة القصور وحرقها ، وفر إلى خارج فرنسا نبلاء كثيرون مع أُسرهم . وفى باريس اقتحم فريق من الغوغاء معقل سجن الباستيل القديم . وبما أنهم من الدهماء فقد أطاحوا برءوس الجنود الأبرياء الذين كانوا فى حراسته واستعرضوها على أسنة الحراب . ولزم كثيرون من الباريسيين الهدوء والسلام ، إلا أن جماعة من الدهماء ، قد تبلغ الألوف ، مالت إلى الشغب دون أن تلقىَ مقاومة . وقال أحد القدماء للويس إن هذه الحركة ليست فتنة ولكنها ثورة ، وكان قوله الحق . وكان جورج الثالث فى لندن قد قمع جمهوراً من الغوغاء ، السكرى الصاخبين ، بفرقة من الحرس الراجل فى حين أنه لم يوجد فى باريس رجل حازم سريع التصرف . وأقام المواطنون غير المحكومين حكومة مدينتهم وألفوا فصائل من الحرس الوطنى شعاره علامة بيضاء وحمراء وزرقاء ، وتلك هى الشارة المثلثة الألوان، رمزاً للثورة . ولم يُعْوِز الغوغاء أنصار أقوياء من بين الأغنياء والمتعلمين . فقد كسب دوق أورليان لقب « أورليان المساواة » نتيجة لتشجيعه أبسط عناصر العامة .

وفى خلال مجادلات لا حد لها عن كل شىء أصدرت الجمعية الوطنية

إعلان حقوق الإنسان الذى يؤكد أن الجميع أحرار متساوون . وأصبح كل امرىء « مواطناً » ، ولا شىء غير ذلك وتقاطر جمع غفير إلى فرساى وجاء بالملك وأسرته ليعيشوا فى باريس بقصر التويلرى . وتبعته الجمعية وواصلت مجادلاتها بين الصخب الثائر والهياج فى العاصمة حيث عجت الأندية السياسية بالخطباء وحيث أخذت الأحزاب والناس على اختلاف ألوانهم تصدر صحفاً . ومن ذاك الوقت بدأ جمهور الشعب ومتحمسو باريس يقودون المملكة .

واجتمع النبلاء والمنفيون الملكيون (المهاجرون) فى بلاد الراين وسألوا ملوك أوربا الضرب على أيدى الثوار . وعندما أمرت الجمعية رجال الدين جميعاً بأن يصبحوا موظفين مدنيين تحت سلطان الحكومة الفرنسية أبت غالبيتهم . وقد أساء هذا الهجوم على الكنيسة إلى الكثيرين من المعتدلين أيما إساءة . وشرع لويس السادس عشر — الذى كان إلى ذلك الوقت ، قد بدأ يتقبل أكثر الأمور — شرع فى الهرب سراً مع أسرته إلى الحدود الألمانية ، ولكن شخصيته كشفت عن كثب من الحدود . ولما وصلت الأنباء باريس ضج الكثيرون من الثوار بطلب الجمهورية . لقد أزمع الملك هجر شعبه — ألم يفعل ذلك ؟ — وإذن فلتسقط الملكية ! وليحى الشعب صاحب السلطان !

وعندما خططت الجمعية الوطنية ، آخر الأمر ، لنظام الحكم حلت نفسها بعد أن حرمت على أعضائها أن يتقدموا للجمعية التالية . ومعنى هذا أن أحداً ممن له أية دراية بالحكم ، ما يكون له أن يشارك فى الحكومة التالية وأن كل شىء يجب بدؤه من جديد . وأتاح هذا القرار البالغ الغرابة لأعضاء النوادى الباريسية المتهوسين فرصتهم . وأعلنت الجمعية التالية الحرب على النمسا .

وزادت الإباحة والفوضى . وأنذر دوق برانشفيج الألمانى — الذى عسكر فى بلاد الراين — أنذر الفرنسيين بأنه سيدمر باريس إذا مس لويس

السادس عشر بسوء . فأقام غوغاء باريس حكومة مدنية جمهورية اسمها حكومة العامة ودعا زعماؤها الشعوب إلى أن تهب وتحطم الملوك . وزحف أهل مرسيليا وهم ينشدون نشيداً جديداً : المرسييز . وهاجم جمهور من الغوغاء حراس الملك السويسريين وقتلوهم ونهبوا قصر التوليرى . وبجن نويس . وعبر برانشفيج الحدود . وطافت عصابات من الأوباش حول السجن يقتلون الملكيين الذين حشروا فيها . وتصادف — فى ذاك النوع البطيء من الغارات فى تلك الأيام ، فى مناجزة بالمدافع بـ . . ڤالمى — تصادف أن البروسيين ردوا على أعقابهم وأخذوا فى الانسحاب ؛ فأمر الثوار باقتراع عام بين أقوياء الأبدان وشكلوا منهم جيوشاً جديدة وعجلوا بإرسالهم إلى الحدود . واستعاض هؤلاء عن نقص تدريبهم ومرانهم باندفاعهم وحميتهم . فبلغوا الرين ودهموا البلاد الواطئة (النمسوية) الجنوبية .

وفى باريس بلغت مأساة الملك نهايتها فلقد حوكم وأدين وأطاحت المقصلة برأسه فى يناير من سنة ١٧٩٣ . وأهاب الثوار بالشعوب فى كل مكان أن يثوروا على ملوكهم وشجعوهم بإعلان الحرب على بريطانيا وهولانداوأسپانيا .

وفى مدى أربع سنوات تحولت أقدم مملكة فى أوربا إلى شعب ثائر يحارب سائر الممالك جميعاً ، ويحارب أيضاً حرباً أهلية . فقد تبع الهجوم على الكنيسة وقتل الملك ، تمردات ملكية فى الأقاليم ضد الحكومة الجمهورية فى باريس . ولم يكن سهلاً قمع فلاحى بريتانيا — و — لاڤانديه بزعامة ساداتهم وقساوستهم . وأدت هذه المخاطر والمنازعات والشكوك المجنونة المرة بين الأحزاب فى باريس ، أدت إلى حكم إرهابى . وأرسلت لجنة الأمن العام ، إلى المقصلة ، الآلاف من الرجال والنساء من الأشراف والقواد والملكيين ، وجواسيس ، وأعداء شخصيين وشى بهم جيرانهم ، و — فى الواقع — أى فرد قضى عليه سوء حظه بتوجيه تهمة إليه . وكانت غالبية الضحايا من الفقراء . وكانت من بين من كابدوا غالبية زعماء الثوار — مثل

دانتون — الذين وقعوا فى أحابيل مؤامرات الريبة واسعة النطاق، وكذلك شخصيات ذائعة الصيت مثل لافوازييه الكيمائى — و شينييه الشاعر. ومن بينهم أيضاً الملكة مارى أنطوانيت التى لقبت بـ « المرأة النمساوية » احتقاراً لشأنها . لقد كان الأمر كابوساً من القبض والإعدام المعجل . لقد كانت مركبات النقل ذوات الدولابين ، فى كل يوم ، تنهب الشوارع وهى تحمل أنصباءها من المحكوم عليهم بالإعدام . وفى كل هذا كان الشخص المتسلط هو روبسبير الذى لبث فى السلطان سليماً معافى بينما منى قرناؤه بالإعدام . ولم يتوقف الإرهاب حتى هاجمته شرذمة من الرجال وأسقطته وأوثقته وعجلت به إلى المشنقة .

كان هناك كثيرون يتعطشون للدماء تعطش روبسبير، نقعت روحهم المتعصبة باريس فى الدم . ولكن كان هناك أيضاً كثيرون ، من أمثال كارنو ، يعملون نهاراً وليلا لتجنيد الجيوش الجديدة وتسليحها وتدريبها .

ولكن جنود هذه الجيوش — التى تؤلف من المقترعين للخدمة العسكرية والتى نواتها رجال الجيش الملكى الممتاز القديم الذى كانت مدفعيته خير مدفعيات أوربا — كان أولئك الجنود أبناء تلك الثورة العنيفة العجيبة . وكان جيش الشمال (المسمى جيش سامبر — و — موز) جيش جمهور من الرجال يتعلم الترتيب والنظام فى ميادين القتال فى مواجهة الخطر . وهذا هو الشىء الوحيد المرتب المنظم الذى تمخض عنه خبال فرنسا . وكان طبيعياً — فى ظروف صارمة كتلك — أن تجد الجيوش الجديدة قواداً من الشباب الكفء ، رجلاً من أمثال . هوش — و — جوردان — و — مورو الذين اعتادوا على أن يفرضوا على جيوشهم الولاء والنظام والطاعة ،وتلك الفضائل افتقدتها باريس منذ زمن مديد .

نابليون والبحرية البريطانية :

وكان من بين عشرات ضباط القيادة الذين تولوا القيادة ، والذين عينتهم الجمهورية الفرنسية : شاب كورسيكى هو نابليون بونابرت أحد ضباط مدفعية لويس السادس عشر الذين تمرسوا جيداً بمهنة استعمال السلاح . وعندما ثارت الغوغاء فى الشوارع ، بعد سقوط روبسبيير ،نسفهم بقنابل مدفعه، فكان بذلك أول من فض حشداً من غوغاء باريس منذ١٧٨٩ .وكان نابليون — على خلاف سائر الفرنسيين فى أيامه — يحسم الأمور كلها واتته السلطة . وقد أتاحت له الجمهورية القوة بخلق جيش عظيم بعدما أعلنت بداية حكم السلام ! .

وكان نابليون نفسه إحدى القوتين الجسيمتين فى تاريخ الثورة . وكانت الأخرى : البحرية البريطانية .

وقد اكتسبت البحرية — منذ أيام دريك — القوة والمهارة والتجربة فقد علمها بليك كيف تناور وتحارب فى مجموعات . وقد زادتها خبرة واجباتها فى البحار السبعة وأكسبتها الصلابة حتى بلغت ذروة الكفاية فى البحرية والنظام . ولم تكد الجمهورية الفرنسية تعلن الحرب حتى خف الأسطول البريطانى إلى العمـــل . وفى ١٧٩٤ هزم اللورد هووى أسطولاً فرنسياً فى الأطلنطى فى « غرة يوليو المجيدة » . وكانت الجيوش البريطانية ، التى هبطت الأراضى الواطئة ، عديمة النفع . ومهما يكن من أمر فقد كانت قوة بالغة الصغر ، غير أن الأسطول محا تجارة فرنسا من البحار واستولى على ممتلكاتها الواقعة فيما وراءها ، واستولى كذلك على ممتلكات هولاندا عندما غزاها الفرنسيون وهكذا آلت ترينيداد وسيلان ورأس الرجاء الصالح إلى بريطانيا .

وفى ١٧٩٦ عقدت على نابليون قيادة « جيش إيطاليا » وأظهر عبقريته الحربية فى حملة باهرة . وفى مدى ستة أسابيع من بداية الحملة عبر جبال الألب فى سافوى وطرد النمسويين من لومباردى ، فكانت مأثرة حربية ميّزته ، إذ إن زميليه القائدين مورو — و — چوردان أخفقا فى محاربة النمسويين فى بلاد الراين وألمانيا . وقد صنع نابليون مايفوق على هذا كثيراً: نقل الحرب فى عل ٍ إلى ممرات التيرول ودخل النمسا . وكان على بعد ستين ميلاً من ڤينا عندما أكره الإمبراطور على عقد الصلح ثم انطلق يعمل على تحويل شمال إيطاليا إلى جمهوريات تابعة لفرنسا وأبان هذا المجهود عن طاقته العنيفة فى العمل وبراعته فى التنظيم . ولم تظل البندقية — سيدة الأدرياتى الأبية الذائعة الصيت — لم تظل البندقية دولة مستقلة بل أصبحت كقريناتها تابعة لفرنسا .

وفى البحر دمر الأميرال چرفيز أسطولاً فرنسياً أسبانياً موحداً على مسافة من سنت فنسنت . وهزم الأميرال دانكان أسطولاً هولاندياً على مبعدة من كامبردوان وقد تحقق هذان الفوزان على حلفاء الفرنسيين على الرغم من التمردات الجدية التى أشعلها البحارة الإنجليز احتجاجاً على صغر المرتبات وقذارة المساكن ورداءة الطعام وقسوة المعاملة على يد بعض الضباط .

وعلى أية حال فقد حافظ المتمردون على حسن استعداد سفنهم الحربية وعلى أهبتهم للإبحار ليلتقوا بأعداء بلادهم ، ونجم عن هذا تحسين شئونهم إلى حد ما .

وفى الوقت نفسه انتصر نابليون ، فى بلاد قاصية . أبحر إلى النيل بعد أن أفلت من الأسطول البريطانى فى صعوبة بالغة وتغلب (بعد عناء) على الجيش المصرى فى موقعة قرب الأهرام . وبعد هذا أرسل باحثيه

وعلماءه ليمسحوا الأرض ويجمعوا آثاراً مصرية . وأرسى أسطوله فى خليج أبى قير إلى أن أبحر الأميرال نلسون ونسفه نسفاً . وعندئذ سير نابليون جيشه الفرنسى إلى فلسطين حيث رُدَّ جنوده المشاة لدى هجومهم على أسوار عكا ، وذلك بفضل المساعدة التى قدمها إلى الأتراك ضباط المدفعية البحرية التابعين للكابتن سيدنى سميث . وهذا ماحدا نابليون إلى أن يقلع عن أى مشروع يكون قد أعده لإخضاع الشرق . وعندما عاد إلى مصر ترك جيشه وأبحر سراً إلى فرنسا . وهناك ألفى كل شىء مرتبكاً ووجدها مهددة ، وكان ذلك فى ١٧٩٩ .

وكان حلف جديد — من روسيا والنمسا وبريطانيا — قد أخذ يتألف ضد فرنسا . فنصب نابليون نفسه قنصلاً أول ، على الأسلوب الرومانى القديم — وكانت الأساليب الرومانية القديمة محبوبة فى أثناء الثورة — وأخذ يشتغل ١٦ ساعة يومياً ، شهوراً طويلة متعاقبة دون انقطاع ، واستحدث بعض النظام فى الحكومة . ثم زحف مسرعاً على ممر سنت برنار الكبير وأدرك جيشاً نمساوياً فى مارانجو وحطمه . وقهر مورو جيشاً نمسوياً آخر فى هوهنلندن ، وأكرهت النمسا مرة أخرى على قبول الصلح .

وفى ١٨٠٢ أعاد صلح أميان تنظيم التعادل بين عبقرية نابليون الحربية وقوة بريطانيا العظمى البحرية .

ولم يكن الصلح غير مهادنة مسلحة . عاد نابليون إلى احتلال هولاندا وسويسرا ، وأرسل جنوده داخل مملكة هانوفر التى يحكمها جورج الثالث . وفى ذلك العام ذاته توج نفسه إمبراطور الفرنسيين ، فى أبروشية نوتر دام فى حضرة البابا ، وقد جاء به إلى باريس ليجرى الاحتفال . ثم أزمع على أن يغزو بريطانيا وانتظر جيش الغزو — الذى أعده — فى بولونيا وأقيمت خمسة جيوش أخرى على طول شاطىء أوربا من هانوفر إلى برست تحت

إمرة أقرب قواده إلى ثقته . وسبحت أسراب السفن الحربية البريطانية ، التي تسد الطريق في كل الأجواء شهوراً طويلة ، بعيدة عن الموانى الأوربية سبحت بقيادة أمراء البحر البريطانيين المحنكين(كورنواليس ـ وـكولنجوود و ـ نلسن) وعم النشاط المضيقَ بسفن صغيرة وبوارج . وخف متطوعوا المملكة المتحدة إلى السلاح متأهبين إلى لقاء المغير بالرمح والغدارة . وقد وسع صيادى السمك ، الموجودين على مبعدة من الساحل الجنوبى الشرقى، أن يروا الفرنسيين يتمرنون على الركوب والشحن فى سفن مفرطحة القاع . وكدست الشمندورات (وهى مشاعل تثبت على الماء لهداية السفن على الخُبوت(١)) بعد أن أعدت لتشتعل على سبيل الإنذار . والإنذارات التجريبية تدفع الفلاحين والسائمة للتحرك إلى داخلية البلاد . وأصلحت قلاع الشاطىء أو شيدت ولكن ظهر أن هذه العملية تدخل فى اختصاص البحارة .

وتبعت ذلك واحدة من أشهر الحملات التى شنتها البحرية الإنجليزية وواحدة من أمهر الحملات البرية التى شنها نابليون .

وأعوزت نابليون سفن حربية تحمى جيوشه إذ تعبر البوغاز . وأخيراً فى ١٨٠٥ ، غافل أميراله ڤيلنوف ، المحتمى بـ . . طولون ، غافل أسطول نلسون الذى كان يعترض طريقه وأبحر بعيداً إلى جزيرة مارتينيك من جزائر الهند الغربية الفرنسية . وأخطأ نلسون وأبحر مشرقاً إلى مصر ظناً منه أن ڤيلنوف ذهب إليها ، ثم انثنى راجعاً إلى جبل طارق ، واتجة إلى مارتينيك فوجد أن فيلنوف عائد فى طريقه إلى بحر المانش . وأسرع نلسون الإبحار إسراعاً أتاح له عاجلا — اللحاقَ به وهو يحث السبح إلى المياه الإقليمية . إنها مطاردة طويلة يقيناً — وكان كيتس ربان «سوپرب» (أى الفخمة) يعلم ذلك علم اليقين — إذ أن سفينته كانت قديمة معيبة

---

(١) الخبت ما اتسع واطمأن من الأرض .

بطيئة : « بطة عرجاء تتثاقل فى الطريق » . وأنفذ نلسون ، خفيةً ، فرقاطة سريعة اندفعت إلى لندن تحمل الأخبار . وعلى هذا وجد ڤيلنوف — عندما بلغ المضيق — أسطولا ، تحت إمرة سير روبرت كالدر ، يعترض طريقه فقفل راجعاً إلى كورونيا دون أن يشتبك فى معركة .

وبهذا انتهى أمل نابليون فى الغزو .

وإذ ذاك أبدى الإمبراطور الفرنسى عبقريته الحربية الفائقة : استعان ببراعه مساعديه ونقل جيوشه جميعاً — دون اختلال — إلى مكان داخل النمسا يبعد ٤٠٠ ميل بلغته بعد زحف معجل واحتشدت قبل أن يتنبه النمسويون تنبهاً تاماً إلى ما يجرى . وأسرت جيشاً نمسويا فى أولم، وهزمت جيشا نمسوياً روسياً مشتركاً فى أوسترليتز ، لم يوجد قط جندى كهذا الكورسيكى ! فلقد أكره النمسا مرة أخرى على الصلح ، وأعطى هانوڤر (التى كانت من أملاك جورج الثالث إمبراطور بريطانيا) إلى بروسيا . وكانت تلك هى الحرب البرية التى حطمت الحلف الثالث ضد فرنسا وقضت على آمال وليم بيت . كان بيت رجلا مريضاً ومات بعد أوسترلتز بشهر واحد . غير أنه عاش حتى عرف أن كل خوف من الغزو قد زال(١) .

وقبل أوسترلتز بستة أسابيع تعلم الإنجليز اسماً جديداً : اسم رأس الطرف الأغر الواقع على الساحل الأسبانى . وذلك أن ڤيلنوف — فى أسطول فرنسى أسبانى — أحدق به وقهر على مقربة من ذلك الرأس على يد نلسون و« زمرة إخوانه » اخترق نلسون - و — كولنجوود — يقودان ، فى صفين ، سفنهما التى ألحق بها الجو ضرراً بالغاً — اخترقا خط دفاع مجموعات سفن العدو ومرا من بينها وأحاطا بها وحطماها .

وقد عظم سحر اسم نلسون إلى حد أن خبر النصر الكبير قد حجبه

(١) أنظر شكل رقم — ١٠ — (لامبراطورية نابليون الحربية ١٨١٠)

خبرُ موته على ظهر سفينته « فكتورى » (أى النصر) . « فزع الناس عند سماع الخبر وامتقعت وجوههم كأنهم سمعوا بفقد صديق عزيز » .

وبعد هذا لم تحدث مواقع بحرية أخرى وإنما حدث قدر كبير من النشاط البحرى والنقل والمحاصرات وحراسة السفن . وأمر نابليون أوربا جمعاء بأن تمتنع عن الاتجار مع بريطانيا . وحاصرت بريطانيا أوربا كلها . وكانت الدول البرية والبحرية ما تزال عاجزة عن أن تضرب ضربتها .

واستمرت الحرب براً . ولما استأنفها البروسيون لحسابهم الخاص هزمهم نابليون فى يينا ودخل برلين وعبرها راكباً فى موكب النصر . بمعاضدة البولنديين له بعد أن وعدهم بتحريرهم من روسيا وبروسيا والنمسا وهى الدول التى كانت قد اقتسمت بولندا فيما بينها . وبعد هذا حارب الجيوش الروسية فى إيلو — و — فريدلاند . ثم التقى بالقيصر الروسى فى طوف على نهر نيمن وعقد وإياه ميثاقاً تواضع العاهلان على أن يقتسما أوربا فيما بينهما : فيسيطر نابليون على الغرب ويكون القيصر شريكه فى اقتسام العالم المتمدن وفى السيطرة عليه .

وفى سنة ١٨٠٨ كان نابليون يحكم إمبراطورية أوسع من إمبراطورية شرلمان . وكان إخوته ملوكاً على إيطاليا وهولاندا و — وستفاليا (بلاد الراين) ، وصهره ملكاً على نابولى ، وحكام باڤاريا ـ و ـ ڤيرتنبرج ـ و ـ بادن أزواج نسيباته ؛ وكان قد طلق زوجته الأولى وتزوج بابنة إمبراطور النمسا .

وبذلك أصبح ضابط لويس السادس عشر المدفعى الصغير المنطوى على نفسه ، أصبح إمبراطوراً وجعل من أصدقائه ومرشاليه الدوق والمركيز والكونت وغير ذلك وكون منهم طبقة الأشراف فى إمبراطوريته الجديدة .

وقد فرض إرادته على الأمراء والشعوب بالمدافع وحراب البنادق ، وأصبحت العروش والأسر المالكة ألعوباته . غير أنه لم يكن مجرد قاهر منتصر ، بل كانت لديه كفاية فائقة فى فن الحكم وولع بالقانون والتنسيق والنظام فى الحرب والسلم . وقام مهندسوه وضباطه بتنفيذ هذه الأفكار فى بلاد ألمانيا وإيطاليا المتخلفة ، فمدوا الطرق وغذوا الصناعة والتجارة وأيقظوا الناس من عاداتهم العتيقة فى الطاعة العمياء . وحطم مجموعة دول ألمانيا وإيطاليا الصغيرة المتداعية التى ضمها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكون من إيطاليا وهولاندا جمهوريات ، وأعاد تشكيل الأراضى الألمانية فصيرها دولاً كبيرة قليلة العدد . ويرجع إليه وإلى مساعديه الفضل فى إزكاء رغبة الألمان والإيطاليين فى جعل بلادهم أمماً حرة مستقلة . غير أنهم فى عهده كانوا رعايا الإمبراطور الفرنسى ، إذ كان سلطانه لا يحد .

نابليون و أسبانيا وروسيا :

ولم يستمر فى الحرب غير بريطانيا العظمى بمفردها .. أخذت تأسر السفن التجارية الفرنسية وتحاصر شواطىء أوربا ، وهذه الأمور أنجزتها البحرية البريطانية المنقطعة النظير . غير أن بريطانيا العظمى لم تكن لتنتصر فى الحرب بدون حلفاء فى أوربا . وهؤلاء أمدّها بهم نابليون وذلك بغزوه أسبانيا وروسيا .

وفى ١٨٠٨ عزل ملك أسبانيا وأجلس على العرش الأسبانى أخاه جوزيف بونابارت . ولا يسع أحداً أن يقول إن نابليون تغاضى عن مصاير أفراد أسرته ... ولجأ الأسبانيون — وهم أمة أبية مستقلة — إلى السلاح بلدة بعد بلدة وقرية بعد قرية ، وهزموا جيشاً فرنسياً كبيراً وأسروه . ثم سير نابليون نفسه جنوده ، الذين حنكتهم الحرب ، إلى داخل شبه الجزيرة

ودخل مدريد . ومن ثم اضطر إلى الانسحاب شمالاً حيث هددت قوة بريطانية — بقيادة سير جون مور — هددت مواصلاته مع فرنسا. فأسرع بخيالته عبر الجبال المكشوفة القارسة البرد خلف فرق مور التى انثنت إلى الشاطىء تقطع ١٧ ميلا فى اليوم بين عواصف ثلجية باردة . وفى الوقت ذاته صدت الفرقة العسكرية الخفيفة ملاحقة الفرنسيين للأسبان . ثم حدث توقف نهائى فى كورونيا قتل فيه مور ولكنه أتاح للبريطانيين الهرب فى ناقلات كانت فى انتظارهم . نعم كانت المعركة صغيرة نسبياً ولكنها تبين ، فى جلاء ، مزايا القوة البحرية . وكان نابليون إذ ذاك قد عاد إلى فرنسا تاركاً أسبانيا لمشيريه العسكريين (مارشالاته) .

ولم يكن على هؤلاء أن يتصرفوا فقط إزاء هذه الأمة العنيدة المناجزة التى تشبه صفاتها الحربية ما يرد فى الأساطير بل كذلك إزاء جيش بريطانى — يقوده ولينجتون — معسكر فى ميناء لشبونة الباهر. وكان ولينجتون — حتى قبل أن يقهر مور فى كورونيا — قد قاد تجريدة عسكرية إلى البرتغال وصد جيشاً فرنسياً فى فيميرو . وعندئذ قهر ولينجتون الجيش الفرنسى مرة أخرى فى تالافيرا سنة ١٨٠٩ . ولاشك فى أن المعركة كانت بسيطة بالمقارنة إلى الحروب الرئيسية بأوربا التى استأنفها النمسويين والتى استمرت ثلاثة أشهر قبل أن يكره نابليون النمسويين ـ بعد معركتين ضاريتين (فى أسپرن ـ و ـ فاجرام) على عقد الصلح مرة أخرى .

وظلت أسبانيا مسرحاً للبربرية والهول . شن فلاحو الأسبان حرب عصابات أو حرباً صغيرة قوامها هجمات صغيرة مباغتة على المراكز الأمامية والدوريات . واضطر نابليون — سنوات عديدة — إلى أن يبقى هناك خمسة جيوش متفرقة بقيادة مارشالاته ببلاد فيها « الجيوش الكبيرة تهلك من الجوع والجيوش الصغيرة تهزم » ، بلاد شعبها الغاضب يتصيد الفرنسيين

المنقطعين عن زملائهم والآتين بالمؤن، ويعذبهم ويفتك بهم. وكان نجاح الأسبان عظيماً إلى حد أن استُدعى مائتا فارس ليضمنوا لرسول فرنسى حراسة أمينة. وكثيراً ما كان المارشالات فى الأقاليم الأسبانية المجاورة يعجزون عن معرفة أخبار حركات بعضهم بعضاً إلا عن طريق باريس. ولم يكن الأسبان يعرفون لهم حكومة، وقصارى ماعرفوه أن الفرنسيين ليس لهم أن يعيشوا فى الوطن الأسبانى وينهبوه. ولهذا أشعلوا الحرب بالطريقة الوحيدة التى يقدرون عليها: شيئاً فشيئاً، بربرية، انتقامية.

وفى تلك الفترة كلها أبقى ولينجتون جيشه البريطانى الصغير — الشديد المراس مع ذلك — معسكراً فى لشبونة التى حماها بخطوط طويلة من المتاريس الترابية المحصنة والأشجار المقطوعة والمدفعيات. وتحتم على الجيش الفرنسى الذى يرقبه أن يعسكر فى أرض مقفرة بينما ولينجتون ورجاله يستمتعون بالكثير الذى تمدهم به سفائنه. وعندما اضطر الجيش الفرنسى، آخر الأمر، إلى الانسحاب تبعه ولينجتون فى ١٨١١ وكسب سلسلة من المعارك البارعة فى فوونتيس — دونورو — ألبويرا — سيوداد رودريجو — باداجوز — وفى الثانى والعشرين من يوليو من سنة ١٨١٢، فى سالامانكا.

فى يوم سالامانكا كان جيش عظيم يقوده نابليون قد وصل فعلاً إلى روسيا يزحف شرقاً. وقد تقدم خيالته وعبروا (نهر) النيمن فى الثالث والعشرين من يونيو. وتبعتهم المشاة والمدافع فى غياهب من التراب فوق السهل الذى لا يحد، وكانوا نصف مليون من الرجال من فرنسيين وألمان وإيطاليين وبولنديين.

وارتد الروس تاركين للغزاة فلاة مقفرة. ثم وقفوا ليحاربوا على نهر بورودينو فى السادس من سبتمبر. وفى ذلك اليوم ركب رسول إلى داخل المعسكر يحمل أخبار سالامانكا. وكان طرفا أوربا يتأججان بحروب

الإمبراطور ! وزحزح نابليون الروس ولكنه بهذا خسر الآلاف من رجاله . واستأنفت الكتائب زحفها المديد . ودخل نابليون موسكو آخر الأمر . وكانت تلك المدينة قد هجرها أهلوها وصارت مدينة أشباح صامتة الطرقات . ولسبب ما تسعرت فيها النيران وأخذت بيوتها الخشبية تلتهب التهاباً عنيفاً فيما كانت جيوش الإمبراطور تنتظر جائعة واهنة مهلهلة فاقدة روابط النظام . وبعد انقضاء شهر على تلك الحال أمر نابليون بالانسحاب، وبدأ أكثر من مائة ألف رجل الأياب البطيء المروع . وحل الشتاء قبل أوانه . وفى التاسع والعشرين من أكتوبر أنجمدت الأرض وعمق الجليد وهرع فرسان القوازق — الذين تعودوا على الجو البارد — إلى المنقطعين عن رفاقهم وإلى المراكز الأمامية . وقد خسر الغزاة — لدى عبورهم أحد الأنهار — عشرين ألفاً من رجالهم . وإلى أن حل ذاك الوقت نفقت أغلبية خيلهم . وركب نابليون مركبة جليدية استحث بها الزحف على الثلج على رأس من بقى من جيشه وذلك لكى يعيد تنظيم الجيوش التى تركها لتحرس ألمانيا وفى الرابع عشر من ديسمبر كافح من بقى من الأشداء المهلهلى الثياب المستيئين « الشديدى التذمر » ، كالحوا ليعبروا النيمن ثانية ويقفلوا راجعين . وقاد « أشجع الشجعان » المارشال (ناى) ، قاد الرجال الأربعة الباقين من مؤخرة الجيش . وكان هو آخر من عبر .

وجيّش نابليون جيوشاً جديدة فى فرنسا ولكن أوربا جمياً هبت ضده وحدث فى موقعه الثلاثة الأيام العابسة ، التى دارت حول ليبزج ، أن تغلب عليه الروس والنمسويون والبروسيون بسبب تفوقهم العددى ليس إلا . وفى الوقت نفسه كسب ولينجتون معركة أخرى فى فيتوريا بأسبانيا وتعقب الفرنسيين عبر ممرات جبال البرانس إلى داخل فرنسا . وفى الشمال كان نابليون مايزال يحارب فى براعة مذهلة ولكن الأحوال أكرهته على العودة

إلى باريس . وفى الجنوب وصل رجال ولينجتون إلى طولوز. فأذعن نابليون ونفى إلى إلبا يحيطه التكريم .

وتهاوت إمبراطورية — آخر الأمر — أمام وطنية فلاحى روسيا وأسبانيا الحرون ، وطنيةٍ لم يلقها قط فى حشود الدويلات الألمانية والإيطالية . ويرجع الفضل فى مشاركة بريطانيا فى قهره إلى جماعتين من « جماعات الأخوة » : رجال ولينجتون فى شبه الجزيرة ، وبحارة تلك السفن الحربية التى ألحق بها الجو ضرراً بالغاً والتى سيطرت على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى .

واجتمع سياسيو أوربا فى ڤينا ليبتوا فى شئون أوربا . وقبل أن ينتهوا من مهمتهم أفلت نابليون من إلبا وهبط فرنسا ، وقوبل بترحيب حماسى ، وجيش جيوشاً جديدة ، وعرض أن يحافظ على السلام ولكن الحلفاء لم يأمنوا له . فتحركت جيوشهم صوب التخوم الفرنسية : البروسيون يقودهم القائد المسن بلوخر ، والبريطانيون والهولنديون والهانوڤريون يقودهم دوق ولينجتون ، والروس يجمعون قوة دافقة من بلادهم القاصية . وفى ووترلو ببلجيكا فى يوم الأحد الموافق ١٨ من يونيو من سنة ١٨١٥ ثبت رجال ولينجتون النهار كله أمام الغارات الفرنسية المتكررة . وقد قال الدوق فيما بعد : (« هجموا بالطريقة القديمة ، وقهرناهم بالطريقة القديمة ») . وبعد الظهر ظهر بروسيو بلوخر من الشمال الشرقى وحولوا الانكسار إلى اندحار . وخضع الفرنسيون أمام تقدم عام للحلف واستسلم نابليون . وفى هذه المرة أرسل إلى جزيرة القديسة هيلانة المنقطعة فى جنوب الأطلنطى ، وعاد الملك البوربونى لويس الثامن عشر إلى باريس ، وتابع سياسيو مؤتمر ڤينا مهمتهم وهى إقرار السلام فى أوربا بعد حروب دامت ٢٥ سنة .

وهكذا انتهت الحروب الطويلة المبـــدّدة التى شنتها الثورة الفرنسية ونابليون ، الحروبُ لا نتائجها ، إذ أن مبادىء الثورة انتشرت فى كل مكان . فالناس الذين كانوا يُحَكَمون حكماً سيئاً طلبوا الحرية ليشاركوا فى حكم أنفسهم ، والناس الذين كانت تحكمهم أمم غريبة طلبوا الحرية كذلك . وانطلقت قوتان من عقالها : الديمقراطية أو الرغبة فى الحرية الشخصية ، والقومية أو الرغبة فى تحرير الوطن من السيطرة الأجنبية .

الباب السابع

اختراعات عديدة ومعارف جديدة :

العالم اليوم

ثلاث مجموعات من الأحداث :

حكاية القرنين الأخيرين يمكن تلخيصها فى ثلاث مجموعات من الأحداث :- أحداث السياسة ، وأحداث الاختراع وأحداث التوسع فى أقطار الأرض.

بدأت السياسة فوراً وقتما استطاع رجل من رجال الكهوف أن يعقد اتفاقاً مع آخر . وبدأ الاختراع فوراً وقتما عرف الناس كيف يطقطقون الصوان أو يفتلوا الصوف خيوطاً طويلة . وبدأ التوسع فوراً وقتما بدأت القبائل الأولى تجول فى كل مكان لتعثر على مراع جديدة .

وجرت تلك الأحداث فى سرعة متزايدة فى خلال الأجيال الستة الماضية . ونحن — فى مناهج الحياة والفكر ، فى أيامنا هذه نبعد — عن أهل عصر نابليون أكثر مما يبعدون هم عن أهل عصر روما القديمة . ومن المؤكد أن مدة السفر من لندن إلى روما كانت ، فى عصر نابليون ، أطول منها فى عصر القياصرة . أما الآن فنحن نطير هذا المدى فى ساعات قليلة . وفى عصر نابليون كان الرجال والنساء فلاحين أميين يحكمهم الأشراف كأسلافهم أيام الرومان . أما الآن فكل أمرىء يستطيع أن يقرأ ، وغالبية الرجال والنساء حضريون ويشاركون بنصيب فى حكم بلادهم . وفى عصر نابليون كان مجمل تخطيط الكرة الأرضية لا يُعرفُ غير جزء منه . أما الآن فقد رسمت لأغلبها الخرائط ، وأنجزت الرسوم البيانية لقيعان المحيطات ،

وكثرت المصورات الجغرافية ، وأهلت القارات الجديدة بالسكان ، وأخذ الراديو يربط أقاصي البلاد بعضها ببعض في مدى ومضة .

ونحن نترقب ظهور اختراعات جديدة في كل وقت . ونحن نتحدث عن السفر إلى القمر ، فهذا عصر رجال العلوم والهندسة . والناس تزداد معلوماتهم عما حولهم باطراد ، كما تطرد مقدرتهم على تغيير ما يحيط بهم . وهذا مؤكد . أما الشيء الذي لا سبيل إلى التأكد منه فهو هل هم يتعلمون من الحكمة ما يحملهم على استعمال معلوماتهم ومقدرتهم لمنفعة الجنس البشري كافة ؟

أحداث السياسة : ممالك وجمهوريات :

التاريخ غاص بالملوك . ومن قبل أن يطلب اليهود إلى صموئيل ملكا منهم يحكمهم ، ومن قبل أن يمسح بالزيت شاؤول ليتملك عليهم كانت هنالك مدنيات أودية الأنهار يحكمها ملوك يتسمون بأسماء مثل سارجون — و — حامورابي . وقد جاء وقت كان فيه لكل مدينة في وادٍ ملك ، اختص به يقيم العدل ويقود الرجال إلى ساحات القتال . وكان في مصر أمراء البيت الكبير ، الفراعنة أمثال أمنحوتب ورمسيس وغيرهما ، كان هناك أسر عديدة منهم . وكان هناك ملوك على الحيثيين وهم أولئك الناس المبهمون الذين تكشف اليوم بالحفر مدائنهم المخربة . وكان هناك ملوك على صور وصيدا الفنيقيتين . وكان لبلاد الفرس ملوكها . والإسكندر الأكبر الذي قهر بلاد الفرس ، بدأ ملكا على مقدونيا . ونصب قواده أنفسهم ملوكاً . ومن قبل الإسكندر بزمان طويل كان للمدن الإغريقية الكثيرة ملوكها ، ويظهر الأولون الذين عرفوا منهم في ملحمة هومر أجاممنون — و — أخيل وفي كل مجموعة الأبطال العظيمة الذين سيروا سفائنهم ضد طروادة .

وروما أيضاً كان لها ملوكها الأتروريين ، وذلك إلى أن طردتهم روما .

وتحولت إلى « جمهورية » (أو حكومة للشعب) يدير شئونها حكام يختارون في كل عام من المدن المتزعمة . والمدن الإغريقية — التي كانت أثينا حاضرتها الكبرى وزعيمتها كانت هي أيضاً — جمهوريات لها جمعياتها المشكلة من مواطنين يجتمعون ليسنوا القوانين . غير أن في تاريخ البشرية كلها كانت الملكية هي النوع المألوف من أشكال الحكومة . وكان العاهل عند الإنجليز يسمى « كنج » وعند الإغريق « باسيليوس » وعند الرومان « ركس » . واستعملت شعوب أخر ألقاباً أخرى مثل « سلطان . شاه . زاد . قيصر . مهراجا . ميكادو » وكل هذه الألقاب ترمى إلى معنى واحد وهو حكم الفرد .

وكان لروما وثرواتها المذهلة شأن آخر يختلف كثيراً عما ذكر . فهي ، بعد أن صارت جمهورية قهرت العالم ، وبعد ما صنعت ذلك تحولت إلى إمبراطورية يحكمها « قيصر » أو « إمبراطور » . وبما أن روما — التي صارت على التتابع جمهورية وإمبراطورية — هي أم أوربا الغربية كلها فقد وجد منذ ذلك الوقت ، نموذجان من الحكومة يحتذيهما الناس . فكان كل زعيم بربري يقود — إلى داخل أراضي روما — عصابة مسلحة من الإنجليز أو القوط أو الفرنجة أو اللباردين ، يعد نفسه خليفة للقياصرة .

وكان يستعمل اللاتينية في قوانينه وفي « مقر عمله » و « رياسة حكومته » وفيما بعد — عندما تاق الناس إلى أن يعيشوا بدون ملوك — احتذوا النموذج الثاني لروما وشكلوا جمهوريات .

فمدينة البندقية التي طفقت سفائنها تحمل البهار من شرق البحر الأبيض المتوسط — كانت جمهورية تجار . وكذلك كانت جنوا . وطالما حلم الناس بجمهورية رومانية تبعث أمجاد المدينة العتيقة . وعندما ظفر رجال البحار ونواب المقاطعات الهولنديون بحريتهم من أسبانيا ، حولوا أنفسهم إلى جمهورية هولندية ، وتحول المستعمرون الإنجليز في أمريكا الشمالية — عام ١٧٨٣ — إلى جمهورية للولايات المتحدة ، وعندما أنشأ رجال الثورة الفرنسية جمهورية

فرنسية ، عند ذاك تسمى كثيرون منهم بأسماء عتيقة، حتى أن نابليون سمى فترة قصيرة ، بـ « القنصل » .

ولقد يكون حكام جمهورية ما أقوى، فعلاً ، من ملك من الملوك. والفرق الكبير هو أن تغيير الحاكم فى حكومة جمهورية — بدون حرب أو ثورة — أسهل ، فهناك تقاليد لتغيير الحكام تغييراً سلمياً .

ولكن هناك طريقة أخرى لتشكيل حكومة ما. وهى من وحى أرسطو، ذلك الإغريقى البالغ الحكمة الذى كان مؤدبَ الإسكندر . لاحظ أرسطو أن المدن قد يحكمها رجل واحد ، أو رجال قليلون، أو المواطنون جميعاً. وأسمَى الأولى «حكومة ملكية» ، والثانيةَ « إرستقراطية » (أى حكومة الأعيان) ، والثالثة « نظام الدولة» التى نفضل أن نسميها « ديمقراطية » . والديمقراطية هى ذلك النوع من الحكومة الذى فيه يتعاون الرجال جميعاً والنساء جميعاً ليسيّروا الأمور لمصلحة الجميع . (وهذا، بطبيعة الحال ،أسهل فى القول منه فى العمل) .

وعلينا أن نتذكر دواماً الفرقين الكبيرين بين السياسة عند الإغريق والرومان الأقدمين وبينها عندنا . فى العهود البائدة كانت كل مدينة تحكم نفسها ، وكانت الدولة دولة مدينة واحدة مثل أثينا وكورينثوس وروما . أما اليوم فالدول دول أمم مثل أسبانيا والدانمرك . وفى دولة المدينة لا يشق على كل الناس أن يقوموا بقسط فعلى فى الحكم ،ففى وسعهم أن يذهبوا جميعاً إلى المكان الكبير الذى تعتمد فيه الاجتماعات العامة. أما فى دول الأمم ،فى أيامنا، فلا سبيل إلى المشاركة فى الحكم إلا بانتخاب ممثلين يحكمون باسم مواطنيها.

والفرق الثانى هو أنه — فى العهود القديمة — كان العبيد يقومون بالعمل الشاق الدنىء . أما اليوم فيقوم به رجال أحرار . وواحدة من معضلات اليوم هى مَن الذى عليه أن يقوم بالعمل الشاق وما شروط ذلك ؟

ووقتما سقط نابليون ، وسقطت معه إمبراطوريته ، كانت حال بعض الممالك الغربية قريبة الشبه بها الآن ، مثل بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وهولاندا ، والنرويج ، والسويد ، والدانمرك . وكانت هنالك أيضاً روسيا ، وكانت لها حكومة ملكية قوية مركزها موسكو وسنت بطرسبرج (لنينجراد) . وكانت بها أصقاع شاسعة لم تُستكشف تترامى فى آسيا إلى مدىً بعيد .

وكذلك كانت هنـــالك إمبراطوريتان عظيمتان تلاشتا ، هما : (١) الإمبراطورية النمسوية المكوَّنة من النمسا والمجر و بوهيميا ، ومن بعض الأقطار السُّلافية . (٢) الإمبراطورية التركية التى ضمت البلقان (بلاد الصرب والبلغار والرومان واليونان) وآسيا الصغرى والجزيرة العربية والشام وفلسطين ومصر .

ولم تكن هناك أمة ألمانيا المتحدة ، ولم تكن هناك مملكة إيطاليا ، إذ أن إيطاليا وألمانيا لم تكونا غير اسمين لمنطقتين .

وكان ملوك البرتغال يحكمون البرازيل ، وملوك أسبانيا يحكمون سائر أمريكا الجنوبية . وكانت بريطانيا العظمى تُسيطر على البحار . وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أمة فتية حرة وراءها قارة ضخمة تتطلع إلى الاستقرار والإنتاج .

وكانت غالبية الدول يحكمها ملوك بغير دستور أو تحكمها جماعات من الحكام لا تتبدل ، كأولئك الذين يُسيِّرُون شئون النوادى والجماعات التى تحتفظ بأعضائها دواماً . وعلى هذا كانت غالبية الحكام تعمل ما يروقها على صورة ما . وكان لإنجلترا دستورٌ غير مكتوب ، دستور قوامه

العرف والعادة . وللولايات المتحدة دستور مكتوب أو اتفاقية عقدها المواطنون فيما بينهم تنص على الأسلوب الذى يودون أن يحكموا بمقتضاه .

السياسة : الحرية :

اجتمع فى ڤينـّا : الأباطرة والملوك والدوقات والكونتات من كل الممالك لينظموا شئون أوربا بعد خمسة وعشرين عاماً قضتها فى الحرب والجلبة . وظل ذلك المؤتمر الجذلان المتألق سنتين — ١٨١٤ و ١٨١٥ — يبحث فى تعديل خريطة أوربا . وكانت المدينة الإمبراطورية مركزاً للولائم وحفلات التسلية والرقص والاستقبال وصيد الخنزير البرى ، وأخذ أهل ڤينا يرون — اليوم بعد اليوم — صانعى السلام الأرستقراطيين الرفيعى القدر : إمبراطورهم ذا الشعر الأبيض الهش الواهن ، وملك بروسيا الطويل ، وملك الدانمارك القصير ، وقيصر جميع الروس البهيج الهيئة ، والوزراء : ولينجتون العسكرى المتصرف الحاسم الأمور ، واللورد كاسلرى المتباعد المتزمت الذى يثقله الهم ، والكونت ميترنيخ الوسيم المجامل ، وتاليران الرجل الفرنسى الذى يفوقهم جميعاً فى الحذق والذى كان أسقفاً قبل الثورة والذى انتصر على كل احتمالات السياسة الفرنسية وتقلباتها . ولهذا الحذق يرجع الفضل فى أن المؤتمر عدّ فرنسا المنهزمة دولةً كبرى وأعاد إليها النظام الملكىّ تحت تاج لويس الثامن عشر أخى لويس السادس عشر . وكان لويس الثامن عشر — البدين المستهتر — منفياً بإنجلترا .

ولم يُثَر موضوع حقّ الشعوب فى حكم أنفسهم أو فى التحرُّر من حكم الأجنبى . وقصارى ما استرعى اهتمام القيصر إسكندر والكونت ميترنيخ هو أن أفكار ١٧٨٩ الحرة يُنظر إليها كأنما حدثت فى القمر . غير أن الناس فى كل بلد صبَوا إلى التحرّر من القوانين الجائرة

والضرائب والاستبداد ومن خوف السجون المظلمة والمشانق ورغبوا فى دستور يؤمنهم على حياتهم . وكانت الحرية تملأ هواء كل مكان إلا فينا . فهناك أعاد الأرستقراطيون رسم الخريطة . ولم يتمكنوا من إعادتها إلى حالها فى سنة ١٧٨٩ ، ولكنهم ساروا فى تلك السبيل ما واتاهم الجهد وصنعوا كلّ ما وسعهم ليؤمنواها للملوك ، أى لإمبراطورى النمسا وروسيا وعواهل بروسيا وفرنسا ويحولوا دون اشتعال ثورات جديدة .

وقتلوا بولندا . ذلك أن تلك المملكة الشهمة الشقية التى سبق لنابليون أن وعد يبعثها ، دفنوها هم مرة أخرى تحت روسيا والنمسا وبروسيا . « كل امرىء له وطنه إلا البولندى فوطنه قبر » . وهذه العبارة المرة التى قالها بولندى وطنى منفى ، ما تزال تصدُق حتى يومنا هذا .

ولكى يضع المؤتمر العراقيل دون حدوث أية متاعب من ناحية الفرنسيين أعطى منطقة بلاد الراين الغنية التاريخية إلى ملك بروسيا الذى خطا الدويلات الألمانية — بناء على هذا — من الشرق إلى الغرب . وتجمعت الممالك والدوقيات الألمانية الأخرى — التى انخفض عددها إلى ٣٩ — فى « رابطة » أو اتحاد خاضع لتوجيه النمسا . تخلت النمسا عن أراضيها الواطئة (بلجيكا الحديثة) لهولاندا ، ولكنها كوفئت بالسيادة على شمال إيطاليا .

وبقيت « إيطاليا » اسماً لشبه جزيرة . وفى الجنوب قامت مملكة نابولى وصقلية المحكومتين حكماً سيئاً ، وفى الوسط أملاك البابا — تحت أسوأ حكم فى العالم — ، وفى الشمال الغربى الدولة الصغيرة الواقعة فى سفوح الجبال (بيدْمونت) يحكمها ملك سردينيا وسافوى .

وتمت أعمال المؤتمر بنيّة استدامتها . ولم يكن ذلك من المرجح لأن

نسمات الحرية كانت تهب فى صدور الناس هبوب الرياح التى حركت الغابات التى فيها كانوا يلتقون ليتآمروا على إشعال الثورة وليشكلوا جمعيات سرية من الوطنيين ، ومهروا عهودهم بطقوس دينية مقدسة . وكوّن طلبة الجامعات الألمانية جمعيات سياسية . وكان الوطنيون فى إيطاليا يسمون أنفسهم : مشعلى الفحم « الكربونارى » . وقد شاركهم المواطنون والعمال والأعيان والشعراء والجنود المرتزقة الخشنون . وكان مجرد الانتساب إلى جمعية سرية يعد جريمة ، وكان العمال الزراعيون المقيمون فى إنجلترا يُنْـقَلون إلى أستراليا على أنهم مجرمون لا لشىء إلا لأنهم اجتمعوا سراً كى يتدارسوا كيف يحتمل أن يحصلوا على أجور أعلى .

ومهما يكن من شىء فإن الانتصارات الأولى التى كسِبت باسم الحرية لم تُـكسَب لا فى إيطاليا ولا فى ألمانيا وإنما كُسِبت فى تركيا وفى الدنيا الجديدة .

وكان من بين رعايا السلطان المسيحيين : الصربيون الذين احتفظوا بنزعتهم الحرية فى التلال البلقانية ، وقامت أولى ثوراتهم عام ١٨٠٤ . وبعد حرب طويلة الأمد ، وإن تكن غير متتابعة ، كسبوا حق استقلالهم وتملّك عليهم أمير من جنسهم . وفوق ذلك عطف عليهم الروس لأنهم إخوان فى السلافية . وكان الروس جيران الأتراك ومنافسيهم فى البحر الأسود ، والقيصر يعد نفسه حامى مسيحيي تركيا جميعاً . وكان هذا صدى النزاع القديم بين الصليب والهلال . وفى سنة ١٨٢١ ثار على السلطان شعب أكثر شهرة وهم الإغريق الذين علّم أسلافهم الناس كيف يجمعون بين الحرية وحياة التمدن . وشكلوا هم أيضاً — أسوة بوطنيي الغرب — جمعيات سرية عرفت باسم « أصدقاء اليونان » . وشبت الحرب ضارية ، إذ أن الإغريق الحديث عديم الرحمة كأسلافه الأقدمين . فقتل فى (شبه جزيرة) المورة أكثر من عشرين ألف تركى . واقتص الأتراك لأنفسهم باضطهاد

اليونان ، وبخاصة فى (جزيرة) شيبوس . وحدث أن شهرة الإغريق سحرت الغربيين الذين تنسموا فى صباهم حكايات ليونيداس وبركليز ، وشارك متطوعون كثيرون من الغرب فى حرب استقلال اليونان ، تذكر منهم الشاعر لورد بايرون .

تطل الجبال على ماراثون(١) ، وماراثون تطل على البحر ،
وبعد ما استغرقت هناك ساعة فى التأمل — وحيداً —
حلمتُ أن اليونان أيضاً قـــد تكسب حريتها .

وقد ظفر اليونانيون بأحلاف أقوى من المتطوعين . إذ أنه عندما أرسل والى مصر التركى جنوده إلى المورة ليخضعوا الثوار تصدت السفن الحربية الإنجليزية الفرنسية — يقودها الأميرال كودرينجتون — للبحرية المصرية ، فى خليج نافارينو ، ونسفتها . وهجم جيش روسى من الشمال . وهكذا اضطر الأتراك إلى إعطاء اليونانيين حريتهم ، وأصبحت اليونان مملكة مستقلة .

وعلى بعد آلاف من الأميال ولدت أمم جديدة . . . عندما احتل نابليون أسبانيا والبرتغال ، قطعت المستعمرات البرتغالية والأسبانية الصلة بهما . وأصبحت البرازيل إمبراطورية مستقلة عن البرتغال واحتفظت باستقلالها وتحولت بعد ذلك إلى جمهورية . وثارت المستعمرات الأسبانية فى الأعوام القليلة التالية لسنة ١٨٢٠ وحصلت جميعاً على استقلالها . وكان أعظم قوادهم : سيمون بوليفار ، وكان أشهر متطوعى الإنجليز والفرنسيين الكثيرى العدد الذين ساعدوهم : لورد دندونالد وهو بحار من صنف

---

(١) ماراثون اسم بلدة فى اليونان . والماراثون سباق (مداه ٢٦ ميلا و ٣٨٥ ياردة) أخذ به إحياء لذكرى العدائين الذى عدوا من ماراثون إلى أثينا يحملون نبأ انتصار عام ٤٩٠ ق . م .

نلسون . وقد ظلت أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى أسبانيتين أكثر من ٣٠٠ سنة ، وخلفت أسبانيا طابعها الثابت على القارة كلها من حيث الجنس والدين واللغة . وقد ظهرت فى الوجود بعد ذلك جمهوريات : باراجواى وبوليفيا والأرجنتين وبيرو وشيلى وإيكوادور وكولومبيا وفينزويلا والمكسيك وجواتيمالا مقتسمةً فيما بينها قارة ذات ثروة ومساحة يصعب تصديقهما . وباستثناء كندا ، تحررت الدنيا كلها من تبعيتها للممالك القديمة فى أوربا .

وفى الفترة التى فيها عقدت سيادة البحار لبريطانيا كانت الدنيا الجديدة أبعد من أن تصل إليها الحراب النمسوية والفرنسية . أما إيطاليا وأسبانيا فلم يكن هذا شأنهما : عندما ثارت الفتن فى هذين البلدين دخل جيش نمسوى نابولى وجيشٌ فرنسى أسبانيا ، وسحقاهما . وأطفأ النمسويون كذلك تمردات فى لومباردى التى استثارها مشعلو الفحم والتى ألقى بكثير من زعمائهم فى سجون النمسا المظلمة .

وفى يوليو من سنة ١٨٣٠ ثار عصيان ، فهرب الملك الفرنسى إلى إنجلترا وحل محله ابن عمه لويس فيليب الذى كان أكثر انعطافاً إلى الأفكار الديمقراطية . وقد أثار هذا العصيان الناسَ إثارة عنيفة فى كل مكان . فقامت تمردات فى البرتغال وپولندا وألمانيا وإيطاليا ، أخفقت جميعها . فلقد لجأت الفرق النمسوية فى إيطاليا إلى منتهى القسوة فى قمع الثوار وبخاصة فى أملاك البابا . وكان من بين الوطنيين الكثيرين الذين نُفوا : جويسيبى ماتزينى الذى كرس حياته ـ منذ كان طالباً ـ إلى قضية استقلال إيطاليا والذى أصبح نبى إيطاليا قوميةً ، حريةً ، ديمقراطية .

ولم يثمر العصيان إلا فى البلاد الواطئة . فهناك ثار أهل الجنوب على

الحكام الهولانديين وأذنت لهم الدول الأوربية فى أن يقيموا مملكتهم البلجيكية التى نعرفها الآن والتى استعارت اسمها من شعب «البلچى» الباسل الذى اشتهر فى عهد قيصر .

وكانت الصرب واليونان وجمهوريات أمريكا الجنوبية وبلجيكا من ثمرات الحرية . ففى عهود أسر أوربا القديمة كان الكثيرون من الرجال البواسل ما يزالون يكابدون من ضياع حرياتهم ، إذ أن الملوك كانوا يحرصون على نظام أملاكهم وأمنها لمنع الثورة . وقد مات لورد بايرون عام ١٨٢٧ ولكن كلماته تصلح للإشارة إلى السنوات القليلة التى تلت ١٨٣٠.

«ومع ذلك : فالحرية ! ومع ذلك فإن الراية ، وإن تمزقت ، ستظل تقابل الريح بتيارات كالعاصفة الراعدة » .

السياسة : أم البرلمانات :

شكل الرجال الذين أسسوا الولايات المتحـــدة الأمريكية ، شكلوا حكومتهم على نموذج الحكومة البرلمانية البريطانية ، وكانت فى نظرهم خير حكومة أخرجت للناس . هذا وإن صح أن مجلس العموم البريطانى كان ، عندئذ ، فى حاجة إلى الإصلاح بل ظل فى حاجة إليه بعد ذلك بخمسين سنة . فكثير من المدن الانتخابية -التى تبعث بنواب إلى مجلس العموم- كان كفورا (أى قرى صغيرة) لا يعتد بها . مثال ذلك : كانت كل من أولد ساروم — و — جاتون ترسل نائبين ليمثلا حفنة من الناس . وكانت أماكن كهذى تسمى — على سبيل الفكاهة — « المدن الانتخابية العفنة » . وكانت أماكن أخرى — قليلة عدد الناخبين — مثل تافستك التى لا يتميز فيها أكثر من عشرة رجال — كانت هـذه الأماكن الأخرى فى « جيوب » كبار اللوردات الذين يؤجرون الناخبين ليرسلوا إلى مجلس العموم نواباً يختارونهم

هم من الأبناء والأقارب والتابعين . والنتيجة أن غالبية أعضاء مجلس العموم كانوا يعتمدون اعتماداً كلياً على « مناصرين » فخام فى مجلس اللوردات .

إلا أن ذلك لم يكن كل شيء . فلقد تفكه كاتب روائى سنة ١٨١٧ بالكتابة عن (« مدينة « لاصوت » الكبيرة الآهلة بالسكان الواقعة بالقرب من مدينة « صوت واحد » الانتخابية العتيقة المكرمة) . وكانت هنالك طائفة كبيرة من مدن « لاصوت » نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : منشستر ، هاليفاكس ، ليدز ، شفيلد ، برمنجهام ، وكانت تلك مدناً تغص بالسكان وتنمو نمواً سريعاً بفضل الصناعة والتجارة اللتين أخذتا تنموان فى أواخر القرن الثامن عشر . وفيما بين ١٧٨١ و ١٨٣١ تضاعف عدد سكان الجزيرة ، وكان أكثر الزيادة فى مدن « لاصوت » ، تلك التى لم يكن لها — بناء على ذلك — أى رأى فى حكم البلاد . ومن بين نحو الخمسمائة عضو من أعضاء البرلمان كان نحو سبعين ينتخبون عن بلاد لا تكاد تضم ناخبين على الأطلاق . وهذا النوع من الانتخابات الهازلة التى جرت فى المدن الانتخابية وصفه دكنز فى كتابه « مذكرات بكويك » عندما تكلم عن حوادث يوم الاقتراع فى إيتانزويل .

ولكى ننصف أسلافنا يجب أن نقرر أن الكثيرين تنبهوا إلى تلك الأحوال السخيفة وطلبوا علاجها وذلك قبل شبوب الثورة الفرنسية . وقد دفع جنونُ دهماء الفرنسيين الوحشى ، دفع حكام بريطانيا إلى التخوف من أن يعطوا أى امرئ أى قدر من السلطان . وبطبيعة الحال كان فى تلك الجزيرة متهورون ممن يظنون أن النموذج الفرنسى يجب أن يحتذى . غير أن الحروب الطويلة سببت الكرب والتعطل بين العمال الزراعين وغيرهم فارتفعت ضجات الشغب وحرقت أكداس

الغلال ومخازنها ونهبت المتاجر ، وتحتم على القوات المسلحة أن تفـــرق محدثى الشغب، وأخذ رجال متوحشون يتحدثون عن «جمعية الأمن العام» وفيما كانت التجارة تستعيد رواجها تدريجاً تحول ذاك الهياج إلى المطالبة بإصلاح البرلمان . وفى ١٨٣٠ قامت طائفة من أعضاء البرلمان تحبذ الإصلاح. وفى ١٨٣٠ باتت البلاد مهددة باحتمال اندلاع ثورة . وفى تلك السنة حوكم ما لا يقل عن ٧٠٠ رجل فى ونشستر بتهمة التمرد . عندما رفض البرلمـان فى ١٨٤١ مشروع الإصلاح الذى تقـدم به لورد جراى تجدد الشغب فى ضراوة بالمقاطعات الداخلية . وفى بريستول بدأت الدهماء تحرق المدينة . وفى آخر الأمر أذعن دوق ولنجتون وحزبه وأشاروا على وليم الرابع بأن يوقع اللائحة . وألغيت مدن « انتخابية » متعطنة ومدن بالغة الصغر عددها ١٤٣ ووزعت مقاعدهم من جديد بين المدن الصناعية الجديدة . وفى الوقت ذاته رخص لـكل مدنى يدفع إيجـــاراً سنوياً قدره عشرة جنيهات أن يدلى بصوته . وكذلك أجرى إصلاح بالولايات الأقليمية .

وعلى هذا النحو ، عندما كان وطنيو أوربا يضجون بطلب التحرر من الاستبداد ، أصلحت أمُّ البرلمـانات نفسها ، أو بعبارة أصح أخذت تصلح نفسها ، وذلك لأن العملية استمرت. ووفق على لوائح إصلاحية أخرى (فى ١٨٦٧ و ١٨٨٥) تعطى حق التصويت لأغلب من بلغوا سن الرشد من سكان المدن والقرى . والقيمة الـكبرى لهذا واضحة ، وهى أن أية حكومة لا يقبلها الجمهور يمكن تغييرها عندما يأتى وقت الانتخابات التالية .

والبرلمـان الإنجليزى هيئة قديمة ترجع إلى عهد إدوارد الأول وهو الملك الذى نادى بأن « ما يمس الجميع ينبغى أن يوافق عليه الجميع » . ولـكن علينا أن نتنبه إلى تبدل طرأ على فكرة التمثيل البرلمانى . فى القرون الوسطى كان فارس المدينة الانتخابية (أى عضو الإقليم) يمثل كل فرسان المدينة الأخر أو المزارعين ذوى الأهمية ، أى الرجال الذين يمـاثلونه تمـاما .

وبالمثل كان المواطن الحر (أى ساكن المدينة) يمثل كل المواطنين الأحرار فى بلدته ، ذوى المال أو المهنة ، الذين يماثلونه. أما الآن فنظراً للنمو الكبير فى عدد السكان فإن عضو البرلمان إن هو إلا رجل طيب يختار ليمثلهم ، لا لأنه يماثلهم بل ليبذل جهده فى الإسهام فى حكم البلاد . فللمقاطعة أن تنتخب غنيـــاً من أصحاب الأراضى وللمدينة ذات الدائرة الانتخابية أن تنتخب غنياً من رجال المـال .

كان القرن التاسع عشر عصر البرلمان الزاهر . ولم يكن من الأهمية بمكان أن قوة البرلمـان كان يؤمن بها الجميع إيمـاناً كبيراً ، وأن سمعته كانت بالغة العلو بل كان من أهم ما يستدعى اهتمام كل العمال هو الصوت فإذا تم لهم هذا اطمأنوا إلى أن كل مايرغبون فيه آت ٍ بعد ذلك . وهذا ، يقيناً ، مثـل من الإيمان الذى لم ينفك يراود أهل الجزيرة فى أن يجتمعوا ويناقشوا متاعبهم — بتعقـُل — دون أن يذهبوا بعيداً فى العمل على تحقيق مطالبهم ولكنهم على استعداد للأخذ والعطاء .

على أن إصلاح مجلس العموم تلاه إصلاح أكثر لزوماً وهو إصلاح الحكومة المحليـة للحواجز والمدن ذوات الدوائر الانتخابية : الأول فى ١٨٣٥ والثانى فى ١٨٨٨ . فبدلاً من أن تتصدى جماعات صغيرة من الناس — ينتخبون جزافاً أو ينتخبون على يد أنفسهم وأصدقائهم — لتسيير دفة الأعمال بدلاً من هذا ظفرت الحواضر والمدن ذوات الدوائر الانتخابية ، بمجالس نظامية منتخبة .

الاختراع : المهندسون :

منذ البداية أخذ الناس يغيرون ما يحيط بهم، بالعمل الطويل الأناة . فمهدوا سفوح الجبال للكروم، وأزالو الغابات ، وصرفوا ماء المستنقعات، وعمقوا

مجارى الأنهار ، وبنو أرصفة البحر ، وأقاموا الأبنية الأثرية من الطوب والحجر ، وشيدوا المدن ، ومدوا الطرق عبر القارات .

ولم تتعرض الدنيا قط لتغييرات جارفة كتلك التى بدأت حول سنة ١٧٦٠ والتى يرجع الفضل فيها إلى المهندسين .

فالمهندس يبتدع اختراعات تستلزم الحذق والبراعة . وتبدو براعته — أكثر ماتبدو — فى البناء ، وإقامة الجسور (الكبارى) واحتفار الخنادق ، وشق الأنفاق ، واستخراج محتويات المناجم ، وصناعة المعادن . ولقد كان من أسلافه : كل أبناء الصنعة الدهاة ، وبخاصة مقيمو الطواحين وصانعى الساعات وجيش الحدادين والسباكين والصياغ القدير ، إذ أن عمل أولئك يعتمد على المقاييس الصحيحة وبالتالى على العلوم الرياضية . وهو يعتمد كذلك على طبائع المواد وبالتالى على الطبيعة والكيمياء . فأرباب المهن والمشتغلون بالرياضيات والعلوم، رواده . ذلك أنه يتلقى معلوماتهم وحذقهم ويهيئها للمزاولة العملية ، فيطوّع الخشب والصخر والمعدن لتخطيطه . فهو إذن المهندس الأعظم لصناعات الإنسان .

وأدواته — هى نفسها — آلات بارعة . خذ مثلا : المَنشر (معمل نشر الخشب) والمخرط الآلى (آلة ميكانيكية لخرط الخشب والمعادن) والمطرقة البخارية — وهذان تحركهما قوة سقوط الماء — والبخار المتمدد ، والغازات المفرقعة ، والدفع الكهربائى . وهذه الآلات وأشباهها أسرع وأقوى وأرق من الأدوات اليدوية ، مائة مرة .

وقد قضى عمل المهندس على الطراز القديم من جمعيات الصناع والفلاحين ، إذ أن آلاته تحتاج إلى تعاون دقيق منظم من الكثيرين وكانت الدنيا القديمة تستخدم العبيد وليس فى وسع المهندس أن يفعل هذا فى مدنيتنا المبنية على حرية الناس جميعاً . ومع هذا فضمان المعاونة الصادقة من جموع المواطنين

الأحرار تحير أحياناً ، إذ أن آلات كثيرة تحتاج إلى استخدام الرجال والنساء ، كأنهم جزء من الآلة ، ليكرروا بضع حركات عضلية بسيطة ، المرة تلو المرة واليوم بعد اليوم : ومع هذا فقد يشعر المهندس نفسه — فى العمل الذى يخصه — بنشوة صاحب المهنة اليدوية. غير أن الذين يهتمون بشئون الآلة يقضون الأيام الطويلة فى القيام بأعمال، إذا قيس بها تخريط الخشب ودهن الحوائط عد مثيراً جداً .

الاختراع : الطرق والقنوات :

بعد ما ألقى الفوج الرومانى الأخير مجادفه لم تحظ طرقات بريطانية قط بعمل نافع فى مدى يزيد على الألف عام . وكانت قطعان من الماشية تطأ الدروب إلى الجسِّات (أى الأراضى الرخوة اللينة) وفى الصيف كان الحجاج والباعة المتجولون يسيرون على أقدامهم فوق الأخاديد أو على ظهور الأفراس الصغيرة والكبيرة . وفى الشتاء يقبع الناس فى بيوتهم ولا شىء غير ذلك . وفى بعض النواحى لم يكن بد من استعمال أعمدة خشبية تحدد مسرى الطريق العامة ، إذ كثيراً ما صعب التمييز بينها وبين الحقل المحيط بها . وكانت الرحلة بين يورك ولندن تستغرق أسبوعاً . ولئن كان سويفت نكس قد قطعها فى يوم أو نحوه — فى ١٦٧٦ — فهو قاطع طريق متعجل . وقد قالت « مجلة الأماجد » (جنتلمانز ماجازين) فى ١٧٢٥ إن الطرقات المؤدية إلى الغرب كانت « كما تركها الله بعد الطوفان » ، تغطس الأقدام فيها ، فى الوحل السميك شتاء وفى التراب السميك صيفاً .

والمدنية تعتمد على طرق النقل الجيدة . وعندما بدأت لندن — بعد ١٧٠٠ — تمتد وتتسع كانت الطرق تغص بالغنم والثيران والإوز ، وهى جميعاً فى طريقها لتطعم العاصمة . وبعد سنة ١٧٠٠ بفترة وجيزة أخذت الشركات المتحدة — المكونة من أفراد المواطنين — تصلح رقعاً مستطيلة من الطريق العامة وتنفق على العمل من المكوس التى تجبيها من كل الركاب

عند بوابات المكوس المقامة عبر الطريق. وإلى أن جاءت سنة ١٨٣٧ وجد من تلك الجمعيات المتحدة ما يربو على ١١٠٠٠ ، وقد تفاوتت كفاياتها فى العمل، على أنها استخدمت فعلاً بعض مهرة مهندسى الطرق . وأكثر أعمال توماس تلفورد مدعاة للفخر : طريق هوليهد والجسر المعلق فوق بوغاز ميناناى ، اللذان شيدهما . وقد أطلق جون ماك آدم اسمه على نوع من الطرق سطحه من الحجارة الصغيرة المتعددة الزوايا ضغط بعضها إلى بعض ضغطاً قوياً حتى صارت كتلة صلبة . وبسبب هذه التحسينات أفسحت المركبة الثقيلة القديمة المدلاة على أشرطة جلدية ، أفسحت مكانها لمركبات السفر العامة المركّبة فوق زمبركات من الصلب ، وكانت أخف وأسرع . وفيما بين ١٧٦٠ و ١٨٤٠ اتصلت أهم المدن — بعضها البعض — بعربات : التاليهو والنمرود وومضة البرق ، وكلها ملونة بألوان زاهية وتجرها مجموعات من الخيل تتبدل عند كل مرحلة . وكان الشتاء — بطبيعة الحال — يسبب خللاً فى المواعيد المحددة القيام والوصول ، ويسبب انقلاب العربات فى بعض الأحيان . وعندئذ كان أقوى الركاب هم وحدهم الذين يستطيعون تحمل السياحة على المقاعد الخارجية . وهنالك حكايات بشعة عن ركاب مثل أولئك وجدوا — فى آخر المرحلة — ميتين من البرد .

ودفع بطء حاملى البريد (٤٠ ساعة بين باث ولندن) شخصاً اسمُه جون بالمرَ إلى اقتراح تسيير مركبات كبيرة للبريد والركاب تسييراً منظماً وقد وصلت الأولى — فى ١٧٨٤ — إلى برستُول فى ١٥ ساعة . وأصبحت مركبات البريد الملكى خبراً يتحدث عنه : مركبة فاخرة — تقرقع عبر بوابات المكوس التى تفتح بمجرد سماع بوق البريد — تمر فتلوح لها القرى وتهتف .... « الدقة المطلقة فى جميع مواعيد المركبات وفى عدة الخيل وقوتها ونظافتها وبساطتها الجميلة . ولكن ربما يكون الشىء الذى يسترعى الانتباه، أول الأمر أكثر من غيره ، ربما يكون فخامة الخيل وأبهتها » . هذا ما كتبه

توماس دى كوينسى عن عرض مركبات البريد الفخم قبل أن تنطلق من شارع لومبارد إلى أهم مدن المملكة .وإلى أن حلت سنة ١٨٣٥ كان يقوم بالعمل أكثر من ٧٠٠ مركبةبريد وآلاف من المركبات التى تستخدم حشوداً من السواقين والحرس وصغار الخدم وسواس الخيل ممن يقومون على خدمة الاصطبلات فى مئات من الفنادق .

وعهد مركبات الركاب والبريد كان كذلك عهد القنوات ١٧٦٠-١٨٤٠ .

والنقل المائى سهل رخيص . وفى مـــدى فترة طويلة كانت سفن الشواطىء - التى تنقل الفحم - تحمل الفحم من التاين والتيمز ، وما زالت تفعل . وقناة لانجدوك الطويلة - التى تصل مابين خليج بسكاى بالبحر الأبيض - هى التى أوحت لدوق بردجووتر بفكرته فى قناة تحمل الفحم من مناجم المعادن التى يملكها فى وورسلى - و - منشستر . وقد استعان بـ . . . جيمس برندلى - وهو من مقيمى الطواحين النابغين - فى تخطيط مشروعه . وعندما انتهت القناة فى ١٧٦١ هبط ثمن الفحم فى منشستر إلى النصف وحدث جنون حقيقى فى احتفار القنوات ، تصل نهراً بنهر وبلدة ببلدة . والآن يستطيع چوسيا ودجوود أن يصنع ويبيع خزفه ، المصنوع فى ستافورد شاير ، دون أن يخشى من عدم تسليمها سليمة . ولم يعد ملح نورذتش فى حاجة — بعد — إلى أن يحمل على ظهور خيل النقل على طول « طرق الملاحات » . ولقد ذهبت أقطان منشستر وأصواف يوركشير رزماً رزماً على سفن النقل . وصلصال الصينى والطوب ، والبضائع الحديدية ، والخشب ، والفحم أصبحت سهلة النقل ، الآن بعد أن اتصل (نهرا) السفرن والتيمز بداخلية البلاد وبعد أن اتصل كل منهما بالآخر . وفتحت لندن — وهى أكبر الأسواق — لصناعات البقاع الوسطى والشمالية الآخذة فى الانتشار . وقد حمل بعض القنوات (صنادل) الركاب . ونقلت الحكومة عليها جنوداً . وقامت البيوت والمصانع على

طول شواطئها . وهناك انفتح الأمل بقيام مدنية قنوات : مدنية نشيطة غنية ، عامرة هادئة . وإلى أن حلت سنة ١٨٣٠ انزاح جنون الاحتفار ، على أن أوسع طريق مائية — وهى كاليدونيان كانال (القناة الخالدة) التى خططها تلفورد — احتفرت ما بين ١٨٠٤ و ١٨٢٢ . ومن سوء الحظ أن القنوات كثيرة الاختلاف عمقاً وعرضاً ، وأن أصحاب السفن الذين استخدموها غلب عليهم الطمع ، فى الأجور ، وعدم الدقة فى المواعيد . ومازال أحسن القنوات يستعمل حتى الآن . والخرائب الجميلة المنظر التى بقيت ، من القنوات الأخرى ، تمكن رؤيتها فى رقع طويلة من الماء الآسن ، والعشب النامى ينتشر فيه الزنبق والسوسن وتأوى إليه الطيور المغربية .

وفى العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣٠ — ١٨٣٩) كان المهندسون يجهزون لوسيلة أخرى من وسائل النقل السريع : قطار سكة الحديد البخارى الذى يعتمد على الفحم والحديد وتقدم الهندسة الميكانيكية .

الاختراع : الفحم ، والحديد ، وقوة البخار :

خير مايصف الكيفية التى بدأ المهندسون بها تغيير هيئة حياة الإنسان هو بيان موجز لما نسميه «الثورة الصناعية» التى حدثت — أول ماحدثت — فى بريطانيا والتى تركزت حول استخدام الفحم والحديد .

منذ ملايين من السنين نبتت غابات وتلفتْ فى المستنقعات الراكدة ، واختفت — تحت سطح الأرض — طبقات من الشجر المتعفن المهروس تحت ثقل البحار التى تكونت فيما بعد وثقل الصخور المترسبة . ومن هذه الأحداث الجسيمة البطيئة — فى الزمن الجيولوجى — بقدر لا سبيل إلى تصديقه — جاءت عروق الفحم الذى اعتمدت مدنيتنا عليه .

واستخراج الفحم مهنة عتيقة . وقد ظلت مسألة محلية أجيالاً طويلة ، فقد كانت المناجم قليلة الغور بسبب فيضان الماء . وكانت أحمال الفحم أثقل وأكبر حجماً من أن تنقل إلى مسافات بعيدة . وكان فحم شواطىء (نهر)

التاين ينقل إلى لندن فى السفن التى تسبح على طول سواحل البحار ولهذا كان يسمى «فحم البحر» . وعندما احتفرت القنوات سبحت فيها «صنادل» الفحم . وكثيراً ما بنى أصحاب المناجم سككاً حديدية لمركباتهم التى تنقل الفحم لكى تجرى فى سهولة من المناجم إلى المرفأ . غير أن المناجم ظلت مقصورة على عروق الفحم القريبة الغور وطبقاته السطحية إلى أن أتيح لها الحصول على «طلمبة» جيدة تمكنها من العمل غير متأثرة بفيضان الماء .

وقد استخدمت قوة البخار — وكانت معروفة لدى قدامى الإغريق وموضوعاً للتفكير المتطلع إلى الاستقصاء بين ذلك النوع من الناس الذين يرغبون فى « دفع الأشياء إلى الدوران » (مثل : صناع الساعات وبناة الطواحين وصناع الآلات) — استخدمت قوة البخار، أول ما استخدمت، لتسيير طلمبة على يد الحداد نيوكومن فى ١٧٠٥. وكانت ثقيلة تحتاج إلى صبى يفرج عن البخار بعد كل دفعة . ولكنها اشتغلت ودخل عليها التحسين وزادت المناجم عمقاً هوناً ما .وفى سنة ١٧٨٤ أضاف إليها جيمس وات — وهو صانع آلات علمى — مكثفاً مستقلاً يفرج عن البخار الزائد بعد أن يؤدى وظيفته فى دفع القضيب أو المدك (البستن). وأصبحت الطلمبة — على صورة ما — آلة بخارية ، على نحو معرفتنا بها . وبحيلة ميكانيكية بسيطة أمكن، فى يسر ، تحويل حركة الصعود والنزول الأفقية إلى حركة دوارة . وبعبارة بسيطة : استطاعت آلة (وات) البخارية أن تدير عجلة . وحتى ذلك الوقت كان العجل يديره الناس والكلاب والحمير والماء والريح .

واطردت الحاجة إلى مزيد من الفحم . فالمواقد الكبيرة التى كانت — فى الأيام الغابرة — تغذيها كتل الخشب ، وأساطيل السفن الخشبية ، والأبهاء المبطنة بالخشب ، والبيوت والأنبار (أى مخازن الحاصلات الزراعية) ، والطواحين ، وقطع الغابات لمقابلة مطالب الضيعات ، كل أولئك استهلكت الأحراج فى سرعة كبيرة . وشح نمو الغابات . وشح

الوقود وبخاصة فحم الخشب . وإلى أن حل عام ١٧٦٠ لم يكن يشتغل من الأفران العاصفة إلا القليل. ثم طرح البحث ، السؤال: هل يستطاع إحلال الفحم المستخرج من المناجم محل فحم الخشب فى صهر الحديد الخام ؟

ولقد كان كبار مستخرجي الحديد الأولون — فى البقاع الشاجرة ، مثل فلوات سسكس وغابة (دين) الملكية — يشتغلون عن كثب من منابع فحم الخشب الذى يملكونها . ومن أفرانهم — التى كانت تظل تتقد بحرارة عظيمة أياماً متصلة بفعل منفاخ هادر بدائى — درجوا على أن يصبوا الحديد المصهور فى قوالب كبيرة ترسل إلى المصهر (المسبك) . وهناك يقوم ذوو السواعد القوية بصهرها وطرقها : أحذية أو إطارات أو قضبان أو صنارات أو فؤوس . وحول سنة ١٧٠٨ استكشف إبراهام داربى — وهو صاحب مصنع حديد ينتمى (لطائفة الأصحاب المهتزين) استكشف أنه بإنضاجه الفحم أو بتقويمه ، يتسنى له استخدامه فى أفرانه العاصفة بدلاً من فحم الخشب . وقد حدث ذاك الاستكشاف إبان الحاجة إليه . وبدأ صاحب مصنع الحديد ينتقل إلى حقول الفحم بجنوب ويلز والبقاع الوسطى والشمالية ، وقد ترك خلفه — فى الغابات الأزلية — أكواماً من الفضلات كالتى نراها اليوم فى ويلد ـ و ـ دين (أى فى المرج والوادى الضيق) . وأخذت سلالات صانعى الحديد — الذين بدءوا العصر الحديدى — أخذوا فى بيئتهم الجديدة ، بين اللهب والبخار ، يكدحون فى خلق مدنيتنا الميكانيكية والحديدية الضخمة . وكان صناع الحديد هم يد المهندسين اليمنى . وأضافت سلسلة من الاختراعات والتحسينات معرفة إلى معرفة وحذقاً إلى حذق . وفى ١٧٦٧ ، فى كولبروكديل ، صبوا أول قضبان حديدية للسكك الحديدية التابعة لمنجم الفحم الحجرى وأقيم جسر (كوبرى) مصنوع من الحديد عبر منبع (نهر) السفرن . وخطط رجل فرناً فيه « ينعكس » اللهب أو يرتد إلى أسفل على كتلة المعدن الخام والفحم الكوك بينما تثار الأوساخ وتستخرج منها . وكذلك عرف كيف يحصر قطع الحديد المتوهجة التى لانت

وذلك بتمريرها فى أخاديد أسطوانية متدحرجة ، ليصنع قضباناً لسكك الحديد وأسياخاً . وحمّى رجل آخر الحديد بفحم الخشب فى بوتقات صغيرة ليصنع حديداً مضاعف الصلابة بنسبة كبيرة — وهو الفولاذ أو الصلب — حديداً يصلح للزمبركات وأدوات الطعام ويستخدمه حدادو النصال والشفرات فى شفيلد . ولقد كان أصحاب مصانع الحديد الأولون ذوى عقول خصبة . فالدكتور جون روبك (من كارون بأسكتلندا) لم يقتصر على صب المدافع البحرية الشهيرة (المدافع الكارونية) بل توصل كذلك إلى صنع مقادير عظيمة من حامض الكبريتيك .

هكذا بدأت الصناعة الثقيلة . لاحظ كيف أن الفحم والحديد تأثر كل منهما بالآخر ، وتفاعل كل منهما مع الآخر : فالفرن فى حاجة إلى فحم ، والمناجم فى حاجة إلى حديد لقضبان سكك الحديد والطلمبات والمحركات . وفيما بين ١٧٥٠و١٨٣٠ ارتفع مقدار الفحم المستخرج من المناجم من ٥ إلى ٢٥ مليون طن وارتفع إنتاج الحديد من بضعة آلاف إلى مليون طن .

وهذا التطور ، فى الحياة اليومية والعمل ، حدث فى البقاع الوسطى والشمالية . وكذلك حدث التغير الكبير فى مهنتى الغزل والنسيج القديمتين .

وفى مدى قرون ، فى بيوت المزارع وفى الأكواخ فى كل مكان ، كانت النساء غير المتزوجات يسحبن الخيوط ويغزلنها كى تطعمن الأنوال المهمهمة ولتصنعن قائمة النسيج الصوفى التى لا تدخل تحت حصر : الصوف المغزول للحياكة (الشيلل) ، القماش القطنى ذى الوبر ، القماش الصوفى الخشن ، الجوخ (وهو نسيج من صوف ناعم) وما إليها . لقد كانت صناعة يقوم بها أفراد الأسرة وإن حدث أن أغنياء التجار كانوا يقدمون الخامات ويجمعون الأقمشة المصنوعة فيها . وكانت ثروة الجزيرة قوامها الصوف . وبالمال العائد من بيع الأقمشة الجيدة ، بنى الورعون

من التجار الكنائس الجميلة فى أنجلترا الشرقية وفى جلوسترشير . وبالضرائب على الصوف أنفق الملوك على حروبهم . وكان تجار الصوف أرستقراط التجارة . وفى ١٧٠٠ كانت قيمة الصوف المصدر تعادل ربع مجموع ثمن الصادرات جميعاً وكانت أهم مراكز النسيج المقاطعتان الشرقيتان : جلوسترشير — و — يوركشير . أما الآلات التى بدلت صناعة النسيج فقد استخدمت — أول ما استخدمت — فى تجارة القطن الأكثر استحداثاً تلك التى جرت ، بصفة خاصة ، فى لانكشاير والتى كان القطن يستجلب لها من الشرق . ولم تكن الصناعة الجديدة قد استقرت استقرار صناعة الصوف ، فكان من السهل إدخال تغييرات عليها .

وكان النساج الواحد يستهلك إنتاج غزالين كثيرين . وعندما خطط جون كاى (مكوكاً) طائراً يزيد كثيراً فى سرعة المغازل كاد يتحتم على الغزالين أن يتخلفوا محزونين لو لم تسعفهم سلسلة كاملة من الاختراعات . وفى السنوات القليلة التى تلت ١٧٧٠ و ١٧٨٠ اخترع جيمس هارجريف — وهو تاجر من بلاكبورن — دولاباً للغزل يدير طائفة كبيرة من المغازل فى وقت معاً . واخترع رتشارد آركرايت — وهو حلاق من برستون — هيكلاً تسحب فيه الخيوط بين البكر قبل أن تجدل ، وكان هذا من دواعى تقويتها . وحول صمويل كرومبتون — وهو غزال من بولتون — أداة غزله الشهيرة إلى آلة غزل جمعت مزايا سائر الآلات . وهذه الآلات — التى تدور بالماء أو بقوة البخار — تضاعفت فى سرعة مذهلة . وجاء الآن دور النساجين فى أن يسايروا ، فى سرعتهم الغزالين ، وهذا ما استطاعوا تنفيذه بفضل مغزل آلى اخترعه قسيس اسمه أدوارد كارترايت . وفى منشستر وما حولها زاد عدد مصانع القطن من اثنين — فى سنة ١٧٨٠ — إلى ما يزيد على ٥٠ فى سنة ١٨٠٠ .

وهكذا خرج الغزل والنسيج من الكوخ وانتقل إلى المصانع ، وكذلك انتقل إليها الرجال والنساء ، وبدلاً من أن يشتغلوا كل الوقت فى بيوتهم

اشتغلوا كل الوقت فى أحد المصانع وإلى هنا كان النسيج عملا اختص به الرجال ، ولكن تبين الآن أن قدراً كبيراً من العمل البسيط الذى يساعد فى المحافظة على الآلة يمكن إسناده إلى النساء والأطفال . وكانت تجارة القطن — التى تجمعت بوجه أخص فى وست رايدنج بـ .. يوركشير ، حيث تكثر جداول الماء التى تدير العجلات — كانت تجارة القطن هذه أبطأ فى استخدام الآلة . ولكن فى ١٨٣٠ استعملت الآلة فى صناعة الصوف ، وفى مدى لا يزيد على حياة فرد تحولت الكثيرات من المدن ذوات الاستقلال الإدارى إلى مدن للصناعات الصوفية والقطنية تعتمد على المصانع اعتماداً تاماً . على أن هذا التحول لم يمر بسلام ، ذلك أن الاختراعات سلبت صناع الأكواخ رزقهم فحدثت مشاغبات فيها حطم النساج الساخطون الآلات . ولم يكن القتل غير معروف . فقد قُتل المشاغبون وعلقوا بأمر الحاكم . وفى الحق أن انتهاء عصر الناسج باليد كان حدثاً محزناً وفى الحق أيضاً أن الاختراعات الجديدة فى صناعة الفحم والحديد كثيراً ما دفعت فى طريق النجاح مع التغاضى المطلق عن سعادة الناس وصحة العمال .

وكانت آلات جيمس وات البخارية يصنعها ماتيو (متى) بولتون فى مصانعه بـ .. سوهو القريبة من برمنجهام . وما هو إلا القليل حتى أخذت آلات (بولتون — و — وات) تدير العجلات فى مصانع البيرة والمطاحن ومسابك الحديد كما تدير مصانع النسيج — وفى واقع الأمر — فى كل مكان تستخدم فيه الحركة الدوارة واستخدمت آلة واحدة لتسيير سفينة صغيرة على نهر هدسون فى ١٨٠٧ . واستخدمت جريدة التايمز آلة بخارية لتدير أسطوانات الطباعة ، وذلك فى ١٨١٤ . وفى ١٨٣٠ كان هناك نحو ٣٠٠ آلة تشتغل فى جلاسجو وما حولها .

وكانت هذه الآلات (تتطلب دقة متناهية فى أجزائها العاملة . واعتمد صانعو المحركات الحديدية تلك الذين اطرد اعتمادهم على الآلات الميكانيكية اعتمدوا لا على اليد ولكن على الآلات .

وتعتمد الهندسة الحديثة جميعاً على تجارة الأدوات الميكانيكية التى بدأت فى لندن مع يوسف براماه (١٧٤٨ — ١٨٤٤) . اخترع هنرى مودسلى — تلميذ براماه — ، فى سنة ١٨٠٠ ، آلة لولبية لخرط الأخشاب والمعادن تستطيع أن تقطع ما عرضُه واحد على الألف من البوصة (البوصة = ٢,٥ سنتيمتر) اخترع آخر فأرة معدنية للنجارة ومطرقة بخارية . وفى سنة ١٨٣٤ خطط يوسف وايتورث لأحجام قياسية للمسامير اللولبية (ألاووظ) وللأجزاء الصغيرة التى تستعمل فى الآلات. وهؤلاء الميكانيكيون الحاذقون كانوا جميعاً صناعاً على قدر طيب من البراعة . وقد وسعهم أن يخططوا وينصبوا أية آلة للصنع والقطع . تصور مدينة هندسية حديثة يصنع فيها باليد كل « ألاووظ » وكل « صمولة » وكل « محبس » .

ولقد قام المهندسون المدنيون والميكانيكيون بتجهيز اختراع عظيم سكة الحديد البخارية . وقد اشتدت الحاجة إليه ليساير تدفق البضائع المتزايد.

ولقد كان اختراعاً مزدوجا : سكة الحديد ثم القاطرة البخارية .

والسكك التى عليها تسنى للحصان أن يجر أحمالاً زنتها ١٢ طنا بدأ استعمالها فى سنة ١٧٠٠ . وتلك كانت قضباناً خشبية مربوطة بعارضات وبينها دكات من الزلط تثبتها جميعاً . ولمقاومة الاستهلاك الناجم عن الاستعمال غطت طبقات من اللوحات ، القضبانَ الخشبية بصفائح حديدية . ثم ظهرت قضبان الحديد المسبوك (الزهر) مشففة عند أطرافها الخارجية . ثم انتقل التشفيف (إضافة شفة) إلى عجلات مركبات النقل الكبيرة . وقد اقترح البعض تغطية الأرض بشبكة من تلك السكك الحديدية العامة تتراكز فى لندن وتنطلق منها . وفى ١٨٢٤ كان هناك أكثر من ١٠٠ ميل من تلك السكك فى جنوب ويلز فى خدمة حقول الفحم . وفى بعض الأحيان كان قطار بخارى يجر عربات نقل من أولها إلى آخرها بوساطة سلك يطوق بكرة ضخمة .

وإذا كانت قوة البخار تستطيع أن تدير عجلة فربما يمكنها أن تدير عجلات مركبة النقل نفسها . ذلك إذا أمكن صنع آلة كافية الدقة وإذا لم ينزلق العجل .

ولقداستغرقت القاطرة البخارية ستين سنة فى تطورها منذعام ١٧٦٩ . فى ذلك العام كانت مركبة نقولا كونيو البخارية تسير بسرعة ميلين فى الساعة فى شوارع باريس . ثم جاء اليوم الذى فيه جذب جورج ستيفنسون روكت مركبة قطار للركاب على سكة حديدية فى رينزهيل بسرعة ٣٠ ميلاً فى الساعة . وكان ذلك فى ١٨٢٩ . وصنع مخترعون كثيرون قطرات بخارية ومركبات سكك حديدية ونجحوا نجاحاً لا بأس به . وكان خيرها ما صنعه ستيفنسون . وعندما افتتح خط سكة حديدية جديد فى ١٨٣١ ، بين ستوكتون إلى دارلنجتون استخدمت قاطرته ، وأصبح مهندس أولى السكك الحديدية التى مدت للقاطرات البخارية من منشستر إلى لفربول . وعلى هذا الخط سارت قاطرته بسرعة ٣٦ ميلا فى الساعة ، وحملت ٢٥٠ ألف نسمة فى الشهور الستة الأولى . لقد جاءت سكة الحديد البخارية فى وقت كان الناس فيه بحاجة إليها . ذلك أن القنوات المائية لم تستطع أن تساير أكداس البضائع التى تحتم حملها .

و٣٦ ميلاً فى الساعة سرعة تفوق أية سرعة سبق للناس السفر بها . لقد كانت سرعة مذهلة ، مخيفة جداً لبعض الناس ولقد شكا رجل من أنها سوف تتلف كل هدوء وجمال ، ومن أن « عجيج الثيران وثغاء الغنم وقباع الخنازير (أى نحرها) » حيث تمر القطارات سوف يديم هديراً واحداً يستمر طوال الليل ، ومن أن الخلاء كله سيتلوث بالدخان . أما السيد المحترم سيدنى سميث فقد كتب ، فى سنة ١٨٤٢ ، يقول : « الرحلة بالسكك الحديدية تطور بهج فى حياة الناس . لقد أصبح الإنسان طائراً ، وإنه ليستطيع أن يطير أطول وأسرع من إوز الأبحر الشمالية » ، وقد تكلف بناء السكك

الحديدية البريطانية — نظراً لسابق التحامل عليها — مبالغ خرافية : وفى بعض الأحيان كانت آلافاً مؤلفة من الجنيهات تدفع لبعض المشرعين لا لشيء إلا ليجهزوا مشروع قانون للترخيص بمد خط كما أن بعض ملاك الأرض تقاضوا مبالغ ضخمة لقاء الرقع المستطيلة من الأرض المطلوبة ، وعلى رغم هذا فقد وضحت فوائد النقل بسكك الحديد إلى حد جعل الناس يكتتبون بأموال طائلة لمد خطوط فى كل مكان ، وطبق الاختراع تطبيقاً سريعاً فى كل البلاد المتمدنة .

أما تلك المئات من آلاف الغنم والثيران والإوز التى درجت على أن تزحف إلى لندن فى أناة فهى تشحن الآن ، فى سرعة ، فى مركبات النقل . واختفت حركة مركبات الطريق العامة وأخليت النزل والاصطبلات . وفى ١٨٢٤ اختفى الـ ٢٥ حصانا التى كان مقرها هونسلو وهى أول محطة للمركبات التى كانت تخرج مركباتها من لندن وضاعت على (خان) واحد فى نورفولك تكاليف وأرباح إيواء ٩٠٠٠ دابة فى طريقها إلى العاصمة . وذاب سواس الخيل وخدم الاصطبلات والماشية والحوزية فى البحث عن أعمال أخرى وكان ما يزال هنا وهناك مركبة بريد تحيي القرى الجانبية مثل مركبة بريد « كويكسلفر » التى بقيت تسير من فالمث إلى بليمث حتى سنة ١٨٥٩ ولكن هدوءاً شاملاً حل على أغلب طرق المكوس ، وخربت الاستراحات وهدأت بلاد الأسواق الصغيرة التى لا تمر بها القطرات حتى أصبحت كالغدران النائمة . وإلى أن حلت سنة ١٨٥٠ كان عهد الطرق والقنوات قد انقضى .

الاختراعات : الأرباح والخسائر :

عندما مات عم الأميرة فكتوريا — وليم الرابع — فى وندسور عام ١٨٣٧ ، ركب فارسان — أحدهما رئيس أساقفة كانتربرى — ركبا فجراً ، إلى قصر كنزنجتون ليؤديا لها التحية بوصفها ملكة . وكانت تلك

أسرع مواصلاتهم . وقد عاشت ڤكتوريا — التى أضفى حكمها الطويل من ١٨٣٧ إلى ١٩٠١) اسمها على عصر — عاشت ڤكتوريا فعلاً أجيالاً متعاقبة ، هذا إذا جعلنا أساس الحساب الحشد الكبير من الاختراعات الحديثة التى بدلت الحياة اليومية عندما ماتت ڤكتوريا كانت السكك الحديدية قد أصبحت فعلاً جزءا من منظر الجزيرة الخلوى وكان أكثر من ألفين من السيارات الجديدة يثير سحائب من التراب على الطرق الكبيرة العامة . وعند توليها كانت سفائنها الحربية ماتزال هى «الحوائط الخشبية لإنجلترا القديمة» . وقبل أن تموت كانت أساطيل من السفن التجارية العملاقة قد نقلت جيشاً قوامه نصف مليون من الرجال إلى جنوب إفريقيا . وثمة إيضاح للتغيرات أكثر لفتاً للأنظار يمكن أن يقدمه شاهد قبر من وست أف إنجلند (أى غرب إنجلترا) يسجل ميلاد أب فى ١٧٧٥ ووفاة ابنته فى ١٩٠٧ . وقد طوت حياتاهما الأعوام التى خلالها تحولت حياة منطقتهما القروية والمنزلية إلى حياة مدينة ومصنع تعتمد على الحديد والفحم وقوة البخار . وتدانت ثمرات المعرفة مسرعة موفورة بين الناس حتى أنه عند التدافع بالمناكب للاستمتاع بها أهمل — فى أغلب الأحيان — مراعاة السلوك العادل . ونحن مازلنا نستوثق من أنها اللاإنسانية : أرباح لا خسائر .

وكان من بين الأرباح البينة : انهزام الظلام والإقلال من المرض . وقد درجت الدنيا على أن تضىء بالشمع أو تعنى بتشذيب أشرطة مصابيحها الزيتية حتى القرن التاسع عشر . والمنارة الخشبية الأولى القائمة على إديستون ، حتى هذه كانت تضاء بالشمع . ووسائل الإضاءة فى الظلام مصدرها الفحم . وفى ١٨١٦ استخدمت مصابيح الغاز فى شوارع لندن . وبعد ذلك عم استعمال الغاز بتسخير قوة غازية . وهذا فى حد ذاته مأثرة عظيمة . ونمت صناعة الغاز عظيمة غنية ، شواهدها عدادات الغاز التى تزين الآن مدننا والتى كانت مصابيحها فى الغسق فرحة أطفال العصر

الفكتورى . وفى ١٨٨٠ وجد للغاز منافس فى الإنارة وذلك بالمصابيح الكهربائية التى بدأت بداية بطيئة ثم لقيت إقبالاً كبيراً إلى حد أنها ، منذ ١٩٠٠ ، حلت نهائياً محل الغاز . ومشعل المصابيح اليوم هو الرجل الواقف عند لوح مفاتيح التحويل (التابلوه) فى محطة القوى الكهربائية . وسواء أكان يعنينا أن نستيقظ مع القنبرة أو لا يعنينا فأنا لم نعد مضطرين إلى أن نرقد مع الحمل . وإطالة نهارنا بالضوء الصناعى زاد إنتاج عملنا وزاد وقت فراغنا زيادة عظيمة .

وتأتت محاربة المرض بتحسين وسائل الصحة ، وبمصارف الماء ، وبزيادة توفير صابون المصانع ، وبزيادة توفير الملابس القطنية الرخيصة . وقد تجمعت المعرفة الطبية على يد أطباء المستشفيات ، كما كسبت المستشفيات كسباً عظيماً مما صنعته فلورنس نايتنجيل ونساء غيورات أخريات أصررن على توفير مستوى تمريض أعلى وأرفع حذقا . أما تجميع الأدوية والعقاقير وتحديد مقاديرها فقد حددها الصيادلة ، وتقدمت المعرفة فى استعمال العقاقير، كالكينين مثلا . وعرف الأطباء كيف يستخدمون المخدرات ، كالأتير والكلوروفورم فى العمليات ، ونشروا مسجلاتهم ليستفيد منها الغير . وانتهت الأيام التى فيها كان الجرحى يسقون (الروم) ويشدون بسيور من الجلد أو المعدن بينما « ناشروا العظام » (يقصد الأطباء الجراحين) يقطعون ويخيطون فى أحد الأطراف المشوهة . وفى ١٨٦٥ علم لويس باستير الأطباء كيف يستكشفون ويحاربون الجراثيم التى تسبب المرض . وفى ١٨٦٦ علمهم يوسف لستر كيف يمنعون تعفن (الغرغرينا) فى القطوع والجروح . وفى ١٨٩٥ استكشف رونتجن استعمال الأشعة النافذة (X) فى تصوير العظام وأعضاء الجسم الداخلية . وهكذا حدث فى القرن ، من أوله إلى آخره ، تحسين فى الصحة مطرد . وتقاضت حمى التيفود والدفتريا والتدرن الرئوى ، تقاضت ضريبتها من أعمار الناس . وتفشت الكوليرا المرة بعد

المرة ، أما الجدرى فقد تطامن إلى زوال ، وأصبح الطاعون نسياً منسيا . والجدرى ، من قديم ، دائم الظهور . وكثيراً ما أخذ يتفشى الوباء — الذى خرب مدنية الغرب فى القرن السادس ثم فى القرن الرابع عشر — كثيراً ما أخذ يتفشى مدداً قصيرة حتى القرن الثامن عشر .

وكانت نتيجة هذا الكسب فى الصحة والحذق الطبي زيادة فى عدد السكان : نقصها فى وفيات الأطفال زيادة فى عمر الرشيدين . إلا أن الخسارة فى المهاجرين الذين يبحرون إلى الدنيا الجديدة فلا بد من أنها زادت . وارتفع عدد سكان بريطانيا العظمى من ٨ ملايين فى ١٧٨١ ، إلى ١٦ مليوناً فى ١٨٣١ ، إلى ٣٧ مليوناً فى ١٩٠١ ، ثم إلى ٤٥ مليوناً فى ١٩٣١ ، . أفواه بالغوا الكثرة يتحتم إطعامها من مزارع الجزيرة ، كانت الفلاحة تعطى ربحاً وفيراً ثم زادت منتجاتها ، وظلت الحبوب والمحصولات الجذرية والبهائم والأغنام من أحسن الأنواع فى العالم وأخفرها غير أن تكاثر عدد السكان أخذ يعتمد على السفن التى تجلب الحبوب واللحوم من الخارج ، عوضاً عن فحمها وحديدها وبضائعها وأصوافها وأقطانها وخزفها وآلاتها . واعتمدت بريطانيا العظمى فى عيشها على الصادرات . وكانت (البنوك) ومكاتب شركات التأمين - التى أمدت مصانعها ومتاجرها بالمال - تقرض المال أيضاً فى بلاد أجنبية ، وتتقاضى عليه أرباحاً طائلة : كانت لندن محور تمويل العالم ، واشتهر جنيه بريطانيا الذهبي اشتهار بيزنطا بيزنطة الذهبي أو بندقى (عيار الذهب) البندقية الذهبي فى القرون الوسطى .

ولكن مبتدأ عصر الآلة جلب البؤس الفظيع إلى الآلاف من سيىء الحظ . فالناس القاطنون بعشش قروية قليلة عمتهم نعمة الهواء الطليق اليوم كله . والقاطنون بمجموعات من صفوف العشش فى بلدة صناعية جديدة قضوا معظم أيامهم فى مصانع يكتنفها البخار والضوضاء والقذارة . أما كيف

نمت البلدان فيمكن تبينه من مسجل مدلزتبرا — و— بيركندهد ، ولم يكن أى منهما على قيد الحياة فى ١٨١٥ . وقد تاق أحدهما إلى استعارة عبارة — الدكتور جونسون الواضحة فقال « تصعدت كما قد يتصعد الزفير من الأرض» . تصور إغريقياً (يخطط لمشروع مدينة جديدة بمقاييسه المصنوعة من الحبال) يخطط لشىء كهذا . وإن أحداً بطبيعة الحال — لم يخطط لها بأكثر مما يدبر رجال اليوم قتل الآلاف على الطرق . إنها حدثت فجاءة . والمؤجرون — فى تكالبهم على جمع المال والسلطان — غالباً ما ينسون واجبهم نحو رفاقهم من الرجال والنساء . كلا . ولم يكن هناك تخطيط سابق لبلدان القرن التاسع عشر القبيحة الصورة التى كبرت من دون جلال أو جمال . ولقد كانت الأرباح التى جناها الناس من تلك البلاد ، تنفق فى لندن أو فى مدائن المتعة ، فى إنجلترا أوفى أوربا . وإن « أيدى » العمال لم تعرف أى شىء عن التمتع بالعيش فى مدينة جميلة . فلقد كانت هندسة البناء فى نظرهم فناً ضائعاً والاعتزاز بالتمدن فضيلة مجهولة . وهكذا عاش الآلاف عيشا موحشاً على الكفاف ساعات طويلة من الاسترقاق ، يكدحون لمصلحة صاحب مصنع حديد أو غزل أو منجم أو صانع كيماويات ، وفى مدى قرون عديدة كدح الزراع والصناع ساعات طويلة فى أعمال تتلف الصحة ولا تستلزم مهارة . وكانت حياة المصانع رتيبة ، مضنية ، وبيلة ، لا تتطلب حذقاً أعلى من المعتاد ، وذلك كلما أمكن استخدام أطفال أو نساء بسبب رخص أجورهم وكان بعض أصحاب المصانع « يشترون » الأطفال الصناع ويضربونهم ليحثوهم على العمل . وفى بعض المناجم درج النساء والأطفال — وهم أنصاف عرايا — على أن يجروا منكبين على أيديهم وأرجلهم ، مركبات نقل الفحم على طول رواقات تحت الأرض كما قد تفعل دواب حمل الأثقال . وكان كثيرون من أصحاب المصانع رجالاً جهلة ، وكثيرون رجالاً قساة ، وكثيرون

أوغاداً لاشك فى سفالتهم . كما أن طائفة منهم كانت من المسيحيين المهذبين الطيبين الذين سارعوا إلى مشاركة غيرهم من المواطنين فى الإهابة بالحكومة أن توقف مثل هذا الاستعمال السيىء لبنى آدم .

ولقد وجد ، منذ زمن طويل ، رأى يقول بأن الناس ينبغى لهم أن يصنعوا ما يريدون ما امتنعوا عن ارتكاب جريمة : كالسطو على طيور السيد أو على صيده ، أو السرقة ، أو التزييف . أو التزوير ، أو الإتلاف ، أو القتل ، أو الاقتراء . ومما قيل إن أحداً لا يود إطلاقاً أن يلحق الضرر بنفسه . ولن ينسى أحد أبداً أنه وجدت وراءه آلة سريعة التدويم ، غير مسوّرة من خلفه . فلماذا يفصلها بحاجز ؟ ومن الطبيعى أن كل امرىء يود اجتناب الخطر والفقر والجوع وأن كل امرىء حر فى ترك عمله . ولم يكن هذا الرأى نافعاً — فى القرن التاسع عشر — عندما كان الكثيرون من أصحاب المشروعات العظيمة يصعدون إلى الثروة والسلطان على حياة رفاقهم . وعيب هذا أن الرجال كلهم لم يبدءوا متساوين ، وأن الكثيرين منهم أكرهوا على أن يشتغلوا فى عمل مهين ، لقاء شلنات قليلة فى الأسبوع ، لكى يحافظوا على حياتهم وحياة أسرهم . وقد فقد هذا الرأى أهميته تدريجاً بمثابرة الناس الطيبين على مطالبة البرلمان بسن لوائح تنظم حياة المصنع . وعملت البحوث ، واستجوب العمال وأصحاب الأعمال ، ونظمت المصانع : فنقصت ساعات العمل ونفذت احتياطات التأمين . وفى ١٩٠١ جمعت لائحة للمصانع شاملة لجميع اللوائح السابقة .

وعمل البرلمان كثيراً ليلاحق ويساير التغييرات الدائمة فى الحياة والعمل الاجتماعيين . وقد يتضح نشاطه من كشف عن بعض الأشياء التى عنيت بها لوائحهم الكبيرة : الطرق الكبيرة العامة ، القنوات ، سكك الحديد ،

التجار ، السفن ، البريد ، الشرطة ، الزراعة ، جباية الأموال ، (البنوك) ، الشركات التجارية ، التأمين ، اتحادات العمال ، الحكومة المحلية ، المدارس ، السجون ، الصحة العامة ، قوانين الفقراء ، بناء البيوت ... وللوثوق من تنفيذ تلك اللوائح تحتم تعيين المزيد من الموظفين المدنيين والمزيد ثم المزيد من المفتشين . وفى ١٨٧٠ أخلت الطريقة القديمة — فى تعيين الموظفين المدنيين بالمحسوبية — مكانها للسابقات فى الامتحانات التحريرية العامة ، على طريقة الصينيين . فإذا أضفنا إلى أولئك الموظفين المدنيين كل من يتقاضون أجوراً من المجالس المحلية ، من الكناسين إلى موظفى البلدية ، خرجنا بأن الدولة هى إحدى كبار مؤجرى العمل . ويهمنا أن لا ننسى أن العمال قاموا بدورهم الخاص فى عتق أنفسهم من الاسترقاق والخطر والظلم . وفى مستهل القرن بدأ العمال يؤلفون جماعات لتحسين أحوال عملهم ، وفى الوقت ذاته ، لمساعدة بعضهم بعضاً ، عند الضيق والمرض . وكان هذا بدء اتحادات العمال . وعارضتهم الحكومة أول الأمر ، ولكن فى ١٨٢٤ صدرت لائحة رخصت للناس تكوين اتحادات كهذى ، نظمتها فيما بعد لوائح أخرى . ولقد كان فلاحو القرى ، فى الأيام السابقة على هذا ، مصونين ، إلى حد ما ، من سادات الضيعات الأوغاد ، بمقتضى العرف السائد فيها . أما المصانع الجديدة فلم يكن فيها عرف يحمى العمال الذين لا يملكون أرضاً . كان كل واحد يقصر سعيه على نفسه وكان الكليل منهم يقع فى المحظور . ولهذا تحتم وجود اتحادات العمال . وهى تعد اليوم بين منظماتنا الصناعية الهامة . وعلى هذا فإن بعض الربح تولد عن كل ما جلبته الثورة الصناعية من بأساء . وليت الناس بعد ذلك يدركون وجه الصواب فى مبادئ مشرعى الكنيسة القديمة ، فى القرون الوسطى : يجب أن لا يسمح لامرئ ، بأن يستفيد من بلية غيره .

وفى الوقت ذاته سعى العمال أنفسهم ، كذلك ، إلى تحسين عيشهم بوسائل أخرى . وفى ١٨٢٧ ، أسست جماعة — عرفت باسم : رواد روتشديل —

أول « جمعية تعاونية » . وتبعتها أخريات . وفى ١٨٦٤ تألفت الجمعية التعاونية العامة . وإلى هذا شكلت عشرات من الجمعيات الودية على يد العمال والموظفين والكنائس والمنتصرين للخير ، شكلت بغرض تشجيع الاقتصاد والتأمين ضد العوز . وفى هذا أيضاً قامت شركات التأمين بدورها .

وهكذا — فى وسط دنيا كدرتها وقبحتها الأقذار ، دنيا ما فتئت تبرح بها شهوة جمع الذهب اللعينة — هكذا بدأ الناس ينتعشون قليلا ، ويشاركون هوناً ما ، فى فوائد المعرفة والقوة الجديدتين . وكان كثيرون من الناس يتربصون بالظلم والعسف متأهبين لأن يستحثوا أية حكومة متوانية فى العمل ، واعتقد البعض أن تأمين رخاء الناس لا يتأتى إلا بسيطرة الحكومة على كل الصناعات الكبرى ؛ ودافعوا عن الاشتراكية . وقد ردت بعض صناعاتنا — الآن — إلى المبادئ الاشتراكية . وهب آخرون — كالدكتور برناردو — إلى العمل من تلقاء أنفسهم . ووجدوا ، إذ صنعوا ذلك ، ألف يد تمتد لعونهم : وبيوت برناردو للأطفال ليست إلا واحداً من مشآت المشروعات الخيرية التى فتحت المستشفيات والتكايا وملاجئ اليتامى للمشردين والمنبوذين . وثمة واحد من الأمور المرجوة التى حدثت فى السنوات المائة والخمسين الأخيرة هو الإقبال المتزايد على التطوع لمساعدة الكسيح واليتيم والأيم (أى المرأة التى فقدت زوجها) وفى هذا قامت كنائس كثيرة بأعمال الخط الأول . وبعد عادات القرن الثامن عشر المستهينة هبت روح جديدة لأداء الواجب وتقديم الخدمات .

وثمة واحد من الاختراعات ارتكز عليه سائرها هو اختراع جوتنبرج الألمانى القديم . فلقد جمعت الطباعة المعرفة وأذاعت المعلومات ، واطرد تزايد قارئى الكتب . . . ومن الناس من كان يظن أن من الحماقة تعليم الفقراء القراءة خشية أن تمدهم بأفكار فوق مرتبتهم . ولكن فى الحق

أن تركهم جاهلين معناه وضعهم تحت تأثير أهل السوء . ومع ذلك فقد حدث أن جماعات كبيرة من الفقراء تعلمت القراءة بغير معلم .

وفى بداية القرن كان هناك ، على وجه التقريب ، نوعان من التدريب: التدريب الذى يقدم فى المدارس الثانوية وما إليها ، والتدريب الذى يقدم لتلاميذ المهن . وقد استهدفت المدارس تدريب الصبيان على أن يكونوا محامين أو كهنة أو أطباء أو تجاراً أو كتبة. أما التدريب المهنى فكان يستهدف تخريج صناع مهرة . ولم يساعد أى النوعين العمال الزراعيين أو العمال الذين لا أرض لهم ويعيشون فى المدن الصناعية .

وتسنى للسياسيين — رويداً رويداً ، ومع المعارضات والمصاعب — أن يهيئوا للأطفال القراءة البسيطة والكتابة والحساب . وفى ١٨٣٣ لم يحظ بأى نوع من أنواع التعليم على الإطلاق غير نصف الأطفال . وفى ١٨٧٠ أذن لكل ناحية من نواحى البلاد أن تجبر التلاميذ — إلى سن الثالثة عشرة (أى سن الإلزام) ، — على أن يواظبوا على الحضور إلى المدرسة . ومنذ ذلك الوقت رفع سن ترك المدرسة — على مراحل سهلة — إلى الخامسة عشرة . وفى ١٨٧٦ أجبر الأطفال جميعاً — حتى سن العاشرة — على المواظبة على الحضور إلى المدرسة . وكانت المصاعب كبيرة : نفقات المبانى ، ضرورة تدريب المدرسين ، حرمان الوالدين من النقود القليلة التى كان يكسبها صغارهم من عملهم . وقد قامت بعض الجمعيات بالكثير من العمل النافع .

ولقد بدأت المدارس الثانوية الأولى فى القرون الوسطى على أبواب الكنيسة ، وأنشأ الكهنة الجامعة . وفى القرن السابع عشر عندما حرم على المنشقين على المعتقد دخول المدارس الثانوية والجامعات أسسوا لأنفسهم دوراً علمية عظيمة .

وفى خلال القرن التاسع عشر ، فتحت أبواب الجامعات الإنجليزية على مصاريعها لليهود والكاثوليك والمنشقين على المعتقد . وأسست جامعات أخرى . وكان للندن دائماً مدرستاها الشهيرتان — الحقوق والطب — ولكن جامعة قشيبة (جديدة لنج) أنشئت هناك فى ١٨٢٨ . وتلتها درهام فى ١٨٣٢ ، ومنشستر فى ١٨٨٠ ، وتسلمت سائر الجامعات مراسيم إنشائها فى خلال القرن .

أما طبع الكتب ونشر التعليم بين الجميع فأمران جديدان تماماً فى تاريخ الإنسانية . واليوم انتشر العلم بأنواعه انتشاراً عظيما إلى حدٍّ معه يستطيع المرء أن يرجح بأنه فى حالة فقدان كل مؤلفات دانتى وشكسبير ، مثلا ، فقد تعاد كتابتها من ذاكرة الناس . وقد يعاد بناء أهرام المعرفة العلمية نقلاً عن ذاكرات الناس . وإذا تذكرنا القدر الكبير من أدب الدنيا القديمة الذى افتقدناه إلى الأبد كان لنا أن نغتبط بحالنا اليوم . ونحن مطالبون كل المطالبة بأن نحتفظ بتراث الأجيال الغابرة ، فى مبانينا ولوحاتنا وتماثيلنا وأدبنا وموسيقانا . وليس فى اليقين بعد : هل نشرُ التعليم يتمخض عن أعمال من مبتكرات الخيال فى الدرجة الأولى ؟ ذلك لأن الظروف التى يظهر فيها النبوغ غير معروفة . فالموسيقى وحدها تحسب من الفنون التى تعدّ أحد مخلفات الستة القرون الماضية ... المسجل منها على أقل تقدير . فالموسيقى التى وقعتها الصفارة — على حد تعبير السير توماس براون — يجب أن تظل غامضة . ولئن كنا قد فقدنا تلك المسجلات الموسيقية الباكرة — كما هو الواقع — فإنا نعلم علم اليقين أن تأثيرها كان بيناً للإغريق الذين جاء فى حكاياتهم الشائقة أن مزهر (آلة للطرب كالعود) أورفيوس تسنى له أن يؤثر حتى على أفلوُطن إله العالم السفلى والذى — فى تأمله — تتحرك الكواكب جميعاً فى تناسق . وإن حظنا لكبير بذخيرتنا الموسيقية التى لحنت فى القرون الخمسة الماضية . ولولا المطبعة لما وصل حتى إلى

القليلين المحظوظين ، إلا القليل منها . والوسائل التى بين أيدينا اليوم والتى تمكننا من حفظ تراثنا الجمالى ومن إشراك الناس فيه ومن توفير المسرة ومن رفع شأن العقل ، كل هذه الوسائل لاحد لها .

السياسة : عام ١٨٤٨ فى أوربا :

عندما أهدى جون كمبل كتابه التاريخى « السكسون فى إنجلترا » للملكة فكتوريا لاحظ أنها حكمت بلاداً خالصة من الضجة التى ملأت أوربا كلها فى ذلك العام ، عام ١٨٤٨ .

والواقع أن الثورات والتمردات حدثت فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر وبوهيميا . وقد انقضى قرابة ستين عاماً على إعلان الثورة الفرنسية حرية الإنسان وأكثر من ثلاثين على نقل نابليون فى سفينة حربية بريطانية إلى منفاه الأخير : جزيرة القديسة هيلانة . ومع هذا ظلت شعوب أوربا تكابد الظلم والعسف من حكام أنانيين ، غرباء بعض الأحيان . وقد اعوزتهم جميعاً — حتى ذلك الوقت — الدساتير، وقوانين المساواة والعدل ، والضرائب العادلة، وحرية الكلام والنشر. وبالمقارنة مع هذا تجد أن البرلمان البريطانى القديم المضمحل أصلح فى ١٨٣٢، وانهمك فى تفحص القوانين القديمة لتصحيحها وسن قوانين جديدة توائم النوع الجديد من المجتمع الصناعى الذى خلقه استخدام الآلة .

وحكم الملك لويس فيليب فرنسا بمساعدة جماعات من الأرستقراط والأغنياء . وكان أقل من واحد فى كل مائة لهم حق التصويت ، كما كان ممكناً منع الناس ، بالأمر ، من نشر آرائهم . وكان الأكثرون من الفرنسيين — إذ ذاك ، كدأبهم الآن — فلاحين ولا يكلفون خاطرهم زيادة الاهتمام بالسياسة ما تركت لهم حرية الكسب من مزارعهم . غير أن المصانع الجديدة زحمت المدن ، وباريس بصفة خاصة ، بالآلات والعمال غير المهرة ،

وكانت كثرتهم فقيرة متعطلة . وكان نوع جديد من مجتمع المدن — او المجتمع المتحضر — فى سبيله إلى التشكل . . . أناس حرموا ملاذ الريف أو سلوانه . وفى فبراير من سنة ١٨٤٨ اصطدام جمعٌ من غوغاء باريس بالشرطة . وكثر الشغب — على الطريقة الباريسية — وانضم للمشاغبين الحرس الوطنى. وسارع لويس فيليب إلى الهرب، وأفلت فى مركبة وأبحر، فيما بعد، إلى إنجلترا. وأعلن الباريسيون الجمهورية الفرنسية الثانية .ولكى تخلق الحكومة عملاً للمتعطلين أسست الحكومة الجديدة « مصانع قومية». وما هو إلا القليل حتى كان هنالك مائة ألف رجل يتقاضون أجوراً لكى لا يقوموا بأى عمل فى تلك المصانع. ولم يستطع أحد أن يجد لهم عملا. وقد اقترح ماجن أن يصرفوا وقتهم فى تعبئة مياه نهر السين فى زجاجات.

وإلى ذاك الوقت كان ما كان أقرب إلى الهياج والبلبلة منه إلى المعارك الجدية . فلما حدث أن جمعية وطنية جديدة منتخبة (منتخبة فى الأغلب من الفلاحين ، كما حدد لها) أغلقت المصانع ، عندئذ اشتعلت معارك ضارية فى الشوارع ، فقدَ فيها الآلاف أرواحهم . وكان هذا أسوأ ما حدث فى بداية ثورة ١٧٨٩ . وبعد هذه المأساة المروعة استقرت الجمهورية الثانية — بعض الوقت — مع لويس نابليون، ابن أخى الإمبراطور العظيم على أن يصبح رئيساً لها .

ولم يضع لويس نابليون وقتاً طويلاً قبل أن يقلد عمه . فأنهى — فى ١٨٥٢ — الخلافات الأبدية القائمة بين الأحزاب السياسية ، وذلك بتنصيب نفسه إمبراطوراً باسم نابليون الثالث . وقد تقلب حظه كثيراً بين الصعود والهبوط ... غزا فرنسا من دوفر بأصحاب له ملأوا السفينة ، وعانى السجن فى معقل (هام) مدى ست سنوات . وأفلت من ذاك المكان إلى إنجلترا . . . كان جريئاً وأسعفه سحر اسمه . وفى الحق أنه كان يفيض أفكاراً ومشروعات نافعة لترقية بلاده . وكان ذكياً ، ويهتم بالعلم، محبوباً .

وحكم سنين طويلة استقرت فيها الحكومة ونمت التجارة والصناعة وزادت ثروة فرنسا . إلا أنه لم يحل المشكلة الصعبة وهى إقامة حكومة شـــعبية ديمقراطية تتمتع بالحرية الحقيقية .

وقد حركت فتنة فبراير — التى قام بها الباريسيون — الألمانَ ، فضجوا بطلب حكومات حرة ، واضطر الحكام — فى عشر دويلات — إلى منح دساتير . ومعنى الدساتير : الجمعيات البرلمانية ، وحرية الكلام والدين والصحافة .

وكان أعجب العجب جميعاً الفتنة فى ڤينا عاصمة الإمبراطورية النمسوية . وبسبب هذا التمرد سافر الأمير ميترنيخ على جناح السرعة ، إلى إنجلترا (من الصعب تصوير ما كان عسى أن يفعله ملوك أوربا وثوارها إذا لم تكن إنجلترا ملجأهم) . وتبع هذا انتفاضات وطنية فى الإمبراطورية النمسوية : من البوهيميين فى براج ، ومن الهنجاريين فى بودابست ، وبعد أن كثرت الحروب أطفأها القواد النمسويون . وفى هنجاريا — حيث احتدم النزاع مُرّاً طويلا — لم يخضع الثوار إلا بمساعدة جيش روسى كبير أرسله القيصر ليساعد «أخاه الإمبراطور» وعوقب الهنجاريون بقسوة على هذا التمرد . أما فى النمسا وألمانيـــا فكانت نتائج تلك الثورات التى قامت فى ١٨٤٨ ، قريبة من العدم . واستمر الملوك والأدواق يحكمون وفق هواهم . غير أنه حدثت محاولة عنيفة لتوحيد كل الدويلات الألمانية فى برلمان مركزى ، أى فى نوع من « الولايات المتحدة » الألمانية غير واضح المعالم . وظلت فكرة الاتحاد الجرمانى تراود أفئدة الرجال ، ولكنها أخفقت بسبب المنافسة بين النمسا وبروسيا ، وقد وافق ملك بروسيا فى ١٨٥٠ ، بعد أن حدثت فى برلين

حروب فى الشوارع على دستور طيع يهيمن عليه موظفوه ، وملاك الأرض فى بلاده ، وضباط جيشه — دستور له مجموعة قوانين وجمعية وطنية . ولم تكن هذه حكومة برلمانية لرجال أحرار كما فى بريطانيا أوفى الولايات المتحدة الأمريكية . ولكنه أمد بروسيا بجهاز واضح منظم بقى طويلا . وفى سنة ١٨٦٢ عين ملك بروسيا الكونت أوتوفون بسمارك مستشاراً له ولم يكن بسمارك حى الضمير ، ولكن عقله كان ثاقباً ذا حيوية ، ولم تشبه أية شائبة من الأنانية ، لأنه كان يعيش بروسياً .

أما الإيطاليون فقد وضعوا نصب عيونهم واجباً مزدوجاً ، وهو أن يكسبوا حريتهم : من الحكم الأجنبي وأيضاً من الاستبداد . وكان من بين الكثيرين الذين صنعوا الأمة الإيطالية فكتور عمانوئيل ، ملك سردينيا الشهم ، والكونت كافور وزيره الحكيم الصبور ، ويوسف ماتزينى الذى ألهم الثوار بأحاديثه الحماسية النبيلة ، وغاريبالدى الجندى المحبوب .

أسس ماتزينى جمعية إيطالية الفتاة . وقد انضم إليها الآلاف من الوطنيين من كل الطبقات . وأقسموا على أن يجعلوا إيطاليا « أمة موحدة مستقلة ذات سيادة مكونة من أحرار أنداد متساوين » . وكان ماتزينى نفسه يحبذ الجمهورية ولكن كان متأهباً لأن يعاضد أى نوع من أنواع الحكومة يرتضيه الشعب وتطلع آخرون إلى الباباوات لتوحيد البلاد ، وبخاصة البابا بيوس التاسع (فى ١٨٤٦) الذى بدأ فى إصلاح دويلته البابوية التى اشتهرت بأنها تلقى أسوأ حكم فى أوربا .

وفى ١٨٤٨ قامت فتن فى صقلية ونابولى حيث منح الملك دستوراً . وكذلك منح دستورين ملكا سردينيا والبابا . وثار أهل لومبارديا والبندقية ضد ساداتهم النمسويين وتلقوا عوناً من السردينين . غير أن أولئك جميعاً سحقهم ذوو المعاطف البيضاء من النمسويين بقيادة رادتسكى الجبار .

وعقب هذا استقال شارل ألبرت ملك سردنيا وأسلم عرشه لابنه ڤكتور عمانوئيل . وكابد البندقيون — يقودهم البطل دانيال مانين — حصاراً مروعاً قبل أن يستسلموا لجيش رادتسكى (النمسوى) .

وانتهت الرواية المحزنة فى روما. فهناك أعلن الشعب — ومعه ماتزينى — حكومة جمهورية . وهرب البابا . وعندئذ رغب نابليون الثالث فى أن يظهر بمظهر حامى الكنيسة الكاثوليكية والمناضل عن البابا ، وأرسل جيشاً يحاصر روما . وقاد غاريبالدى فرقة من المتطوعين من شمال إيطاليا لينقذ الجمهورية الرومانية وأشعل رجاله مواقع عظيمة بغية حمايتها . ولكن الفرق الفرنسية عصفت بقلب المدنية . وأعادوها إلى البابا . وكان إفلات غاريبالدى ورجاله ، عبر (جبال) الأبينانين إلى الشمال ، هو الفصل البطولى الذى ختم أول انطلاقة إيطاليا للظفر بالحرية .(١)

السياسة : إيطاليا وألمانيا:

بدا أن ثورات الناس فى سبيل الحرية ، قد أخفقت إخفاقاً تاماً . فقد رأى الوطنيون والديمقراطيون أمانيهم الحارة يحطمها القواد النمسويون والروس . ومع هذا فخلال ربع القرن الذى بدأ فى سنة ١٨٤٨ أصبح الإيطاليون أمة حرة متحدة يحكمها الملك فكتور عمانوئيل واتحد كل الممالك الألمانية والدوقيات ، فى إمبراطورية ألمانية موحدة يحكمها ولهلم الأول البروسى . وقد قامت فرنسا — أحياناً عن طيب خاطر وأحياناً على

(١) انظر شكل رقم — ١١ — (توحيد إيطاليا) .

عكس ذلك — قامت بدور قيادى فى تكوين إيطاليا. أما فى تكوين الإمبراطورية البروسية فلم يكن دورها عن طيب خاطر إطلاقاً . ولم تقم بريطانيا العظمى بدور فعال لأن دلتا الراين والطرق التجارية فى المحيطات لم يكونا فى خطر . وكانت حروبها حروباً صغيرة ، قاصية فى آسيا وإفريقيا ، اللهم إلا حرب ١٨٥٤ التى فيها شاركت نابليون الثالث فى حملة على روسيا كى تحمى تركيا ، وإلا عندما أبحرت سفن الحرب والنقل إلى البحر الأسود لتنزل جيشاً إنجليزياً فرنسياً كبيراً فى شبه جزيرة القرم . . . وهنا تطوع الوطنيون من كل الطبقات . ولم يحارب أحد فى شجاعة أكثر من الشجاعة التى حارب فيها ٢٥٠٠٠ إيطالى أرسلهم كافور وفكتور عمانوئيل ملك سردينيا ليحاربوا جنباً إلى جنب مع الفرق الفرنسية والإنجليزية . وقد رفعت شجاعتهم مملكة سردينيا البالغة الصغر إلى مستوى دولة أوربية كبرى ، مما أثار نفوذ النمسا . ولكن حدث أمر صدم النمسوين صدمة أكبر بكثير . ذلك أنه فى ١٨٥٩ أمر الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث — الذى تفاهم سراً مع كافور — أمر نابليون الثالث بإرسال جيش لغزو لومباديا وطرد النمسويين . وقد كفت موقعتان حاميتان — فى ماجنتا وسولفيرنيو — لتحقيق ذلك ، وأضيفت لومبارديا إلى مملكة ڤكتور عمانوئيل. وهذا العمل المفاجىء المفزع — الذى قام به نابليون الثالث . بوصفه رائد الحرية الإيطالية — استنهض همم وطنيى توسكانى وبارما ومودنيا ودومانا الذين طردوا ساداتهم النمسويين ووضعوا أنفسهم تحت ملك سردينيا . ولكى يتمم غاريبالدى — قائد تحرير إيطاليا البطل — العمل النافع شن ، مع فرقة متطوعيه ذوى القمصان الحمراء ، معركة مفاجئة فاصلة. وبمساعدة ماتزينى الأدبية وعون ڤكتور عمانوئيل الفعلى ، أبحر من مسقط رأسه ، مدينة جنوا ، وسط حماسة عظيمة . وقد صمم هو ورجاله انتزاع صقلية من نابولى . وكانت إيطاليا الشمالية وإيطاليا الوسطى تحت الحكم الفعلى لڤكتور عمانوئيل ، وبقى عليه أن يضم إيطاليا الجنوبية .

وقد فعل ... اكتسح قمصانه الحمر الأشداء المنطقة عبر صقلية ثم عبر البلاد الأصلية حيث دحروا أهل نابولى . وفى الوقت نفسه جاء الملك ڤكتور عمانوئيل راكباً صوب الجنوب ، ودخل هو وغاريبالدى ، نابولى ظافرين فى ١٨٦١ .

وعلى هذه الوتيرة توحدت إيطاليا كلها فى ثلاث سنوات . هذا بينما وزراء خارجية الدول الكبرى أخذوا يتابعون الأحداث — راضين ، أو قلقين ، أو منزعجين — تبعاً لما يحدوهم من آمال ومخاوف . قضى الأمر وولدت أمة جديدة . ولم يفلت من سلطان الملك غير جمهورية البندقية القديمة ومدينة روما . . . الأولى يحكمها — بعدُ — ذوو المعاطف البيض من النمسويين ، والثانية يحكمها البابا ويحميها جيش فرنسى .

وثبت فى مصاير هاتين المدينتين : الحوادث التى جرت فى شمال (جبال) الألب والتى كان العامل الأكبر فيها هو مستشار بروسيا الحديدى الكونت أوتوفون بسمارك .

وكانت بروسيا ـ منذما بدأت ، بلاداً تخومية معادية للسلاف الوثنيين ـ . وكانت دويلة حربية . وقد وجدت — وحدها من دون ممالك أوربا — فى فردريك الأكبر ملكا جندياً عبقرياً . وقام البروسيون بدور قيادى فى حرب التحرير ضد نابليون . وكان جيشها يقوده المارشال المسن بلوخر الذى توج وصوله إلى أرض المعركة فى ووترلو انتصار الحلفاء فى ١٨١٥ .

وكان بسمارك — وهو صاحب أرض پروسى ضخم جهم أضحى مستشاراً للملك ولهلم الأول فى ١٨٦٢ — رجلاً صلباً ، ثاقب الفكر ، فذ العقل فى السياسة ، متفانياً إلى أبعد الحدود فى خدمة هدفه وهو جعل ملكه سيد الألمان جميعاً ، وكان لا يؤمن بالبرلمانات ولا بالخطب وإنما يؤمن

بالقوة وحدها . وكان خير الحجج التي يقدمها : عبارته البليغة : « الدم والحديد » ومعناها : الحرب . وكانت بروسيا على أتم استعداد لها . وقد هيء جيشه — تحت إمرة الجندى العظيم فون مولتكى — لأن يصبح آلة متقنة للهجوم ، حسنة التدريب ، حسنة الإعداد ، يقوده أركان حرب بارعة حصينة ومثلما درس نابليون حروب فردريك الأكبر ، درس فون مولتكى وضباطه حملات الكورسيكى العظيم . وتوفر بسمارك على المدافع والحراب التي تكفل تنفيذ سياسته . ولكنه التزم بأن يدخل فى حسابه صداقة أو خصومة الدول الثلاث الكبرى وهى روسيا والنمسا وفرنسا .

وفى ١٨٦٣ أشعل البولنديون ثورة ضد روسيا . وتفضل بسمارك على روسيا بالسماح لجيشها باختراق الأراضى البروسية كى يسحق البولنديين الذين ردوا فوراً ، فى صرامة وقسوة ، إلى الخضوع .

وبعد هذا بسنوات ثلاث ضرب بسمارك ضربته ، بغتة ، فى قوة عظيمة فاحتل ، أول الأمر الدويلات الألمانية الشمالية ، ثم حمل على النمسا . ودحر البروسيون النمسويين عند كونجراتز فى سنة ١٨٦٦ ، وكانت هذه الهزيمة الواحدة كافية . ودامت الحرب سبع أسابيع ليس غير . وأصبح البروسيون هم السادة المعترف بسيادتهم على هانوفر وكل شمال إيطاليا ، وأصبحت مملكتا بفاريا — و — فورتمبرج الجنوبيتان حليفتين . وفى غزوة خاطفة اغتصب ملك بروسيا (الذى ينتمى إلى آل هوهنزولرن) زعامة الشعب الألمانى من إمبراطور النمسا (الذى ينتمى إلى آل هابسبورج) ، والذى حكمها أسلافه منذ القرون الوسطى . واستفادت سردينيا . ذلك أن بسمارك — فى مقابل بضعة هجمات ، محدودة النجاح ، على الجيوش النمسوية فى إيطاليا — قضى عند الصلح ، بأن تسلم النمسا إلى الملك فكتور عمانوئيل ، البندقية وتوابعها .

وفى سنة ١٨٧٠ كشف بسمارك عن غاية مقصده وذلك عندما غزت فرنسا ثلاثة جيوش بروسية . وكان نابليون الثالث هو الذى أعلن الحرب بالفعل ، غير أن بسمارك هو الذى هيأ الفرصة واستفز فرنسا ، وحول مولتكى وقواده البارعين ، حولوا الحرب لمصلحتهم وقد حارب الفرنسيون فى شجاعتهم التقليدية . ولكنهم كانت تعوزهم القيادة الحازمة . وأظهرت هذه الحرب الفرنسية البروسية سطوة الجيش الألمانى الذى حركته إرادة موحدة إلى النصر ، إلى النصر الخاطف واستسلم جيش فرنسى فى (سيدان) وآخر فى متز،وكان نابليون الثالث بين أسرى الحرب، وحاصر البروسيون باريس واستولوا عليها .

وفى ١٨٧١ ، فى قصر فرساى ، نودى بالملك ويلهلم الأول : أول إمبراطور (قيصر) للإمبراطورية الألمانية . وكان فى فرنسا شيوخ دخلوا بروسيا تحت قيادة نابليون الأول، وشيوخ فى ألمانيا قاتلوا نابليون الأول فى حرب التحرير .

وأكرهت فرنسا على أن تسلم الألزاس واللورين إلى الإمبراطور الألمانى الجديد . وأدت الحرب ، مباشرة ، إلى استكمال المملكة الأيطالية الجديدة ذلك أن نابليون الثالث اضطر إلى سحب جيوشه من روما، التى احتلها فوراً فكتور عمانوئيل ، وأصبحت روما التى كانت ، فى مدى ١٨٠٠ سنة ، العاصمة الدينية للمسيحية، أصبحت روما العاصمة الوطنية لإيطاليا . وبما أنه لم يكن فى حيز الاحتمال أن يمس البابا من رعايا أى ملك دنيوى فقد انسحب بيوس التاسع إلى ذلك الجزء من روما المعروف بمدينة الفاتيكان التى ظلت تحت حكومة ، خارجة تماماً على منطقة حكومة الملك .

وأدى كرب الفرنسيين وغضبهم بسبب الهزيمة ، إلى ثورة الوطنيين والاشتراكيين فى باريس . فوضعوا المدينة تحت إشرافهم واختاروا

حكومتهم الخاصة . وشهد الجيش الألمانى المنظم الجيش الفرنسى يحاصر العاصمة ويحارب ليدخلها . وفى ستة أسابيع من الكفاح المرير فقد الآلاف أرواحهم ونهب الكثير من المبانى وأحرق . وبعد إقرار النظام وضع دستور برلمانى اتفق عليه السياسيون الذين صاغوه — ما وسعهم الجهد — على غرار الدستور البريطانى . واتجهت نيتهم ، أول الأمر ، إلى استعادة الملكية القـــديمة ، ولكن الفرنسيين استقروا ، آخر الأمر ، على رئيس جمهورية . وكانت تلك هى الجمهورية الفرنسية الثالثة .

كانت هذه هى الأحداث العابسة التى أذنت بدخول الإمبراطورية الفرنسية التاريخ الأوربى والعالمى .

وفى السنوات الأربعين التالية (من ١٨٧١ إلى ١٩١٤) ظل الهيكل السياسى لأوربا الغربية على حال لم يتغير . . . كان هناك الإمبراطوريات البرية العظمى الثلاث (روسيا بروسيا والنمسا) والمملكة الإيطالية الجديدة وجمهورية فرنسية جديدة . ولقد أخذ يتزايد فيها جميعاً باطراد : السكان والثروة والصناعة والتجارة . واحتفظت جميعها بجيوش كبيرة متأهبة للقتال . وعاشت فى سلام وتأهبت للحرب . وكانت فى الجنوب الغربى مملكتا أسبانيا والبرتغال لم تمسسها تلك الأحداث . وفى الجنوب الشرقى : أملاك تركيا المتأخرة التى ضيعها الإهمال والاستبداد والكسل وعدم الكفاية . وانهمكت بريطانيا العظمى — سيدة البحار والتجارة البحرية — فى الصناعة والتجارة عبر البحار وفى المستعمرات .

وتأججت أوربا بالسلاح ولكنها لم تطلق ، عند الغضب ، طلقة واحدة ... حدث فى الإمبراطوريات البرية الثلاث أن الأرستقراطية — مالكة الأرض — حكمت فلاحى الريف ، وأن أهل المدن أخذوا

يجادلون فى الاشتراكية ويتساءلون بأى حق تحكم شعوب شعوباً أخرى ، لا لسبب سوى وراثة الحكم أو الثروة . إلا أن تلك الأعوام الأربعين كانت عهد رخاء مطرد وتعاون مطرد بين الأمم . وبدا محتملاً أن الأمم الأوربية — بالحكمة والمصابرة — قد تقاد إلى التقليل من أسوار التخوم ومن سوء التفاهم ، وذلك إلى أن يتسنى لهم أن يعيشوا فى سلام بوصفهم أوربيين ، تماما كما فعل مواطنو بلادهم الأولون تحت حكم خير أباطرة الرومان .

السياسة : روسيا والثورة :

خلافاً للبلاد الغربية ، لم ترضع روسيا قط ابان أية مدنية قديمة . ولم تكن كنيستها — اليونانية الأورثوذكسية — تهتم قط بنشر العلم أو المدنية ، ككنيسة الغرب اللاتينية الكبرى .

كانت روسيا مترامية الأطراف وكان أهلها متأخرين . وكان أغلبهم عبيداً يعيشون فى مجتمعات قروية يدفعون مكوساً للنبلاء مالكى الأرض . وكان هناك طوائف قليلة من التجار ورجال الأعمال والصناعة . وكانت الحكومة — فوق كل شيء — استبدادية ، وقيصرها أكبر سطوة من قياصرة الرومان الذين حمل لقبهم . فلقد كان حامى الكنيسة المقدسة ، وأبا الشعب ، والحاكم المطلق على كل الروسيين ، وكانت إرادته هى القانون .

ووالى خلفاء بطرس الأكبر — فى هوادة — « تغريب » بلادهم ، ونخص بالذكر منهم القيصرة — الألمانية المولد — كاترين الكبرى وقد تأثرت — أكثر ما تأثرت — بفرنسا لأن فرنسا سبقت أوربا فى الفنون فى القرن الثامن عشر وعلمت نبلاء الروس كيف يتكلمون الفرنسية . أما انتماء روسيا للمجموعة الأوربية أو « جوقة » الدول الكبرى فقد اتضح فى عهد نابليون ، من وجود جيوش القيصر تعمل فى ألمانيا وإيطاليا . وزاد الأمر وضوحاً عندما حضر

القيصر — الأسكندر الأكبر — مؤتمر الصلح فى فينا عام ١٨١٥ ،وأعان الإمبراطور النمسوى — بعد ذلك — على إخماد الفتن . وكانت روسيا متأهبة للأفكار الغربية .

ولقد كان للأفكار التحررية — الصادرة عن الرجال الذين صنعوا الثورتين الأمريكية والفرنسية — كان لها صدى فى كل أوربا خلال القرن التاسع عشر : ينبغى للناس جميعاً أن يتحرروا ليستمتعوا بالحياة والفراغ فى ظل قوانين عادلة تسوى بين الناس ، غير خائفين، معبرين عن آرائهم فى صحافة حرة ، مشاركين بعض المشاركة فى حكم بلادهم ... اعتملت أفكار كهذى فى صدور بعض النبلاء والطلبة الروس وجسمت الفروق بين عيشة السادة الروس البهجة الفارغة وبين العيشة التاعسة للعبيد الروس الذين أعوزهم التعليم والذين كانوا مرتبطين بحقولهم ، والذين كان لسادتهم الحق فى جلدهم حتى لكأن روسيا كانت ملتقى القرنين التاسع عشر والتاسع. ولم تكن هناك طبقة وسطى كالتى نشأت فى القرون الوسطى بفرنسا وإنجلترا لتصل ما بين طرفى المجتمع .

ولقد قام الفلاحون - قبل سنة ١٨٠٠ - بثورات خطيرة كثيرة . وفى الثورة الأخيرة منها - التى قادها مغامر قوزاقى اسمه يوجاشيف ما بين ١٧٧٣ و١٧٧٥ — قتل مالا يقل عن ألف وخمسمائة من ملاك الأرض . وعند تولى نقولا الأول العرش فى ١٨٢٥ ثارت جماعة من ضباط الجيش ذوى الميول التحررية، وقمعت ثورتهم. وكشف نيقولا عن أنه مستبد عنيد لا يلين يود أن يسيطر على بلاده كما قد يسيطر قائد عام على جيشه .واستمرت ثورات الفلاحين وفيما بين ١٨٤٥ و ١٨٦٠ هبت فى أماكن عديدة نحو ١٨٠٠ انتفاضة هلك فيها أكثر من ٣٠٠ من ملاك الأرض . ولكى تقاوم الحكومة تلك

الخلفية من الاضطراب والعنف نظمت شرطتها السرية وشبكتها من الجواسيس واستخدمت فيافيها فى سيبيريا منفى لمثيرى الفتن ولسيئى الحظ الذين يشى بهم عملاء القيصر . ثم حدث أن الأمر الذى قدر له أن يأتى بالخير العميم ، قد خلف البلبلة والقلق. ذلك أن القيصر الأسكندر الثانى ،الواسع الأفق، عندما أعتق العبيد — أى « حررهم » ، فى سنة ١٨٦١ أضحى خمسون مليوناً منهم أحراراً بالفعل . ولكن النتيجة فى الغالب أسفرت عن أنهم لم يستطيعوا العيش من الفدانين اللذين وزعتها الحكومة على كل منهم . حقاً لقد كانوا أحراراً فى أن يهيموا إلى البلدان حيث يصبحون عمالاً أو عاطلين لا يملكون أرضاً . وإذن فقد خلخلت لائحة ١٨٦١ ، هذا المجتمع الروسى من جذوره وأصلح الأسكندر الثانى كذلك المحاكم ، وأنشأ مجالس محلية لتدبير الشئون المحلية . غير أن دعاة الإصلاح ، الذين يطالبون بما يفوق هذا كثيراً ، خاب أملهم فى هذه التغيرات كما أن أهل الطراز القديم - بطبيعة الحال - أغضبهم أى تغيير ثم إن قضية دعاة الإصلاح - الواسعى الأفق - لم تستفد من قتل الأسكندر الثانى فى ١٨٨٤ . فقد استمرت الفوضى طوال السنوات الأخيرة من القرن ، وزادت الأحزاب الثورية وكثر عدد أعضائها . وكان من بين هؤلاء دعاة الإصلاح المألوفون المماثلون لمتطرفى بريطانيا الذين يطالبون بإصلاح جدّى وفقاً للمبادىء الحرة وكان هنالك أيضاً نوعان من المتطرفين هما الفوضويون والشيوعيون .

فالفوضويون هم الذين يئسوا من إصلاح الحكومة أو من تحسينها إلى حد أنهم رغبوا فى القضاء على كل الحكومات وكل الحكام . وعندهم أن أية قنبلة يرمى بها أى حاكم أو أى صاحب سلطان ، أمر مستحسن . ولا ريب فى أنه لو كان الناس جميعهم كاملين لما اشتدت الحاجة إلى حكومة . والشيوعية معناها جعل كل الأشياء على الشيوع وتوزيعها بالتساوى . إنها نوع متطرف من الاشتراكية معناه تمليك الأراضى والصناعات للشعب وإشرافه عليها ،

وذلك لضمان توزيع خيرها على الجميع توزيعاً عادلا. وقد نودى بالاشتراكية فى إنجلترا وفرنسا فى عهد مبكر جداً، وكانت المشاركة فى الملكية والعائد من الأمور المألوفة. وثمة مثل طيب للمشاركة فى الملكية والعائد، تجده فى الجمعيات التعاونية التى تملك وتدير متاجر كبيرة وتوزع الأرباح على أعضائها. غير أن كارل ماركس — وهو يهودى ألمانى أتى ليعيش فى إنجلترا — ابتدع نوعاً متطرفاً من الشيوعية، وبشر له بحماسة بالغة قائلاً بأن كل تاريخ الإنسان كان نزاعاً عديم الرحمة بين من يملكون ومن لا يملكون وبأنه ينبغى لكل الفقراء أن يخلقوا الفتن والارتباكات ليعجلوا بتحطيم المجتمع كى يقيموا مجتمعاً لاطبقياً. قال: وعلى أية حال فلم يكن بد من مجىء هذا المجتمع اللاطبقى لأن ذلك النمط من المجتمع الذى فيه يستطيع الناس أن يصبحوا أصحاب ملايين، لامفر له من أن يتحطم. وينطوى مذهب ماركس على كثير من الحقد وبعض الأفكار المشوشة. ومع ذلك فقد توجه بنداءين الأول — وذلك أمر طبيعى — إلى الموطئين بالأقدام والمنكوبين. والثانى إلى ذوى الهمم الغيورة الذين أحسوا بأنه ينبغى لهم أن يضطلعوا بمطالب الأجيال جميعاً وأن يصبحوا رسل القدر، تدفعهم الحمية المقدسة إلى أن يصححوا أخطاء الإنسانية. ولكن من سوء الحظ أنهم اعتقدوا أيضاً أنه لا مانع من ممارسة الكذب والقسوة فى سبيل الوصول إلى غاية موادهم، وأن الغاية تبرر الوسيلة. والشيوعيون الماركسيون لا يأبهون للأخلاق المثالية. والمهم الذى يستحق الملاحظة هنا هو أن ماركس استثارته وأبلغت غضبه إلى مداه — على نحو ماحدث لأناس لا حصر لهم — آثام الثورة الصناعية فى إنجلترا، وأنه علق كل آماله على عاطلى المدن الذين لايحذقون مهنة ما. وهؤلاء المنكودون هم نتيجة من نتائج المدنية الحديثة. وكان هناك أناس من أمثال وليم موريس، تطلعوا إلى بناء مدنية جديدة أساسها عيش

المواطنين عيشاً سعيداً . وماركس ليس كذلك فهو لم يفكر فى الفلاحين على أنهم مواطنون فى دنياه المثالية ، وقد رأى شيوعيته تبدأ فى الغرب فى المدن وفى الأوساط الصناعية الكبيرة .

وفى الوقت نفسه كانت البلاد التى اطـّرد فيها التأهب للثورة هى روسيا . استمرت تمردات العمال وإضراباتهم . وكانت صناعاتها، طوال الوقت، تتزايد رويداً رويداً .. فى بعض الأحيان بمساعدات مباشرة كتلك التى يقدمها أناس كجوون هيوز الذى أسس مصانع الحديد بـ كريفوى . . . وفى بعض الأحيان بقروض طويلة الأجل ، مصدرها بوجه أخص ، الفرنسيون الذين أعانوا الروس على بناء سككهم الحديدية وغيرها من المرافق العامة . وكانت هذه القروض إحدى نتائج التحالف التدريجى بين فرنسا وروسيا بعد الحرب الفرنسية البروسية (فى ١٨٧٠) وذلك وقتما بدأت الدولتان تخشيان القوة الحربية الضخمة التى تملكها الإمبراطورية الألمانية .

وروسيا معناها الآن كل البلاد التى تحكم من موسكو ، وهى المدى الممتد من التخوم الألمانية ، إلى حدود الصين. إلى شواطىء المحيط المتجمد، إلى هضاب إيران وجبال القوقاز . وروسيا تمتد فى قارتين . ولم يبدأ روس المناطق المحيطة بـ .. كييف وموسكو فى بسط سلطانهم فى أوربا وإفريقيا حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكما أن الأمريكيين استعمروا قارتهم متجهين غرباً من الشاطىء متابعين الحدود المضطربة صوب مغرب الشمس عبر الغابات والبرارى والصحارى . كذلك استعمر الروس قارتهم مع فارق أنهم بدؤا من الداخل وتحركوا إلى الخارج، شمالاً وشرقاً وجنوباً ... أول الأمر ، أهل الغابة : القناصون وصائدوا الفراء وصيادوا السمك ، ثم الرعاة والفلاحون الذين قطعوا الأشجار على طول جداول المياه كى يربوا الماشية وغلة البراكة (وهى نبات كالشعير) ، ثم

المعدنون يتقصون عروق الحديد والرصاص ، ثم موظفو القيصر يبسطون سلطانه على البلاد الجديدة . وكانت هنالك حروب . وربت روسيا — كما ربت أمريكا — قبائلها التخومية : جماعات من الخيالة مستقلة شـــديدة المراس ترتاد بعيداً طولاً وعرضاً ، وترعى سائمتها ويصعب ترويضهم على الحيـاة المستقلة . والتاريخ يعرفها جيداً باسم قوازق (نهرى) الدون والفلجا .

وإلى ســـنة ١٧٧٥ لم يستطع القيصر أن يخضع البواسل تتار منطقة الفلجا الوسطى الواقعة على هـذا الجانب من جبال الأورال . كما أنهم — إلى ١٧٨٣ - لم يستطيعوا أن ينتزعوا شبه جزيرة القرم من الأتراك . . . أعدائهم الذين حاربوهم إحدى عشرة مرة .. ثم إنهم إلى الأعوام القليلة التالية لسنة ١٨٦٠ لم يتغلبوا على مقاومة رجال چورچيا والقوقاز . وأسسوا ميناء فلاديفوستك على ساحل المحيط الهادى ، فى ١٨٦٠ . ولم يتم إنشاء سكة الحديد التى تعبر سيبيريا حتى ١٨٩٨ ، وحتى عندئذ كان جزء منها يعبر الأراضى الصينية . ولم يكمل خط روسيا كلها حتى ١٩١٦ .

ولقد أزعج توسع روسيا فى آسيا عساكر البريطانيين الذين هالهم احتمال مثابرة تدفق الجيوش الروسية — عبر أفغانستان — هابطين أودية الهند . والواقع أن الأسد البريطانى والدب الروسى كانا يتنافسان على محالفة الأفغان . وكان من نتائج التوسع الروسى فى الشرق الأقصى : الحرب الروسية اليابانية فى ١٩٠٥ . . ذلك لأن اليابان كانت ، هى أيضاً ، دولة استعمارية تسعى إلى مد نفوذها فى أراضى آسيا الأصيلة . وقد منى جيش روسيا وبحريتها بكوارث فادحة على يد اليابانيين . فقد أبحر الأسطول الروسى المرابط فى بحر البلطيق الطريق كله إلى الشرق الأقصى لا لشىء إلا لتفرقة البحرية اليابانية

وهذه الهزيمة المهينة شجعت تمرد الساخطين ، إذ ثبت — كما حدث

فى حرب القرم — أن حكومة القيصر كانت كليلة متعفنة مستبدة . ورمى بالرصاص مئات المتمردين فى سنت بطرسبرج (لنينجراد الآن) وقامت فى موسكو ثورة مسلحة وخرج — فيما بعد — ثلاثة ملايين من العمال مضربين عن العمل وأكرهت هذه القلاقل القيصر على منح دستور وبرلمان (مجلس الدوما) . ورغم هذا قام الفلاحون — وكان عددهم عندئذ ٧٥ مليونا — باضطرابات واسعة الانتشار فى سنة فى ١٩٠٦ . وظلت الإضرابات — والرمى بالرصاص — تنشط العام بعد العام حتى ١٩١٤ . وكانت روسيا بلاد الاغتيالات والمؤامرات والشرطة السرية والقبض السرى .

وكانت — بعد — فى حالة قلق مزمن وعلى حافة الثورة عندما دخل القيصر الحرب الأولى ضد ألمانيا حليفة لفرنسا . وأثارت الحرب حماسة الوطنيين من كل الطبقات : النبلاء ، والعمال ، والفلاحين . ولاح أول الأمر أن روسيا التى يساعدها الحلفاء الأقوياء قد تدرك — عن طريق النصر — عصر أحسن وأسعد .

التوسع :

ومن دواعى الأسف أن العالم — من الصين إلى بيرو — نزع إلى ارتداء الملابس القائمة التى اخترعها الأوربيون بعد الثورة الفرنسية . وإنا لنصدر عاداتنا فى سهولة تفوق السهولة التى بها نصدر مزايانا الحضرية أو ديننا . وتحويل أحد سكان شبه جزيرة الملاى أو بلاد الزولو إلى ميكانيكى ، يلبس كساء عمل قاتماً أسهل من تعويده على اتباع الفضائل الدينية مع رفاقه . وكثيراً ما نظن أن الرجل الذى يمسك بندقية أو الذى يلبس بذلة ذات سترة وسراويل يكون أكثر تمدناً من رجل يمسك بخنجر ولا يكتسى غير متزر .

وكانت قوتنا العظيمة — بطبيعة الحـــال هى التى تركت انطباعاتها على غير الأوربيين ، وذلك منذ روع كولومبس سكان (جزائر البحر) الكاريبى ببندقيته . ويبدو أن فى هذه البندقية — وفى ترفنا وآلاتنا — سحر الرجل الأبيض . وقد يكون فيها سحرنا نحن أيضاً ولكن السحر الحقيقى للرجل الأبيض أعمق من هـذا . إنه ينبع من حكمة الإغريق (ومن التوراة) ومن قوانين روما .

وقد قضى الأوربى أربعة قرون فى الارتحال بحراً إلى كل أجزاء الدنيا ، يتاجر ويبحث عن أسواق ويتسلط على قارات نصف فارغة وعلى جزائر استوائيـة ويعيش على الثروات الطبيعية للمناطق الاستوائية كالسكر والقطن والأرز والبهار والشاى والقهوة والمطاط . والحكاية منوعة ، بطولية ، فظيعة ، قاسية كالحياة الإنسانية ذاتها . إنها حكاية أمم متفرقة ، ومغامرات متفرقة ، وشركات تجارية متفرقة ، وكنائس متفرقة — عدائية فى بعض الأحيان — كلها يكافح بعضها بعضاً . وهذه المغامرة المتعددة النواحى التى صنعتها الشعوب البيضاء مع الشعوب السمراء والسوداء والصفراء مبعثها دوافع من كل صنف ، ابتداء من « الجوع اللعين إلى البحث عن الذهب » إلى حمية نشر الدين الخالصة . لقد صدرنا حروبنا وضغائننا . هذا بينما أن الرومان عنـدما ملكوا إمبراطورية برية كبيرة ، كانوا غالباً ما يرسلون إلى الخارج خير رجالهم لحكم الأقاليم ، بل إن أباطرتهم كانوا يعنون شخصياً بالمسائل الإقليمية . أما الأمم الأوربية فقلما أرسلت سياسييها البارزين ليحكموا فى الخارج . وكانت مغامراتهم البحرية — إلى حد كبير — عفوية تعتمد على المصادفات .

التوسع : قصة الإمبراطورية والسلم البريطانى :

كانت الأمم الخمس التى امتلكت إمبراطوريات عبر البحار هى :

البرتغال وأسبانيا وهولاندا وفرنسا وبريطانيا . وفى ١٨٣٠ كان الموقف كما يلى :

فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية . والبرتغال فقدت البرازيل . وأسبانيا فقدت أملاكها فى الأمريكتين الجنوبية والوسطى . والأمم الجديدة التى تحررت من سيطرة أوربا بقيت تحمل طابعها السابق : لغة الولايات المتحدة وقوانينها بريطانية . ولغة البرازيل وقوانينها برتغالية . ولغة سائر جمهوريات أمريكا الجنوبية وقوانينها ، أسبانية .

وقد شملت الإمبراطورية البرتغالية فى أوج سلطانها - فوق البرازيل - بضع عشرات من المواقع التجارية المحصنة على طول السواحل الإفريقية وفى مواضع متفرقة من المحيط الهندى ، استولى الهولانديون على أغلبها ولم يتركوا للبرتغال غير محطات قليلة مثل ديو — و — جوا فى الهند . أما الأملاك البرتغالية الحالية فى شرق إفريقا وغربها فقد تخلفت عن الأيام التى فيها كان ملوك البرتغال أرباب البحار الشرقية وسادة الطريق البحرية إلى الهنـد .

واستولى الأسبان على جزر غنية كثيرة غير أن جاميكا أخذها منهم البريطانيون فى ١٦٥٥ ، وترينيداد انتزعتها بريطانيا فى ١٧٩٧ ، وكوبا (فى جزائر الهند الشرقية) والفلبيين (فى المحيط الهادى) استولت عليها بريطانيا فى ١٧٦٢ ثم أعيدت إلى أسبانيا . وقبل هذا بكثير — فى ١٧٠٢ — استولى البريطانيون على الطرف الجنوبى من أسبانيا نفسها ، جبل طارق ، الذى مايزالون يحتفظون به على أنه حصن .

وكان الهولانديون ، فى يوم من الأيام ، قد أنشئوا مدينة باسم نيو أمستردام استولى عليها البريطانيون وأطلقوا عليها اسما جديداً : نيويورك

وهى ميناء جميل ذهب مع بقية المستعمرات الأمريكية عندما ثارت فى ١٧٧٦.
وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية الشهيرة — التى طردت البرتغاليين
من الشرق — كانت «دولة» فى حد ذاتها : تعلن الحرب وتعقد الصلح ،
وتسك عملتها الخاصة ، وتوفد ملاحين ذائعى الصيت ليرودوا البحار
الجنوبيـــة ويستكشفوا شواطىء أستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا . بل
إن الأسطول الهولاندى كانت له أسطورته المرعبة — حكاية الهولندى
الطائر — وموضوعها ســـفينة مجهزة أحسن تجهيز رؤيت تنساق أمام
العاصفة وقد مات ملاحوها جميعاً بداء الجرب وهذا منظر ترتعد له البحارة
الذين يتأثرون بالخرافات . وكان قلب الإمبراطورية الهولندية : جاوة
وجزائر الهند الشرقية الاستوائية المليئة بالثروة الطبيعية . وهذه كلها أخذتها
بريطانيا فى ١٨١١ وأعيدت كلها إلى هولاندا . أما المواقع الهولاندية التى
أخذتها بريطانيا واحتفظت بها فكانت : ملكـّا فى ١٧٩٥ ، وسيلان فى ١٧٩٧ ،
ورأس الرجاء الصالح فى ١٨٠٩ .

وقد طردت شركة الهند الشرقية الإنجليزية الشركةَ الفرنسية من أرض
الهند الأصلية فى حرب السنوات السبع واستبقى الفرنسيون مستعمرات
ساحلية صغيرة مثل بندتشرى — و — شاندرناجور . واستولت بريطانيا
على جزيرة موريشاس واحتفظت بها . وكذلك استولت على المستعمرتين
الفرنسيتين الهامتين : نوفا سكوتشا وكندا . واستولت على جزيرتى السكر :
الجوادلوب — و — المارتينيك ، استولت عليهما وأعادتهما إلى فرنسا مالا يقل
عن ٤ مرات .

وعندما اتهم روبرت كلايف بأخذ نقود من الهنود دفع الحجة بأنه
عندما فكر فى الأمر ذهل من اعتداله . وربما جاز لإنجلترا أن تقول مثل
هذا القول . ذلك أن الأملاك التى ردتها لأمم أخرى تساوى ثروات

لا تحصى . وحتى إذا صح ذلك فأن إمبراطوريتها فى ١٨٣٠ فاقت كل أحلام الإمبراطوريات ولا معدى عن أن نضيف إلى الأملاك التى سبق ذكرها : مالطة وبرمودا وجزائر البهاما وغيانا ، ونيوفاوندلاند ومنطقة خليج هدسون — اللتين تمتدان امتداداً لانهائياً عبر البرارى وشمال كندا المتجمد — وأستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا وجزر كثيرة فى المحيط الهادى . وإلى هذه احتفظت بحصون على ساحل إفريقيا الغربى هى محطات قديمة لبيع الرقيق حررها الآن ، من حسن الحظ ، قانون ١٨٠٦ الذى حرم تجارة الرقيق . وفوق هذا كان تجار شركة الهند الشرقية سادة البنغال وأكثر من ذلك ، سادة شبه جزيرة الهند .

ولم يكن البريطانيون المستعمرون وراء البحار بالغى الكثرة وإنما كانوا بضعة آلاف من الأمريكيين الموالين فيما نسميه الآن أونتاريو ، وبضعة آلاف من الجنود السابقين فى نيوبرنزويك وفى رأس الرجاء الصالح ، وزراعا قليلين فى جزائر الهند الغربية ، ومستعمرة مجرمين فى نيوساوث ويلز مع قليل من رعاة الغنم . وكانت غالبية رعاياها البيض ، المقيمين عبر البحار ، من الأجانب : هولنديى الكاب (البوير) فى جنوب إفريقيا ، وكنديين فرنسيين كاثوليكيين حول منتريال — و — كويبك .

وإمبراطورية بريطانيا — كإمبراطورية البندقية — خلقتها التجارة ، وهى من عمل بحارتها وتجارها . وقد كتب تاجر بريطانى كتاباً أسماه « كنوز إنجلترا من التجارة الأجنبية » ، وهذا عنوان يوضح ما وراءه وأنذر نبيل إنجليزى مواطنيه بقوله « أنظروا إلى خندقكم المائى : ينبغى أن تكون أول مادة فى عقيدة البريطانى السياسية أنه يؤمن بالبحر » . وكانت الكتب التى يقرؤها صبيانها : « رحلة حول الدنيا » للورد آنسون ، وتلك الحكايات المثيرة عن جزر نائية مثل : « روبنسون كروزو » و « رحلات جلليفر » .

وفيما بين ١٨١٥ و١٩١٤ كان سلام بريطانيا فوق جميع البحار . فقد مخرت بحريتها لا يتحداها أحد.وأخذت سفنها التجارية وسفن بلاد أخرى تذهب وتجيء لا يمنعها أحد فى الظروف المشروعة ، ولم يكن لها منافسون فقد استغرق الهولانديون نشاطهم فى إمبراطوريتهم الخاصة المستكفية الغنية بالتوابل . وكانت فرنسا ما تزال تنشد كيف تحكم نفسها . ولم توجد ألمانيا ولا إيطاليا قبل ١٨٧٠ . وحكمت بريطانيا حكومة وطيدة الأركان ، حكومة قادرة ومستعدة لتحسين حالها . وتمتعت بريطانيا — أجيالاً — بسلام داخلى حقيق لأن الحروب الأهلية لم تضيعها . وكانت لها تقاليد قديمة فى التجارة وقد جمع مواطنوها ثروات.وفى القرن الثامن عشر أبدوا المذهلات فى النشاط والاختراع والصناعة التى جعلتها مصنع العالم . فلا عجب إذن إذا كانت إمبراطوريتها قد امتدت على بلاد متخلفة أو خالية .

أما كيف أصبحت مستعمراتها أمماً تحكم نفسها، وكيف نظمت وحكمت الهند ، وكيف استولت على أراض شاسعة جديدة فى آخر قارة أميط اللثام عنها — وهى إفريقيا — فذلك أحد موضوعات البحث الكبرى فى تاريخ القرن التاسع عشر .

التوسع : المستعمرات البريطانية المستقلة :

حول كويبك ومنتريال وقعت المستعمرات الفرنسية التى أقيمت فى القرن السابع عشر : فرنسا جديدة استوطنها فلاحون أشداء وحضريون من نورماندى ، عاشوا عيشة بسيطة باسلة فى تلك البلاد النائية التى تتوافر فيها الغابات والمياه التى تبعد مائة ميل عن عرض البحر . وهناك حموا قراهم من الهنود ، وفلحوا الأرض كما فلح أسلافهم أرض فرنسا القديمة ، وغنوا أغانى وطنهم المفرحة ، ورحبوا بالمسافرين العائدين من فلوات البحيرات وجداول المياه فى الغرب والشمال .

وفى شبه جزيرة نياجرا جاء المهاجرون الأمريكيون ليستوطنوا ، وقد حدث ذلك خلال تمرد المستعمرات الأمريكية على جورج الثالث . وكابد أولئك الوافدون الجُدُدُ مشقةً عظيمة ، بادِئينَ الحياةَ مِن جديد فسكنوا العششَ ، واستَنْبَتوا الزراعات الشحيحة المحصول ، وطحنوا غلالهم بالأيدى إلى أن وافتْهم مؤَنٌ وأكسيةٌ وآلاتٌ مِن بريطانيا .

وقد اختلفت هاتان المستعمرتان — كندا العليا وكندا السُّفلَى — اختلافاً بيناً فى اللغة والقوانين والدين والعادات . وبينما كانت الواحدة بلداً مغلوباً ، كانت الثانية تدين بالولاء ، إلى درجةٍ خيالية ، إلى حدٍ جعلهم لايكادون يُرَحبون بأيّة جماعةٍ جديدةٍ مِن المستعمرين البريطانيين ، وهذا يخالف الترحيب الحار الذى يلقون به « مواطنى » كويبك الفرنسيين .

ولمّا بلغ التذمُّر فى المستعمرتين إلى حد التمرُّد فى ١٨٣٧ أبلغ اللود ديرْهام — الذى أرسل ليستقصى الأمور — أنه وجدَ « أمَّتين تعتركان فى حِضْنِ ولايةٍ واحدة . وكان علاجه المقترَحُ هو أن يَتحدا فى ظل حكومتهما المختارة لكى يَندْرُجُوا على الازْدهاء بقوميتّهم وقد سُوِّىَ هذا ، ونجح برغم كثير من العقبات ، ويرجع أكبرُ الفضلُ إلى حصافة الحاكم . وكان الزمنُ يتغيَّر مسرِعاً .. أخذتْ بواخرُ خط (ألَن) الجديدة تنقل مستعمرين جدُداً فى العَقدين السادس والسابع ، وتضاعف السكانُ فى فترةٍ وجيزة . وأنشئت سككٌ حديديةٌ تصلُ كنجزْتن — و — كويبك بالأطلنطى . ورأى بعضُ بعيدى النظر أنّ « الأمتين » الكنديّتين — ومقاطعتى نوفا سكوتْشيا - و — نيوبرانزْوِيك ، وأراضى شركة خليج هدْسون الغربية والشمالية الشاسعة المهجورة — ينبغى لها جميعاً أن تنتظمَ فى اتحادٍ سياسىٍّ مُوحَّد وأن ترتبط كلها بسكة حديدية عبْر القارّة . وكانت الحرب الأهلية الأمريكية إنذاراً بالخطر ، ذلك لأن الكنديين لم

يُرْضِهم وجود دولة قوية التسلّح على تخومهم الطويلة الموحشة . وفى سنة ١٨٧٠ انحدر الخيالة — الذين سبق لهم أن أخمدُوا عصياناً قام به أنصاف المولدين فى منطقة النهر الأحمر — راكبين عبرَ البرارى إلى سفوح الروكى (الجبال الصخرية) ، فى جولة استكشاف هامة . وقد صار أولئك الخيالة نواةً للشرطة الكندية الراكبة .

وفى ١٨٨١ — على طول الطريق الممتد بين البحيرات الكبيرة وساحل المحيط الهادى — أخذ نحو تسعة آلاف عامل يشتغلون فى الخط الحديدى الكندى الباسيفيكى . وقد وجدت بينهم فِرَق لنحت المدرّجات وثانية لنحت الأنفاق ، وثالثة لتسوية الدروب ، ورابعة للديناميت ، وخامسة لتشييد الجسور ، تعيش كلها فى مخيّمات وتَطْعَم على قطعان البهائم التى تمشى مشياً وئيداً مُصَعِّدَةً من السُّهول الأمريكية إلى مكان العمل ولم يحدث إخلال بالنظام ولا هجومٌ من الهنود ، ويرجع الفضل فى هذا إلى الشرطة الراكبة الكندية . وتقدّم العملُ — عاماً بعد عام — على طول السهول وفى الأماكن العالية الموحشة بالرُّوكى (جبال الصخور) حيث شارك آلافٌ من العمال الصينيين فى تسوية الدروب وحيث طرحَ المهندسون جسوراً مصلبة على صقائل فوق الأودية الضيقة . وأخيراً ، فى ١٨٨٥ ، تلاقت الخطوط الآتية من الشرق والغرب فى ممر إيجل (أى النسر)، وكملت الشرايين الفولاذية للمستعمرة المستقلة الكندية الجديدة.

واحتلت البرارى التى تنبت الحنطة وأخذت حقول الألبان والفواكه الواقعة على سواحل المحيط الهادى . وقد حدث ذلك على مهل أول الأمر ثم تدرج فى السرعة . ولم تبق ثمةَ ضرورة للاستدارة حول رأس هورن (أى القرن) للوصول إلى ڤانكوڤر . وقد تأسست مستعمرة كندا المستقلة فى ١٨٦٧ . وانضمت مانيتوبا فى ١٨٧٠ ، وكولومبيا البريطانية فى ١٨٧١... على شرط أن تمد السكة الحديدية . وكمل الإطار السياسى فى ١٩٠٥ عندما

أمست ألبرتا — و— سسكتشوان مقاطعتين . وامتدت الدولة الاتحادية الجديدة من المحيط إلى المحيط كما امتدت شمالا عبر الفيافى المتجمدة إلى دائرة القطب الشمالى .

وفى الوقت نفسه — تحت نجوم نصف الكرة الجنوبى — أخذت قارة أخرى — كذلك — تأهل بالسكان وتفلح . إنها بلاد نائية جنوبية تتوافر فيها أنواع النبات والحيوان الغريبة وغابات الجبال المعتمة والأصقاع ذوات الألوان الدكناء والزيتونية والأرجوانية الهادئة . إنها أرض قلبها ليس من البرارى ولكن من الوحشة والصحراوات . على أن الأرض التى ابتدأت هناك لتكون محلة للمجرمين ، تستغرق الرحلة بينها وبين أوربا ستة شهور ، تلك الأرض نمت تدريجـــاً حتى أصبحت المقاطعات : (نيوساوث ويلز —و— كوينزلاند —و— ڤكتوريا) أصبحت تدريجاً جنة الرعاة تهيم بها أغنام المرينوس(١) فى أراض عشبية ومرجات شاسعة... قام الفلاحون الأحرار القلائل والمستكشفون بكشف المناطق الخصبة ، وقامت البحرية بمسح الشواطىء . وتجدد فى بريطانيا اهتمام بالاستعمار أدى إلى إنشاء مستعمرات حول بيرث فى أستراليا الغربية وأديليد فى أستراليا الجنوبية . غير أن الأعمار بالسكان تلكأ حتى ١٨٥١ . وفى تلك السنة عثر رجل — من الذين شاركوا فى التدفق على البحث عن الذهب فى ١٨٤٩ — عثر على ذهب فى نيوساوث ويلز ولقط آخرون كتلا من خامات الذهب فى بنديجو — و — بللارات بڤكتوريا . وتدفقت جموع خشنة من الباحثين والمنقبين إلى داخلية البلاد . وأقفرت الموانىء وفر نوتية سفن كثيرة على أمل أن يجمعوا — فى يسر — ثروات كبيرة . نعم . قليلون هم الذين أصابوا الثراء ولكن التكالب على البحث عن الذهب رفع عدد السكان ، فى ١٨٥٨ ،

---

(١) المرينوس أغنام جيدة الصوف أسبانية الأصل .

إلى أكثر من مليون نسمة . وإلى ذاك الوقت كانت البواخر تنقل مزيداً من المستعمرين فى رحلات تدوم ستة أسابيع ليس غير . ولبث المستعمرون — الذى خاب فألهم — ليشتغلوا فى عمل آخر . وانتعشت الموانىء واستخدم الذهب فى استيراد رفاهات المدنية . وبقدر ما تزايد السكان زادت الزراعة والأعمال التجارية . وعلى هدى التجارب فى كندا منح البرلمان البريطانى الولايات الأسترالية استقلالا داخلياً . وحدث فيما بعد ، فى ١٨٩٢ — هجوم جديد للبحث عن الذهب فى أستراليا الغربية حيث فتحت مناجم فى كالجورلى — و — كولجرادى . وفى ١٩٠٠ اشتركت الولايات المتفرقة وكونت الحكومة الأسترالية الموحدة ذات الاستقلال الداخلى .

وتقع على بعد ١٢٠٠ ميل من نيوساوث ويلز جزائر نيوزيلنـــدا التى عثر عليها الهولانديون وأطلقوا عليها هذا الاسم والتى مسح أراضيها الكابتن كوك وارتادها صائدوا الحوت وعجل البحر والمبشرون . ونحن مدينون لهؤلاء الأخيرين بكتابة لغة الماورى التى يتكلمها الأهلون . وكان الماورى نمنميين (أى أكلة لحوم البشر) ذوى جاذبية وبنية مثالية وذكاء ومقدرة فى القوى البدنية ويطربون لشن الحروب القبلية وبعد نزول مجرمى الكابتن فيليب فى أستراليا أضحت شواطىء نيوزيلندا نوعاً من الأرض المباحة حيث اختلطت حثالة البحار الجنوبية بالماورى وتاجرت فى البنادق وبطاطين الجنازير والرءوس الآدمية المخللة ، التى تحمل الوشم .

وكان تجدد الاهتمام بالاستعمار هو الذى جعل نيوزيلندا المكان الذى نعرفه ... وفى ١٨٥٤ منح المستعمرون استقلالا داخلياً . ومنذ ذلك الوقت — إذا استثنينا حرباً عنيفة شنها الماورى فى ١٨٦٠ — كان تاريخ تلك الجزائر سلميا موفقاً ، مع استقرار تدفق المهاجرين إلى داخلية البلاد وبخاصة من إنجلترا . وفى ١٩٠٧ نودى بنيوزيلندا مستعمرة مستقلة تحت التاج البريطانى .

التوسع : الولايات المتحدة الأمريكية :

فى سنة ١٨٢٨ غرقت السفينة الشراعية « جيمس » على مسافة من نيوفاوندلند مع ١٦٠ مهاجراً إيرلندياً كانوا على ظهرها. وقد غرقت فعلا فى تلك السنة ١٧ سفينة غاصة بالمهاجرين المتجهين إلى أمريكا ، غرقت وفقد معها مئات من الناس المساكين الذين كابدوا - قبل غرقهم - بؤس اجتياز الأطلنطى . ولم تكد سنة تمر دون وقوع كوارث من هذا النوع ، على أن الخسائر لم تكن دائماً فى آخر السياحة . وفى ١٨٤٩ تحطمت (السفينة) فلوريدا وغرق مهاجرون ألمانيون من أنتورب (أنفر) على مسافة من هارويك . وفى ١٨٥٠ هلك مائة إيرلندى عندما اصطدمت (السفينة) «إدموند» بصخور كاونتى كلير . وقعت تلك الأحداث خلال الهجرة الكبرى من الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة التى بدأت فى السنوات القليلة التى تلت ١٧٨٠ واستمرت طوال القرن التاسع عشر . وإلى أن حلت السنوات القليلة التالية لـ ١٨٥٠ كان المهاجرون ينقلون فى سفن شراعية دائمة التعرض للريح و تقلبات الجو . وكان أغلب المهاجرين من الفقراء ، والكثيرون منهم معدمين يائسين . وكان من بينهم البستانيون الجبليون المطرودون من أراضيهم المستأجرة ، والصناع الإنجليز ؛ والنساجون بالأيدى ، والميكانيكيون المتعطلون بسبب ركود التجارة الذى حدث بعد الحروب النابوليونية ، والفلاحون الذين استولى ساداتهم على أراضيهم ، وقبل كل شىء : الفلاحون الذين أفلسوا بسبب عجز محاصيل البطاطس وأخرجوا من أراضيهم المستأجرة لقصورهم عن دفع الإيجار . وقد أتى من أوربا ، وبخاصة من الدويلات الألمانية ، الآلاف من المهاجرين الفلاحين والصناع المتلهفين على استئناف الحياة من جديد بمنأى عن مظالم أوربا . وفى الحق أن بؤس الدنيا القديمة واليأس منها هما اللذان عمرا الدنيا الجديدة بالسكان . فلقد تدافعت عبر البحار ضحايا القحط فى إيرلندا والتعطل فى إنجلترا والثورة والعسف فى أوربا ، وفى السنوات العشر — الواقعة بين ١٨١٥ و ١٨٢٥ — زايل بريطانيا نحو سبعين

ألفا . وفى عام ١٨٥٠ ما لا يقل عن ½ مليون ، أغلبهم من الإيرلنديين . وكثير منهم هبط كويبك ورحل منها إلى الولايات المتحدة وكانت أقوام كثيرة تهبط نيويورك فى كل عام وعلى سبيل المثال : رحل فى عام ١٨٤٨ من النساء والرجال مائة ألف ، نصفهم من الألمان ونصفهم من الإيرلنديين وقد قلل من تعب الرحلة وطولها مجىء خط كيونارد البحرى إلى نيويورك فى العقد الخامس ومجىء بواخر ألألان إلى كويبك فى العقد السادس ، وكان مجموع من عبروا المحيط فى القرن المنتهى بسنة ١٨٩٠ لا يقل عن ١١ مليوناً ، وصل منهم ٩ ملايين إلى الولايات المتحدة . ومع هذا فإن طوفان المهاجرين لم يقف عندئذ .

ووجد الوافدون الجدد أمة بدأت فعلاً فى التحول صوب أرض (تنسى و — كنتوكى — و — أوهيو) الطيبة ومناطق (الليتوى — و — ميسورى — و — إنديانا — و — ألاباما — و — المسيسبى) التى تليها فى البعد والتى صارت كلها ولايات فى الاتحاد ، قبل عام ١٨٢١ . ورحل الخيالة وعربات النقل على طول البوابات الجديدة لدفع المكوس ، خارج مقاطعة نيويورك أو على طول طريق الجيش القديمة (برادوك) خارج بنسلفانيا فى اتجاه الغرب . ولم يكن أولئك هم الرواد بل كان أولئك تجار الفراء والصيادين نصف المتوحشين الذين أخذوا ، فى كل وقت ، ينأون عن المجتمعات المستقرة . إلا أن من جازفوا بالنزوح غرباً اضطروا جميعاً إلى الاعتماد ، فى كل شىء ، على مواردهم الخاصة . وقد طرد الهنود من مناطق صيدهم بعد منازلات دموية كثيرة ، وبعد غارات فجائية متعددة شنها جيش الولايات المتحدة المرابط ، وبعد فخاخ ومذابح وسلخ جلد الرأس . ورحل المستعمرون وراء ذلك غرباً فى دروب واضحة المعالم — زادها رجال الحدود وضوحاً — دروب تؤدى إلى سنتافى بالمكسيك (واسمها الحالى : نيومكسيكو ، أى المكسيك الجديدة) ، وإلى كاليفورنيا — و — أوريجون . وكان رجال مسلحون بالبنادق يحرسون قوافل « سكونات » البرارى (وهذا هو الاسم الذى كان يطلق على مركبات النقل الكبيرة المغطاة) وكانوا يعيشون ، فى الأغلب ، على لحم الجاموس ،

وذلك فى السهول التى تسود آفاقها أحياناً بقطعان مسنمة الظهر جسيمة. وقد تلاشى الجاموس بسبب رصاص البنادق الذى يطلق عليه بلا رحمة. وقد درجت مركبات النقل على أن تتلكأ ليلا توقياً من غارات الهنود المباغتة. وفى هذه العملية — عملية الظفر المتلهف المأمول الجسور — بقارة تكثر فيها البرارى والأعشاب والغابات الجبارة، فى هذه العملية أدت الأنهار نفعاً كبيراً. فلقد كان من السهل حمل مركبة النقل على طوف كى تسبح منحدرة فى (نهر) الأوهيو. وكان المسيسبى فى السنوات القليلة التى تلت ١٨٣٠ يستخدم فعلاً طريقاً عامة للسفن العريضة ذوات المجاذيف التى تدور بالبخار وذوات المداخن الطويلة.

وهكذا أخذ أحسن الأرض. وهكذا اجتيزت الصحراء وفلاة الصبار وممرات الروكى الجليدية التى قهرتها أمة جديدة من المغامرين. وعجل مجىء سكك الحديد بكل شىء. وفى ١٨٦٠ أكملت السكك الحديدية التى تعبر القارة، وقد دق آخر مسمار فيها فى أوجدين (يوتا) وقتها التقى الجزءان الشرقى والغربى.

ولقد كان يوسف بريستلى — وهو أحد الإنجليز المتخصصين فى العلوم وأحد الذين يؤمنون إيماناً قوياً بسلطان العقل — يتحمس غاية التحمس للجمهورية الأمريكية حديثة الميلاد. وفى ١٧٩١ كتب يقول إنه ليس من المحتمل — فى أغلب الظن — أن تشتعل، فى أى وقت، فى الولايات المتحدة حرب أهلية، وإنما الملكيات «القليلة الاعتدال» هى التى تكابد مثل هذا الشر. ولكن بعد ذلك بأقل من مائة سنة حدثت فعلاً حرب أهلية فى أمريكا، حرب دموية ضارية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية. وفيما بين ١٨٦١ و١٨٦٥ انسلخت: فرجينيا وولايتا كارولينا — و — جورجيا — و — تنيسى — و — أركانساس — و — لويزيانا — و — ألاباما — و — المسيسبى انسلخت كلها عن الاتحاد وانتخبت رئيسها الخاص بها وأعلنت الولايات الشمالية الحرب عليها لتكرهها على البقاء فى الاتحاد. وقد يبدو هذا أقرب

إلى الغرابة نظراً لأننا نتفق ، عادة ، على أن الناس يجب أن يكونوا أحراراً في اختيار حكومتهم . ولكن الواقع أنه كان هناك خلاف طويل بين الجنوب والشمال ، إذ كان الجنوب بلاداً زراعة يقوم بها العبيد ، والشمال بلاداً تجارية صناعية . ثم إن الجنوب كانت تكثر فيه بيوت زراعية أرستقراطية أصحابها ملاك يعيشون على أرباح القطن والطباق بينما الشمال بلاد تجار وصناع وزراع أحرار . وكان السبب وراء النزاع هو : استرقاق العبيد . وقد رغب الكثيرون من أهل الشمال في أن يحرروا العبيد ، وفي أثناء الحرب أعلن الرئيس إبراهام لنكولن إلغاء الرق(١) .

ولقد نشأ لنكولن في أكواخ من كتل الخشب في بلاده الأصيلة : في كنتوكي — و — إنديانا وعلم نفسه بقدر كبير وأصبح محامياً . وبقيادته الباسلة الصبور دفع الشمال إلى الانتصار على الجنوب ، وذلك رغم أن الجنوب كان يتزعمه الجندي البالغ النبوغ (روبرت ه . لي) . ومن مآسي الحرب حقاً أن رجلين كـ . (لي) و (لنكولن) يرسلان ليحارب كل منهما الآخر . وهذه مأساة كان لها ما يماثلها في الحرب الأهلية الباكرة في إنجلترا . وكان لنكولن — كلما تقدمت الحرب — يزداد تقديراً في عيون الناس ، وذلك نظراً لما يبديه من تفهم نادر للطبيعة البشرية ولتفكيره في آلام الناس . غير أنه رأى الأخطار تهدد قارة مقسمة . وأنقذ حزمه الاتحاد ، بعد أن أزمع إنقاذه حتى ولو كان ذلك يعني الحرب والألم . وقد قال في خطبة جليلة بميدان القتال في جتزبرج في ١٨٦٣ « منذ ٨٧ عاماً : جلب أسلافنا على هذه القارة ، أمة جديدة أحسنت إدراك الحرية وقدست فكرة أن كل الناس خلقوا متساوين ... وإنا لنصمم تصميماً جازماً على أن أولئك الشهداء لم يموتوا عبثاً ، وأن هذه الأمة — في رعاية الله — سوف تظفر بمولد جديد للحرية ، وأن حكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب لن يزول من الدنيا . وفي رأينا — نحن الذين رأينا الحرية يحدق بها أفدح الخطر في كل مكان بالدنيا خلال

(١) انظر شكل رقم — ١٢ — (توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب)

قرننا هذا — فى رأينا أن خطبة لنكولن لها صدى كالبرق . وهذا هو الرجل الذى أتى من الكوخ الخشبى البسيط ، والذى لم تكن لوالديه مزية غير تحرير أولئك الذين خاطروا بالذهاب غرباً ، والذى وصل إلى أعظم منصب مشرف عن طريق الحرية وحتى خصومه أكبروا « الأب إبراهام ».

ولقد تركت الحرب الأهلية ذكريات سيئة ومرارة . غير أن جراحها لم تؤثر على أولئك الآلاف من المهاجرين الجدد والمتحمسين الذين ظلوا يتدفقون من البلاد الملكية القديمة فى أوربا . واستمر التوسع الأمريكى فى نشاط متزايد ؛ ولا يمكن القول بأن أمريكا استقرت . إنها لم تفعل ذلك قط . فلقد اشتغل الوافدون الجدد طوال النهار وطوال الأيام ، وكدحوا من أجل الربح ، واخترعوا ، وتاجروا . وصنعوا ، وزرعوا ، عملوا كل هذا فى همة ودأب . وجاهدوا فى كل وقت ليتوفروا على نظام موحد للتعليم مستكمل من أصغر مدرسة بالقرية إلى جامعة الدولة وأصبحت أمريكا بلاد زراع ومهندسين أصحاب ملايين . وخلق — على نحو ما حدث فى الدنيا القديمة — نوع جديد من الرجال ألا وهو رجل الأعمال . وفى عشرات من السنين نشأت مدن عظيمة مثل شيكاجو ، وبفلو ، وسان فرانسسكو ، ونيويورك التى بنيت على جزيرة وامتدت إلى أعلى بناطحات السحاب . وقد أظهر الأمريكيون فى كل حياتهم وكل أعمالهم براعة مذهلة وتعطشا للسرعة والابتداع ، وهـذه نتيجة مغامراتهم الدائمة الحركة لتطويع إحدى القارات .

ولم تحلّ نهاية القرن حتى كان طوفان المستعمرين الإيرلنديين والألمان قد ثقل على المجتمعات التقليدية القديمة فى نيو إنجلند وفرجينيا ونيويورك الهولاندية ، وقد فاتت أيام ريب فان ونكل (فى الحجر الوسنان) وفاتت أيام ريفيى مساتشوستس . ومع هذا فقد أخذت هذه الأمة المعجزة تداوم الامتداد على يد منفيى الأمم الأخرى وتبرهن على صحة مبادئ مؤسسيها الذين بنوا ميراثهم على قوانين وعادات إنجلترة القرون الوسطى وقد أخذ

زعماء الولايات المتحدة على عواتقهم أن يحببوا تقاليدهم ويلقنوها لأكثر البيئات تنوعاً : الألمان، والإيرلنديين ، والسلاف ، واليونانيين ، واليهود ، والإيطاليين ، بل الصينيين واليابانيين على سواحل المحيط الهادى حيث هبط كذلك أسبان منذ العهد الذى حكمت أسبانيا فيه كاليفورنيا . وقد أطلق كاتب على أمريكا بحق ، لقب « بوتقة العالم » التى امتزجت فيها الشعوب جميعاً .

وقد ظلت الولايات المتحدة ـ فى مدى ١٥٠ عاماً بعد إنشائها ـ تتابع طريقها ، دون عقبات ، بالاهتمام بشئون أوطان سكانها الأصلية الكثيرة العدد فى أوربا ... احتفظ بقوانينها ودستورها وامتصت تلك الملايين التى تطلعت إلى الحرية والعمل ولا عجب إذا قل اهتمام مواطنيها بما يدور فى العالم الخارجى ، إذ أن دنياهم كبيرة تستغرق كل تفكيرهم وأنهم لديهم أعمال تفوق طاقاتهم . ومهما يكن فقد زايل المهاجرون إليها ، دنياهم القديمة بإرادتهم الحرة وأداروا ظهورهم نحوها ليصنعوا دنياهم الجديدة . فلماذا إذن يهتمون بشئون أوربا ؟

التوسع : الهند :

إلى أن وافى منتصف القرن التاسع عشر كان تجار شركة الهند الشرقية قد حكموا الهند بأجمعها حتى جبال الشمال وقد تأتى ذلك بمقتضى معاهدة وأيضاً بالفتح فى البلاد التى لم توجد فيها الوحدة أو فكرة الوحدة ، بلاد كان فيها الهندوس والمسلمون مختلطين متخاصمين ؛ ولم يوجد فيها قانون موحد بل وجدت خرافات لاحصر لها وعوائد همجية وحكومات لاتحصى . وقد نظم عملاء الشركة وجنودها — يعاضدهم ضباط المملكة وجنودها — قانوناً موحداً أو سلطة موحدة . وزحف أكثر من جيش إنجليزى هندى إلى داخل جبال أفغانستان الوحشية بعد الحدود الشمالية الشرقية وهذه المنطقة

حربية تشبه ما كان عليه سور هدريان فى بريطانيا القديمة أو تحاكى متاريس الجيش الرومانى فى بلاد الراين .

وقد أدى امتلاك الهند إلى إخضاع بورما وهى بلاد أدغال ، كما أدى — بمقتضى معاهدات — إلى امتلاك ولايات الملايو فى شبه جزيرة الملايو ، وهى بلاد أثرت ثراءً فاحشاً من صفيحها الخام ومن شجر المطاط الذى يكثر فيها . وفى ١٨١٩ أنشئ ميناء سنغافورة وأصبح مركزاً للتجارة الشرقية التى ولدتها بحار الشرق وملتقى الصينيين والهنود والعرب وأهل الملايو وتجار الهند الشرقية . وقد أمسى إنجليزى مغامر — اسمه بروك — أمسى راجا (أو حاكم) السرواك ، وهى قسم كبير من جزيرة بورنيو الكبيرة . ولم يحل آخر القرن حتى كان نصف ملاك الجزيرة من أملاك بريطانيا . وأصبح المحيط الهندى — من رأس الرجاء الصالح إلى سنغافورة — بحراً بريطانياً .

وإلى أن حلت نهاية القرن السابع عشر كان لشركة الهند الشرقية مصانع فى كلكتا وبمباى ومدراس وكانت لها تجارة مع الصين . وبنى تجارها مرفأهم التجارى فى بلاك وول (أى الحائط الأسود) على (نهر) التيمز ، كما بنوا مراكب كبيرة انفردوا بها ، وصنعوا حبالهم وأشرعتهم بل صنعوا براميلهم الخاصة . وكانت سفنهم مجهزة بمدافع عديدة حتى أمست أقرب إلى السفن الملكية منها إلى السفن التجارية ، وقد وسعها أن تنازل وتغرق سفناً حربية أجنبية . وكانت مصانع الشركة فى الخارج — حيث تخزن البضائع وتعد للشحن — كالمدارس الكلية ، فيها حاكم وقسيس وكنيسة صغيرة وقاعة للأكل ، وقد جندوا فرقاً من الإنجليز وفرقاً من الهنود . وكانوا يتصرفون فى الواقع — وفى كل شىء — كما قد تتصرف سلطة ذات سيادة . وفى نضالهم مع الشركة الفرنسية ، فى القرن الثامن عشر ، أرسلت فرق الملك كى تساعدها ، وفى آخر ذلك القرن أرسل حاكم ملكى ليحكم إمبراطورية البلاد التى أحرزها التجار .

ولم يُرَ شبيه لهذا من قبل ، وليس من المحتمل أن يرى مرة أخرى .

وبعد التمرد الذى حدث فى الفرق الهندية البنغالية ، عام ١٨٥٧ ، انتهت الشركة . ومنذ ذالك الوقت آل حكم الهند إلى نائب ملك وإلى مجلس باسم الملكة . وكان ثلث البلاد يتكون من ٦٠٠ مقاطعة أهلية يدير شئونها أمراؤها المختلفون فى القوة والاعتبار ، من نظام حيدر أباد (الذى يحكم مناطق تضاهى إنجلترا فى سعتها) إلى زعيم قرية مفردة . وحكم الثلثين الآخرين ، باسم الملكة ، نحو ألف موظف من المختارين المخلصين ، يدير كل منهم منطقته كما قد يفعل الحاكم المستبد . ويكون هذا الحاكم أحياناً الرجل الأبيض الوحيد بين ربع مليون من الأهلين . وكان يعاضد هذه الحكومة المدنية العجيبة جيش لا يقل عجباً ، قوامه ربع مليون جندى ، منهم ٧٥ ألفاً من البريطانيين . وكانت فرقة بريطانية تعسكر مع ثلاث فرق هندية ، ويقودها جميعاً ضباط بريطانيون . وكان المشاة والخيالة الهنود يجندون من بين الشعوب البواسل مثل البنجاب والسيخ والماراتا والدوجرا والراجپوت ، ومعهم پاتان وجودكا من وراء الحدود . لقد كان جيشاً لم تر الدنيا شبيهاً له . وكان الأمر الثالث والأهم فى شأن هذه الإمبراطورية الهندية العجيبة أن الرجل والمرأة العاديين فى بريطانيا ، معرفتهما بها قليلة واهتمامهما أقل .

وقد بدأت الهند ـ تحت الحكم البريطانى ـ تشارك فى مزايا الهندسة الغربية : الطرق والسكك الحديدية ، والتلغراف ، والقنوات ، والمنارات ، والجسور (الكبارى) ، والخزانات . لقد أنشئ كل هذا . وأدخلت طرق للزراعة أكثر نجاحاً ، وقطعت بعض الأدغال . وأخضعت الفيضانات والمجاعات والأوبئة بعض الإخضاع وحُدّ بعضُ الحد من تأثيراتها المروعة . واستقرت مناجم الفحم والحديد ، وزرع القطن والقصب والقنب (الجوت) وأقيمت المصانع ، واحتفظ بالغابات توفيراً للخشب ، وتنفيذ هذه الأمور لا يتطلب وقتاً طويلا ، وهو الجزء من مجهود الإنسان الذى يقل فى

الأهمية . أما الجزء الأصعب فهو التوفر على وضع نظام طيب للتعليم أو الصحة العامة . ولم يكد القرن يشارف نهايته حتى كان للهند جامعاتها ومدارسها الطبية .

التوسع : الشرق الأقصى :

حكاية أوربا أقل بكثير من نصف حكاية الإنسانية . فلقد كان هناك ـ وراء غابات أوربا الوسطى وسهولها ، وهضاب بلاد الفرس ـ منطقة مراعٍ شاسعة انحدرت منها قبائل خشنة من الهون والتتر ، على الحدود الشرقية لأوربا حيث كان يحسبهم سكانها سياطاً أرسلت للتنكيل بالأشرار أو كائنات صعدت من دنيا جهنم . وكذلك أغار أولئك الفرسان المتوحشون على الحدود الغربية لمدنية بالغة القدم فى الشرق الأقصى ، وهى الإمبراطورية السماوية للصين التى بنى حكامها الأولون السور العظيم ، الذى يمتد ١٨٠٠ ميل ، لكى يبعدوا المغيرين .

وترجع المدنية الصينية إلى عهد سحيق مظلم ، إلى ثلاثة آلاف عام قبل المسيح . ولها تاريخها الطويل فى صدر الإمبراطوريات والأسر والحروب والفتوح . وقد طورت طريقتها الخاصة فى الكتابة على الورق وأساليبها فى البناء والزراعة والتجارة . وكان لها أدبها وفنها الجميل وألعابها (بما فيها كرة القدم ذات الطرائق السبعين فى ركل الكرة) وقصصها التمثيلية . وقد بقيت مجهولة للغربيين الذين لم يتصلوا بها قط اتصالاً مباشراً كائناً ما كان نوعه . اللهم إلا — على سبيل الاحتمال — بطريقة عابرة عندما زحف فرسان الإسكندر إلى داخل الهند ولقنوا الشعوب ، التى تستوطن شمال شبه الجزيرة تلك ، بعضَ العلم بالأساليب الإغريقية . وقد وصل رحالة انفراديون إلى الصين من الغرب ، وجرى قبس واه من تجارة أنواع الحرير

على يد سلسلة طويلة من التجار . أما معرفة أوربا بالصين معرفة تامة فقد بدأت عندما رست سفينة برتغالية فى كانتون سنة ١٥١٤ ، وقد وجد صينيون كثيرون فى ملقا حيث كانت السفن الصينية شيئاً مألوفاً . وبعد أن حل الهولنديون والإنجليز محل البرتغاليين فى المياه الشرقية تاجرت سفنهم فى الموانئ الصينية . وقد أنشأت شركة الهند الشرقيـــة الإنجليزية وكالة فى ١٧١٥ فى كانتون حيث كان وكلاؤها يتاجرون — مع أداء الشعائر المرعية — مع محال التجار الأجانب ، فيبيعونهم رزماً من الأقمشة الصوفية لقاء صناديق من الشاى .

والشاى — الذى هو الآن المنعش المألوف فى بيوتنا — هو الهبة السامية التى قدمتها الصين . وزرعت الأصناف الهندية المختلفة ـ فيما بعد ـ لتمدنا بالمقادير الهائلة التى نتطلبها . وكان أحـد صادرات الشرق الأقصى الشهيرة : الخزف وبخاصة خزف أسرة منج . ذلك أن الصينيين كانوا خزافين مهرة ، زهرياتهم وتماثيلهم الصغيرة وأقداحهم وأطباق أقداحهم يكثر عليها طلبُ جامعى التحف . وإن مهارتهم انتحلدها ، بحق ، الكلمة التى نستعملها للتعبير عن أدوات المائدة : « الصينى » ومن هباتهم العظيمة الأخرى للشرق ، المجموعة الكبيرة البديعة من الشجيرات والأزهار التى جلبها علماء النبات الذين حملوها إلينا ، على مدى القرنين الماضيين ، من أقاليم الصين كافة .

وكانت أفكار الصينيين — من حيث القانون والتجارة وآداب السلوك — تخالف الأفكار الأوربية كل المخالفة غير أن فهمهم للفضيلة والواجب يشابه فهم الأوربيين كل الشبه . فلقد كانوا مرحين صخابين أوفياء كثيرى العمل صبورين مجاملين . وهم لم يحفلوا بفروق طبقية شديدة

متزمتة كما يفرق الغربيون بين الأرستقراط وعامة الشعب . ومن حيث المهن الأربع التى تفوق غيرها فى الأهمية كانوا ينزلون العالم أرفع منزلة ويليه المزارع ، ويأتى بعده الصانع الماهر ، ويحسبون التاجر فى المؤخرة . (وهذا — فى الجملة — يعاكس الترتيب الغربى على خط مستقيم) . وقد درجوا على أن ينتخبوا حكامهم وموظفيهم من زمرة العلماء المتضلعين فى العلوم الصينية القديمة .

ودراسة خير ما فى المدنية الصينية هو رؤية حياتنا وعاداتنا على ضوء جديد . وحكمة فلاسفتهم — من امثال كونفشيوس ومينيكوس — بوضعها ميراثاً يدخر للجنس البشرى كافة — لايقل عن ميراث حكمائنا . فلقدكانت الإمبراطورية الصينية أكبر مساحة من أوربا وبقيت أطول من أية إمبراطورية أخرى فى تاريخ العالم بمدة تقدر بأجيال . وأكثر مايسترعى النظر فى الحياة الصينية هو تماثلها فى أثناء عصور الغرب المسيحية جميعاً . إلى أن فرض الغرب نفسه على الصين ونقل قلقه إلى الشرق الأقصى .

وحكاية التجارة الغربية مع الصينيين حكاية ليس فى مقدورنا أن نفخر بها ... فى عام ١٨٣٤ حارب البريطانيون الصينيين ليكرهوهم على الترخيص باستيراد الأفيون الهندى ، وفى حرب شنتها — فيما بعد — الفرق البريطانية والفرنسية أحرق — بطريقة هوجاء — القصر الصينى الجميل الذى يصطاف فيه أباطرة المنشورى (وهو صقع فى شمال الصين) . ولكى تأمن الدول الأوربية على تجارتها وعلى الربح الذى تدره ، أكرهوا الصينيين على أن يعطوهم موانئ محددة — كانتون ، أموى ، فوشاو ، ننجبو ، شنغهاى — ليعيش فيها تجارهم وليرسلوا بضائعهم عن طريقها . وخص البريطانيون أنفسهم بـ ... هنج كنج ، ولا يدهشنا أن الكثيرين من الصينيين لم يحبّوا

مجيء « الشاطين الأجانب » إلى بلادهم ، ولنا أن نتصور إلى أى حد نغضب نحن إذا أرسل أباطرة المنشوريين تجارهم ليحتلوا أنتورب (أنفر) أو لندن وقد حسب الأكثرون من تجار الغرب أنفسهم الناس «المتمدينين» الأعاين ونظروا إلى الصينيين على أنهم « أولاد البلد » . ومن سوء حظ الصينيين أن الحكام المنشوريين كانوا ضعاف الشخصية فى الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، فقد نجم عن هـــذا اضطراب الصين بالحروب الأهلية والخصومات ، سنوات طوالاً ، أغلب الوقت فى واقع الأمر وربما كانت تلك الحالة تشبه ، بعض الشبه ، ظروف أوربا فى السنوات الأخيرة للإمبراطورية الرومانية . وكان من سوء حظ الصينيين الفادح أن اليابانيين تحولوا إلى دولة قوية مجهزة مسلحة بآلات الرجل الأبيض وأسلحته . . . بالسحر الجائر .

وقد أيقظ اليابان تحرقُ الرجل الأبيض إلى التجارة مهما كلفه ذلك . فلقد أكره الأمريكيون اليابانيين على استقبال التجار فى ١٨٥٤ . وفى أعقاب هذا ، برهن الجزائريون صغار الحجم على أنهم تلاميذ مستعدون لتلقى الحذق الفنى والعلم الغربيين ، وما هو إلا القليل حتى تحولوا إلى أمة صناعية تملك بحرية وجيشاً قويين تقودهما أرستقراطية قوية . وفى ١٨٩٤ انتزعت اليابان كوريا من الصين ، وأثار هذا غيرة الدول الغربية (بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا) وحفزها هذا إلى الاستيلاء على موانئ صينية .

وفى ذلك الوقت كانت الأصقاع المتمدنة فى الصين — كالأصقاع غير المتمدنة فى إفريقيا — تحت رحمة مزيد من أطماع الدول الكبرى وشهواتها ومنافساتها ، فلما اتحد الوطنيون الصينيون (المعروفون باسم البوكسر ، أى الملاكمين) وقتلوا المهندسين والمبشرين الأوربيين ضمت الدول الكبرى

قواتها وسلبت ونهبت بكين وغيرها ، وتصرف الكثيرون من جنودها تصرفات بربرية (١٨٩٩ — ١٩٠١) .

وبعد هذا بسنوات قلائل — فى عام ١٩٠٤ — تنازعت روسيا واليابان على أيهما يحكم منشوريا . وأشعلا حربهما فى الأراضى الصينية وفى المياه الصينية . وهزم اليابانيون الروسيين وأغرقوا أسطولهم .

وفى سنة ١٩١١ أصبحت الصين بالاسم فقط ، جمهورية . ولكن كان الواقع أن إمبراطورية المنشوريين قسمت . ولم يستقر الوضع على حكومة موحدة بل حدث أن حكومات وجيوشاً متنافسة زحف بعضها على البعض وحارب بعضها بعضاً . وكفلت معاهدة الموانئ — التى عقدتها الدول الغربية — القانون والنظام . غير أن هذه الدول ، فى مدى أربعة أعوام ، اشتبكت فى حرب شملت أغلب العالم .

التوسع : إفريقيا :

قلت متاعب الكنديين مع الهنود الحمر نظراً لجهود الشرطة الراكبة ، ولم يلق الأستراليون معارضة من السكان السود الأصائل . والأمريكيون والزيلنديون حاربوا الهنود الحمر والماوزى على التتابع ولكنهم مع ذلك لم يستبعدوهم .

أما فى إفريقيا فكانت الحقيقة مختلفة بشكل مروع . فإن هذه القارة الضخمة ، التى كانت شواطئها الشمالية يوماً موئلاً لمدنية قديمة ، احتفظت بأسرارها هامدة أطول مما احتفظت الأخريات . فلقد حلت عليها لعنة الرق ، وكانت مجموعات لا تحصى من العبيد يعرضون للتجارة حتى على يد زملاءهم من العبيد الذين باعوهم بيع السلع لتجار عرب الشرق أو لربانى سفن الغرب الأوربية . ويمكن إجمال أغلب تاريخها فى كلمات قليلة مروعة : الجهل ،

والفقر، والجوع ، والمرض، والحرب ، والخوف ، والخرافة ، والاسترقاق .
وفى وقت باكر — قبل أن يعرف أى رجل أبيض أين تجرى أنهار إفريقيا أو أين تطاول جبالها السماء فوق بحيرات كبيرة كأنها بحار داخلية — قبل هذا نقلوا بالقوة الجبرية أقواماً بتمامها من السود ليكدحوا فى زرع السكر والطباق والقطن والنيلة ، بالدنيا الجـــديدة . لقد استبعد مالا يقل عن ٦٠ مليوناً من المروعين ، من قرابة أربعين محطة عبيد على طول الشاطئ الغربى الاستوائى حدث ذلك فى القرن الثامن عشر . وفى آخر ذلك القرن لم يكن معنى إفريقيا ، فى نظر الأوربين ، أكثر من المتاجرة فى ذاك « العاج الأسود » وبكمية أقل ، فى سن الفيل والتبر (وهو تراب الذهب) والمُجنَى (أى خشب الكابلى) . ووجد على طول الشاطئ المغربى بالجزائر قراصنة أو لصوص البحر . ووجد — على بعد ستة آلاف من الأميال ، عند رأس الرجاء الصالح مستعمرة بالغة الصغر للهولنديين أو البوير . على أن شيئاً مالم يكن يعرف عن المناطق الداخلية الاستوائية وشبه الاستوائية ، لأن إفريقيا عندئذ كانت « قارة سوداء » بكل معانى الكلمة .(١)

وبعد أن ضمت بريطانيا جنوب إفريقيا فى ١٨٠٧ اختلف البوير وحكامهم الجدد فى شأن الأهلين . . كان الأهلون — فى نظر البوير — سلالة منحطة من بنى آدم . أما بريطانيا العظمى فقد بدأت فى ذاك الوقت ترسل عشرات من الشبان ليُنَصّروا وثنيى المحيط الهادى وإفريقيا . ولم يتفق المبشرون والبوير فى الرأى فى شأن الزنوج . فلما حرر كل العبيد بالممتلكات البريطانية حلت بالبوير — بسبب تصرفات خرقاء — خسائر تفوق كثيراً الخسائر التى حلت بزراع الهند الغربية الأغنياء . والواقع أن هذه المعضلة ذات الأطراف الثلاثة — البريطانيين والبوير والبانتو

(١) انظر شكل رقم — ١٣ — (احتلال أوربا لإفريقيا) .

(أى الأهلين) — كانت بالغة التعقيد ، ولم تبسطها التهجمات والتهم التى كان يوجهها كل طرف إلى الطرفين الآخرين .

وحلت النتيجة فى عام ١٨٣٦ والسنوات التالية عندما حزمت جموع غفيرة من البوير أمتعتها على مركبات بطيئة تجرها الثيران واتجهت شمالاً تبحث عن مواطن جديدة ومزارع فى البرارى التى كانت ، عندئذ ، مناطق صيد المحاربين الزولو ومراعيهم . وكانت تلك الهجرة الكبرى — فى نظرهم — رحلة شعب مضطهد إلى الأرض الموعودة ، رحلة اقترنت فيها الشجاعة بالمأساة . وقد قتل الكثيرون منهم بيد القبائل المتعطشة للدماء . أما أولئك الذين شقوا طريقهم بالقوة فقد أسسوا ولايتين جديدتين : إحداهما على نهر الأورنج وثانيتهما فى الترانزفال .

وفى الوقت نفسه كان الفرنسيون يعملون فى أقصى الشمال . فقد فتحوا الجزائر وركبوا البحر الأبيض المتوسط بحر القراصنة ـ ثم بدءوا يخططون مشروعات لوصل البلاد التى فتحوها حديثاً بمقرهم على نهر السنجال .

وفى منتصف القرن استكشف رحالة ومبشرون ـ وكان أعظمهم دافيد لفنجستون ـ الجزء الداخلى المعتم من إفريقيا الوسطى مترسمين مجارى أنهار : النيجر والنيل والزمبيزى والكونجو ومستكشفين البحيرات الكبرى وقد أبانوا عن الوحشية المفزوعة والفظائع المروعة لحياة القبائل وحروبها . وكذلك أبانوا عن الثروات الطبيعية الضخمة التى تحتويها القارة . وكان ذلك تحدياً مزدوجاً للأمم الأوربية ، أولاً لنشر الدين المسيحى وثانياً للاستيلاء على أكبر رقعة من الأرض يمكن الاستيلاء عليها طلباً للربح . وكانت النتيجة أن تدافعت الدول الكبرى لحيازة الأراضى الإفريقية فى العقدين التاسع والعاشر .

وضم البلجيكيون — بجهود مليكهم ليوپولد — الحوض الكبير لنهر الكونجو، حيث أخذوا يزرعون المطاط وحيث استكشفوا فيما بعد معادن كبيرة القيمة. ومدت بريطانيا نفوذها على أراضى النيجر وخلقت نيجيريا بعد أن استولت على نياسالاند وأوغندة. وكان البرتغاليون قد امتلكوا فعلاً أنجولا وشرق إفريقيا البرتغالى، اللتين خلفتهما لها أيام الاستكشاف البطولية فى القرن الخامس عشر. ووضع الألمان — الذين تخلفوا فى الإقدام على الغزو — أيديهم على الكاميرون وعلى مناطق كبيرة فى شرق إفريقيا وغربها. ونجح الفرنسيون فى مجهودهم الطويل المدى ليبسطوا سلطانهم على رقعة محبوكة من الأرض تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى شاطىء غينيا بما فى ذلك الصحراء الكبرى. ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت إفريقيا كلها، باستثناء مملكة الحبشة (إثيوبيا) المسيحية وليبيريا الواقعة على الشاطىء الغربى (التى استوطنها عبيد متحررون)، قد قسمت بين الدول الكبرى.

وحتى مصر نفسها احتُلت.. وهناك — فيما بين ١٨٥٩ و ١٨٦٩ — احتفر مهندس فرنسى، اسمه ديليسپس، قناة السويس ليقصر الطريق البحرية إلى الشرق، ووقتئذ أصبحت مصر، من فورها، ذات أهمية. فاحتلتها بريطانيا وحكمتها فى ١٨٨٢ لمصلحتها الخاصة. وكانت نتيجة ذلك أن سيطرت على السودان. وأصبحت قناة السويس حلقة هامة فى سلسلة المواصلات الإمبراطورية البريطانية، وبخاصة لوقوع مصر وسط المقتضيات التجارية والحربية لمصلحة بريطانيا.

وقد أعاد المبشرون تنظيم تدوين اللغات الأهلية المتعددة. وما يزالون يعملون بمساعدة الحكومة. ولكن الأحداث، فى الجنوب الأقصى، تحركت صوب كارثة كبرى.

فى عام ١٨٧٧ ضمت بريطانيا جمهوريات البوير . وفى عام ١٨٧٩ أباد الزولو قوة بريطانية . وفى عام ١٨٨٢ أباد هولانديو الترانزفال ، فى ماجوبا ، قوة اخرى من البريطانيين . ولكن فيمابعد ، أخضع الزلو وضمت بلادهم . وقد تركت الحكومة البريطانية أهل الترانزفال وشأنهم ولكن المغامرين لم يتركوهم. وكان الماس قد وجد فى كيمبرلى والآن وجدت — فى ١٨٨٦ — عروق من خامات الذهب على ويتواتر ستاند (الراند) فى الترانزفال . فاندفع ، فى الحال إلى البلاد حشد كبير من الباحثين عن الذهب ليجازفوا بتحقيق مبتغاهم. ولم تمض سنوات قليلة على محلة جوهانسبرج الصغيرة حتى تحولت إلى بلدة غنية ومركز اصناعة التعدين فى العالم . ولم يكن أولئك الأجانب أو « الغرباء » صفوة المدنية بالمعنى المفهوم . وكان رئيس الترانزفال — پول كروجر المسن — مزارعاً بويرياً « طبق الأصل » شارك ، صبياً ، فى الغارة الكبرى التى أشعلت لجعل تلك البلاد وطناً قومياً .

وكان أحد الرجال الذين ربحوا الملايين من الماس والذهب : سسل رودس وهو ابن قسيس إنجليزى . وفى عام ١٨٩٠ صار رئيس بلاد الكاب . وقد استخدم ثروته فى تأليف شركة تستخدم أراضى الأهلين الواقعة شمالى الترانزفال . وكان الفضل فى التنفيذ للتجريدة المسلحة التى أرسلتها الشركة . وأطلقت على البلاد التى دخلت فى الحيازة حديثاً اسم روديسيا . وعندئذ أحاطت الأملاك البريطانية بالبوير من كل جانب .

ونظم رودس حملة مسلحة لتدخل الترانزفال كى تساعد أغراب الراند الذين كانوا — فى الواقع — يلقون من البوير معاملة قاسية . وأخفقت الحملة إخفاقا مبيناً . وفى عام ١٨٩٩ وصل سوء التفاهم بين البوير والبريطانيين إلى توتر حدا بفرسان الترانزفال وولاية الأورانج الحرة إلى أن حشدوا فدائييهم ودخلوا بخيلهم مستعمرة ناتال البريطانية . وقد جاءوا بمدفعية مشتراة من أوربا وكانوا يحسنون تصويب البنادق ويجيدون التحركات .

وهذا يعيد إلينا ، فى وضوح ، النبالة الخيالة الذين أعدتهم بريطانيا فى القرون الوسطى . وبدأت الحرب التى تلت ذلك بسلسلة من الهزائم البريطانية . ولم تكسب إنجلترا غير المعركة الأخيرة فى عام ١٩٠١ بعد أن أرسلت إلى الميدان بربع مليون من الجنود بينهم ركبان كثيرون من مستعمراتها . وخسرت ستة آلاف قتيل ، وعشرين ألفاً غيرهم ماتوا بالحمى وبالديسونتاريا . ولم تقتنع سائر الدول الأوربية لا بعدالة مقاصد إنجلترا ولا بذكاء قوادها . وسادت الحكمة فى وستمنستر بصلح ١٩٠٦ الذى منح البوير استقلالاً داخلياً كاملا ، داخل اتحاد كل مستعمرات جنوب إفريقيا .

وإلى أن حلت سنة ١٩٠٠ كان خلفاء داجاما وكولومبس وكابوت وكارتييه وتسمان وكوك قد امتلكوا جميع الأراضى فى جميع القارات . وبسط نسر روسيا الإمبراطورى جناحيه على إمبراطورية وصلت إلى منغوليا ، وذرع نسر الولايات المتحدة الجمهورى ، أمريكا ، وأصبح العالم ملكاً للأوربيين ، باستثناء الصين فى فوضاها الكبرى العديمة التنظيم ، واليابان الكاملة التنظيم والتسليح التى تعج بالسكان وتتطلع إلى أراض جديدة ، وباستثناء مجموعة أراضى الشرق الادنى المحطمة حيث يستمتع التركى براحة على حساب رعاياه البائسين .

وانتشر العالم حول أوربا كما انتشر يوماً حول روما القديمة . إلا أن روما كان لها مجلس أعيان واحد وجيش واحد ، أما أوربا فلديها الكثير . وحكمت روما شعوباً بيضاء كأبنائها . أما أوربا فقد حكمت ملايين الشعوب الملونة المختلفة . وكان فى مقدور خير الرومان أن يجلب السلام إلى إمبراطوريتها . أما السلام الأوربى فغير موجود . وبدلاً من السلام أغرقت الدول الأوربية العالم فى خصوماتها المرة .

الأمم فى جهادها من ١٩١٣ إلى ١٩١٨ :

فى وقت قصير أصبحت ألمانيا الجديدة إمبراطورية غنية صناعية تجارية وتطلعت إلى أن تستعمر . وفى زحمة التكالب على الأصقاع التى لم تحل فى إفريقيا استولت ، فى عام ١٨٨٤ ، على مناطق شاسعة فى الجنوب الغربى لتلك القارة ، وفى شرقها ، كما استولت على توجلاند والكمرون . وكذلك احتلت غينيا الجديدة . وكان مهندسوها وصناعها وعلماؤها حاذقين ، وتجارها ذوى إقدام ، وسفنها تتاجر مع كل أجزاء المعمورة ، وسكانها موفورى العدد مطيعين شجعاناً محبين للعمل . وأخذ بعض أبنائها الزائدى الحماسة يبشرون بمبدأ أن الألمان شعب ممتاز قدر له أن يسيطر على جميع من دونه من الأجناس البشرية . وكان جيشها النظامى خير جنود أوربا تدريباً . وكان أركان حربها وضباطها يحتقرون الروس ويصغرون من شأن الفرنسيين كثيراً ويصغرون من شأن البريطانيين أكثر من ذلك . ولم تكتف بحيازتها لأداة حربية عظيمة فبدأت تبنى عمارة بحرية حربية تتحدى بها الأسطول البريطانى .

وقرب هذا التهديد بين فرنسا وبريطانيا فتفاهما وعقدا ، فى ١٩٠٤ ، اتفاقاً ودياً . وكانت روسيا وفرنسا حليفتين ، وألمانيا والإمبراطورية النمسوية حليفتين كذلك . ولإكمال دائرة الاتفاقات والمنافسات نقول إن روسيا والنمسا كانتا تتنافسان على النفوذ فى البلقان . وهكذا وجدت مجموعتان من الدول الكبرى تتنافسان وتخشى كل منها الأخرى . إلا أن أوربا استمتعت بأربعين سنة شاذة امتازت بالسلام والرخاء ، وبدا أنه — إذا استثنينا النزق البشرى — ليس هناك ما يمنع الدول من فض خصوماتها بالطرق الودية . والواقع أنه كانت هناك فى لاهاى محكمة دولية يفصل مشرعوها العلماء فى الخصومات التى تقع بين الأمم وينهونها بالطرق السلمية .

---

(١) انظر شكل رقم — ١٤ — (لمبراطوية آل هابسبرج ١٩١٤) .

وفى يونيو ١٩١٤ قتل الأرشدوق فرديناند ولى عهد التاج النسوى فى سراييفو بالبوسنة. ولما زعمت النمسا أن الحادثة قدبيتها السريون طلبت ترضية كاملة من الحكومة السربية. ولكنها لم تترك مهلة للمفاوضات الهادئة، وأعلنت الحرب بدلاً من ذلك. وعاضدت روسيا أصحابها السلاف السربيين. ورغم الجهود اليائسة التى بذلها الوزراء والسفراء لحفظ السلام أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وعلى فرنسا. وواضح أن أركان الحرب النمسويين والألمان انطلقوا يحاربون. وأمل القواد الألمان - بغزوهم بلجيكا، وهى دولة صغيرة محايدة - أن يعجلوا بإرسال جيش جرار إلى شمال فرنسا من أيسر السبل، إلا أنه نجم عن فعلتهم الغادرة أن أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا فى الرابع من أغسطس من سنة ١٩١٤.

ورأى أناس قلائل — من فوق صخور (كنت) — السفائن البريطانية المحاربة تتحرك، فى صفوف طويلة، عبر المضايق، فى اتجاه الشمال. وكان الأسطول فى طريقه إلى المحطات الحربية فى المياه الأسكتلندية. وعُوِّق آخرون من المستمتعين بالأجازات، فترة طويلة حتى تمكنت قطارات عسكرية طويلة من المرور. وكانت سبعة الفيالق الأولى من الجيش النظامى تتجمع فى سوذامبتون كى ترحل إلى فرنسا. وترك الناس زراعتهم ومصانعهم ومكاتبهم ليحلوا محل الكتائب التى رحلت، وملئوا المعسكرات. وبذلك أصبحت بريطانيا - أول مرة فى التاريخ - أمة مسلحة. وهرع أبناؤها من جميع نواحى العالم ليلحقوا بإخوانهم. وقدمت الهند والمستعمرات المستقلة جيوشها وثرواتها. وكان الشعور العدائى لألمانيا قوياً بصورة مذهلة. وحتى عندئذ، فى البداية، حدث تصميم على المبدأ القائل: التجأت ألمانيا إلى القوة فلتقابل بالقوة، بل بنهاية القوة، وكأنما كانت حرباً صليبية، وبالنسبة للمجند الفرنسى الذى ذهب إلى معسكره دون تفكير .. وبالنسبة للاحتياطيين الذين ساعدوا فى إشعال أفران السفن التى اتجهت إلى وطنهم من أمريكا الجنوبية .. وبالنسبة

للمتطوع البريطانى الذى وثب لحمل السلاح ... كانت الحرب هى المناسبة التى يهب فيها كل ذى أرب ليقاوم التهديد الذى لا يحتمل ، الذى مصدره الاعتداء . لقد دخل الحلفاء الحرب لإنهاء الحرب .

وهذه الاستجابة خيبت قصـــد الألمان فى شن حرب الصاعقة الذى استهدف قهر الفرنسيين أول الأمر ثم التحول شرقاً لهزيمة الروس .

وفى الحق أن هذا كاد يتم . ولكن لحسن حظ الفرنسيين ، ولشجاعتهم أيضاً . استجمع الفرنسيون قواهم ضد المغيرين وردوهم إلى (نهر) المارن . وصنع البلجيكيون ماوسعهم . وقام الجيش البريطانى بدوره الصغير الفعال . وتحولت حرب الصاعقة إلى لعبة شطرنج . فقد احتفر الفريقان خنادقهم على طول الخط من جبال الفوج إلى الشاطىء البلجيكى . ولبث الميدان الغربى أربع سنوات ، حرب خنادق وقنابل جهنمية ، حارب فيها الملايين من الرجال نوعاً من حروب الحصار . وأطلق العنان لجنون الإنسان ولشجاعته فى حرب استدرجت معظم أوربا . فلقد انضم الأتراك إلى ألمانيا فى عام ١٩١٤ وأعلن الإيطاليون الحرب على عدوهم القديم ، النمسا ، فى عام ١٩١٥ .

وأصبحت ألمانيا والنمسا وتركيا حصناً جباراً أو كتلة من الأرض مسلحة محاصرة من جميع النواحى الممكنة . وقد هاجمتها الجيوش الروسية من البلطيق إلى البلقان . وكذلك هاجم الروس تركيا من جبال القوقاز . ونزل جيش إنجليزى هندى فى دلتا الدجلة بالعراق . ووقف جيش بريطانى آخر على قناة السويس . وتسلق الإيطاليون وحاربوا على طول (جبال) الألب النمسوية . هذا بينما — من سويسرا إلى الشاطىء البلجيكى — اشتركت جيوش الفرنسيين والبريطانيين (والبلجيكيين) فى حمـــاية باريس وموانىء المضيق .

وفى ١٩١٥ قامت جيوش البريطانيين والأستراليين والزيلنديين والفرنسيين — تعاضدها السفن الحربية — للاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولى ، وبذلك تفتح طريق بحرية إلى القسطنطينية وإلى الموانئ الروسية بالبحر الأسود . ولو نجحت الحملة لخرجت تركيا من الحرب ولوصلت إلى روسيا نجدات كانت هى فى أشد الحاجة إليها . غير أن المحاولة أخفقت بعد مواقع ضاربة . . . وأنقذت تركيا مهارة ضابط تركى اسمه مصطفى كمال أتاتورك وبقى الروس معزولين عن حلفائهم .

وعاش الناس فى فرنسا وبلاد الفلاندر عيشة النمل فى الأرض على أن يظهروا فى بعض الأحيان لكى يهجموا فى مواجهة نيران المدافع الرشاشة والبنادق والقنابل المتفجرة ، ثم يموتوا ليكسبوا أمتاراً قليلة موحلة ، وقد لا يكسبون شيئاً على الإطلاق . . . هجمات وهجمات مضادة ، غارات وغارات مضادة ، خندق ضد خندق ، تسلل ضد تسلل ، لغم ولغم مضاد . . كان هذا هو الشوط اليومى الذى يجريه آلاف الرجال . وقد استخدمت جميع وسائل التخريب : قنابل يد ، وقنابل ، ومدافع هاون ، وشرابنل ، ومفرقعات عالية ، وسحب من غاز السم الخانق (وقد أطلقها الألمان قبل غيرهم) . وحول هلاك المدافع مناطق زراعية كاملة إلى خراب موحل قاحل . وكانت الهجمات الطموحة تسدد بإحكام ثم تخفق وتترك أكداساً من القتلى والجرحى والكسيحين ، وتترك كذلك أسماء الأماكن المظلمة التى حدثت فيها : لوس — ييبر — نوف شاتل — شيمان دى دام — مسين — ڤردان — تتركها على أنها سجلات للجنون والبطولة اللذين يفوقان حد الوصف . وقد اشترك المتطوعون المتحمسون الذين انخرطوا فى الجندية فى عام ١٩١٤ ، اشتركوا فى هجوم كبير — عام ١٩١٦ ، على طول (نهر) السوم — وفقدوا ، فى اليوم الأول ، ستين ألفاً ما بين قتيل وجريح . ولم يتوافر لرجل على قيد الحياة من الحكمة والمهارة ما يكفى لتوجيه شجاعتهم توجيهاً مفيداً . وقد طارت

الطائرات وحاربت فوق الرءوس وزادت من البلية والدمار . ولم توات أى زعيم من زعماء الطرفين أدنى فكرة عن كيفية وضع حد لهذا الطمع المخيف ، اللهم إلا بنوع بشع من حساب الموت ، بطرح المزيد ثم المزيد من الرجال ضـــد خطوط القتال المحصنة . وقد استخدمت الدبابات البريطانية — أول ما استخدمت — على (نهر) السوم ، ولولا أنها قليلة لاخترقت الخطوط .

ولم يكن الحلفاء ليستطيعوا متابعة الحرب إطلاقاً لولا أساطيلهم . فإن الطرادات وسفن الحراسة المسلحة هى التى حاصرت أوربا ، ومنعت وصول المؤونة إلى ألمانيا ، وحمت الأساطيل التجارية التى حملت المعادن والأطعمة والمهمات الحربية من الدنيا الجديدة إلى دور الأسلحة وأحواض السفن التابعة للحلفاء ، وحافظت على خطوط الملاحة البحرية الكبيرة التى عجت بالجنود . وقد أمضى أسطول حصار بريطانى معظم وقته فى أعمال الحراسة والعس ، بين أيسلندا والنورويج . وفى عام ١٩١٦ عندما أفلتت سفن الألمان الحربية التابعة للقيادة العليا من قواعدها ودخلت البحر الشمالى لقيتها الوحدات الصغيرة التابعة للأسطول البريطانى الكبير ، وراء جتلند ، لقيتها لقاء عنيفاً جعلها تهرع إلى مرافئها حيث ظلت قابعة .

وفى عام ١٩١٧ لقى الحلفاء أسوأ حظهم : إلى هنا احتجزت الجيوش الروسية الضخمة جيوشاً ألمانية تعادلها ضخامة ، على طول ميدان قتال يترامى من البلطيق إلى البلقان حيث كانت جيوش كاملة تتحرك إلى خلف وإلى أمام عبر بروسيا الشرقية وبولندا وجاليسيا . وكانت الخسائر الروسية فادحة ومواردها من المدافع والذخائر بالغة الشح . وكانت شجاعتها مذهلة . غير أنه فى مارس من سنة ١٩١٧ قامت فى روسيا ثورة شعبية . لعزل القيصر وقتل بعد ذلك هو وأسرته ، وقد بدأت الثورة الروسية — كالثورة الفرنسية —

بزعامة رجال ذوى عقول حصيفة ومقاصد طيبة ، هم الشيوعيون — بزعامة لينين — الذين سارعوا إلى عقد الصلح مع الألمان . وهكذا انسحبت الجيوش الألمانية فى الشرق لتعين الجيوش الألمانية فى الغرب .

وعندئذ ثارت الجيوش الفرنسية . وفيما كانوا يستعيدون نظامهم حارب البريطانيون حرباً طويلة موحشة باهظة النفقات ، وقد حدث ذلك فى أراضى بسانتشنديل الموحلة . ثم ظهر جيش ألمانى على الجبهة الإيطالية واكتسح الطليان وردهم إلى الخلف ، إلى داخل السهول . ولم يقف ارتدادهم غير وصول الفيالق الفرنسية والبريطانية التى أرسلت من فرنسا .

وهذه الارتدادات والتعويقات وازنها دخولُ الولايات المتحدة الحرب بعد أن أغضب أهلها إغراق الغواصات الألمانية للسفن التجارية إغراقاً لا رحمة فيه بما فى ذلك سفن الركاب . وكانت الموارد التى يحتاج إليها الحلفاء تنتقل — كلها — بحراً . وفى عام ١٩١٧ كانت الغواصات الألمانية تغرق البضائع بمعدل مدمر . ورغم نظام القوافل الذى اتبعه أمراء البحر فى شىء من التردد كانت الدلائل مخيفة . ولكن بعد دخول أمريكا تحسن أفق الأمل . فقد هرعت الوحدات البحرية الأمريكية إلى العمل من فورها . وحولت أحواض السفن الأمريكية طاقاتها الهائلة لبناء السفن . وقد استقبلت بترحيب مماثل : فرق الطوارىء الأمريكية الكثيرة التى هبطت فرنسا والتى اطردت زيادتها حتى بلغت تعداداً مذهلاً يقدر بربع مليون ، شهرياً . ولم يكن أولئك أول من وصل من الجنود عبر الأطلنطى ، إذ ، منذ أولى شهور الحرب ، أرسل الكنديون جيوشاً ليحاربوا مع البريطانيين جنباً إلى جنب .

وفى مارس من سنة ١٩١٨ هجم الألمان هجمة ناجزة أخيرة ، وقهروا الجيش البريطانى الخامس ، وردوا الجيش الفرنسى . وبعد فترة محفوفة بالأخطار ملئت الثغرات ، فقد أمدهم وصول الأمريكيين باحتياطى موفور .

وإلى أن حل ذلك الوقت اضطرتهم هزائمهم المستمرة إلى الانضواء تحت القيادة العليا لفرنسي أوتى شجاعة وخلقا، ألا هو المارشال فوش. وقد تولى القيادة بالفعل. وفى يوليو بدأ سلسلة من الهجمات المفاجئة الضارية — هنا، وهناك، مصعداً تارة ومنحدراً تارة أخرى — على طول الخط، دون أن يتيح للعدو مهلة ما وتوافرت لديه الإمدادت الطائلة. ووقفت المدافع، والعجلة تجاورها العجلة، على طول خطوط القتال. وتحرك الجيش تلو الجيش — الفرنسى والبريطانى والأمريكى — تشد أزره عواصف من نار المدفعية، وتلاحق قذف النيران إلى درجة أن الجبهة كلها كانت تتحرك. وترنح الدفاع الألمانى تحت تلك الهجمات المتصلة وما هو إلا القليل حتى كان مدفعيو الحلفاء يصولون ويجولون فى العراء، يطلقون نيرانهم من مواقع استحدثوها فى الميدان، والمشاة يمدونهم بما يلزمهم من موارد. ولم يأت نوفمبر حتى كان الألمان يتراجعون تراجعاً عاما.

وتواردت أخبار النصر من جهات أخرى فى ميادين القتال. فقد أعيد تنظيم السربيين وتسليحهم فى سلانيك وانطلقوا عائدين إلى بلادهم: وهى أمة من المحاربين. وحارب الجنرال اللنبى من مصر — الأتراك عبر تلال أرض الميعاد — وقتما ذهب الفرسان المتطوعون فى الجيش الإنجليزى وخيالة المستعمرات على طول فلسطين ليوقعوا العدو الهارب فى الشرك. وسقطت دمشق. وفى العراق تقدم رجال الجنرال (مود) مصعدين الأنهار ليلتقوا برجال اللنبى وكان الإيطاليون يتعقبون النمسويين عبر الجبال.

وهكذا انتهت الحرب الكبرى بهدنة — أى بوقف إطلاق النار — فى الحادى عشر من نوفمبر من سنة ١٩١٨. وثارت ألمانيا والنمسا. وكانت القسطنطينية فى أيدى الحلفاء. ودقت الطبول البريطانية والفرنسية والأمريكية على الراين. وأوقفت الآلام والخسائر المفزعة، والجنون المخرب، والبطولة الفائقة. وبقى على سياسيي الحلفاء أن يعقدوا صلحاً مقيما.

الإمبراطوريات التى تهاوت :

قضت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ بانتهاء إمبراطورية القياصرة الروس وإمبراطورية الترك العثمانيين وإمبراطورية آل هابسبرج النمسوية . أما محاولات التفاهم مع شرق أوربا فكان نصيبها البلبلة والارتباك .

وتركت الثورة الروسية — التى قامت فى سنة ١٩١٧ ، والتى فيها فقدت جموع من الناس أرواحها — تركت الحكومة المركزية فى يد الحكم الشيوعى الماركسى ، بزعامة لينين الذى أوتى براعة سياسية عظيمة . وأنشأ الثوار فى كل مكان ، « سوفييت » أو مجالس تحوّل القيصرية إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية تظللها راية حمراء رسم عليها مطرقة ومنجل لم تسبق الاستفادة منهما قبلا . وكانوا يرمون إلى جعل روسيا بلاد مصانع وآلات وجرارات ، وإلى تحويل شعبها إلى « بروليتاريا » أو كتلة من العمال لا تملك أرضاً ، على أن يحل أعضاء الحزب الشيوعى محل الأرستقراط القدامى .

وما كان لهم — بوصفهم أعضاء حزب شيوعى دولى ، يرمون إلى التخلص من جميع الحكومات القائمة — ما كان لهم ، بهذا الوصف ، أن يتوقعوا الصداقة من الحكومات القائمة . وترتب على ذلك أن الروس لبثوا بمعزل عن العالم المتمدن ، وهنا ، مرة أخرى ، لم يحدث تغيير ذو بال إذ أن الروس — بسبب مركزهم الجغرافى — كانوا دائماً بمعزل ، بعض الشيء عن المجرى العام للحياة الغربية .

وإعادة النظام والعمل، إلى شعب يائس متخلف جاهل مغلوب لا زعيم له ، صعبة على كل حال . إلا أن السوفييت رموا إلى أن يضعوا بالقوة الجبرية ، جميع رعاياهم فى قالب سياسى موحد وقد استهدفوا السيطرة على حياة الرجال وعقولهم ، تماماً كما قد تسيطر القبائل على حياة أفرادها

وعقولهم بحيث يفكر كل امرئ ويتصرف بالطريقة ذاتها وفى الوقت ذاته . وحكم الناس على هذا النحو أسهل . أرادوا أن الدولة تملك كل شيء وتوجه كل إنسان ، وأن يصنعوا مجتمعاً كأمة إنكا القديمة (فى بيرو) على أن تصير صناعية لازراعية . ومن الغرابة بمكان أن الفلاحين لا يرضون كثيراً عن الشيوعية السوفييتية . وقد وجد ثوار روسيا الماركسيون — كما وجد الثوار الفرنسيون فى ١٧٨٩ — أن أشد معارضيهم عناداً هم فلاحوهم. وقد صيغت كلمة جديدة لوصف هذا النوع من المجتمع ، هى « الجماعيون » (أى المتعلقون بالمذهب الجماعى فى الحكم) .

وكانت المآثر التى أنجزها الزعماء السوفييت — أول الأمر بزعامة لينين، وبعد موته بزعامة ستالين — مهمة إلى حد كبير . فلقد أنشأوا الطرق ، وصرفوا مياه المستنقعات ، واحتفروا المناجم ، وأسسوا مدناً صناعية جديدة ، وأقاموا محطات للقوى الكهربائية ، وابتكروا نظاماً لتعميم التعليم ، ومحو الأمية ، واستكشفوا موارد بلادهم الشاسعة ، وأسسوا صناعات فى الشمال السحيق المتجمد وفى الجنوب شبه الاستوائى . وكان لديهم ، تحت تصرفهم ، سدس مساحة العالم القابلة للسكنى يعج بثروة طبيعية من الزراعة والمناجم لا سبيل إلى تقديرها . ولقد صنعوا من الكدح والآلم قصة بطولية .

ولم يخلف تفتت الإمبراطورية التركية المتداعية ، للأتراك ، غير مدينة القسطنطينية الجميلة وآسيا الصغرى وغير وطنية كال أتاتورك الملتهبة وجهوده، ولولا هذا لكانت رقعة أرضهم أصغر . فأتاتورك هو الذى لم شعث قومه وطرد جيشاً يونانياً من آسيا الصغرى فى ١٩٢٠ ، فهربوا لا يلوون على شيء... خلق أتاتورك تركيا الجديدة الحديثة، فجعل قومه ينهجون نهج الغرب فى زيه وعاداته وأفكاره وحروفه الهجائية وتعلمه ، وحول تركيا القديمة تحويلاً كاملاً إلى بلد زراعى تجارى مجد . نعم ماتزال هناك عجائز تلبسن

النقاب (البرقع) حتى فى أثناء كدهن فى الحقول ، إلا أن من تصغرهن سناً تلبسن كما تلبس أخواتهن فى فرنسا وفى بريطانيا . وعلماء الحفائر الأتراك ، فى الوقت الحاضر ، يحفرون ويدرسون خرائب الإمبراطوريات التى بادت فى آسيا الصغرى . ويستخدم الأتراك فى الوظائف ، جامعيات . وكانت تركيا عدوة قديمة لروسيا فى عهد القياصرة . ومايزال جنود الجيش الأناضولى الشجعان الأذكياء يقومون اليوم بحراسة مسلحة على طول التخوم الروسية السوفيتية فى أرمينيا . ومن تناقض الأقدار الغريب أن التركى الحديث يحرس جناح الغرب المتمدن ، تماماً كما درج الفنيزيون على أن يحرسوها ضد الأتراك القدامى .

وبقى سائر الإمبراطورية التركية إرباً إربا ، ممالك وجمهوريات عربية : العراق ، سوريا ، لبنان ، الأردن ، المملكة العربية (السعودية) . وفى أراضيها تقع حقول الزيت المؤجرة لشركات الزيت فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا . فنى الشرق — الذى أفقر وطال إهماله ، والذى حكمه أناس لا خبرة لديهم ، وسكنه أفقر الرعاة والرحل — يتدفق ذهب أمريكا والغرب لدفع ثمن الزيت الذى عليه وحده يتوقف استمرار المدنية حتى الآن . وإنك لتجد كل كتلة الشرق الأدنى هذه المكونة من دول صغيرة ضعيفة فى حالة قلق وتبدل . وهى — كدول البلقان الصغيرة فى القرن التاسع عشر — يزعم البعض أنها مصدر خطر على السلام العالمى بسبب التنافس بين روسيا والغرب .

وقد أخذ زعماء اليهود ، منذ فترة طويلة ، يسعون إلى عودة اليهود — يوماً ما — إلى بيت المقدس . وبدأت حركة « صهيونية » لتحقيق ذلك ووعد حلفاء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . وفى سنة ١٩٢٠ حدث هذا تحت حماية الجيش البريطانى .

وأشد ما يلفت النظر من نتائج الحرب : تفتت إمبراطورية هابسبرج النمسوية . فقد ضمت بعض شرائح مستطيلة من الأرض إلى إيطاليا وسربيا (التي أطلق عليها اسم : يوجوسلافيا) . وقسم الجزء المهم من الإمبراطورية إلى ثلاث جمهوريات : النمسا ، والمجر ، وبوهيميا (التي أطلق عليها اسم : تشيكوسلوفاكيا) . وكانت النمسا — وهي المنطقة التي تحيط بفيينا — أصغر من أن تعول نفسها ، وكان المجر سهلاً غنياً يسكنه فلاحون يعملون عند سادتهم الملاك ، وكانت تشيكوسلوفاكيا بلداً به مجموعة من الصناعات وذوي الحرف والصناع المهرة . وكانت كل تلك الولايات يعتمد بعضها على البعض أما الآن فهي دول مستقلة(١) .

وظهرت دول جديدة في الأصقاع التي ملكتها يوماً ، ألمانيا وروسيا . فلقد كانت — على طول ساحل (بحر البلطيق) — الجمهوريات الصغيرة : إستونيا ولاتفيا وليتوانيا . وفي قلب سهول مملكة بولاندا الكاثوليكية القديمة العظيمة ظهرت من جديد الجمهورية البولندية .

وإذا أضفنا إلى تلك ، ممالك البلقان الصغيرة — وهي رومانيا وألبانيا وبلغاريا واليونان — وجد ما لا يقل عن ١١ دولة صغيرة كلها تتذمر وتحقد في صدد حدودها المترامية عبر كل أوربا الشرقية من البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تكون حجاباً حاجزاً من الدول بين أمتي الألمان والروس القويتين .

ومنذ ١٩١٨ أخذ تاريخ أوربا والعالم يدور حول هذه الحقيقة : كل الدول الإحدى عشرة ، تسنى الألمان قهرها في يسر ، بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وهي جميعها — باستثناء النمسا ويوجوسلافيا واليونان — خاضعة لجيش

---

(١) أنظر شكل رقم — ١٥ — (تفتيت شرق أوربا)

روسيا الشيوعية وقد أدرك المؤرخ الإنجليزى الكبير اللورد أكتون — فى سنة ١٩٠٠ — خطر الجيوش الالمانية والروسية الكبير . غير أن السياسيين والرجال الذين صنعوا معاهدات الصلح فى ١٩١٨ لم يستطيعوا أن يدركوا الآلام والمصائر الفاجعة لتلك الدويلات الصغيرة الكثيرة ، بل على العكس : هللوا لمظهرها على أنه علامة تبشر بدنيا جديدة فيها تختار كل أمة حكومتها وتعيش بعد ، ذلك ، فى وفاق مع جيرانها .

إحدى وعشرون سنة بين حربى ١٩١٨ و ١٩٣٩ :

كانت مهمة صناع الصلح فى فرساى عظيمة شاملة ولكنها مستحيلة ، إذا كان عليهم أن يعيدوا الاستقرار إلى دنيا متهوكة ممزقة جاهلة ، وهم ليسوا عباقرة . وكان أمل واحد يشتعل اشتعالاً متوهجاً . ذلك أن مبدأ «الحرب لإنهاء الحرب» يجب أن يجيء فى إثره ميثاق مهيب بين دول تتنكر ، إلى الأبد ، فكرة الالتجاء إلى القوة . وكانت مشروعات على هذه الشاكلة ، فيما مضى ، حلم الكثيرين من الساسة والفلاسفة . وقد وجدت فعلاً هيئة للقانون الدولى ومحكمة العدل فى لاهاى ونجحت فى فض خصومات كثيرة بطريق السلام . والآن أسست ـ بتوجيه كثير من الرجال البارزين ، ومنهم الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والفيلد مارشال سمطس (من جنوب إفريقيا) — أسست عصبة الأمم مقرها جنيف . وكانت تلك العصبة محاولة مثابرة كبيرة لحفظ السلام عن طريق المجادلات والمؤتمرات ، وقد أنجزت لجانها المختلفة أعمالاً نافعة جداً فى حمل الأمم على التعاون لتحسين شئون العمل والمواصلات . غير أن العصبة أخفقت فى منع الحرب بين الدول الكبرى . وسيستمر الخلاف طويلا ، بعدُ ، فى سبب إخفاقها . وقد يجوز أنها لم تبدأ ، حقاً على الإطلاق ، بداية طيبة : فالولايات المتحدة الأمريكية لم تكن عضواً ، وكذلك روسيا وألمانيا حتى مضت على البداية سنوات .

ولم يحدث فى وقت ما أن شاركت فيها الدول الكبرى جميعها . وقد تخاصمت الدول فى اجتماعاتها خصاماً علنياً . ولأمر غريب ما ، لم يكن ينظر بعين الاحترام إلى الأمم إذا اعتذرت أو تسامحت كما قد يصنع الأفراد .

وكانت لدى الفرنسيين رغبة ألحت عليهم ، وهى أنهم رغبوا فى أن يأمنوا الغارات الألمانية إلى أقصى حدود الأمان ، وكانوا يخشونها . وحاول الألمان — وكانوا ما يزالون يفوقون دول وسط أوربا عدداً وصناعة ومهارة — حاول الألمان أن يجعلوا جمهوريتهم الجديدة تقوم على قدميها . والأمة المغلوبة تجد من الصعب عليها دائماً أن تتقبل نوعاً جديداً من الحكومة . وقد أصر المنتصرون ، فى فرساى ، على أن تلزم ألمانيا بالاعتراف علناً بجريمتها فى إشعال الحرب ، وبالتجرد من السلاح ، وبالبقاء فقيرة ، وبالاستمرار — سنوات طويلة — فى دفع غرامات تثقل كاهلها ، نقداً أو بضائع ، تعويضاً عن كل خسائر الحرب وأضرارها . ومع هذا ظل الجنود الألمانيون — الذين تصدوا لجيوش العالم أربع سنوات ، والذين عادوا فى نظام عظيم إلى وطنهم — ظلوا يشعرون أنهم خير من الفرنسيين والروس .

وعندما أعلن الشيوعيون الروس أن هدفهم نشر الشيوعية فى الخارج نشطت المنافسة القديمة الطويلة ، بين روسيا وألمانيا ، للسيادة على شرق أوربا . وكان الخوف من سطوة الروس والرغبة فى اجتناب المبدأ الشيوعى جزءاً من الخلفية المحزنة لكل نواحى السياسة الحديثة .

وانتشرت الشيوعية فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا . فأضعفت قوة السياسة الفرنسية التى كانت ضعيفة بطبيعتها بسبب قصور الفرنسيين عن أن يتفقوا فى شئون الحكم ، وأقلقت إيطاليا وهى بلاد فقيرة خسرت كثيراً ولم تجن من المجد والمنفعة إلا النزر اليسير . وأدت حروب العصابات والقرصنة

السياسية — بين الشيوعيين الإيطاليين ومعارضيهم — إلى اضطرابات خطيرة. وفي عام ١٩٢٢ قاد صحفي اسمه بنيتو موسوليني « قمصانه السود » في زحف إلى روما ليرد النظام والقانون إلى نصابهما . وأصبح موسوليني دكتاتوراً بلقب « الدتشي » (أي الزعيم) ، وتصرف وفق هواه وطبق طغياناً قوياً واتخذ الحزمة(١) شعاراً وهي التي كان يحملها الأمناء الرومان ، وهم الرجال الذين نيط بهم حفظ النظام في عهد قيصر . وقد أطلق على حزبه اسم « الفاشيين » . وأخذ هو ورجال حزبه على عواتقهم جعل إيطاليا دولة حربية قوية ودولة استعمارية تحيي عظمة روما . وساق الناس إلى العمل ، ومنع الإضرابات ، واقترع كل الرجال والصبيان في قوات مسلحة . وأنجز الشيء الكثير : صرفت مياه المستنقعات ، ومدت الطرق ، وقضى على اللصوصية . ومثل تلك الأمور يمكن دائماً إنجازها باللجوء إلى القوة . ونجاح موسوليني مردّه إلى عدم نضج إيطاليا في الحكم البرلماني ، وإلى جهل الشعب ، وإلى مؤامرات الشيوعيين ، وإلى انتشار الفقر والتعطل . وإيطاليا فيها سكان كثيرون وموارد طبيعية قليلة . ويرى موسوليني أن أهل الريف هم الوارثون الطبيعيون للرومانيين . ويرى الكثيرون من أولئك أن موسوليني هو « المخلّص » . إنه ، في الواقع ، مزيج من اللصوصية والوطنية والطغيان .

وكثير من المتاعب التي تنشب بين الأمم والأحزاب — في كل مكان — اقتصادي . وموضوعها : الصناعة والتجارة ومن الذي يعمل العمل الفلاني وبأية شروط وقد رفرف — بعد عام ١٩١٨ — فيض من الإنعاش. ولكن في عام ١٩٣١ حدث كساد وهبوط في التجارة العالمية : أعمال كثيرة كان ينبغي إنجازها (والأعمال موجودة في كل وقت) مع عوز في الثقة تام ، وبذلك

---

(١) الحزمة قضبان محزومة على فأس .

أصبحت التجارة في حالة توقف تقريباً . وانهارت أعمال البورصات المالية بين الدول . فلم يكن في طاقة امرئ أن يشترى البضائع التي تغص بها المستودعات ، ورقدت — في الموانىء والمياه الراكدة — أساطيل من السفن التجارية الجميلة يعلوها الصدأ . ذلك أن أحداً لم يملك أن يستأجرها . ووقفت العجلات في المصانع . وألقى البن البرازيلي في المحيط . واحترقت الحنطة الأمريكية ، وسكب اللبن في المصارف . وتعطل عن العمل ملايين من الناس ، حتى في الولايات المتحدة التي لديها طعام يكفي كل سكان العالم أجيالا . وبدا أن العالم أصابه مس من السحر . وأصبح الموقف بشعاً غريباً . ثم انتعشت التجارة وتناقص التعطل رويداً رويداً .

وقد نجمت عن محاولة المنتصرين الضغط على ألمانيا لتظل فقيرة ولتدفع غرامات الحرب — متاعب جسيمة زادها الكساد سوءاً . فأفلست ألمانيا وأملقت غالبية الطبقة الوسطى ، وزاد التعطل زيادة فاحشة . ثم ظهرت عصابات سياسة ومنازعات تمردية ، وتصدى منها أحد الأحزاب الطاغية وانتزع مقاليد الحكم وهو الحزب الاشتراكي الوطني أو « النازي » بزعامة أدولف هتلر ، وكان قبلا قائد عشرة (أمباشي) وأصله من عامة الشعب . وفي عام ١٩٣٣ أصبح هتلر : « الفوهرر » أي الزعيم الحاكم بأمره (الدكتاتور) ، ونظم أتباعه كما قد تنظم فرق الجيش ، وقمع كل معارضة ، بوحشية دموية جامدة القلب . وكانت أهدافه بسيطة فظيعة : إكراه الناس على العمل والطاعة ، والقضاء على كل الشيوعيين واليهود ، وإخضاع الألمان — المقيمين في أية بقعة من بقاع الأرض — لصولته ، وجعل الشعب الألماني ، الذي كان في نظره شعباً حاكماً قدر له أن يسود العالم ، جعله سيداً في العالم ، ورمى إلى غزو السهول الخصبة الواقعة في غرب روسيا وحقول الزيت في القوقاز . ورمى في الوقت ذاته إلى أن يكره صناع الصلح بفرساي

على أن يعكسوا قراراتهم . ولم يخف أى شيء من كل هذا ، وقد راقبته سائر أوربا وهو ينفذه .

وترجع قوته إلى انهيار الحكومة الديمقراطية فى ألمانيا وإلى يأس الشعب ، وإلى مقت أغنياء اليهود والاعتقاد بأن كل المتاعب الاقتصادية مردها إليهم ، وإلى الرغبة فى الانتقام . وترجع قوته كذلك إلى أسباب خاصة : إلى تعود الألمان طاعة أى أمر ، وإلى أن ضباطاً كثيرين كانوا يعاضدونه . وقد أملوا أنهم — بعد توحيده ألمانيا وتقويتها — يتخلصون منه ، وكان هذا أملا خاطئاً .

وكان طبيعياً أن يحالف هتلر موسولينى . فكلاهما معدوم الضمير ، وكلاهما آمن بالمبدأ الشيطانى القديم — وهو أن الغاية تبرر الوسيلة . وقد أعلن فعلاً وفى صراحة أن الأكذوبة إذا كانت كبيرة بقدر كاف واستمر تكرارها بقدر كاف فسوف يصدقها الناس. وكان كلاهما ينشد طاعة فورية عمياء ، وكان كلاهما يلبس مسوح الوطنيين .

وفيما كانت ديمقراطيات فرنسا وبريطانيا والولايات المتحـــدة الأمريكية ، تعيش على الأمل ، وتتنازع فيما بينها ، وتترك جيوشها وبحرياتها تذوب ، كانت ثلاث مجموعات من الناس تعرف ما تريد حق المعرفة وتتأهب لأخذه بالقوة : أدولف هتلر وناز يوه ، بنيتو موسولينى وفاشيوه ، وستالين ورفاقه . وكان طبيعيا أن يقف المئات من مواطنى الديمقراطيات على هذه الحقائق . وعلى سبيل المثال : لا أحد ممن كانوا يرقبون أطفال المدارس يتدربون فى ألمانيا تدريباً عسكرياً ، يمكن أن تخفى عليه المأساة التى قد تحل .

وفى عام ١٩٣٤ هاجم موسولينى إثيوبيا . وفى عام ١٩٣٦ قهرها رغم الغضب الشديد الذى علا صوته فى الديمقراطيات . وفى عام ١٩٣٦ قامت حرب أهلية

عنيفة فى أسبانيا وهى دولة نجت من حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . وحاربت قوات الشيوعيين والأحرار ، أى الديمقراطيين — فى ضراوة الأسبان المألوفة — ضباط الجيش « والمحافظين » ، ونهبت الكنائس وأحرقت ، وأطلقت القذائف على المدن ، وأعدم الأسرى . وتدفق المتطوعون ، من دول أخرى ، ليساعدوا الأسبان على تخريب بلادهم بالاسم المقدس لبعض الأحزاب . فأرسل هتلر جنوداً فى زى سياح ، وأرسل موسولينى فرقاً تساعد القائد الأسبانى ضد الشيوعيين . وفى النهاية انتصر الجيش الأسبانى التابع للجنرال فرانكو ، وأصبح دكتاتوراً فى عام ١٩٣٩ . وقد صورت الحرب اضطراب التفكير فى الديمقراطيات . وكانت الحالة السياسية فى أوربا مفزعة إلى حد أن أحداً من الديمقراطيين لم يكن ليستطيع معاضدة مطلب شعبى من دون أن يحالف الشيوعيين . وإذا عارض مطلباً شعبياً فلا معدى له عن أن يحالف النازيين والفاشيين .

ولسوء الحظ حدث اعتداء مقنع فى الشرق الأقصى حيث أخذ اليابانيون — بزعامة أرستقراطييهم الحربيين — يهاجمون الولايات الصينية ويخلفون دماراً . وقد عارضت عصبة الأمم هذا الإجراء أشد معارضة ولكنها كانت قد فقدت سلطانها الأدبى ، إذ انسحبت منها أمم كثيرة . وفى ديسمبر ١٩٣٩ طردت العصبة روسيا لأن الروس حاربوا فنلندا . وكان هذا آخر ما صنعته العصبة . وذلك لأن كل أوربا شاركت ، من جديد ، فى حرب . وقد بدا لأولئك الذين شاركوا فيها أنها استئناف لحرب ١٩١٤ — ١٩١٨ بعد هدنة مشوشة مشحونة بالكوارث ،

الأمم فى جهادها من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ :

فى عام ١٩٣٦ قذف هتلر بجنوده إلى بلاد الراين ، متحدياً معاهدات

الصلح . وفى عام ١٩٣٨ استولى على النمسا . وفى عام ١٩٣٩ استولى على تشيكوسلوفاكيا وكسب بذلك مصانع سكودا للسلاح . ولم تصدر عن فرنسا ولا عن بريطانيا أية محاولة لمنع هذه المظالم الفظيعة أو نقضها . إلا أن البريطانيين بدأوا يستأنفون التسلح ، وعمدوا إلى التجنيد الإلزامى ، وأعلنوا هتلر بأنه إذا غزا بولندا — كما هدد بذلك — فسيعلنون عليه الحرب . وهاجم هتلر بولندا ، واحتل أوسع رقعة استطاع أن يحتلها منها ، إذ أن ستالين كان قد أنفذ إلى معظمها ، خفية ، فيالقه ليحميها من سطوة ألمانيا الآخذة فى النمو . وهكذا قسمت بولندا التعسة ، من جديد ، بعد فترة قصيرة من الحرية دامت إحدى وعشرين سنة .

وقد بت فى مصائر الحرب العالمية الثانية — التى بدأت فى سبتمبر من سنة ١٩٣٩ — ثلاثة اختراعات بدئ فى تطويرها وتحسينها من سنة ١٩١٨ : قاذفة القنابل السريعة الثقيلة ، والدبابة المحاربة المسلحة ، والتلغراف والإذاعة اللاسلكيان .

وعجز الحلفاء عن إنقاذ بولندا وعجزوا عن عمل أى شىء آخر . وتوقف القتال ثمانية أشهر فى ظلام وهمّ وخوف وغموض مرعب ، توقف إلا فى البحر حيث أخذت الألغام والغواصات الألمانية تغرق السفن . وانتظر الحلفاء أن يبدأ هتلر الاعتداء . وفى مايو من ١٩٤٠ عمل فى سرعة وغدر ونجاح باهر . فاستولت جيوشه وطائراته على الدانمرك والنرويج وهولندا وبلجيكا . واخترقت فرقه المسلحة الجيوش الإنجليزية الفرنسية وقتما تحركت لحماية بلجيكا . وسقطت باريس ، وسلمت فرنسا ، وزحف مليون فرنسى ليقعوا أسرى . وأنقذت قوات الحملة البريطانية من شواطئ دنكرك حشود من الأطواف الصغيرة ، والوحدات البحرية وقوارب الصيد والسفن واليخوت (أى سفن السياحة الخاصة) وبواخر

النزهة . كل هذا أنجزه الألمان فى شهرين من حروب الصاعقة ، وكانت خسائرهم تافهة بالمقارنة إلى خسائر الحلفاء .

ولم يكن لدى بريطانيا مدافع ولا دبابات بل ولا بنادق تستحق الذكر . غير أن الطائرات المقاتلة — من طراز سبتفاير (قاذفات اللهب) والهاريكين (الإعصار) التابعة للسلاح الجوى الملكى ، يوجهها اختراع رادارى جديد — حطمت قاذفات القنابل الألمانية التى كانت تهاجم الموانىء والمطارات ، وبذلك منعت الألمان من محاولة الغزو . وقد أنقذت الموقف المئات القليلة من قواد الطيارات المقاتلة . وكان حرياً بألف من أمثالهم — لو أنهم كانوا متأهبين — أن ينقذوا فرنسا . وبعد « معركة بريطانيا » هذه ، كابدت لندن قنابل الطيارات ، ليلة موحشة بعد ليلة موحشة ، شهوراً دون انقطاع وترتبت على هذا خسائر فادحة فى الأرواح والأملاك .

وحدث تقلب محزن فى حظ بريطانيا . فقد تقدم مواطنوها مسلحين بالحراب وبنادق الصيد بينما كانت الفرق الناجية يعاد تسليحها . وليس فى الإمكان وصف الحمية والجلد اللذين دأبت عليهما بحريتها الشجاعة وسفنها التجارية ، إلا فى تاريخ مفصل .. وقفت بمفردها ، وقدر أغلب الناس فى العالم أجمع أنها مقضى عليها لا محالة . وكانت القوى المتجمعة فى مستعمراتها المستقلة مستعدة لإمدادها بعونها على شريطة أن تتمكن من السيطرة على البحار . ثم إنها لم تكن لتأمل أن تنتصر فى الحرب من دون حليف قوى فى أوربا . وبدأت مصانعها الحربية وغير الحربية تدريجياً ، تصلح من شأنها وأخذت معدات الحرب تتدفق من الولايات المتحدة الأمريكية التى كان فرانكلين روزفلت رئيسها . وكان أهم شىء — بالنسبة لبريطانيا — هو تغيير حكومتها . وتحت وطأة الصدمة والكوارث والخزى نودى بونستون تشرشل رئيساً للوزارة . وكان صديقاً حميماً لروزفلت ، وجندياً ورجلاً مجلو البصيرة لم يلبث إلا قليلاً حتى سيطر على الحرب بعزيمته وخصوبة عقله وبلاغته العظيمة الملهمة .

ضربت مدن بريطانيا بالقنابل ، وأغرقت سفنها، وجنّد سكانها وحددت مقادير أغذيتهم . وأضاء الظلام نصرٌ واحد : فى ديسمبر من سنة ١٩٤٠ تقدم الجنرال ويڤل بفرقتين من مصر وأباد جيشاً إيطالياً فى ليبيا قوامه ١٥٠٫٠٠٠ رجل. وقبل مايو من سنة ١٩٤١ طردت جيوش بريطانية أخرى، الإيطاليين من إثيوبيا . غير أن حرباً خاطفة أخرى ، أوقدها الألمان ، عرضت كل الشرق الأدنى للخطر ... احتلت جيوش هتلر : المجر ورومانيا وبلغاريا ويوجوسلافيا ثم هاجمت اليونان . وحارب اليونانيون متقهقرين تساعدهم قوة بريطانية وصلت من مصر ، غير أن الدبابات الألمانية والطائرات اكتسحت أمامها كل شيء . وما هى إلا أيام قلائل حتى بلغ الألمان سلانيك وأثينا ، ثم استولوا على كريت بهجوم مركّز من جنود المظلات . ومرة أخرى أنقذت البحرية الملكية قوات بريطانية كبيرة من اليونان وكريت . وفى مايو سنة ١٩٤١ كان هتلر قد استعبد كل مناطق أوربا الواقعة غرب روسيا . وإلى هذا نزلت فرقة أفريقيا الألمانية ، فى ليبيا - بقيادة رومل - وردت البريطانيين على أعقابهم حتى حدود مصر . وكانت بريطانيا ما تزال واقفة بمفردها .

ثم أتاح هتلر لبريطانيا حليفاً فى القارة .. فى الثانى والعشرين من يونيو من سنة ١٩٤١ — فى مثل اليوم الذى غزا نابليون فيه روسيا — انطلقت سبعة جيوش ألمانية فى شرق بولندا وروسيا دون أى إنذار سابق . ولم يمض شهر واحد حتى كانوا قد بلغوا سمولنسك ، ووصلوا قبل الشتاء أمام لنينجراد وموسكو ،واحتلوا المنطقة الصناعية على حوض (نهر) دونيتز وآبار الزيت فى القوقاز . وكما انكسر الفرنسيون فى ١٨١٢ ، انكسرت الجيوش النازية فى شتاء ١٩٤١-٤٢ بسبب الجليد المدمر الذى أتلف كل مركباتهم المسلحة. والروسيون محاربون أشداء ، وكان من خلف الألمان آلاف من المشايعين المدنيين نهاراً، المحاربين حرب العصابات ليلاً . وكانت الحرب ضارية مخيفة .

وعمد هتلر إلى استعباد جميع سكان البلاد التي يغزوها . ونقل الروس المصانع الحربية التي لديهم ، في كدّ لا يصدق ، إلى (جبال) الأورال حيث تبقى في مأمن . وصدوا الغزاة بحرب دبابات جبارة أمام موسكو ، صدوا الغزاة بينما كانوا هم ، في الوقت نفسه ، يشكلون ويحشدون جيوشاً في سيبيريا . ولم تكابد بلد في الحرب أكثر مما كابدت روسيا .

وشهد شتاء ١٩٤١ تبدلاً مباغتاً آخر في ديسمبر : دمرت قاذفات القنابل اليابانية — بدون أي إنذار حرب — قاعدةً بحرية أمريكية في بيرل هاربور بالمحيط الهادى ، وغزت (جزائر) الفلبين . وفي مدى ثلاثة أشهر احتلت اليابان هونج كونج والهند الصينية والملايو وبورما . وأخذت كل جزائر الهند الشرقية الهولاندية ، واستولت على الحصن البحرى البريطاني في سنغافورة ، وأسرت سبعين ألف جندى .

وكانت الولايات المتحدة - عندئذ - تحارب إلى جانب بريطانيا العظمى ضد ألمانيا واليابان . ولم يكن مستقبل ديمقراطيات العالم يبدو أكثر كآبة ، فلقد عُقدت المبادأة للألمان واليابانيين الذين كانوا يسيطرون على كل أوربا وجنوب شرق آسيا ، وكان جيش ألماني يهدد مصر . حدث هذا في ربيع ١٩٤٢ .

ولكن قبل نهاية العام انتقل الحلفاء إلى الهجوم في ميادين الحرب الثلاثة . وفي مايو ويونيو أغرقت حاملة طائرات أمريكية ، سفناً حربية يابانية في بحر المرجان وعلى مسافة من جزيرة مدواى . وبعد هذا أخذت القوات الأمريكية ، من بحرية وجوية وبرية ، تغير على الجزيرة تلو الجزيرة ، وتسترد رويداً رويداً السيادةَ على المحيط الهادى وتنسف القواعد الجوية . ولم يكن بد من أن تطول هذه المهمة . وجرت أعنف المعارك البحرية والجوية في البحار المحيطة بجزائر سليمان وبابوا وغينيا الجديدة . وكان الجنود الأمريكيون والأستراليون يطهرون أدغال الجزيرة من حماتها الذين حاربوا حتى الموت . وفي الوقت نفسه أخذ جيش مكون من فرق بريطانية وإفريقية

وهندية وصينية ، فى أراكان ، يعمل كذلك فى الأدغال الكثيفة إلى أن شق طريقه رويداً رويداً إلى بورما الجنوبية وبورما العليا وإلى ماندالاى .

وفى أكتوبر من سنة ١٩٤٢ حطم الجنرال منتجومرى جيش روميل الإفريقى فى العلمين بمصر وطارده عبر الصحراء الليبية إلى تونس . وفى الوقت نفسه نزل جيش إنجليزى أمريكى فى الجزائر . ولما حوصر جيش روميل بين القوتين ، استسلم فى تونس ، فى مايو من سنه ١٩٤٣ . وتحرر ، الآن شمال إفريقيا وتناقصت مخاطر البحر الأبيض المروعة وأغيثت جزيرة مالطة الباسلة بعد سلسلة هجمات جوية . وفى يوليو استولى الحلفاء على صقلية . وفى سبتمبر هاجموا جنوب إيطاليا . وبدأوا - بقيادة القائد ألكساندر البريطانى - تقدماً ، فى الجزيرة ، بطيئاً باهظ الثمن . وسلمت الحكومة الإيطالية ، ولكن الألمان استمروا يقاومون مقاومة بارعة . وفى مايو من سنة ١٩٤٤ كان الحلفاء ما يزالون فى جنوبى روما .

وفى نوفمبر من سنة ١٩٤٢ أطبقت الجيوش الروسية على ربع مليون جندى ألمانى ، يقودهم فون باولوس فى ستالينجراد على الفولجا . وفى يناير من سنة ١٩٤٣ أسروهم أو أبادوهم . وظلوا يتابعون الهجمات ، بالجيش تلو الجيش ، طوال صيف وخريف وشتاء ذلك العام وربيع ١٩٤٤ حتى ردوا النازى إلى حدود بولندا ورومانيا .

وأمسى حصن أوربا الهتلرى محاصراً . ومنذ ١٩٤٢ أخذت قاذفات القنابل التابعة للحلفاء تقصف بلدانه فى قوة متزايدة ، بمئات من الطائرات تزداد أحياناً حتى تربى على الآلاف ، تعمل كلها فى وقت معاً . وفى البحر أخذت بحريات الحلفاء وقواتها الجوية تتغلب ، فى اطراد ، على أسراب الغواصات الألمانية التى ألحقت الدمار بقوافل السفن التجارية . وقد صارت الحياة اليومية للملايين ، تحت نير النازى ، كابوساً من الطغيان والريبة والخوف والعذاب . فقد حول هتلر وعصبةُ شركائه ، أوربا إلى مباءة عبيـــد من الشعوب

المذعنة يحكمها الألمان « الأعلون » فقد عين لـكل بلد حاكمها النازى العديم الرحمة وشرطتها السرية . أرغم الآلاف من الناس التعسين على العمل فى المصانع الحربية والمعسكرات ، يساقون ـ هنا وهناك ـ كالأنعام ، ينتزعون من بيوتهم وأسرهم ، ويعطون عملاً كثيراً وطعاماً قليلا . وكان الآلاف يلقون فى معسكرات الاعتقال المروعة (مثل معسكر بوشنفالد) ويعيشون أنصاف عرايا فى القذر نهبا لكثير من أنواع المرض ، ويجلدون ويعذبون ويرمون بالرصاص أو يختنقون بالغاز فى الغرف المعدّة لذلك ويحرقون فى محرقة القمامات . وكلما تقدمت جيوش الحلفاء فى شمال إيطاليا وكلما اقترب الروس ، زادت بربرية الألمـان . وفى أوربا المقفلة المفجوعة هذه ، أخذ جنود المظلات يتساقطون من بريطانيا ليرشدوا المخربين ويشجعوا الوطنيين . وفى قارة الحزن واليأس هذه جاءت رسائل الأمل اليومية الإذاعية تترى من محطات الحلفاء .

وفى يونيو من سنة ١٩٤٤ تحرك أكبر أسطول سبق تنظيمه — وكان بقيادة الجنرال أيزنهاور — من موانىء بريطانيا العديدة إلى الشاطىء النورماندى حاملا معه موانئه المادية الاصطناعية ، تحميه قوات الحلفاء الجوية حماية تامة . ولم تـكد فرق أمريكا وبريطانيا والمستعمرات المستقلة تنزل حتى انتشرت واشتبـكت فى حروب مبرحة وتقدمت ، ونزل جيش أمريكى آخر على مقربة من مرسيليا ثم جاء من الجنوب . وقد اشتدت المقاومة الألمانية إلى حد أن التغلب عليها استغرق سنة كاملة . وبلغ الحلفاء الراين وعبروه فى الجنوب ، ورمى الروس بكل جيوشهم إلى الأمام وأخذوا يطهرون الأرض تطهيراً شاملا ، متجهين جنوباً ليحرروا البلقان . وألقى النازى القنابل على إنجلترا ترسلها الطائرات الخالية من القواد والصواريخ ، وأغرقوا هولاندا . وحاربوا — كما قد يحارب الشياطين — على طول الطريق منسحبين إلى مدائنهم المخربة التى ظلت ، حتى ذاك الوقت ، تستهدف لغارات ليلية .

وفى النهاية — عندما وصلت الدبابات والمدافع الروسية إلى برلين ، وعندما تحرك الحلفاء الغربيون مسرعين إلى ألمانيا الغربية نفسها — انتحر هتلر فى مخدعه بمخبئه ببرلين . وفى مايو من سنة ١٩٤٥ دبر بعض الضباط الألمان استسلام شعبهم وجيشهم بلا قيد ولا شرط . وانتهت الحرب فى الغرب . واستطاع المنتصرون أن يروا ذاك الذى فتحوه : قارة من ملايين اللاجئين والمدن المهشمة .

وإلى أن حل ذلك الوقت كان الجيش الألمانى فى إيطاليا — الذى سيق شمالاً إلى (جبال) الألب — قد استسلم ، وكان بعض وطنيّ الطليان قد قتلوا موسولينى . وفى الشرق حررت رانجون وأعدت جيوش بريطانية وأمريكية كبيرة للهجوم على اليابان .

وأهيب بسادة الحرب اليابانيين أن يستسلموا فأبوا . وفى السادس من أغسطس من سنة ١٩٤٦ فجرت قنبلة ذرية على هيروشيما ، وقتلت النيران والإشعاعات ثمانين ألف نسمة دفعة واحدة . وبعد ذلك بيومين ألقيت قنبلة أخرى على نجازاكى وقتلت أربعين ألفاً . وكان اليابانيون قد كابدوا ، قبل ذلك ، ضرباً مبرّحا من المفجرات القوية المعتادة . فأنهت الحربَ مذبحة هيروشيما ونجازاكى المخيفة . وسلم اليابانيون كل شىء ووضعوا أنفسهم تحت تصرف المنتصرين .

اختراعات لاحدّ لها وأناس كرمال البحار :

تسير مغامرة الاختراع بخطى مذهلة ، فمهندسونا يصنعون آلات بالغة التعقيد تحتاج إلى قوى تدفعها ، وعلماؤنا يستكشفون طوال الوقت حتى ليبدو فى بعض الأحيان أنهم لن يقفوا حتى يفتّتوا الكون كسفاً ويعيدوه إلى وحدته مرة أخرى .

ويخترع المخترعون النظام الآلى ليشد ويدفع وليدور ويبرم ويلف ،

تتحكم فيه وتوقته توقيتاً دقيقاً ، العجلة التى تتحرك هى نفسها فى كل الاتجاهات فى وقت واحد دون أن تتبع أياً من هذه الاتجاهات . وتأخذ الآلات ، التى تنتمى إلى هذا النوع ، ألواح خشب الجوز الرجراج بأحد طرفيها ثم تطرح بالطرف الآخر علب كبريت ، أو تأخذ رصاصاً مصهوراً وتخرجه مقذوفات نارية صلبة ، أو تزن وتغلف وتعنون رزماً من الشاى ، وهكذا . والآلات تعمل لنا ، وهى فى حاجة إلى قوة ، قوة يستطاع تحديد مقاديرها والسيطرة عليها ، قوة تسقط مطرقة بخارية على زجاجة ساعة فى مكان لا يكاد يفترق جزءاً من ألف جزء من البوصة .

ومنذ استكشف فاراداى تفاعل المغنطيس والتيارات الكهربائية فى سنة ١٨٣٢ أتقن المتفننون المولدات الكهربائية لتولد الكهرباء ، وصانوها فى محطات للقوى ، يستخدم بعضها طاقة الفحم المحترق ويستخدم البعض طاقة المياه الساقطة . وإن محطات شلالات نياجرا لتوليد الكهرباء من القوى المائية لترسل تيارات كهربائية إلى جهات تبعد أكثر من ثلاثمائة ميل . والروس الآن فى صدد إكمال مصانع لتوليد الكهرباء من القوى المائية ، على الفولجا . والمهندسون فى إسكتلندا مشغولون بإقامة خزانات لحجز المياه وبناء سدود للتحكم فى منحدر المياه بالأراضى الجبلية . ومهما يكن من شيء فإن القوى المائية التى يستطاع استخدامها فى أنحاء العالم لم يستخدم منها حتى الآن إلا النزر اليسير .

وقد استكشف وقود ومصدر قوة جديدان — حول سنة ١٨٦٠ فى آبار الزيت الكامنة تحت سطح الأرض ببنسلفانيا ، وهو زيت يصفى ليحول إلى جازولين ويستنبط منه الكيماويون البرافين (أى زيت القطران) والبنزين ومئات من المواد الأخرى بينها الفازلين . وفى عام ١٨٨٦ استطاع جوتفريد ديملر — بتفجير بخار الجازولين فى أنابيب — أن يصنع محركاً يدور بالجازولين . وهكذا ظهرت فى الطرقات السيارة وهى رائدة النقل

الميكانيكى جميعاً من الدراجة الآلية (الموتوسيكل) إلى المركبات الضخمة المرعبة . وإلى أن حل عام ١٩٣٣ تحسن المحرك ، بفضل ألف من المخططين، وتحول إلى « مولين(١) » رولزرويس الذى دفع قاذفات اللهب (سبتفاير) البريطانية التى جابت آفاق السماء .

والواقع أن محرك الجازولين — الخفيف الوزن نسبياً — جعل الطيران ممكناً ، وكان أول من استطاع أن يعلو سطح الأرض قليلاً هما الإخوان رايت ، فى أمريكا سنة ١٩٠٠ ، وفى عام ١٩٠٩ طار بليريو عبر المضيق . وفى عام ١٩١٩ طار ألكوك — و — براون عبر الأطلنطى. وتجد مجمل سائر الحكاية فى حرب ١٩٣٩ — ٤٥ الملتهبة وفى (طائرات) الفايكونت الجبارة وفى طائرات بريطانيا الحالية . وثمة دور مهم فى الطيران قام به المتخصصون فى استخراج المعادن وصناعاتها أولئك الذين عجلوا باستخراج الألومنيوم من خاماته (وكان مجموع ما استخرج عام ١٨٨٤ ثلاثمائة رطل وفى عام ١٩٥١ أكثر بكثير من مليون طن) أولئك الذين اخترعوا كل أنواع خليط الألومنيوم الصلبة الخفيفة التى تصنع منها الطائرات . ومنذ عام ١٩٤١ أخذت المحركات النفاثة تستخدم فى الطائرات والصواريخ .

وبعد عام ١٨٨٠ بسنوات قليلة حدث تطور كبير فى الهندسة الخفيفة ، كالهندسة التى تنتج الدراجات ومكينات الخياطة والآلات الكاتبة والآلات الحاسبة ، وهذه — كما هى الحال فى السيارات والطائرات — لا يستطيع صنعها إلا عدد الآلات ذوات القوى الجبارة التى تكيف أجزاءها فى القوالب وتقطعها وتدمغها وتطرقها .

وبدأت الفوتوغرافيا فى عام ١٨٢٤ ، واخترعت آلة تصوير تصور على فيلم من الباغة(٢) ، بين عامى ١٨٨٠ و ١٨٩٠ وحول نهاية القرن عكست الصور

---

(١) المولين فى قصص العصور الوسطى نبى وسحار فى القرن الخامس الميلادى .
(٢) الباغة : مزيج من الكافور وقطن البارود .

المتحركة على الشاشة وكثر الإقبال على الصور المتحركة قبل عام ١٩١٤، وظهر النوع المتكلم منها فى عام ١٩٢٨ . ويسهل الوقوف على مدى تأثير انتصارات فنون المصورين (بالفوتوغرافيا) فى مدننا. ومن بين الانتصارات الأخرى : آلات تصوير (كاميرات) تزيد قوة إبصارنا وتوضح أشياء هى أصغر أو هى أسرع من أن تتبينها العين المجردة ، كحركة جناح طائر أو كتركيب مادة كالصلب . ومن بين الانتصارات الأخرى كذلك : الفوتوغرافيا الهوائية التى وسعت معلوماتنا عن الكرة الأرضية وعن الزمن الماضى . ويرجع إرسال الرسائل الرمزية (بالشفرة) بأسلاك كهربائية إلى السنوات القليلة التى تلت عام ١٨٤٠ وظهر التليفون فى ١٨٧٦ وجرب ماركونى استخدام الأمواج السابحة فى الفضاء أى « اللاسلكى » فى عام ١٨٩٦ وإلى أن حل عام ١٩٠١ أرسلت رسائل عبر الأطلنطى . وفى عام ١٩٢١ كان مهندسو الراديو قد أتاحوا معجزة جديدة وهى الإذاعة باللاسلكى . وما هو إلا القليل حتى أخلت أجهزة الاستقبال البلورية أماكنها للصمامات الترميونية(١) وفى السينماجات الصورة قبل الصوت ، وفى الراديو سبق الصوت الصورة : وحلل هذا ونقل بالأمواج عبر الفضاء ، ثم أعيد تأليفه على الشاشة فى عام ١٩٣٦ . ونحن نطلق على هذا اسم التلفزيون . ونقول هنا فوق ذلك إن تلك الأشياء إن هى إلا لعب إذ قورنت بالسيطرة على موجات الرادار لإرشاد الطائرات والسفن والقذائف وإذا قورنت باستجلاء النواحى القاصية من العالم .

وجميع المادة والحيوان والنبات والمعادن طحنٌ لرحى علماء الكيمياء أو الطبيعة . وإنها ليتأتى لها — كما قد تأتَّى لسحر المشعوذين فى غرف الضيافة — أن تغير وتحول كل شىء إلى شىء آخر فهم يستخلصون من الفحم الأصباغ والروائح العطرية ويخلقون ألواناً لم تشاهد قط فى البر أو البحر وعطوراً تفوق عطور شبه الجزيرة العربية ، ويحوّلون السلولوز(٢) إلى حرير

---

(١) الترميون : دقيقة مشحونة بالكهرباء وهى إما سالبة وإما موجبة .

(٢) السلولوز : المادة المكونة للحويصلات أو الخليات النباتية .

صناعى ، والبنزين إلى خيوط نايلون . وهم يعصرون أو يضغطون إثيلين(١) الغاز حتى يتحول إلى بوليثين . وقائمة المواد الجديدة — من المساحيق المطهرة إلى أدهنة الزينة طويلة طولاً مملا . ثم إن المواد القديمة المألوفة تفصل وتوصل وتصهر وتبدل تبدلاً لانهاية له ليخرج منها كل أنواع السبائك والصلب والمواد الصلبة والزجاج وألواح الكرتون وخشب الألواح (الأبلكاج) . ومن الواضح أنه لم تختف البراعة التى ورثناها عن جدودنا المجتهدين الذين عاشوا فى العصر الحجرى والذين اخترعوا السنار والسلال والقماش .

وإن العلم ليزداد تعمقاً فى طبيعة المادة نفسها . فمنذ بحثت مدام كورى فى الراديوم سنة ١٨٩٨ لم تتوقف دراسة عناصر النشاط الإشعاعى قط . ومنذ أن استخدم روذرفورد ، فى عام ١٩١٩ ، النشاط الإشعاعى ليفصل جزيئاً أو نحوه عن الذرة ظلت المطاردة ملحة وكان هدف العناء والاستقصاء هو التحكم فى الطاقة الذرية . فطبيعة المادة وطبيعة الكهرباء وطبيعة الجزىء غير المرئى الذى صنع منه الكون جميعاً ... كل هذا موضوع تحت الفحص البالغ الدقة . وقد وصل البحث ، حتى الآن ، إلى القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ووصل — فى آخر وقت مع إذكاء الأمل — إلى محطة القوى الذرية مثل هوكالدر . وربما تنتعش الدنيا ، آخر الأمر ، بسبب سيطرتنا على مصادر كل الطاقات حتى نملك قوى لا تدخل تحت حصر .

وإن العالم ، اليوم ، ليزيد مصاعبه بزيادة عدد سكانه زيادة سريعة . فهو يضيف ، فى الواقع ، أربعين ألف مخلوق بشرى فى كل ساعة وهذا يعنى ٣٥ مليوناً فى كل عام . والأكثرون من هؤلاء يولدون ليكابدوا سوء التغذية كما أن الأكثرين إنما يزيدون فى عدد سكان الشعوب المتخلفة . وإذا تهيأ للجميع طعام جيد وتوافرت لهم طيبات الحياة فسنحتاج إلى حكمة تفوق كثيراً الحكمة التى عرفناها عن الماضى ، عندئذ سنكون فى حاجة إلى التسامح

(١) الأثيل أصل العشيرة الكحولية .

والتفاهم بين الأجناس والأمم . وسنكون محتاجين ، بطبيعة الحال إلى قوى تساس وتصرف فى سبيل الخير العام .

دخول الحاضر فى المستقبل :

إن التلغرافات السلكية واللاسلكية والنقل الجوى لتقرب بين بعض أجزاء العالم كله والبعض الآخر وتربط بينها جميعاً ربطاً مباشراً ، كما أن العادات والأفكار الغربية تنتقل إلى كل مكان بخطى واسعة . وما ينفك المهاجرون يتدفقون من أوربا إلى القارات الجديدة ، وما بزال بعضهم يكابد الشقاء فى مهجره بوصفه لاجئاً . وترد التقارير من القارات الجديدة ومن إفريقيا عن ثروات جوهرية من المعادن والزيت يستكشفها خبراء مسح الأراضى الجيولوجيون ، وبذلك تفتح الآن حقول معدنية جديدة وصناعات جديدة . والروس — فى داخل بلادهم المترامية — مايزالون يمدون ويطورون مناجمهم وغاباتهم حتى دائرة المحيط المتجمد الشمالى . ولا ريب فى أن المنطقتين القطبيتين موضوعتان تحت الحصار . وفى سنة ١٩٥٨ الجغرافية عسكرت بعثة أمريكية عند القطب الجنوبى ، بينما كان عالم إنجليزى يستكشف المتجمد الجنوبى . وبدأ العلماء يستكشفون أغوار البحر ويرسلون آلاتهم تدفعها الصواريخ — من أمثال صواريخ « سبوتنيك » الروسية — تنهب أجواز الفضاء المحيط بالكرة الأرضية .

وقد أثار الشعور الوطنى حرباً مريرة فى الجزائر بين الفرنسيين وأهل البلاد . وقد استنزفت الحرب قدراً كبيراً من ثروة فرنسا . ويخلق الشعور الوطنى فى الشرق الأدنى متاعب شديدة للأوربيين . فالمصريون الذين أجلوا الحاميات الإنجليزية من أراضيهم ، أمموا قناة السويس فى ١٩٥٦ ، وكانت شركة إنجليزية فرنسية تضع يدها عليها . إلا أن أشد التغييرات استرعاء للنظر وأكبر مصادر القلق فى الشرق الأوسط هو استفحال شأن دولة

إسرائيل . فاليهود ما يزالون يستعمرون تلك المنطقة من أراضى غيرهم، ويجمعون المال من اليهود المقيمين فى سائر أنحاء العالم . وإسرائيل تكبر وتنتعش بعد حيازتها ذاك القدر الكبير من الأرض وبعد طرد سكانها العرب الذين ما يزال مليون منهم مهاجرين معدمين مشردين .

وإن انتشار علم الغرب وبراعته الفنية ليتقدمان باطراد بين الأسيويين والأفريقيين الذين يتلقون هذا العلم وتلك البراعة فى سهولة ويسر . وإنك لتجد الآن علماء الصين واليابان والهند فى طليعة الحملات على طول تخوم معرفة القوى المجهولة والكائنات الطبيعية . غير أن الأكثرين من الأسيويين والأفريقيين فريسة للفقر والجهل وسوء التغذية .

وهناك مفارقات مفزعة : فدكتور الفلسفة الزنجى الذى تدرب فى كلية إفريقية جاء من حظيرة مسقوفة بالبوص عاش فيها أبواه فى وجل من الطبيب الساحر ، والشيخ فى جنوب شبه جزيرة العرب يسوق سيارة مقفلة فخمة وسط القبائل التى لا تختلف معيشتها عن المعيشة فى أيام الحروب الصليبية إلا قليلا .

وتستمر مغامرة السياسة فى دنيا المتناقضات هذه ، حيث يتزاحم العصر الحجرى وعصر الذرة كى يدفع كل منهما الآخر . فالمثل الأعلى للديمقراطية فى الغرب أساسه اختراع البرلمان فى العصور الوسطى ، وقوامه نظام التصويت . ومعناه — على قدر الإمكان — : أن الناس يحكمون أنفسهم بالوصول إلى اتفاق عن طريق تبادل الرأى ، وأنهم سوف تتوافر لهم سلطة تغيير حكومتهم كلما رأوا ضرورة لذلك ، وأن أحداً لن يجور على رفاقه ، وأن كل امرئ سيكون حراً فى التعبير عن آرائه دون أن يتعرض لمكروه بسبب هذا الرأى . ويرتكز كل هذا على عادة وتقليد تأصلا فى أوروبا منذ قرون .

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان يهيمن على مسرح السياسة ثلاثة رجال : ونستون تشرتشل وروزفلت وستالين . وقد شكلوا مع مستشاريهم منظمة هيئة الأمم لتحل محـــل عصبة الأمم . وأهيب بأعضائها أن يحلوا مشاكلهم عن طريق تبادل الرأى وأن يتعاونوا على خير الشعوب . وقد أنجز قدر كبير من الحلول العملية — وما يزال بعض الحلول العملية الأخرى رهن الإنجاز — لإنقاذ الملايين من مهاجرى الحرب وإعادة توطينهم ولمساعدة أهل البلاد الفقيرة بالمال والسلع . وفى هـذا تتكاتف الشعوب مسرعة . غير أن الدنيا ما تزال تحمل السلاح .

ولـكن — منذ ١٩٤٥ — غشى مجلس الأمم المتحدة أمران قاتمان، فشيوعيو روسيا، والديمقراطيات تقودها أمريكا وفرنسا وبريطانيا ، يرتاب كل طرف منهما بالآخر أشد الريبة ، ويسيطر على تصرفاته الخوف والحسد والشك . وهذه المشاعر القاسية تزيدها عمقاً قوة القنبلة الذرية المخربة وقوة القنبلة الهيدروجينية المبيدة اللتين يملـكهما الطرفان .

وأصبحت الـكرة الأرضية ميدان قتال « بارداً » يقف فيه أقوى دولتين ، وهما الاتحـــاد السوفيتى الروسى والولايات المتحـدة الأمريكية ، وجهاً لوجه . وفى نهاية الحرب ، فى سنة ١٩٤٥ ، قسمت ألمانيا بين روسيا وبين المنتصرين الآخر . وهى ما تزال مقسمة. فالجيوش الروسية تحتل الشرق ، والجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية تحتل الغرب . وعلى هذا النحو فى الشرق الأقصى ، بعد هزيمة اليابان ، قسمت أرض كوريا الجميلة بين الشيوعيين (فى الشمال) والأمريكيين (فى الجنوب). وفى ١٩٥٠ — عندما انسحبت القوات الأمريكية — غزا الـكوريون الشماليون الـكوريين الجنوبيين « ليعيدوا الأمن إلى نصابه » . فلم يتردد

الأمريكيون فى أن يدخلوا — من جديد — جنوب كوريا ودعوا الأمم الأخرى إلى أن تمد يد العون لتطرد العدوان . فأرسلت لهذا الغرض فرق من بريطانيا والمستعمرات المستقلة والنورويج وتركيا وغيرها . وبعد جهاد عنيف استردت الجنوب وعبرت إلى الشمال . وعندئذ تدفق جيش شيوعى صينى كبير . وغنىّ عن القول بأن كوريا — فى هذه المجازفة الحربية — كابدت كل الأهوال المألوفة فى حالات الجوع والقحط والهجرة .

والهوة التى تباعد بين الشيوعيين والديمقراطيات هوة عميقة . وكل من الطرفين ينكر أسلوب حياة الطرف الآخر وإخلاص الطرف الآخر ، ويظل مدججاً بالسلاح محاولاً أن يدخل أفعل المحسنات على أبحاث الأسلحة للهلاك .

وتسيطر روسيا على كل أوربا الشرقيـــة باستثناء تركيا واليونان . وتستبقى الولايات المتحدة الأمريكية مدفعيتها وطائراتها ودباباتها فى ألمانيا . ولها قواعد حربية فى أوربا الغربية . فقد تفتتت الإمبراطوريات الأوربية القديمة التى امتدت إلى ما وراء البحار . إذ فقد الهولنديون جزائر الهند الشرقية الغنية التى كانت تابعة لهم ، وفقد الفرنسيون الهند الصينية كما فقدوا الجزائر بعد صراع عنيف . وأصبحت الصين — بعد كابوس طويل من الفوضى — شيوعية ولفظت الغربيين والمبشرين .

وكابدت الإمبراطورية البريطانية تغيرات مفزعة ، ولكنها لم تكابد خسائر مفزعة بمنحها الحكم الذاتى لأعضائها الآسيويين والأفريقيين . منحته — أول الأمر — إلى شبه القارة الهندية التى اختارت أن تنقسم إلى دولتين : الهند والباكستان (١٩٤٧) . وإن لم تخل هذه الحركة من سفك دماء غزيرة ومن مرارة شديدة . ثم منحته إلى سيلان وبورما (١٩٤٨)

وأخيراً إلى ساحل الذهب الذى أطلق عليه اسم شاعرى وهو غانا (١٩٥٧) . وما تزال مشروعات من هذا القبيل فى الأفق . وكل هذه البلاد حرة الآن فى أن تتصرف وفق مرامها حتى ولو أرادت أن تنفصل عن الإمبراطورية. والحرية الكاملة وحدها هى التى تكفل حماية الحرية . وقد سنت كلها قوانينها ودساتيرها الخاصة بعد أن ارتبطت بجزيرة بريطانيا التى كان دستورها يعده أبناء الجمهورية الأمريكية مثالياً . ولقد صدق مواطن من الجمهورية فى قولته النبيلة : « تسكن الحرية فى قلوب الرجال والنساء . وعندما تموت هناك فإنه ليس فى مقدور أى دستور أو أى قانون أو أية محكمة إنقاذه . وهى فى كونها هناك ، ليست فى حاجة إلى أى دستور أو أى قانون أو أية محكمة لإنقاذها » .

الباب الثامن

خاتمة

أخبار العالم

إن الفضول القلق فى استقصاء واستكشاف ما يدور فى كل ما يحيط بنا من عوالم — فى السماوات، وفى أعماق الأرض، وفى المياه الغائرة تحت الأرض — ليطالعنا فى كل عام بأخبار جديدة عن دنيانا . وإنا لنتعلم — عن طريق المجهر (الميكروسكوب) والمرصد (التليسكوب) والأجهزة الكهربية (الألكترون) — أشياء لم يكن أسلافنا ليحلموا بها . نتعلم أموراً عن الذرات التى صنعت منها المادة جميعا، ونبنى مستودعات للقوى الذرية لاستخدام الطاقة المكتونة داخل هذه الجزئيات غير المرئية .

ونتعلم عن حشد متألق من النجوم يبعد عن الأرض بعداً سحيقاً إلى حد أن الضوء الذى يبعثه يستغرق مدى الملايين من أعوامنا فى الوصول إلينا . ونتتبع تواريخ كل الكائنات الحية ونكشف وحوش الأعماق ونستعيد صور حيوانات غريبة انقضت قبل وصول الآدميين إلى سطح الأرض .

نحن مخلوقات لا تقوى على العيش إلا فى نطاق درجات قليلة من الحرارة والبرودة . ولكنا مع هذا ، نقيس القوى التى تحفظ الأجرام السماوية فى أماكنها العتيقة .

وإن علماءنا ليتتبعون خطى الإغريق ، وكوبرنيكوس وجاليليو ، وفاساليوس ، وكبلر ، وهارفى ونيوتن ، ولافوازييه ودالتون ، ودارون وكلارك ماكسويل ، وأينشتين ورذرفورد ، وسائر الآخرين الذين ضحوا بوقتهم وبنبوغهم .

إنهم يمدوننا بأخبار استكشافاتهم . وحيث يسبقون هم ، يجدّ فى أثرهم المهندس والمخترع والفنى ، يستخدمون ما استكشفوه لنا لكى يجعلوا حياتنا أكثر رحباً ولكى يمدونا بسلطان على ما يحيط بنا أكثر فعالية ، وليقدموا كل جديد من الآلات والمواد وعقاقير الاستشفاء والمعارف والمصنوعات لجلب المسرة وللاستعمال العادى .

والعلم والقوة مطلوبان . وفى الاستطاعة استخدامهما — كما عرف الناس دائماً — فى الخير وفى الشر .

أخبار من لا مكان :

أطلق الشاعر وليم موريس على حكايته فى صدد شعب كامل فى أرض كاملة « أخبار من لا مكان » وهذا عنوان مناسب . وقد درج الناس دائماً على أن يرحبوا بحكايات الجزر السعيدة الحظ ، أو أساطير عصر ذهبى ، أو الوعد بجنة باكرة وكان الناس يصّبون — على مر قرون الأسى والكد — إلى شيء هو أعز عليهم من المعرفة . لقد صبَوا إلى انتصار الخير على الشر ، والحق على الباطل ، والحب على البغض

وكان الإغريق قد أطالوا التأمل فى أمر مدنيـــة مثالية . ووصف أفلاطون واحدة فى حواره عن « الجمهورية » فقال ، وهو الإغريقى الحكيم : « لن تتخلص ، أبداً ، المدنُ من شرورها حتى يصبح الفلاسفة ملوكاً أو حتى تتأتى للملوك هذه الدنيا روح الفلسفة » . وقد تولدت تلك الحقيقة من مصاير المدن الإغريقية أثينا ، وكورنثا ، وسركوزة ، وغيرها ـ تلك التى كسرتها وحطمتها شرور الحرب الأهلية .

وبعد ذلك بأجيال بدا أن سقوط روما واختفاء قصورها ومعابدها وسلامها وقوانينها ، قد قضى على كل أمل .

وقد وجّـه إحياء العلوم الإغريقية أذهانَ الناس إلى الأرض مرة أخرى . وتخيل البعض أخيلةً جديدة عن مدينة مثالية يعيش الناس فيها بتوجيه من أوصياء فلاسفة . وقد أطلق السير توماس مور على كتابه اسم « دنيا المثال » (أو المدينة الفاضلة) ومعناه « لا مكان » . ولـكنه راودته شكوك كما راودت أفلاطون فقال : « ليس فى مقدور كل الأشياء أن تكون طيبة ما لم يـكن كل الناس طيبين ، وما أظن أن يحدث هـذا قبل انقضاء سـنوات عديدة طويلة » . وأتى فرانسس بيكون ، فى كتابه « الأطلنطيد الجديد » على وصف نوع علمى من الدولة فى جزيرة .

وبمرور الوقت أخذ الناس يتطلعون إلى سلام يشمل الشعوب جميعاً ، يصاحبه العدل لجميع الناس : غنيهم وفقيرهم . وقد خطط لهـذا كهان إسبانيون ، ومشرعون هولانديون ، وصاحبيون إنجليز . ثم ظهرت تدريجاً ، فى عالم الوجود ، مجموعة القوانين الدولية ، وأوفد السفراء إلى الخارج ليساعدوا على التفاهم الدولى . وقد نادى صناع الجمهورية الأمريكية قائلين : « خلق الناس جميعاً متساوين » . وكان شعار رجال الثورة الفرنسية فى زحفهم « حرية ، مساواة ، إخاء » وتمت فكرة أن الناس فى مقدورهم ، ومن واجبهم ، أن يعيدوا جعل دنياهم مكان سرور وسلام لـكل إنسان . وقد اعتقد بعض المفـكرين ، فى القرن الثامن عشر ، أن الفهم الصائب والتعقل كفيلان بأن يحفزا الناس إلى مثل هذا التصرف . فإذا سيطر التعقل على أفئدتهم لم يجعلوا مكاناً للحرب ولا للجريمة ولا للقسوة ولا للفقر . « سوف يكون حكم العقل حكم السلام » .

على أن الحسد والحقد والصرامة عيوب متأصلة . ونحن ما زلنا جاهدين فى إدخال السكينة والرضى على قلوب الأمم المبلوّة . وما عصبة الأمم بعد

الحرب العالمية الأولى وما الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية غير محاولتين تحوّلان مطمع « لا مكان » إلى حقيقة . وهذا أمل كل الناس الطيبين وحلم كل رجال السياسة المخلصين . ومع أن الخوف قد يكون باعثاً سيئاً فإن خوف التخريب فى الحروب المستقبلة يقوم بدوره فى الإهابة بالناس بأن ينشدوا السلام والتعاون .

الماضى الحى :

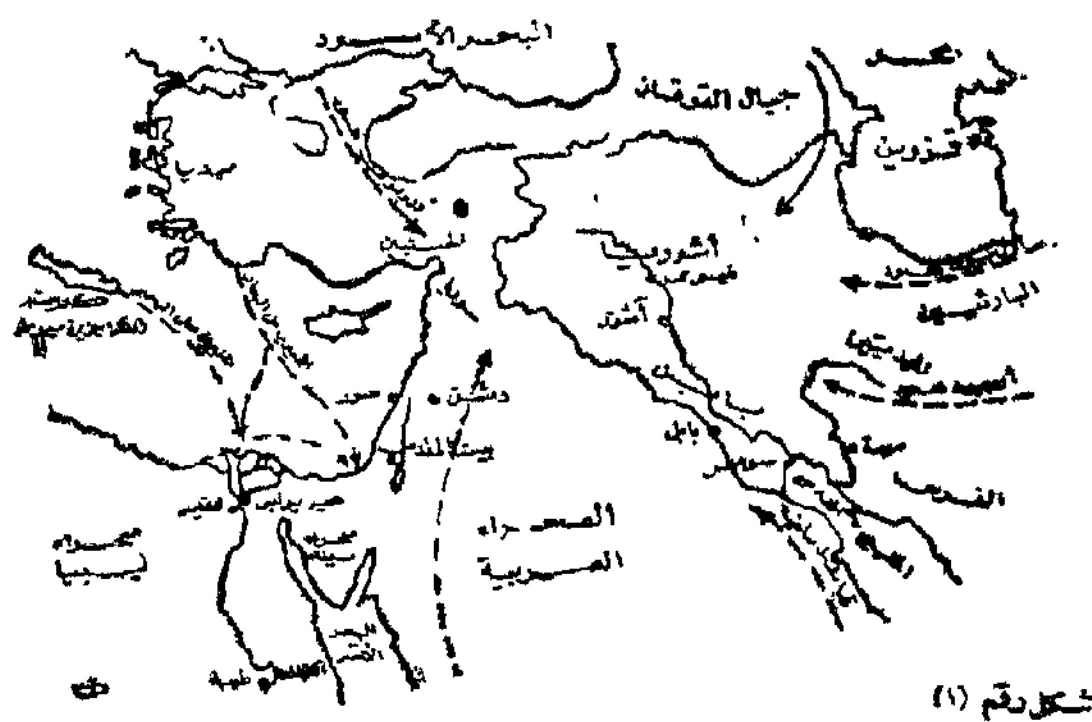
إنما نحن ما نحن عليه بسبب الماضى . فالسنون المنصرمة تعيش فينا ، ولا ينصبّ هذا على الحديثة منها فحسب بل ينصب كذلك على الأعوام السحيقة . ذلك أنه لا يوجد فى أى مكان فى سجل الجنس البشرى — فى أسلافنا أو أسَرنا — نهاية تامة وبدء جديد .

فنحن جزء من تاريخ طويل ، نحن جزء من نسيج كبير دائم النمو لحيوات لا تحصى . والحاضر على حاله الآن حدث بسبب كل ما جرى قبل الآن : بسبب أن إمبراطوريات ارتفعت وسقطت فى قديم الزمان ، وبسبب أن رجالا مجهولين عجبوا لسماوات بابل القديمة ، وبسبب أن إغريقيين مجهولين أطاعوا القائد الإغريقى الذى هزم الفرس ، وبسبب أن الرومان دمروا قرطاجنة ، وبسبب أن أنطونيوس وقع فى حب كليوباترا ، وبسبب أن كولومبوس استكشف أمريكا ، وأن لوثر بشر ضد البابا ، وأن نابليون دهم أوربا . ومن الممكن المضىّ فى هذه القائمة إلى الأبد .

كل هذا صحيح ، عرفنا الحقيقة أو لم نعرفها . ولكنا ، فى سجلاتنا المطبوعة ، نحافظ على مؤلفات الرجال العظماء الذائعى الصيت ، من أمثال

أفلاطون وهومر ودانتى وشيكسبير وباخ ومتسارت وجموع غير هؤلاء . لقد ماتوا ولكن مؤلفاتهم ماتزال تتحدث إلينا .

وكل سجل تاريخى يلتزم ، فى أغلب الحالات ، أن يكون حكاية عظماء وقواد ومفكرين وفنانين . إذ أن مدنيتنا ميراث صنعه وحفظه الملايين من الصناع المجهولين الذين قدموا أعمالا ممتازة ، وهكذا يكون قد صنعته النيات الحسنة ومظاهر الوفاء الصادرة عن ملايين القلوب المجهولة .



شكل رقم (١)

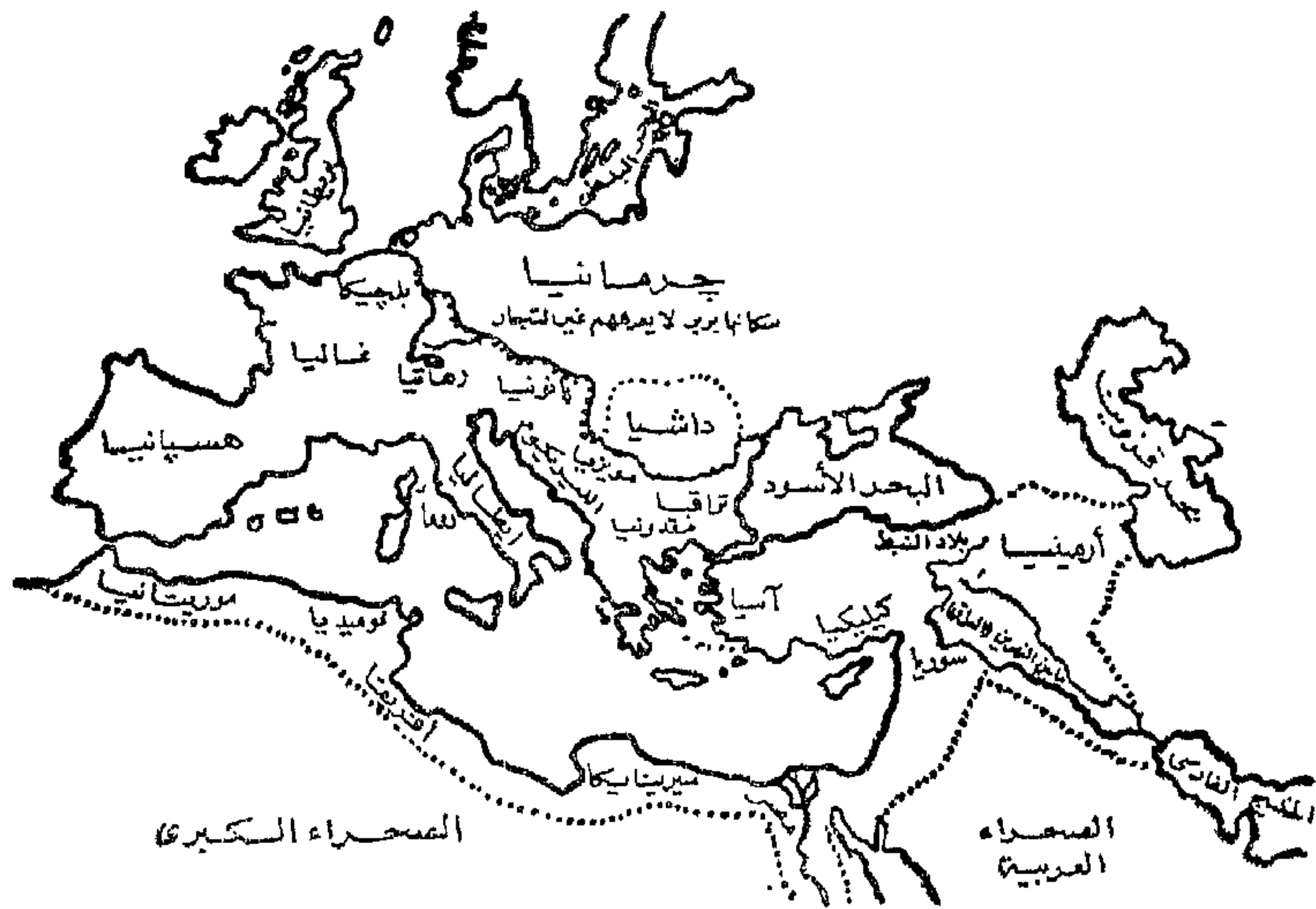
الشرق القديم

(خريطة تبين أودية الأنهار ، فى المساحة التى تقع بين البحار والجبال والصحارى)

شكل رقم (٢)

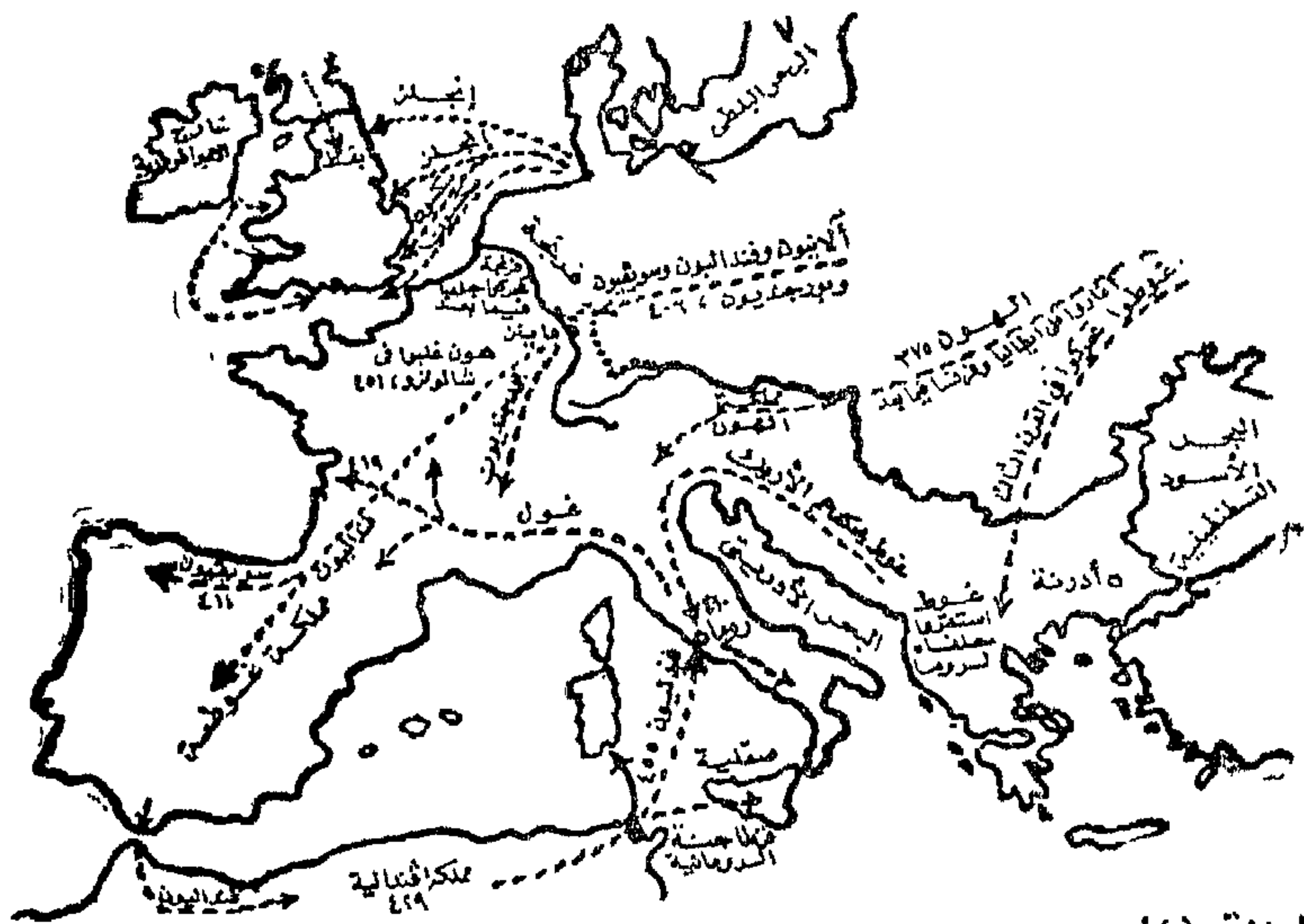
امبراطورية الاسكندر الاغريقية

(امبراطورية الفرس ثم اليونان ومقدونيا وتراقيا)



شكل رقم (٣)

الامبراطورية الرومانية فى أوسع مدى لها

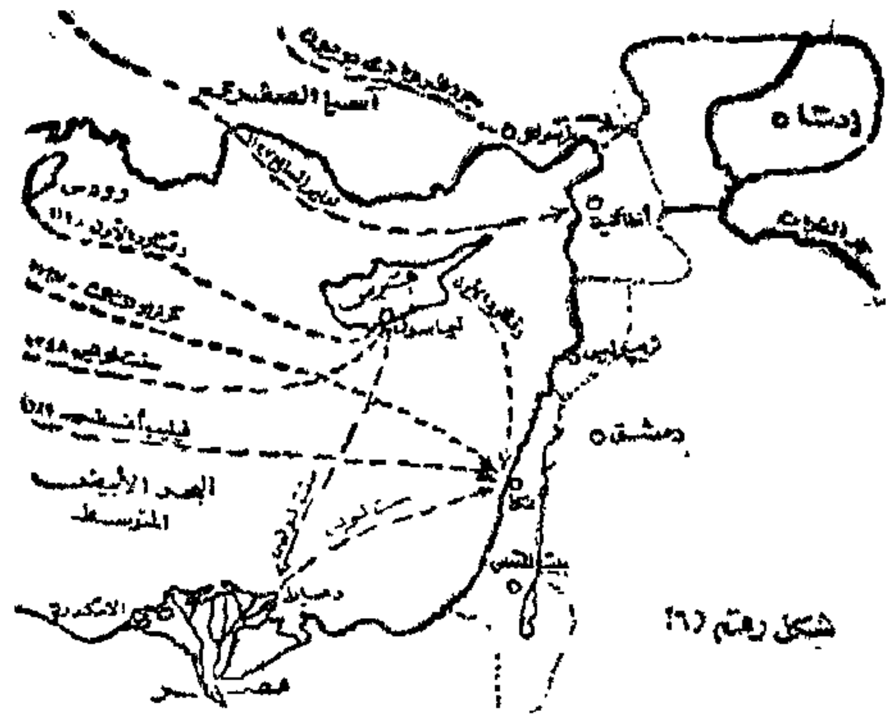


شكل رقم (٤)

غزو البربر للامبراطورية الرومانية الغربية فى القرن الخامس

شكل رقم (٥)

متاعب أوربا الغربية فى القرن التاسع عشر



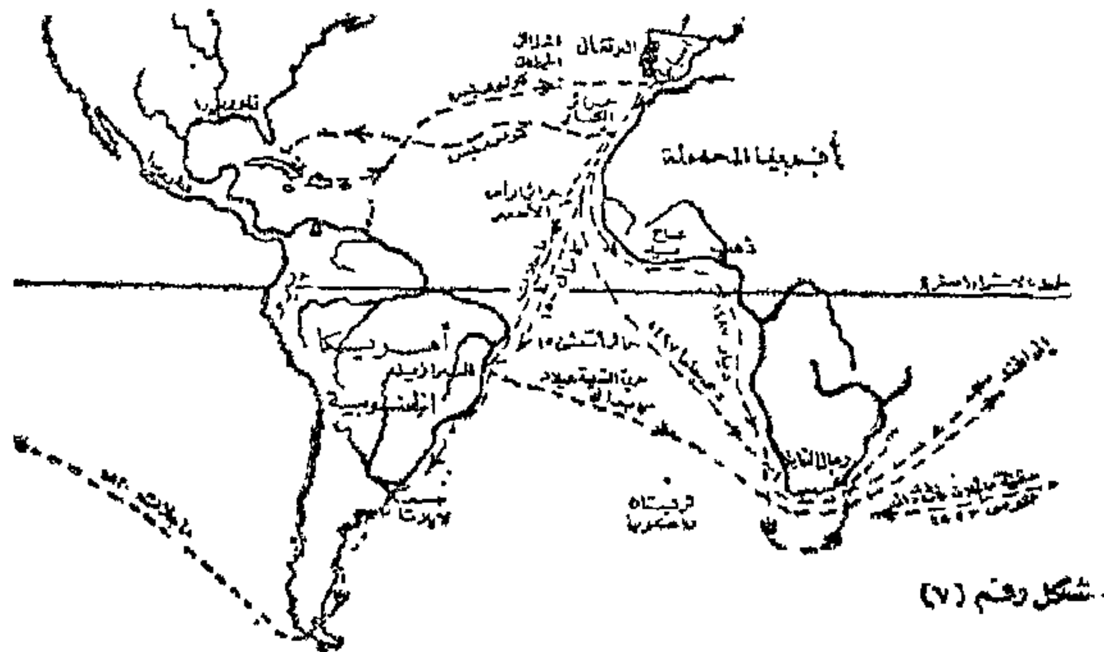
الولايات اللاتينية الصليبية

ولاية الرها : ١٠٩٨ — ١١٤٤

إمارة أنطاكية : ١٠٩٨ — ١٢٦٨

ولاية طرابلس : ١١٠٠ — ١٢٨٩

مملكة بيت المقدس : ١٠٩٩ — ١١٨٧

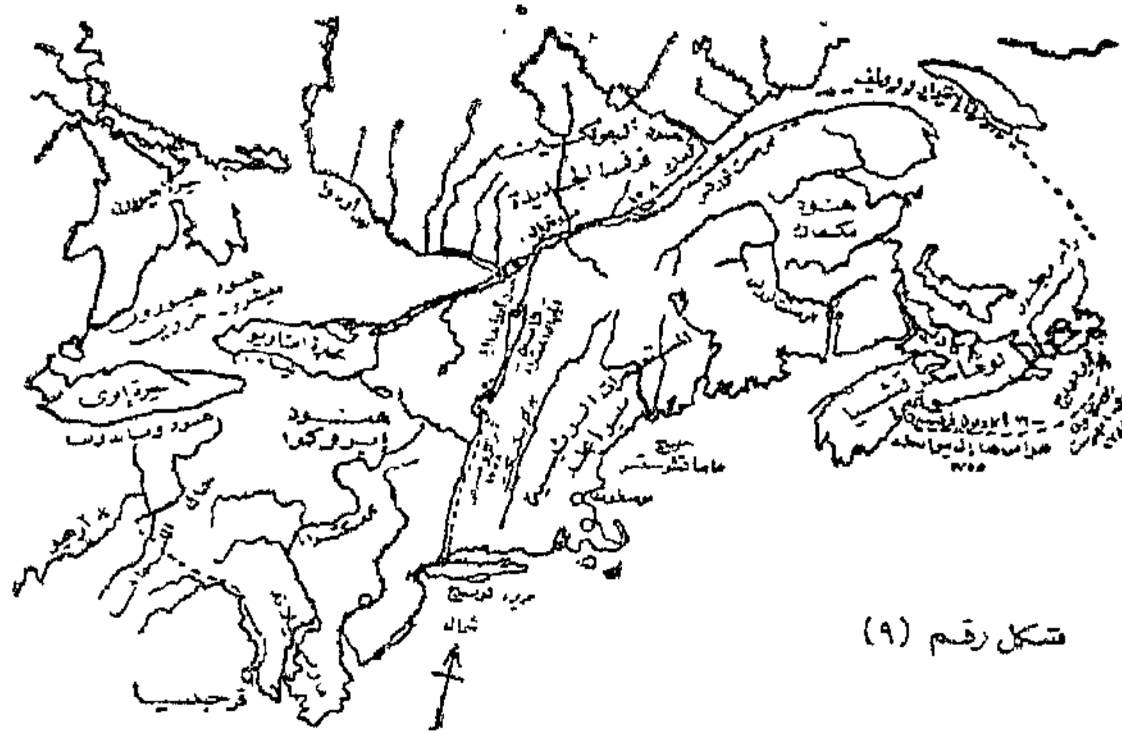


مخارج جنوبية من الأطلنطي

(الأسبان والبرتغاليون يستكشفون الطرق الملاحية
الجنوبية الخارجة من المحيط الأطلنطي)

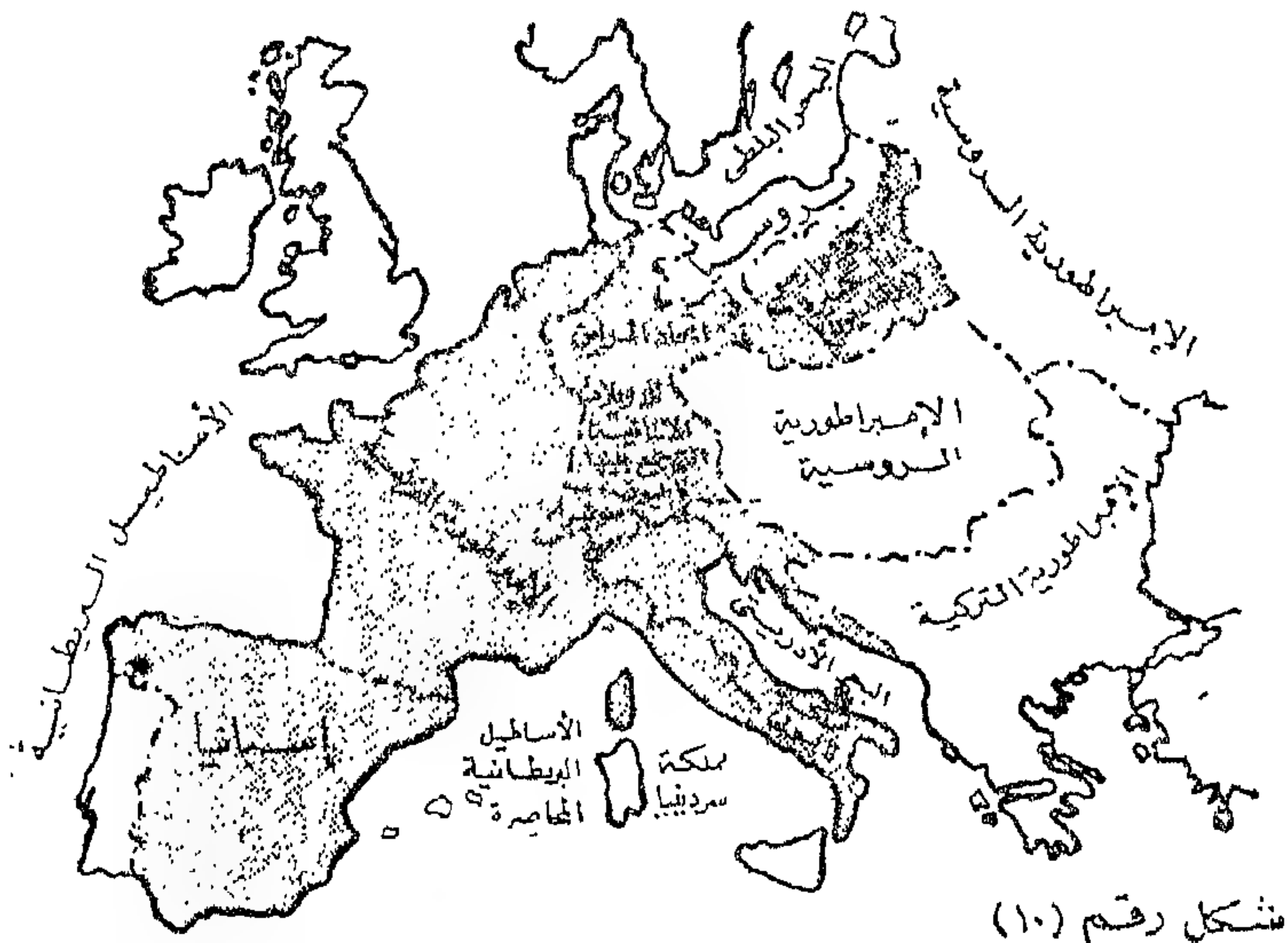
شكل رقم (٨)

المحاولة الأسبانية لغزو انجلترا عام ١٥٨٨

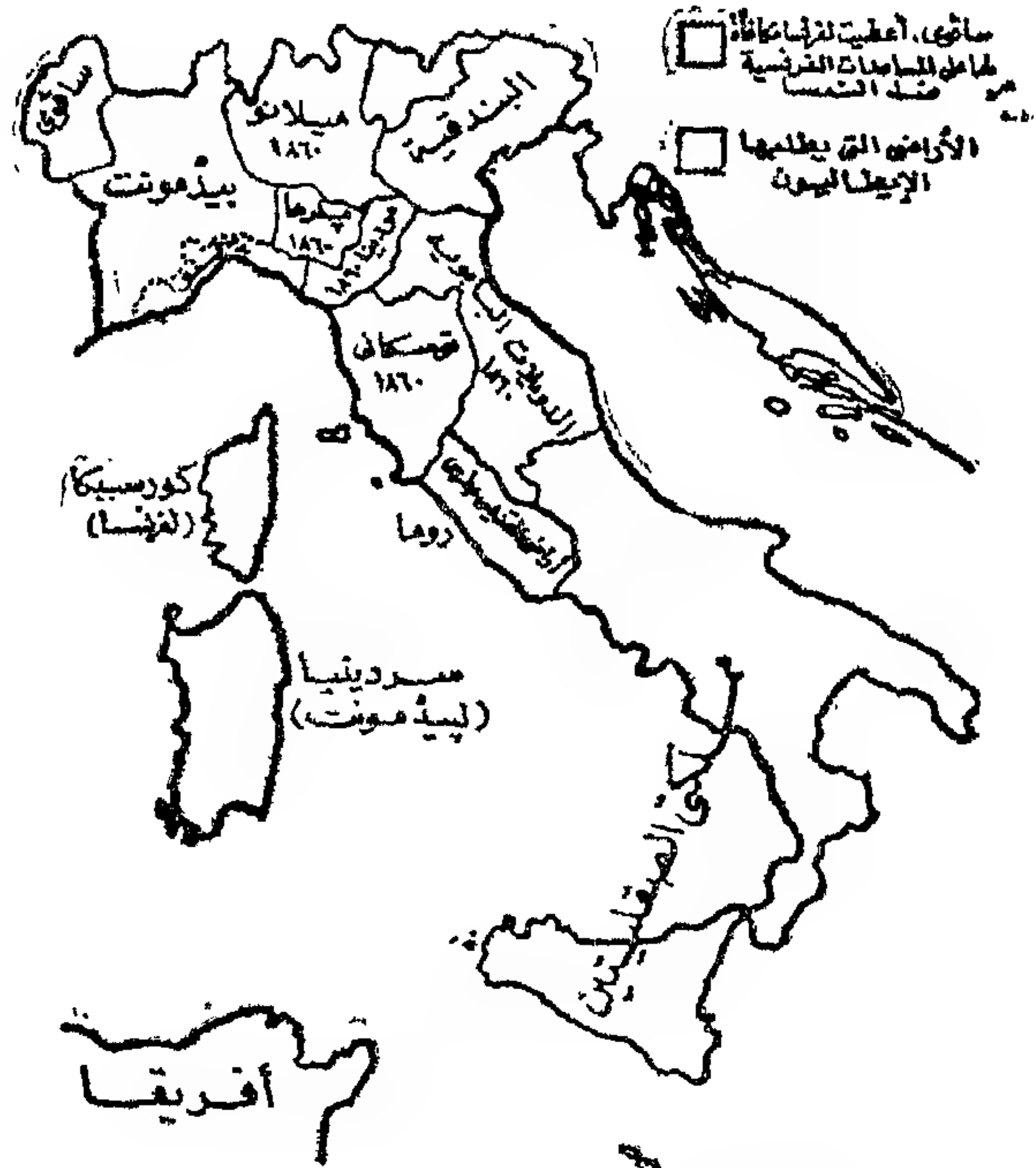


انجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة

(صراع من أجل قارة ١٧٥٥ — ١٧٦٣)

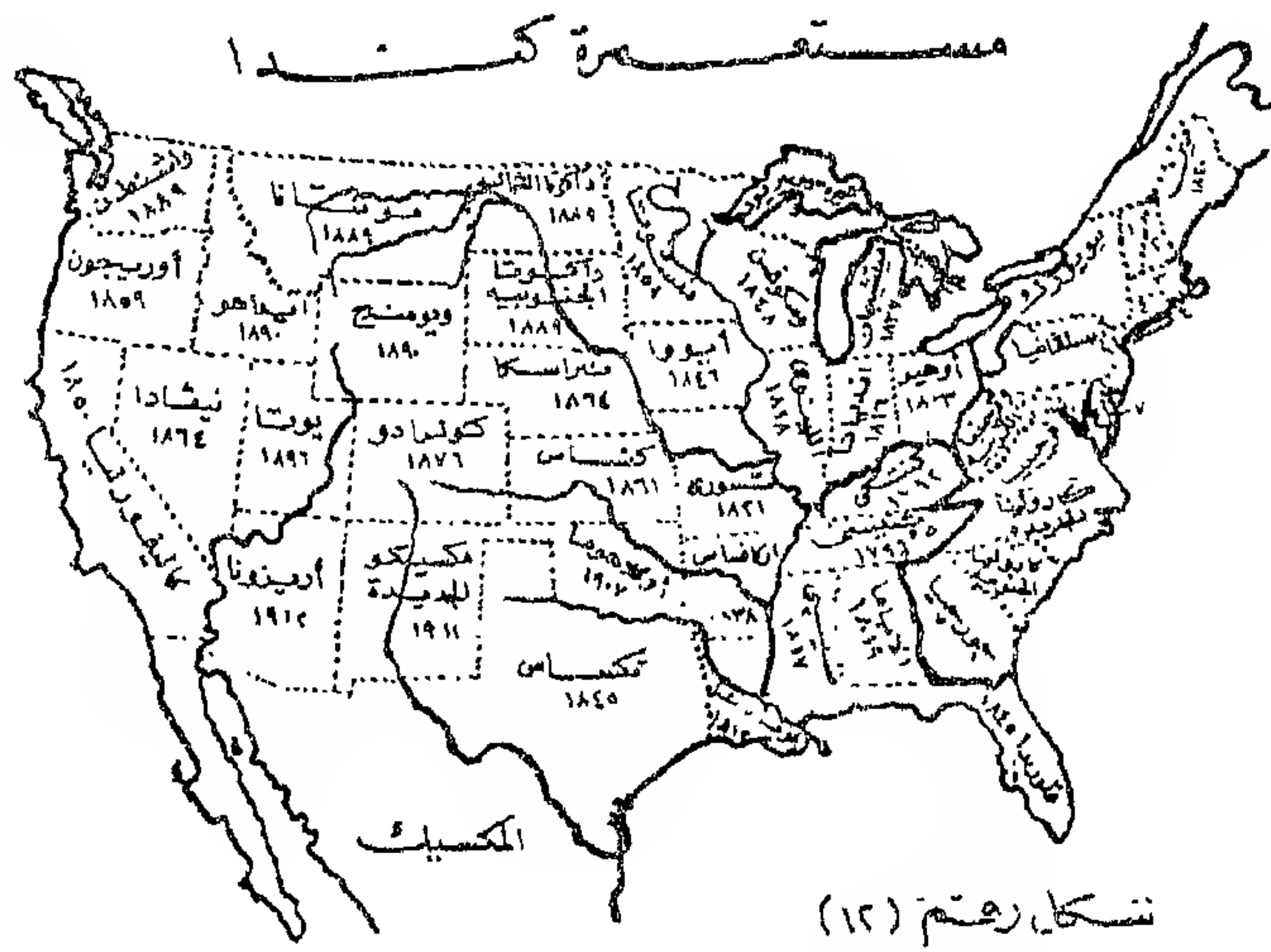


شبح امبراطورية نابليون الحربية على أوربا عام ١٨١٠.



توحيد أيطاليا

(تحت حكم آل سافوى ملوك سردينيا وبيدمونت)



توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب



أ - أشانتى
إ - إيريتريا (ايطالية)
ج - جامبيا
ل - ليبيريا
ص - الصومالى
س.ل - سيراليون
ط - طوجولاند
غ.ب - غينيا البرتغالية
غ.أ - غينيا الأسبانية
أ.ح - أوبانج الحرة
- نياسالاند

شكل رقم (١٣)

الاحتلال الأوربى لافريقيا
(الحال فى عام ١٩١٤)

شكل رقم (١٤)

ممالك ودوقيات امبراطورية آل هابسبورج

(النمسا والمجر عام ١٩١٤)



شكل رقم (١٥)

تفتيت شرق اوربا

(حدود الإمبراطوريات القديمة : ألمانيا ، النمسا ، روسيا ، تركيا)

فهرست

مطبعة الاستقلال الكبرى
[illegible] ت ٤٧٨٣٢

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحاني بالقاهرة ت ٤٧٤٨٦